مناهج البحث
في الدراسات الدينية

أحد فرامرز قراملكي

معهد المعارف الحكمية
(للدراسات الدينية والفلسفية)
THE SAPIENTIAL KNOWLEDGES INSTITUTE
(FOR RELIGIOUS & PHILOSOPHICAL STUDIES)

مكتبة
مؤمن قريش

مناهج البحث

في الدراسات الدينية

عنوان الكتاب باللغة الفارسية:

روش شناسی مطالعات دینی

أحد فرامرز قراملکی

دانشكاه علوم اسلامی رضوي، مشهد، إيران،

1380 (2001 م)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1425هـ - 2004 م

إن الآراء والاتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي معهد المعارف الحكمية وان كانت في سياق اهتماماته المعرفية.

مكتبة مؤمن قريش

moamenquraish.blogspot.com

معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدينية والفلسفية)

بيروت - حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي، ط٢

هاتف:01-544622 ص . ب الشياح 20

E-mail: almaaref@shurouk.org-maahad@shurouk.org

معهد المعارف الحكمية
(للدراسات الدينية والفلسفية)

مناهج البحث في الدراسات الدينية

أحد قراملكي

تعريب: سرمد الطائي

بسم الله الرحمن الرحیم

مقدّمة المعهد

تنطوي كلّ محاولة فكريّة جادّة على إشكاليّاتها المحفزة نحو زيادة الحفر في المضمون، وتوسّع الانتشار في المسائل والقضايا بل وفي اتّجاهات متنوّعة من المعارف والعلوم...

إذ إنّ مثل هذه المحاولات لطالما تكون مليئة بتوثّبات متكافلة من عرض الذات لاستنباش المضامين والفعّاليّة...

عرض الذات على كلّ مضمار وميدان وفرع واتّجاه... لأنّ المحاولة تبقى إرهاصاً احتماليّاً يريد أن يتثبّت من موطنه حتّى إذا ما لامسه تحوّل شعور الغربة إلى نحو من الاستقرار المتّجه للتبيئة والتكيّف...

وهو أمرٌ يتطلّب دوماً الارتكاز إلى الدعائم والقواعد أو إن شئت فقل: هو اتّساعٌ يحتاج إلى انضباط كمقدّمة للتقعيد.

وبهذا المعنى فإنّ المحاولات التي شهدتها ساحة التفكير الدينيّ في إيران من رغبة وعمل جادّ، لقول جديد في المنظور الدينيّ... حملت كلّ مرارات التجربة الحادّة بحلوها ومرّها، بتقدّمها وارتكاساتها، بدهشتها وأسئلتها.. التي ولّدت فيما ولّدت:

أوّلاً: استفادات جديدة لتداعيات التغيّر الذي يقع في الساحة العالميّة – وبشكل سريع وخطير – وتلقي الحضور الإيرانيّ لمثل هذه المستجدّات بطريقة جادّة أحياناً... ولعلّ الجدّيّة هذه تنبع من جدّيّة التفكير لدى العقل الإيرانيّ، من جهة، وإلى الطبيعة المحصورة للبيئة الإيرانيّة، من جهة ثانية، وإلى الانتماء الإسلاميّ الفاعل الذي يحمي كلّ المكوّنات الحضاريّة هناك، ممّا يساوي الضجّة الكبرى أمام مواجهة التحدّيات أو المستجدّات.

ثانياً: طرح لغة مستجدّة تعبيريّة وبيانيّة في الحقل المعرفيّ، خرجت عن سلطة السجال، وسلطة الكلّيّات الناجزة، وراحت باتّجاه صيغة التوصيف والعرض والتفسير الاحتماليّ...

ثالثاً: الانقسام في النماذج المطروحة بين تصنيف ما هو قديم وتقليديّ، وبين ما هو جديد وحداثويّ، دون أن يعني مثل هذا التصنيف خروجاً من دائرة التراث وفعّاليّته، بل وبشكل أوضح دون الخروج من روحيّة النصّ ودلالاته... إذ كان الأصل كيف نستمرّ مع النصّ في حركته؟

رابعاً: تولّد مواقف وتحليلات نظريّة لفروع معرفيّة – دينيّة من مثل علم نفس الدين، وعلم اجتماع الدين، وتاريخ الأديان، ومقارنة الأديان، وفلسفة الدين، لم يكن العقل الإسلاميّ، حتّى ذاك الحين، يوليها اهتماماً تخصيصيّاً، مركّزاً...

خامساً: البحث عن جدوائيّة الأفق الفكريّ والمعرفيّ والمنهجيّ الذي ولّد النتاج العلميّ – الإسلاميّ التراثي... في مستجدّات العصر واحتياجاته وأسئلته وهمومه...

كل هذه التداعيات جعلت الباحث الإسلاميّ يقف أمام مسؤوليّاته الرساليّة والمعرفيّة والتي تريد أن تحفظ القيمة العلميّة لأيّ حركة في الفكر والنظر بنفس المقدار الذي تريد فيه الدخول إلى المناطق المعرفيّة الجديدة... وللاسترشاد كان لا

بدّ من التقعيد، وللتقعيد والاطمئنان كان لا بدّ من معايير في البحث والطرح، وتقديم التصوّرات والأحكام... وهذا كلّه يعني بالضرورة «المنهج»...

من هنا يمكننا القول: إنّ **معهد المعارف الحكميّة** (للدراسات الدينية والفلسفية) ... إذ يصدر ترجمة كتاب الباحث الدكتور أحد قراملكي... فلعلمه بالمضمون العالي وبالفعّاليّة التأسيسيّة التي يحملها هذا الكتاب على مستوى تحديد معايير العمل المنهجيّ وقواعده... كما ولما يمثّل من تتويج لحركة معرفيّة فذّة شهدتها الساحة الإيرانيّة، وذلك عبر تحديد المسارات المنهجيّة للمعارف الدينيّة، واقتراح لمنهج جامع له خصوصيّاته المتقدّمة والكفوءة... ولقد طاب للأستاذ المترجم تسمية هذا المنهج «بينخصّصيّ» ولعلّ ما نقترحه هو تسميته بالـ «عبر مناهجي». إلاّ أنّنا وتقديراً للجهود العلميّة التي بذلها المترجم في صياغة هذا النص الصعب والعلميّ وضبطه... آثرنا على أن نبقي على التسمية التي اقترحها، والتي هي رائجة في كلّ حال وتعبّر عن المطلوب، تاركين للقارئ متعة الاستفادة من كلّ جملة وفقرة وباب ولجه هذا الكتاب الذي يمثّل حاجةً قيّمة لكلّ مؤسّسة بحثيّة أو تعليميّة متخصّصة، كما ولكلّ باحث متخصّص، راجين من المولى العون والتوفيق..

الشيخ شفيق جرادي

رئيس معهد المعارف الحكمية

(للدراسات الدينية والفلسفية)

مقدمة المترجم

لم أكن هنا في صدد الحديث عن طبيعة الكتاب الذي توليت تعريبه أو الكاتب الذي تعاملت مع نصوصه؛ لأن مقدمة المؤلف تولت قسماً من ذلك ويبقى سواه على عاتق ألمعية القارئ. كل ما اعتزمت تسجيله بضعة ملاحظات حول عملي هنا لا فيما يتصل بالترجمة عموماً، وإنما ما فرضته خصوصية الكتاب الحالي. لكنني وجدت أخيراً ان من المفيد تسجيل ملاحظة واحدة سريعة قبل الحديث عن هموم التعريب، وهي تتصل بتحولات الفكر الإسلامي المعاصر وموقع الكتاب من خارطة التحولات تلك.

كنت طيلة الأعوام الماضية،- منشغلاً كما هو الحال مع كثيرين-، في ملاحقة طيف من تحولات ملفتة للنظر لم تفتأ تحرك الفكر الإسلامي المعاصر، وتغير من بعض ملامحه، رغم ما يوجد في المصطلح من مفارقات لسنا في صددها هنا، ورغم ان مساحة التحولات تلك لا تزال محدودة في النطاق الفكري هذا، على نحو لم يتح لها أن تلج بنية الخطاب الإسلامي أو استراتيجيته بشكل واضح بعد. وقد كنت سجلت عدة مستويات من التحول- آمل ان يجري تطويرها في قراءة للفكر

الإسلامي- تستعين بالمناهج الحديثة في التأريخ للأفكار، رغم انني قدَمت سابقاً قراءة أولية غلب عليها الوصف غير الصارم، مع هامش تحليل متحفَظ[1].

ثمة جوانب عديدة لقياس التحول، غير ان النقطة الجوهرية في ذلك،- كما أحسب- تتمثل بمفهوم المعرفة ذاته. على الصعيد المعرفي سادت في الخطاب العربي الإسلامي محددات تقليدية لمفاهيم (الحقيقة والعلم واليقين). وبالطبع فإنها تجاوزت إطارها الابستمولوجي لتلقي بتأثيراتها على نماذج التحليل والتنظير والو لاءات والمواقف. فالحقيقة ليست شيئاً آخر سوى الرؤية التي تحملها الأنا او تحتكرها. ولا يعبر العلم إلا عن عملية كشف صارمة لقوانين أزلية تربط مفردات الواقع. بينما اليقين ظاهرة يفرزها منهج رياضي معصوم، نمتلكه كأداة طيَعة في إنتاج المعرفة.

ولكن نجد ان اتجاه التحولات (كما يحلو لي ان اسميه) راح يدرك مستويات متعدَدة للوعي بالحقيقة، وينفتح على طيف فكري واسع ومتنوع، فلا يهرطق ما لم يألفه من صور الأشياء، كما يذعن بأن العلم لا يمثَل بالضرورة أداة كشف صارمة بقدر ما هو فعل إنساني كثيراً ما يمارس،- ولو بشكل لا شعوري -، منح الانحيازات والميول شكلها المنطقي ليقدمها بصورة نتائج مبرهنة. لا يترشح مفهوم اليقين لدى هذا الاتجاه عن هيكل حديدي من الوثوق لا يقبل الإنخرام، بل يحافظ إزاءه على درجات من وعي الحقيقة، وإدراك تاريخية المعرفة، وهو ما يترك مبرراً لإمكانية المراجعة، والنقد، والحوار، والاختلاف في وجهات النظر. ان النقطة هذه تكتسب موقعها المركزي من عملية التحول، بفضل ما تفتحه من مجالات ظلت حتى عهد قريب منتمية إلى اللامفكر فيه، الأمر الذي يمثل الخيار الأمثل لخروج الفكر الإسلامي مما يسميه البعض بالانسداد المعرفي.

---

[1] - لاحظ تفسيراً مطولاً قدمته لطبيعة التحولات تلك في: الطائي، سرمد. تحولات الفكر الإسلامي المعاصر: المرجعيات، المناهج، أسئلة التجديد. بيروت، دار الهادي، 2003، ص5-13.

هذه هي ملامح مكثفة جداً لطبيعة التحول الجاري في الفكر الإسلامي المعاصر، وهي ملامح وسمات سيلتقي بها القارئ في جولته مع فرامرز قراملكي ضمن الكتاب الحالي، متلمساً نـــزوعه الشديد نحو المفهوم الحديث للمعرفة، ونقده المتواصل لاتجاهات الاختزال، والحصر المنهجي، ومنطق الوثوقيات، إلى درجة تبرر لنا وصف هذه النقاط بأنها فقرة هامة من رسالة الكتاب. ثمة،- طبعاً- طريقة خاصة يعتمدها المؤلف يسعى فيها إلى لون أو مستوى من المصالحة بين الاتجاهين الرئيسين في الفكر الإسلامي المعاصر، وهو ما يتصل بالموقف النظري له.

هذا بشأن الاتجاه العام للكتاب. لكن تفاصيل ما يقدمه قراملكي هنا ترتبط بعملية التحول عبر آصرة أكثر وثاقة. لقد فرضت التحديات التي واجهها الفكر الإسلامي في العصر الحديث ان يعود حديث المنهج إلى أروقته ثانية، بعدما غاب منذ توقف الجدل تقريباً في منطق المعرفة عند إشارات ابن سينا، وشفائه، وبرهانه، وابن خلدون في مقدمته فيما يتعلق بالمنهج التاريخي، أو علم اجتماع الحضارات كما يعرف اليوم. واقتصرت معظم الجهود على الشرح، والتعليق، والتنقيح، وتفكيك الأحاجي المنطقية، والولع بتعداد ضروب الأشكال المنتجة في القياس الأرسطي. نعم عاد حديث المنهج اليوم لا ليستأنف المكرر من الأدوات، بل ليبحث عن جديد يمتلك تأهيلاً للتعاطي مع أسئلة العصر. ورغم اننا لا نكاد نشاهد بلورة إبداعية متماسكة تخطت الاختبار حتى الآن، سوى ما أسعفتنا الجرأة في استعارته من جوانب تم اقتطاعها من المناهج الحديثة. غير اننا نلمح إشارة هنا، ومحاولة هناك ربما ستتمخض عن إسهام منهجي في مجال فلسفة العلم. وتقع محاولة الدكتور قراملكي هنا في السياق هذا بوصفها جانباً من ملامح التحول الفكري الملاحظ.

أكتفي بهذا الوصف السريع للكتاب، لأتحدث عن هموم التعريب. لن أقول جديداً بالطبع لو كررت الحديث عن طبيعة عمل المترجم حين يفكك شيفرة اللغة المصدر، ويعيد تركيبها في ضوء شيفرة اللغة الهدف، لكن المهم هنا ان أشير إلى علامة فارقة في تعريب النصوص الفكرية التي ينتجها العالم الثالث، تميزها عن سواها من جهود التعريب. يشتغل المترجم عن الإنكليزية أو الفرنسية وسوى ذلك من الامتدادات اللاتينية والغربية، على نص عاش لحظة الحداثة، وتفاعل معها بشكل متبادل، وهو يتعامل مع لغات تشترك في مصدرها الاشتقاقي ومزاجها الدلالي، على نحو يوفر تضاريس لغوية متقاربة جداً يتنقل فيها المصطلح بسلاسة كبيرة دون ان يشعر بغربة في اللفظ أو نشاز في لعبة المعنى. فحين يجترح كانط الألماني مصطلحاً، فإنه ينتقل إلى الفلسفة الفرنسية أو الإنجليزية بيسر، بفضل المشتركات الثقافية واللغوية والتاريخية، أعني مواكبة تاريخ الحداثة، بين هذه النطاقات. حتى ان النقل إلى لغة ثالثة سيظل أمراً يسيراً طالما بقيت اللغات الثلاث داخل العائلة الثقافية والتاريخية الواحدة، كما لو ترجم نص ألماني إلى الفرنسية، ومنها إلى الإنكليزية.

لكن الأمر يختلف حين ينتقل المصطلح إلى نطاق قاصٍ لا يشبه لغة المصدر في منظومة اللفظ، ولا فضاء الدلالة، ولا يشاركه مجراه في التاريخ، كما لا يتمتع بما أسهم به النموذج اللغوي الآخر في بناء الفكر الحديث. وإذا كان الأمر كذلك في عملية النقل بين لغتين من هذا النمط، فما بالنا بعملية النقل عن لغة ثالثة في ذلك السياق، كما لو نقلنا مصطلحاً إنكليزياً إلى الفارسية وعمدنا بعد ذلك إلى تعريب المعادل الفارسي . ان هذا الانتقال بين تضاريس لغوية وثقافية متباينة للغاية هو المهمة الوعرة التي يجد المترجم نفسه مضطراً إلى الوفاء بها حين يترجم نصاً فارسياً أو تركياً...الخ، معاصراً إلى العربية المعاصرة أو العكس. لن نواجه هذا كثيراً في تعريب نص فارسي أو تركي...، تاريخي أو سردي أو سياسي، لكننا نتعامل مع

هذه الإشكالية في تلك النصوص التي تتناول موضوعات علمية حديثة جرت معالجتها في الفكر الغربي الحديث، والأعمال التي تستخدم مصطلحاته وتستدعي مقارباته وصياغاته، وكلها استعارات مقتبسة جرت ترجمتها من بعض لهجات اللاتينية. ان هذا لا يقتصر على العمل الاجتراري الذي يردد معطيات العلوم الغربية فحسب، بل هو قدر الأعمال الإبداعية أيضاً؛ لأنها تظل تتحرك في خارطة الفكر الغربي الحديث، أو تتفاعل معها بشكل كبير على الأقل.

تزخر الأعمال الفكرية الفارسية المعاصرة،- طبعاً-، بالمصطلحات والمفاهيم المنقولة عن اللغات الغربية. وتقوم على تركيبتها الخاصة، وبالتالي فإن تعريبها يكون أشبه بعملية النقل إلى لغة ثالثة. وهو موضوع لا يزال مثاراً للجدل بين الخبراء في حقل الترجمة. أما كتاب الدكتور قراملكي فهو معني بأبحاث المنهج، مما يعني انه يستخدم عدة اصطلاحية أوسع، واجهتنا مشاقات كبيرة في العثور على معادلاتها الاصطلاحية في المصدر الأول -الإنكليزية بشكل خاص-3 للتأكد من سلامة التعريب، والتحري عما إذا كان المصطلح معرَباً عن المصدر الأول أم لا. ذلك أن الكثير من المصطلحات المستخدمة في الفكر الإيراني المعاصر، لم تدخل على نطاق واسع ضمن اهتمامات الفكر العربي حتى الآن. كما هو الحال مع حشد من المصطلحات المستخدمة في العربية والتي لم تتداول حتى الآن في الفكر الإيراني المعاصر. لدي ملاحظات عديدة فيما يتصل بذلك لا يتسع المجال لذكرها هنا وأرجو ان أنجح في تسجيلها ضمن دراسة أتولى إعدادها حالياً تتطرق إلى مقارنة بين نقد الفكر الديني في إيران والعالم العربي. غير انني أذكر على عجالة هنا ان الفكر العربي يظل في معظم جهوده الرئيسة متحركاً في النطاق الفرنكفوني، وخاصة مع الأعمال الأكثر أهمية والتي تظهر في بلاد الشام وشمال افريقيا. بينما يقع الفكر الإيراني الحديث في الدائرة الانجلوفونية-الألمانية بالدرجة الأولى؛ وهو ما يعني ان العرب معنيون بشكل رئيس بالاتجاهات الفكرية التي ظهرت في فرنسا منذ

النصف الثاني من القرن العشرين كمدرسة الحوليات الفرنسية، والاتجاهات النقدية التي بلورها رولان بارت، وشتراوس وأركيولوجيا ميشال فوكو وتفكيكية جاك دريدا. بينما يظل الباحث الإيراني يتعامل مع المرجعية الانكليزية في فلسفة العلم، والاتجاهات الألمانية في قراءة النص.

وعلى هذا الأساس، فإن المصطلح الغربي المتداول في الفكر الإيراني، كثيراً ما لا يجد معادلاً عربياً مترجماً، وهكذا فيما يتصل بالمصطلح المتداول في الفكر العربي، وهو الذي لا يعير اهتماماً كافياً للاتجاه النقدي الفرنسي سوى استثناءات قليلة مثل الباحث بابك أحمدي؛ الأمر الذي يعني اضطرار المترجم إلى الاجتهاد في كثير من الأحيان. ناهيك عن تلك المصطلحات الحديثة جداً والتي لم تدخل بوضوح بعد في المعالجات الفكرية في العالم الثالث سواء في العالم العربي أو غيره. ولا شك ان هناك استثناءات في النطاقين الفكريين، حيث نجد على سبيل المثال ان كتاب عادل ضاهر "الأسس الفلسفية للعلمانية" يستخدم عدة معرفية تتطابق إلى حد كبير مع الأدوات التي يبرع الإيرانيون في التعامل معها؛ أعني تأكيده على السؤال الابستمولوجي والمدرسة الانكليزية أو الفكر الألماني في القرن التاسع عشر، حيث تجد في أعمال ضاهر المتعددة حشداً من المصطلحات والمفاهيم والإشكاليات التي لا تعثر عليها بسهولة في الفكر العربي العام وممثليه الأساسيين. بينما نجد ان ذلك المنهج وتلك الموضوعات تعبر عن المرجعيات الأساسية للفكر الإيراني المعاصر. ربما أسعفتنا هذه النقطة في تفسير ما تواجهه أعمال عادل ظاهر من جفوة في العالم العربي، وما تجده من ترحيب نسبي في إيران.

لن أسترسل أكثر في هذا الجانب، لكن ما أود التأكيد عليه هنا انني لا أزعم انني استطعت الوفاء بتلك المهمة الوعرة بالكامل. وحسبي انني بذلت قصارى الجهد بما تتيحه خبرتي المتواضعة وتجربتي المحدودة؛ ولذلك أرجو القارئ ان يتحمل معي هوامش الترجمة التي كدت أثقل بها الكتاب، فقد وجدتها ضرورية لإشراك

القراء معي في عملية الانتقال الدلالي بين تضاريس لغوية وثقافية وعرة متباينة. ومن المهم التنويه إلى أهم المصادر التي استعنت بها في التعامل مع الكم الاصطلاحي الكبير في الكتاب، وأذكر منها على سبيل المثال: قاموس المورد، وموسوعة المورد الحديث لمنير بعلبكي، ومعجم أكسفورد للغة الانكليزية، والمعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة لعبد المنعم الحفني، والإصدار الاخير من دائرة المعارف البريطانية *Encyclopedia Britannica 2002*، ومعجم الفلاسفة لجورج طرابيشي، وأعمال عادل ضاهر وخاصة كتابه"الأسس الفلسفية للعلمانية" الذي تحدثت عنه، وأفدت منه كثيراً، وتعاملت معه بمثابة قاموس تفصيلي لابستمولوجيا العلوم الإنسانية. إضافة إلى عدد من المراجع اللغوية الفارسية-الانكليزية، والانكليزية العربية والفارسية-الفرنسية، وكثير من المصادر الثانوية بالطبع.

وكثيراً ما لم نذكر المصدر التي جرت الاستعانة به في إعداد المعادل العربي، وذلك لتعدد المصادر في معظم الهوامش حيث لم نجد في الغالب معطيات جاهزة بل احتاج الأمر إلى لون من الجمع والتلفيق والاستنتاج بحيث أصبح من غير العملي فرز المعلومات حسب مصادرها. وفيما يتصل بهوامش المؤلف وإحالاته المرجعية، فقد قمنا بتعريب عناوينها فقط فيما أبقينا أجزاء الإحالة الأخرى على حالها كتاريخ نشر الكتاب الذي اعتمد فيه التقويم الفارسي، حيث وجدنا ان ذلك هو الأوفق لمن شاء الرجوع الى المصدر الأصلي.

أود في نهاية المطاف ان أمتن لكل من الأخ **الأستاذ أحمد العبيدي، والصديق الباحث علي الديري، والدكتور حبيب فياض**، إذ لم يبخلوا علي بكل ما يتكون لديهم من ملاحظات حيثما استعنت بهم في معالجة مصطلح هنا، أو بلورة مفهوم هناك مما يتصل بالكتاب الحالي. كما لا يسعني إلا ان أقدر لإدارة معهد المعارف الحكمية(للدراسات الدينية والفلسفية) بيروت، بشخص رئيسه الشيخ شفيق جرادي_، دوره في تبني نفقات هذا العمل تعريباً ونشراً، وثمة أخيراً

عرفاني الذي لا ينقطع لجهود زوجتي تُقى التي ترافقني في كل خطوة من أعمالي والتي لا تتوانى عن نجدتي كلما استعصى علي تركيب سواء في اللغتين الفارسية أم الإنجليزية.

سرمد الطائي

إيران - قم

2003/4/7 م

مقدمة الطبعة العربية

ثمة تنوع شديد في مجالات البحث الديني يقترن بتحول متواصل في شتى ألوان الفكر الديني وفروع الأبحاث الدينية، الأمر الذي أثار العديد من تأملات الدرجة الثانية *second order meditation*. ولدينا مسألتان تكتسب كل منهما أهمية فائقة في هذا السياق، أولاهما الهوية والمنظومة المعرفية لمجالات البحث الديني، والأخرى هي مناهج البحث في الدراسات الدينية. وتتضح الأهمية المنطقية لهاتين المسألتين، عبر اعتماد المعالجة الإبداعية للمسألة *creative problem solving*. وقد تحدثت في كتاب سابق حول المسألة الأولى في " الهندسة المعرفية للكلام الجديد"، وهو كتاب ترجم إلى العربية من قبل كل من السادة حيدر نجف وحسن العمري (صدر عن دار الهادي، بيروت، 1423 هـ).

كما تولى السيد محمد غفوري نجاد التعريف بالكتاب على نحو جيد في مجلة كتاب ماه، أدبيات وفلسفة (العدد 50، 51، 1380 هـ. ش [2001]).

ان الوحدة في الهوية المعرفية والتباين في المنظومة المعرفية والهندسة المعرفية، هما حصيلة مقارنة بين علم الكلام الجديد والقديم، مما يمثل نظرية تحدد العلاقة بين الحقلين بعيداً عن إفراط يلغي التراث أو تفريط يرتهن بالتراث.

أما المسألة الأخرى فهي تتناول منهج البحث في مجال الأبحاث الدينية. ما هي المناهج التي يمكن اعتمادها في البحث الديني؟ وما هي خطوات عملية البحث في ضوء كل من تلك المناهج؟.

ان التأملات المنهجية في حقل البحث الديني تتناول مناهج من قبيل: البحث التجريبي للدين، والبحث التاريخي للأديان، وعلم الأديان المقارن، وظاهريات الدين، والدراسات التحليلية في البحث الديني، والتمييز بين البحث الديني الجوّاني والبحث الديني البّراني[1]، إلى جانب تحديد ماهية هذه المناهج وخطوات عملية البحث فيها، ودراسة خياراتها ومعوقاتها وحالات الخطأ التي تتطرق إليها.

ان التعرَف على الاتجاه البيتخصصي في الأبحاث الدينية، يمثل ضرورة لا يمكن تجاهلها بالنسبة للمراكز البحثية والأكاديمية. وقد خصصّنا الفصل الأخير من الكتاب للحديث عن هذا الاتجاه، والتنويه بجهود صدر المتألهين في الاهتمام بهذا السياق.

لقد طرحت التأملات المنهجية المذكورة، -لأول مرة-، على الباحثين في جامعة علوم إسلامي رضوي في مدينة مشهد، على شكل ورشة تدريبية، ثم نشرت بعد ذلك. وقد حظي مشروع ورشة التدريب بعد صدور الطبعة الفارسية (2002م) بترحيب واسع من قبل مراكز الأبحاث في الحوزة العلمية والجامعات، وقد جرى حتى الآن (محرم 1424-آذار 2003) تنظيم ما يقرب من عشرين ورشة

---

[1] - سيأتي لاحقاً توضيح هذه المصطلحات على نحو دقيق. (المترجم).

تدريب للزملاء الباحثين. كما قدمنا قسماً من هذا العمل صيف 2002 للباحثين في معهد المعارف الحكمية (للدراسات الفلسفية والدينية) ببيروت، بناء على دعوة الأخ **الشيخ شفيق جرادي** الذي تبنّى الموضوع.

أعرب عن امتناني للأخ **سرمد الطائي**، الذي تولى تعريب الكتاب وبذل في ذلك جهداً كبيراً . وأهدي الطبعة العربية هذه إلى الصديق **الدكتور حبيب فياض،** ومن المؤكد ان ظهور الطبعة العربية لكتاب" الهندسة المعرفية للكلام الجديد" والكتاب الحالي، لم يكن ممكناً لولا دعمه وتحفيزه وتحمسه.

والحمد لله رب العالمين .

أحد فرامرز قراملكي

مقدمة المؤلف

شهد حقل الأبحاث الدينية في بلادنا تحولات متباينة منذ مطلع القرن الأخير، وهذه التحولات هي نتيجة للتنمية السياسية من جهة، كما الها قد تأثرت بالتحولات العالمية التي طرأت منذ القرن التاسع عشر من جهة أخرى. ثمة الثورة الصناعية والتطور المتسارع لتقنيات الاتصال ولا سيما ظاهرة العولمة، وهي أمور لم تتولّ إثارة مسائل جديدة بالكامل للباحثين في مجال الإسلاميات وحسب، بل جعلت العقل واللغة في دائرة تلقي الوحي، عرضة للتغيير كذلك. ان التطور الكمي في البرامج التعليمية ومشاريع الأبحاث في مجال الدراسات الدينية، سيؤدي إلى تخطي المسائل والتغاضي عنها بدلاً عن معالجتها، حين يتجرد ذلك التطور عن هاجس تحقيق الجدوى من تلك المشاريع.

نلاحظ ان الحرص على كون البحث الديني مجدياً وعملياً في عصر العولمة، يمثل نموذجاً لقيم نادرة، والخطوة الأولى على هذا الطريق هي إدخال تطوير كمي ونوعي في هذه الأبحاث على مستوى مناهجها وأدواتها. يمكن تطوير الأبحاث الدينية من خلال الاستفادة القصوى من المناهج، والتنوع في اتجاهات البحث ومناهجه،

وتمييز التوظيف الصحيح لها عن التوظيف الخاطئ، إضافة إلى الاستثمار الأمثل للمناهج.

كان الحرص على تجاوز هذه الثغرة في البرامج التعليمية والبحثية، هاجساً تمخض عن التخطيط لورشة تعليمية حملت عنوان (مناهج البحث في الدراسات الدينية) ودفع إلى تنفيذ تلك الخطة. وبدلاً عن التركيز في ورش التدريب هذه، على الأدوات الصلبة[1] في البحث وهو أمر غالباً ما يذكر في المصادر المخصصة لمناهج الأبحاث، فقد جرى تناول الاتجاهات والمناهج على مستوى استراتيجي. وكانت الموضوعات الرئيسية تدور حول بلورة تصور واضح حول البحث واتجاهاته الأساسية، وتكوين رؤية لعملية البحث وتحديد الخطوات العلمية لكل من الاتجاهات والآلية الخاصة بكل من المناهج الرئيسية.

حظيت ورش العمل هذه بترحيب الزملاء وطلبة الدراسات العليا، كما واجهت تشجيعاً من الباحثين الكرام، الأمر الذي أدى إلى تحويل الموضوعات المطروحة هناك إلى كتاب بين يدي القارئ الآن. ورغم اننا حاولنا ان يكون الكتاب على نحو يجعل الطالب مستغنياً عن الأستاذ في دراسته، بيد اننا لاحظنا ان الاستفادة المثلى منه لا تزال تتطلب إشرافاً من قبل الأستاذ.

يتولى الفصل الأول تقديم تصور واضح لماهية البحث ومرتكزاته الأساسية، وتمييز البرنامج البحثي عن البرامج التعليمية والتبشيرية، إلى جانب تمييزه عن الدراسات المبعثرة.

---

[1] - هذا تقسيم شائع في بحوث المنهج، حيث يقال بأن أدوات البحث تنقسم إلى صلبة **hardware** ولينة **software**، أو (سخت افزار) و(نرم افزار) في اللغة الفارسية. وسيشير إليها المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب. كنت أتحرج من استخدام كلمة ناعم أو ليّن مقابل **soft**، وهكذا فيما يتصل بالصلب ومعادلها الانجليزي، لأنها ستكون دلالة ثقيلة على السمع حينئذ فيما لو اتصل الأمر بالبحوث والدراسات! لكن ما شجعني على ذلك هو استخدام د. عادل ضاهر للمعادل ذاته، في كتابه المهم "الأسس الفلسفية للعلمانية"، لندن، دار الساقي، **1998**. (المترجم).

أما موضوع الفصل الثاني فهو ماهية الأبحاث الدينية ونطاقاتها الرئيسة، والقراءتين التقليدية والجديدة للدين. ويستهدف هذان الفصلان بشكل أساسي، تعريف الباحث في هذا الحقل، بحدود تلك الأبحاث ونطاقاتها.

وجرى في الفصل الثالث الحديث عن زيادة جدوى البحث، وأساليب تقييم البحث ومراحله، وتحديد مسؤوليات كل من الإدارة التنفيذية والإدارة العلمية للبحث. ان اتباع القواعد المذكورة في هذا الفصل، يؤدي إلى زيادة جدوى البحث وفائدته.

يؤكد الفصل الرابع على أهمية تمحور البحث حول مسألة، ويميز ذلك عن البحث الدائر حول موضوع أو حالة، فيما يقدم أساليب لمخطط البحث الدائر حول مسألة، ويحدد مواصفات المسألة وأنماطها.

تتوزع الأبحاث الدينية على خمسة سياقات، فثمة التعريف والوصف التفسير الشرعي والتبرير والتفسير[1]. ويتناول الفصل الخامس السياقين الأول والثاني، حيث يجري الحديث عن ماهية التعريف والوصف ومقاربتهما بوضوح، إلى جانب تحديد أقسامهما ومناهجهما وأساليبهما.

أما الفصل السادس فيدور حول سياقي التبرير والتفسير (الماهية، والخطوات، والأساليب والمناهج). كما تضمن الفصل السابع موضوعات تتصل بسياق التفسير الشرعي.

---

[1] - أضطر إلى وضع قيد (الشرعي) أمام التفسير الذي جاء ثالثاً في الترتيب، تمييزاً له عن التفسير بمعنى التعليل والكشف والذي جاء خامساً في الترتيب، والأول يعادل exegesis في الانجليزية، بينما يعادل الثاني explanation. وربما كان من المناسب التعبير عن الثاني بلفظ آخر لتمييز أوضح كما لو قلنا التعليل أو الاستبانة أو (التبيين) والأخير مستخدم في الفارسية، غير ان شيوع التفسير كمعادل للكلمة الانجليزية explanation وباعتبارها مصطلحاً علمياً حديثاً، ألزمنا باعتمادها هنا على ما هو متداول، كما ان التمييز بين الاستخدامين سهل يجري عادة في ضوء قرائن السياق. (المترجم).

يتناول الفصل السابع الاتجاهات والمناهج الرئيسة في البحث الديني، إلى جانب تقسيم الاتجاهات تلك وما يتصل بالمناهج الدينية الجوانية[1] والمناهج التحليلية.

وفي الفصل الثامن حديث حول ماهية الدراسات التاريخية، والتمييز بين تصورين للحدث التاريخي ومقاربتين تقومان عليهما، إلى جانب خطوات البحث التاريخي وأخطاء هذا الاتجاه.

خصصنا الفصل التاسع للدراسات المقارنة ومراحلها، وثمة أساليب مختلفة للانتقال من مساحات الاشتراك والتباين الشكليين، إلى جوانب الوفاق والخلاف الحقيقيين، الأمر الذي يؤمّن أداءً علمياً لهذا النمط من البحث.

واستعرضنا في الفصل العاشر، اتجاه الظاهريات وأهدافه وقيمه، إلى جانب نقد لمجمل ذلك.

توفر الفصل الحادي عشر على دراسة الأبحاث التجربية ومواصفاتها وخطواتها. وقد تكفل الدكتور نيما قرباني كتابة هذا الفصل، وهو من أبرز الباحثين في علم نفس الدين.

تناولنا في الفصل الأخير، الدراسات البينخصصية بوصفها الهدف الأكثر أهمية لكتابنا هذا. لقد ظهر هذا الاتجاه بصياغته الحديثة المتبلورة في العقود الأخيرة، غير انه حظي باهتمام العلماء المسلمين، ونجد نماذج للأساليب البينخصصية في الحكمة المتعالية لصدر المتألهين الشيرازي، وتفسير القرآن للمغفور له مصطفى الخميني.

ان هذا الكتاب يتضمن قسمين متداخلين أحدهما قسم عملي والآخر قسم نظري، فيبدأ كل فصل بمدخل يصوغ مسألة البحث، ثم يطالب القارئ بتدوين

---

[1] - سيأتي لاحقاً توضيح هذه المصطلحات على نحو دقيق. (المترجم).

معالجته للمسألة في جداول محددة، ليقارنها بعد ذلك بالمعالجة التي يطرحها الكتاب.

غالباً ما تكون الخطوة الأولى مترددة، غير ان في وسع الملاحظات البناءة النقدية، ان تمنح الخطوات التالية تماسكاً أكبر. ثمة تشجيع لعب دوراً في ظهور هذا الكتاب، وذلك عبر المواكبة التي حظي بها من قبل الزملاء الأفاضل السادة: حيدري، مرويان، بهادري، رضائي، وميرزائي، ورضواني، فلهم تقديري البالغ.

أحد فرامرز قراملكي

جامعة طهران

الفصل الأول

البحث: الماهية والمرتكزات

مدخل

يتطلب نجاح أي لون من التعامل مع موضوع معين، الإحاطة به أولاً حتى لو كان ذلك على نحو إجمالي. فلو لم يدرك المعلم مثلاً ما هو التعليم وإلى ماذا يهدف، فإنه لن يتمكن من مزاولة هذه المهنة فضلاً عن النجاح فيها.

وقبل أن يكون البحث العلمي بحاجة إلى المناهج والأدوات فإنه يتوقف على ما يمتلكه الباحث من تصور كامل حول مهمة البحث، لأن الباحث سيتعامل مع أدواته ومناهجه في ضوء التصور الذي يحمله عن طبيعة البحث. ولذلك لا بد أن نتساءل في بداية الأمر: ما هو البحث وما هي مقوماته ومرتكزاته؟.

وفي إطار التساؤل حول ماهية البحث، نتولى دراسة الغايات التي يمكن أن تُترقب وتُنتظر من الباحث ومشروع البحث، الأمر الذي يجعلنا نحدد على أساسه الفرق بين البحث العلمي والبرامج التعليمية والدعائية أو التبشيرية. والسر في حاجتنا إلى تعريف البحث، هو ضرورة إعادة تحديد طبيعة المشروع البحثي وتمييزه عن الأمور التي تلابسه. إذ هل تعد كل دراسة بحثاً؟ ما هو الفرق بين البحث والدراسات اليومية المشتتة وذات الطابع الفردي؟ ما هي ميزات المشروع البحثي التي تجعله يتباين مع شتى أنماط الدراسة الأخرى؟ هل يدخل في حقل الأبحاث مجرد جمع المعلومات وتصنيفها؟.

يطلق مصطلح الدراسة على كثير من الأنشطة التي تتباين بدرجات مختلفة، فنجد مثلاً في الاجتماعات واللجان التخصصية كمجلس الإدارة في إحدى الشركات أو مجلس الإدارة في جامعة معينة، أنهم يقولون:"إن الطلب الفلاني بحاجة إلى دراسة" ثم يجري تكليف أحد الأعضاء بتولي مهمة دراسة الطلب المذكور.

ثمة نماذج أخرى لاستخدامات هذا التعبير، من قبيل أن نقوم بدراسة تسبق عملية إعداد مقرر دراسي أو مقرر ثانوي، فنمارس لوناً من الدراسة بهدف إعداد الموضوعات التعليمية. أو أن يعمد عالم إلى مراجعة إحدى الموسوعات استعداداً لكتابة مقالٍ ما، أو عندما يأخذ خطيب في المطالعة كي يعد موضوع محاضرته أو خطابه. لو لاحظنا ما يقوم به عالم يعتزم معالجة عدد من القضايا، فيخطط لدراسة منظمة ويتولى تنفيذها، فإننا نصف هذه الممارسة بأنها نشاط بحثي. نتساءل: على أي أساس نستخدم تعابير البحث والدراسة؟ هل ثمة دلالة واحدة تشمل حالات الاستخدام بأسرها؟ هل نمتلك مبرراً لإطلاق سمة الباحث بسخاء على كل من يمارس لوناً من ألوان الدراسة؟.

لا شك أن البحث يختلف جوهرياً عن النشاط التعليمي أو التبشيري والدعائي مثلاً، سواء في الأهداف والبنية أو المنهج والأدوات. كثيراً ما نلاحظ غياباً للتمييز بين مشروع البحث والبرنامج التعليمي، في عملية تقييم المقالات المقدمة إلى الدوريات العلمية وأيضاً في تقييم رسائل الماجستير والدكتوراه. ويشيع ذلك في مجال الأبحاث الدينية بنحو أكبر مقارنة بالمجالات العلمية الأخرى.

على أساس أي مقياس ومعيار يمكننا القول بأن النص الفلاني تعليمي أو دعائي تبشيري، وأن النص الآخر عمل بحثي؟ من المؤكد أن تحديد طبيعة البحث وماهيته هو الذي يزودنا بمقياس كهذا أياً كان ذلك المقياس.

قبل مواصلة الموضوع، دوّن تصورك حول البحث في الجدول 1-1 بدون ان تلاحظ الصفحات القادمة، ثم قارنه بالجدول 4-1، وذلك لتعزيز المشاركة الفاعلة في موضوعنا هذا.

	مرتكزات البحث
1	
2	
3	
4	

الجدول 1-1: التصور الذي تمتلكه حالياً حول ماهية البحث.

أهمية تحديد المفهوم

ينبغي قبل تعريف البحث وتحديد مفهومه، أن نبين أهمية المنهج بشكل عام وما يلعبه من دور في تحديد المفهوم وتعريفه[1]. يتعامل بعض الباحثين مع التعريف بمنهج مفرط في التشدد، بينما ينهج البعض الآخر طريقاً متساهلة تفرّط في ضوابط ذلك. فالأسلوب الأول يؤكد على أهمية التعريف ودوره كضابطة صارمة ويأخذ في التدقيق وإيراد النقاشات الموسعة خلال تعريف المفاهيم، على نحو يجرد التعريف من طابعه كأداة ووسيلة ويحوله إلى هدف في حد ذاته. إن الإسراف في نقد التعريفات يحول دون تناول الموضوعات والجوانب الأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى فقدان التعريف دوره كإضاءة ومقاربة في سائر الموضوعات.

وفي مقابل ذلك نجد الأسلوب الثاني يتخلص من السيء ليقع فيما هو أسوأ منه، فيتجنب أي شكل للتعريف ولا يولي ذلك أهمية، فيأخذ في تقييم الموضوع وإصدار الأحكام عليه دون بلورة تصور محدد حوله، ومن خلال مفهوم غامض بنحو وآخر، أو على نحو معكوس أحياناً.

---

[1] - راجع لمزيد من التفصيل حول ذلك: الفصل الخامس من الكتاب الحالي.

يتطلب الأسلوب المعتدل أن نولي أهمية للتعريف بوصفه إضاءة في شتى الموضوعات، تتولى تحديد الإطار النظري للبحث، وأن نتجنب النقاشات غير المجدية في نقد التعريفات المطروحة، فنعمد إلى تحليل تصورنا حول الموضوع بهدف العثور على محددات تميزه وتخلصه من الغموض.

وكما تقدم في المدخل السابق فإن معالجتنا لتعريف البحث ومفهومه تهدف إلى تمييزه عما يشاكله أو يشابهه من أمور، ولا نريد بالتمايز هنا تحديد جميع مستويات التباين، بل تحديد جانب من المستويات تلك والعثور على المِستوى الجوهري للتباين بين البحث والدراسات المشتتة الرتيبة، إلى جانب تباين البحث مع البرامج التعليمية والدعائية التبشيرية، وهذا ما يمثل الغاية الرئيسية في حديثنا حول التعريف.

نماذج لتعريفات البحث

أسهب العلماء في حديثهم حول ماهية البحث[1]، ومن المفيد أن نتدبر في النماذج التي قدموها في تعريف ذلك وأن نتساءل عن مدى جدواها في تمييز البحث عن غيره.

يرى البعض أن البحث مجموعة من الخطوات المتخذة تستهدف اكتشاف جانب من سمات العالم الحقيقي[2]. وقالوا كذلك ان البحث نشاط منظم ينتهي إلى

---

[1] - يراجع: سرمد وآخرون. روشهاى تحقيق در علوم رفتارى (مناهج البحث في العلوم السلوكية). طهران، 1378، انتشارات آگه.

[2] - مصدق. مقدمه اى به روش تحقيق (مدخل الى منهج البحث). كرمان، مؤسسه هاى مديريت كرمان، ب. ت. ج1. ص 93.

اكتشاف قضايا معينة، سواء كانت معطياته أسسية *(fundamental)* أو وظيفية *(applied)*، وبكلمة أخرى فهو نشاط منظم مسجل يؤدي إلى الكشف عن الحقائق ومراكمة المعرفة[1].

والبحث في تصور آخرين هو معالجة للظواهر تتميز بالتنظيم وتخضع للسيطرة، كما تتحلى بطابع نقدي تجربي، ويجري التعامل مع مستويات العلاقة المحتملة بين تلك الظواهر في ضوء النظرية والفرضية[2].

يحاول جون ديوي تقديم:"مفهوم عام للبحث يجري تعميمه بالكامل ويمكن تقديمه بنحو منطقي" ويقول: إن البحث عبارة عن فعل خاضع للسيطرة أو موجه، يتولى تحويل موقف مبهم غير محدد إلى موقف يتسم بوضوح وثبات كامل على مستوى خصائصه وعلاقاته، وبنحو يصبح في ظرف تتحول خلاله عناصر الموقف أو الحالة السابقة الأصلية، إلى كلٍّ متوحد[3].

ستة مرتكزات للبحث

لا شك أن ثمة لوناً من المخاطرة في اقتراح تعريف معين ولا سيما في موضوع يمثل هاجساً للعلماء في شتى الاختصاصات والمجالات. غير أن تمييز البحث

---

[1] - سيف نراقى، ونادرى. روشهاى تحقيق در علوم انسانى (مناهج البحث في العلوم الإنسانية). تهران، ناشر مولف، 1359. ص11-12.

[2] - أنفرد كلينجر. مبانى پژوهش در علوم رفتارى (أسس البحث في العلوم السلوكية). ترجمة: حسن باشا شريفى وجعفر نجفى زند. تهران، آواى نور، 1374، ج1، ص31.

[3] - جون ديوي. منطق تئورى تحقيق (المنطق النظري للبحث). ترجمة: علي شريعتمدارى. تهران، دانشگاه تهران، 1369، ص134.

عما يشابهه ويشتبه به من أمور، يتوقف على الإحاطة بالعناصر الرئيسة التي يتكون منها. ويمكننا تعريف البحث كما يلي (لاحظ الجدول 1-2: تعريف البحث) في ضوء ما كان يسميه المناطقة المسلمون بالخاصة المركبة.

في تعريف البحث :
البحث عبارة عن معلومات منظمة، تتصل بنطاق علمي محدد وتمتلك هوية مشتركة، على نحو يتمخض عن إبداع نهاية المطاف .

الجدول **1-2**: تعريف البحث

فالبحث وفق ما ذكر أعلاه هو عملية تبدأ بالمعلومات وتنتهي إلى اكتشاف جديد، بينما يتسم الانتقال من المبدأ إلى المنتهى بخضوعه إلى نظام محدد. (لاحظ الشكل 1-1).

إن ملاحظة البحث بوصفه خطوات عملية، يكتسب أهمية بالغة فيما يتصل باحتياج مراحله وخطواته المتعددة، إلى الأدوات والمناهج، إضافة إلى الإحاطة بالأساليب والمناهج.

الشكل 1-1: عملية البحث

يمكن القول في ضوء التعريف المتقدم بأن البحث يتقوم بستة مرتكزات نتولى إيضاحها فيما يلي على نحو الإيجاز:

1- المعلومات

المعلومات هي نقطة البداية في البحث ومادته الأولية التي يصبح بدونها عملاً بلا جدوى. ويلعب نوع المعلومات دوراً مهماً في تشكيل نتائج البحث كما أن المعلومات الهزيلة تؤدي إلى عقم في نتائجه، بينما تكون المعلومات الرصينة الواسعة سبباً في إنتاج بحث مفيد وهي عنصر يحدد حجم فائدة البحث وجدواه. ويتطلب نجاح مشروع البحث وصولاً إلى المعلومات وتفنناً في انتقاء ما هو ضروري، مما يمثل واحداً من شروط البحث الناجح (لا شرطه الوحيد). إن أهم نقطة فيما يتصل بالمعلومات هي كونها مناسبة للبحث، ويجدر الانتباه إلى الملاحظات التالية والاستعانة بها في انتقاء المعلومات المناسبة.

أ: معلومات، لا معطيات

ينطلق البحث من المعلومات التي جرى تحليلها ومعالجتها *informations* دون المعطيات أو البيانات الخام *data*. وثمة تأثير كبير يتركه انتقالنا من المعطيات إلى المعلومات، على جدوى البحث وفاعليته. ويدلل هذا التفاوت على أن جمع المعلومات لا يمثل عملية ميكانيكية سهلة، بل هو أمر يتطلب متابعة ممنهجة وأدوات خاصة تتيح للباحث الوصول إلى المعطيات وتحويلها إلى معلومات.

ب: المعلومات ذات الصلة بالموضوع

سيضطرب برنامج البحث ويختل حين يتضمن معلومات لا صلة لها بالموضوع أو تتصل به على نحو ثانوي، إضافة إلى أن غياب المعلومات ذات الصلة

الوثيقة بفرضية البحث يتسبب في تقليص جدوى البحث إلى حد كبير[1]. ومن الأخطاء الرئيسة في منهج البحث اللجوء إلى طرح موضوعات لا تربطها آصرة وثيقة بالمحور الأساسي أو تلك التي يتظاهر الباحث بأنها ذات صلة بموضوعه، مما يكون في الغالب بدافع تضخيم حجم البحث وحشد أكبر عدد ممكن من المصادر والمراجع في إطاره. لنفترض على سبيل المثال أن طالباً يفكر بالحجم الذي لا بد أن تكون عليه رسالته، فيأخذ في اللجوء إلى طرح مختلف الموضوعات والخوض في شتى النقاشات بذرائع متنوعة، ولنا أن نتصور حينئذ حالة الفوضى والحيرة والأخطاء التي سيعانيها البحث في سياق معالجة المعلومات.

إن تحديد حجم صلة المعلومات بمحور البحث، بحاجة إلى وجود خبرة وتراكم في المعلومات إلى جانب تعامل الباحث مع فروع علمية متعددة في إطار الدراسات "البيتخصصية"[2]، وقدرته على التفكير المنهجي داخل منظومة متسقة. الأمر الذي يعني أن انتقاء المعلومات خاضع لعقلية الباحث، فالمعلومات التي تبدو لدى أحد الباحثين متناسقة وذات صلة بالموضوع على نحو يدفعه إلى تسجيلها واستخدامها، ربما كانت هي نفسها في تصور باحث آخر، معطيات لا صلة لها بالبحث حيث يعمد إلى إهمالها. نجد مثلاً أن المعلومات التي تضمنتها دراسة قاسم غني حول حافظ الشيرازي، تتباين للغاية مع تلك التي يتعامل معها غيره من دارسي

---

[1] - لمزيد من التفصيل لاحظ: الكتاب الحالي، الفصل الثالث.

[2] - يستخدم المؤلف تعبير (ميان رشته اى) كمعادل فارسي للمصطلح الانجليزي *Interdisciplinary* وهو وصف لمنهج في البحث او لنوع من الدراسات. ويستخدم بعض الأكاديميين تعبير (بينية التخصصات) في الدلالة على ذلك. وهذا نظير كلمة ***Multi disciplinary*** متعدد التخصص. يقال مثلاً ان الجامعة الكذائية تتميز بتعدد التخصصات. ولعل من المناسب هنا اجتراح مصطلح (بيتخصصي) على غرار ***Intersubjective*** التي تترجم إلى بيذاتي، وهكذا (بينصّي) وسواها. (المترجم).

حافظ الشيرازي[1].

سيكون الباحث أوفر حظاً في جمع المعلومات وتحديد مدى صلتها بموضوعه، كلما كانت أفكاره أكثر تعقيداً وأغزر على مستوى معلوماته المتنوعة. إن البحث لا بد أن يكون مسبوقاً بالتعلم ويكتسب الباحث خبرات كهذه خلال ما يتلقى من تعليم.

جـ: معلومات كافية ومتكاملة

لا يمكن أن نمارس التحليل أو نتولى معالجة الموضوعات متجاهلين حجم المعلومات المتوافرة لدينا، بل لا بد أن تتوفر لدينا معلومات وافية ومتكاملة. إن من أهم أسباب الفشل في مشروع البحث هو الاكتفاء بتلك المعلومات التي يمكن الوصول إليها بسهولة والميل إلى الاقتناع بالحد الأدنى في جمع المعلومات. وتؤدي الرؤية التبسيطية والميل إلى تجنب المشاق والحرص على سرعة العمل، إلى الحؤول دون بذل الباحث جهداً واسعاً في جمع الحد الأقصى من المعلومات، ويدفعه ذلك إلى إصدار تعميمات غير مبررة واستنتاج معطيات كلية عبر مقدمات هزيلة ومعلومات ناقصة.

يتصل تكامل المعلومات وكفايتها بمحور البحث والفرضية التي يقوم عليها، فعلى سبيل المثال يقول أحد الباحثين في حديثه عن الفارق بين علم الكلام التقليدي وعلم الكلام الجديد:"إن علم الكلام التقليدي يقتصر على تناول القضايا الدينية المهمة التي تحكي الواقع. أما الكلام الجديد فهو يهتم بشتى القضايا الدينية". من الواضح هنا ان الحكم الذي يصدره الباحث خاضع للمعلومات الناقصة التي

[1] - شمس الدين حافظ (1325- 1390): شاعر فارسي. يعتبر أشهر شعراء الفرس الغنائيين. ولد في شيراز (ولذلك عرف بحافظ الشيرازي) وعاش معظم سني حياته فيها، ترجمت آثاره إلى كثير من اللغات العالمية. (المترجم).

توافرت لديه واضطرته إلى ملاحظة مجموعة محددة من الأعمال الكلامية فقط وهي تلك الأعمال الشيعية التي دونت في القرن السابع الهجري وحسب.

لو توافر المزيد من المعلومات لدى الباحث لأدرك مثلاً أن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان من المقولات المهمة عند المعتزلة والإمامية في حقبة من تاريخ علم الكلام[1]، رغم انه ليس من القضايا الدينية التي تحكي الواقع.

وحين يأخذ الباحث بدراسة إبداعات صدر المتألهين، فإن المعلومات التي يحتاجها تمثل دائرة واسعة، لأن إصدار أحكام فيما يتعلق بذلك سيكون تبسيطاً ساذجاً لو لم يقم الباحث باستقصاء الفكر الفلسفي قبل صدر المتألهين (المتوفى عام 1051)، وسيغدو الباحث كحاطب ليل.

إن الجهل بالقدر الكافي من المعلومات، يؤدي احياناً إلى دخول موضوعات لا يمكن تناولها عبر جهد شخصي، في رسائل الماجستير والدكتوراه ومختلف مشاريع البحث، الأمر الذي يؤدي إلى إخفاق البحث وعقمه. بينما نجد أن الحرص على ان تكون المعلومات بالقدر الوافي سيجنب البحث الوقوع في التسطيح والتبسيط ويتفادى صدور أحكام متعسفة تنشأ عن عدم الاطلاع.

وفي نموذج آخر نلاحظ أن بعض الباحثين يرى أن العلماء المسلمين ومنذ تُرجمت أعمال أرسطو حتى اليوم، لم يستوعبوا المفاهيم اللامحصلة بشكل صحيح. غير أن هذا الباحث اقتصر في تتبعه على الآراء التي كان يتيسر له الإطلاع عليها دون عناء، بينما لا يمكن ممارسة القراءة والتحليل في موضوع كهذا إلا من خلال جمع معلومات واسعة للغاية ومتابعة الكتب المخطوطة التي لم تطبع بعد. لقد بادر

---

[1] – لمزيد من الاطلاع فيما يتصل بهذا النموذج لاحظ: قراملكي: أحد فرامرز. هندسه معرفتى كلام جديد (الهندسة المعرفية لعلم الكلام الجديد) طهران، مؤسسه فرهنگي دانش وأنديشه معاصر، 1378، ص129–133.

الباحث المذكور إلى إعادة النظر في عمله وتلافي النقص في معلومات بحثه، بعد الملاحظة التي سجلها كاتب السطور[1].

د: صدق المعلومات

يمثل صدق المعلومات واحداً من معايير عملية انتقاء المعلومة وفرزها. إذ أن المعلومات الخاطئة التي لا تمثل سوى تخميناً جزافياً، تؤدي إلى عقم البحث. وقد أثير هذا الموضوع في إطار التمييز بين المعلومات والبيانات الخام التي لم تخضع إلى عملية فرز. ونتولى تفصيلها فيما يلي تنبيهاً على حجم أهميتها.

لا بد للباحث أن يختبر درجة الصدق في المعلومات بواسطة الأدوات المتعارف عليها في مجاله. وحيث ان النتيجة تتبع (أخسّ) المقدمات، فإن وجود مقدمة كاذبة أو مقدمة لم يتأكد صدقها، يؤدي إلى الشك في نتيجة الدليل.

يمكن طبعاً من وجهة نظر المناطقة، أن تظهر في عملية التفكير نتيجة صادقة من مقدمات كاذبة على نحو الصدفة. ولكن نلاحظ أولاً أن كذب المقدمات في النماذج التي جرى تناولها تفصيلياً في كتب المنطق، يؤدي حتماً إلى كذب النتائج[2]، ونجد ثانياً أن صدق المقدمات هو المقياس الذي يتاح للبحث المنظم على ضوئه، أن يكتسب مواصفات الجهد العلمي.

ويرى الحكماء في هذا السياق، على مستوى المبدأ لا المستوى العملي طبعاً، أن صدق المقدمات يتمتع بطابع الضرورة. حيث يسمى الاعتقاد الذي هو صادق فقط، بالقول الجازم أو الاعتقاد *(believe)*. أما الصدق الضروري فهو

---

[1] - راجع: قراملكي، أحد فرامرز. مفاهيم غير محصل ومنطق ماهيات: تأملي در مقاله قضيه معدوله ومحصله. مجلة مقالات وبررسيها. ع62، 1376. ص161-171. وكذلك: تبكيت بيروني آفت گفتگوي اثر بخش. (الإفحام من خارج الدائرة يقوض الحوار المثمر). مقالات وبررسيها، ع68، 1379، ص323-327.

[2] - الحلي، العلامة الحسن بن المطهر. الجوهر النضيد. قم، انتشارات بيدار. 1363، ص180.

اعتقاد صادق ثابت مطابق للواقع ويسمى علماً *(knowledge)*[1]. ويؤكد الفلاسفة أهم يريدون بصدق المقدمات في البحث الفلسفي، الصدق الضروري والتصديق العلمي، وبالتالي فإن البرهان هو المنهج الوحيد في أبحاث الفلسفة، وهم يميزون بين البرهان والجدل والخطابة وسائر الصناعات الأخرى في المنطق.

هـ: الدقة في المعلومات

إلى جانب صدق المقدمات لا بد من توافر الدقة فيها كذلك كشرط في تحقق جدوى البحث. غالباً ما يكون صدق المعلومة هو النقطة المهمة في لغة التفاهم العرفي، أما في اللغة العلمية فإن دقة المعلومات تلعب دوراً أساسياً. إن قولنا :"تبلغ المسافة بين مدينتي طهران وتبريز 600 كم" لن يصلح للدخول بوصفه معلومة في بحث علمي، رغم إننا نتقبل ذلك ونكتفي به في لغة العرف. ويؤدي غياب الدقة أحياناً إلى تجريد المعلومة من صدقها، ومن أهم الأمثلة على هذا، ذلك الخطأ الذي يدعى عند علماء المنطق المسلمين بـــ "مغالطة سوء اعتبار الحمل".

حين نلاحظ مثلاً قولهم :"أن أبا الحسن العامري هو أول فيلسوف تناول موضوع اتحاد العاقل والمعقول"، نجد انه تعبير غير دقيق وغير صادق، يعكس حقيقة صحيحة هي :" أن أبا الحسن العامري هو أول فيلسوف مسلم تناول في كتبه موضوع اتحاد العاقل والمعقول". وينتج غياب الدقة عن التعميم في القول وتجاهل القيود التي تتضمنها أجزاء النص.

[1] - ابن سينا. الاشارات والتنبيهات. (مع شرح المحقق الطوسي). تهران، انتشارات آرمان. 1403هـ. ج1، ص 13. وسنشير الى هذا المصدر في الإحالات القادمة ب"الطوسي، شرح الإشارات".

و: الوضوح والتحديد في المعلومات

تتطلب دقة النص تجريد معلومات البحث عن أي لون من الغموض. وسواء كان الغموض على مستوى المفهوم والذهن أم المصداق والواقع، فإنه يحول دون أن تلعب المعلومات دورها المفترض.

يمكن أن تعاني معلومات البحث غموضاً بأنماط ثلاثة، فثّمة الغموض في اللغة، والغموض في الدلالة، والغموض في المصداق. يتصل الأول باللغة ومفرداتها، والثاني بالذهن والتصورات، أما القسم الثالث فهو ذو صلة بالمصاديق والواقع الموضوعي.

والغموض على مستوى اللغة يعود إلى وعورة في النص ووجود ألفاظ وعبارات متعددة المعنى[1]، من قبيل كلمة (شير) في الفارسية[2]. وهذا اللون من الغموض يدعى الاشتراك اللفظي، أما في العبارات والجمل فهو ما يعرف بـــ (المماراة).

هنالك ثلاثة مستويات للاشتراك اللفظي:

أولاً: المستوى الواضح من الاشتراك اللفظي، وهو ما ينشأ عن ازدواج في أساس الدلالة اللفظية وبنيتها أو في صيغتها الصرفية. وغالباً ما يكون هذا اللون من الاشتراك واضحاً لا يتسبب في تشويه الدلالة أو تشتتها[3].

---

[1] - للاطلاع على نماذج من الغموض الدلالي والاستخدامات المزدوجة يراجع: خرمشاهي، بهاء الدين. سير بي سلوك (سير دون سلوك). طهران، انتشارات معين، 1370، ص455-511.

[2] تدل كلمة (شير) في الفارسية على الأسد والحليب وصنبور الماء...الخ.

[3] - يورد المؤلف عدة امثلة على هذا المستوى من الاشتراك اللفظي، وحيث انها امثلة من اللغة الفارسية فإن ترجمتها لن تحقق الهدف المطلوب من المثال. ثمة الكثير من الأمثلة على ذلك في اللغة العربية نظير استخدامات كلمة العين وغيرها من المشتركات الكثيرة، وأحجم عن إيراد تلك الأمثلة لوضوحها. (المترجم).

ثانياً: مستوى الاشتراك الخفي في اللفظ، مما يعود إلى استخدام مفردةٍ ما على أنحاء مختلفة في حقول علمية متنوعة. يمكن أن تكون هنالك كلمة لا تنطوي على غموض في بنائها اللغوي، غير أن العلماء يستخدمونها في مجالات مختلفة لدلالات متعددة، من قبيل مفردة "الحد" التي لا تنطق بدلالة واحدة في الجغرافيا والفقه والرياضيات والمنطق. يمكن إلى حدٍ ما، الانتباه إلى هذا النمط من الاشتراك اللفظي وتجنب الخلط بين دلالاته، فلو قيلَ مثلاً :"أن للإنسان حداً، وكل ما له حد فهو خطيئة، فالإنسان خطيئة". سندرك بقليل من التدبر الدلالة المزدوجة لمفردة الحد، حيث استخدمت في الشطر الأول للدلالة على أحد أنواع التعريف المنطقي فالحد هناك في مقابل الرسم. بينما قصد بالحد في الشطر الثاني العقوبة الشرعية كمصطلح في الفقه مقابل التعزير، الأمر الذي أدى إلى عدم تكرر الحد الأوسط في الدليل.

ثالثاً: المستوى الأكثر خفاءً في الاشتراك اللفظي، وهو أن تكتسب المفردة معاني متباينة في حقل علمي واحد. والمثال الأبرز على ذلك مصطلح "الذاتي" في الأعمال الفلسفية، حيث حاول معظم علماء المنطق تحديد استخداماته المتنوعة، منذ كتاب "الملخص" للفخر الرازي حتى اليوم[1].

رغم كل هذا الحرص على تحديد دلالة الكلمة المذكورة وما حظيت به من اهتمام تاريخي، نجد المحقق الشهير الشريف الجرجاني (740-816 هـ) وهو الموصوف بالدقة في النظر، يقع في فخ هذا المصطلح في إطار الرد على نظرية القبح والحسن الذاتيين، وحيث انه لم يتنبه إلى ما تنطوي عليه دلالة المصطلح هذا من

---

[1] - قراملكي، أحد فرامرز. موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية. مجلة مقالات وبررسيها، ع53-54. 1371-1372. ص141-142، وص123-158.

غموض، فإنه لم يجد خللاً أو ثغرة في الدليل التالي:

الدليل رقم (1):

صغرى للدليل: الحسن والقبح مما يقع فيه الخلاف.

كبرى للدليل: والذاتي لا يقع فيه خلاف.

النتيجة: إن الحسن والقبح ليسا بذاتيين.

وهذا الدليل للقاضي عضد الدين الإيجي (المتوفى عام 756 هـ)[1]، وقد قرره الجرجاني دون أي تدقيق أو نقد[2]. والخلل في هذا الدليل هو عدم تكرر الحد الأكبر بمعنى واحد في الكبرى والنتيجة، الأمر الذي يعود إلى غياب الدقة في المعلومات وعدم كونها مناسبة للموضوع. إن الدقة تتطلب أن نتجنب في دليل كهذا، استخدام عبارة "الذاتي لا يقع فيه خلاف".

نلاحظ أن الكتب الدراسية في المنطق تورد فيما يتصل بموضوع الاشتراك اللفظي، أمثلة من المستوى الواضح للاشتراك، وهو ما أدى إلى تصور البعض أن قليلاً من التدبر سيكون كافياً لتحديد الاشتراك وتفادي الخطأ. بينما ندرك عبر مراجعة تاريخ الأفكار في مجالات الفلسفة وعلم الكلام والعلوم الاجتماعية...الخ، أن ثمة نماذج مهمة من أفخاخ الاشتراك اللفظي التي وقع فيها أبرز العلماء.

يتطلب تفادي ذلك دقة بالغة متواصلة، على نحو يتيح للمرء أن يتوغل في ما وراء الكلمة الواحدة واللفظ المشترك المؤدي إلى الخطأ، ليهتم بتفاوت المفاهيم واختلاف الأشياء.

---

[1] - الإيجي، القاضي عضد الدين. المواقف. بيروت، عالم الكتب، ب. ت. ص325.

[2] - الجرجاني، مير سيد شريف. شرح المواقف. مصر، مطبعة السعادة، 1325 هـ. ج8. ص188-189.

والمثال الآخر في موضوعنا هو دليل الفلاسفة المعروف على قاعدة :"إن كل حادث مسبوق بمادة ومدة" حيث غالباً ما يستدلون عليها بالشكل التالي[1]:

الدليل رقم (2):

المقدمة الأولى: إن الحادث هو ممكن الوجود قبل وجوده، لأنه لا يمكن أن يكون واجباً أو ممتنعاً.

المقدمة الثانية: والإمكان أمر موضوعي واقعي لأنه قابل للشدة والضعف.

المقدمة الثالثة: الإمكان عرض لا جوهر.

النتيجة: لا بد أن يكون ثمة جوهر يتقوم به الإمكان، وهو المادة.

وكما نبه بعض الباحثين فإن الحد الأوسط لم يتكرر في هذا الاستدلال على نحو دقيق، لأن الإمكان في المقدمة الأولى قصد به الإمكان الذاتي وهو أمر اعتباري انتزاعي يستخدم في مقابل الوجوب والامتناع. بينما أُريد بالإمكان في المقدمة الثانية الإمكان الاستعدادي[2]. وفي ضوء ذلك تتطلب الدقة أن لا نستخدم المقدمة الأولى في هذا الدليل.

إن المستويات الثلاثة للاشتراك اللفظي (الواضح، والخفي، والأكثر خفاءً) تتصل بالغموض في إطار اللغة والألفاظ، غير أن ثمة مستوى أبعد من ذلك يتصل بالمفاهيم والتصورات الذهنية. حيث ان هنالك العديد من المفاهيم التي تدخل في

---

[1] - ذكر هذا الدليل كثير من الفلاسفة، لاحظ: ابن سينا، الشفاء، قسم الإلهيات، مراجعة وتقديم ابراهيم مدكور. القاهرة 1380هـ ص177. وكذلك بهمنيار ابن المرزبان، التحصيل، تصحيح وتعليق مرتضى مطهري. طهران، دانشكده إلهيات ومعارف اسلامي، 1349. ص443-447. اضافة الى: صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الاسفار الاربعة. بيروت، 1981، ج1، ص135.

[2] - اليزدي، محمد تقي مصباح. تعليقة على نهاية الحكمة. قم ، مؤسسة في طريق الحق. 1405هـ. ص284.

البحث بكل ما تتضمن من غموض وعدم تحديد يميزها عن سواها من المفاهيم. وحينئذ لن تكون النتيجة سوى ذلك الغموض. إن الغموض في المفهوم هو تلك القضية التي نعتبر ديكارت (1596-1650) رائداً في مواجهتها.

أما النمط الثالث من الغموض فهو يتصل بالواقع الموضوعي، وهو ما يقع من خلط بين مصاديق المفهوم الواحد. إذ نجد في بعض الأحيان أن اللفظ واضح لا غموض فيه، كما أن المفهوم محدد، غير أن ثمة غموضاً في تحديد المصداق، أي أننا نخفق في تمييز مصاديق ذلك المفهوم عن سواها. يعتقد علماء المنطق مثلاً أن مفهوم الخبر يتسم بالوضوح، غير أننا غالباً ما نخفق على مستوى المصداق، في التمييز بين عبارات الخبر والإنشاء.

وهكذا فإننا غالباً ما نواجه خلال انتقائنا لمعلومات البحث، ثلاثة أنواع من الغموض، وتتطلب معالجة كل من هذه الأنواع أداة خاصة.

فشرح الاسم أو السؤال عن معنى اللفظ *(meaning)* يكفل لنا تخطي الغموض اللغوي والاشتراك اللفظي. كما أن التعريف *(definition)* يعالج الغموض على المستوى المفهومي التصوري، بينما يعمل كل من تحليل المفهوم *(conceptual analysis)* وتحليل القضية *(propotional analysis)* على معالجة الغموض في مستوى اللغة ومستوى المفهوم معاً. أما معيار التمييز *(criteria)* فهو يعالج الغموض في مستوى المصداق.

ز: معلومات حديثة

يتسم العلم بأنه كينونة تدريجية، وتظهر كل يوم فكرة جديدة ومنهج مستحدث وقضايا تطرح لأول مرة. ليس في وسع الباحث أن يقتصر على المعلومات القديمة فهي احياناً تصبح بلا قيمة، كما أن المعلومة الجديدة في بعض الحالات تضفي دقة أكبر على المعلومة السابقة. واليوم يواجهنا ذلك أكثر من أي أمر آخر، في أبحاث علم الكلام، إذ أن المعلومات التي يوفرها علم الكلام التقليدي

لم تعد كافية رغم أهميتها، ذلك انه لا يمكن للمرء تحقيق شيء دون الإحاطة بالجديد من القضايا والأسس. إن الثغرة الأكثر أهمية اليوم في أبحاث علم الأخلاق (لا فلسفة الأخلاق) تتمثل بغياب المعلومات الحديثة فيما يتصل بالمهن والأعمال، الأمر الذي يفسر عدم توفر أبحاث تستحق الطرح في مجال الأخلاق المهنية *(Professional Ethics)* على نحو يناسب مجتمعنا.

ح: معلومات موثقة

يشترط في انتقاء المعلومات واستخدامها في البحث، أن تتمتع بقيمة توثيقية تدعمها، حيث أن تجاهل هذا الجانب يؤدي إلى تسرب معلومات خاطئة وناقصة لا قيمة لها، إلى البحث، وهو ما يتسبب بالتالي في عقم البحث. وهكذا فإن من مسؤوليات الباحث الرئيسية الوصول إلى المصدر الأصلي للمعلومة ونقد الوثائق التي تدعمها.

":إن الخطوة الأولى في البحث الموضوعي هي النظر في المصادر والرجوع إلى سائر المواطن التي يحتمل أنها تناولت ما يدور حوله البحث من موضوعات. لأن البحث لون من الدليل المنطقي وكلما استعان الباحث بمراجع أكثر، كلما كانت حجته أقوى واستقراؤه أكمل. بيد أن البحث في المصادر يتطلب دقة وسعة صدر، وكثيراً ما عانى كبار الباحثين الأمرّين في محاولة للعثور على كتاب نادر، يحدوهم إلى ذلك ولعهم بالبحث. تحمل أبو ريحان البيروني (326-440) المشاق أربعين عاماً بحثاً عن كتاب ماني "سفر الأسفار" حتى عثر عليه، كما بذل حنين بن إسحاق (194-263) جهوداً كبيرة في سبيل الحصول على بعض كتب جالينوس[1].

---

[1] - زرين كوب، عبد الحسين. يادداشتها و انديشه ها (ملاحظات وأفكار). طهران، انتشارات اساطير، 1371، ص14.

ليس العنصر الكمي أو العددي مقياساً في العودة إلى المراجع والاهتمام بالوثائق العلمية، بل يتمثل المعيار الأكثر أهمية بتوفر عنصري"الأصالة" في المراجع و"الأمانة" في النقل. حيث لا ينبغي للباحث أن يسيء استخدام مصادره ووثائقه ولا يحق له أن يلفق من خلالها إشكالية زائفة، على حد تعبير المرحوم زرين كوب[1].

يؤدي استيعاب أهمية الوثائق في عملية البحث، إلى تفادي صدور أحكام متعسفة تنشأ عن عدم الإطلاع، حيث سيتخلى الباحث عن جرأته وتساهله حين يدرك حجم الوثائق والمخطوطات التي عليه أن يعود إليها حين يكون في صدد التدليل على إبداع العلامة الطباطبائي مثلاً في موضوع فلسفي معين. كما نجد شخصاً مهووساً بالبحث في أعمال شيخ الإشراق ومدى تأثره بأفلاطون مع انه لا يتقن اللغات الأجنبية، وهذا في حقيقة الأمر لم يستوعب أهمية الوثائق العلمية في إعداد البحث. إن عناوين الأبحاث قد تشي بهذا النقص على نحو واضح احياناً، من قبيل موضوع اقترحه بعض الدارسين لرسالة ماجستير ينوي إعدادها حيث اختار لها عنوان "الجوهر والعرض عند الشرقيين والغربيين".

تتمثل المرحلة الأكثر صعوبة في البحث، بجمع ما يتطلبه من الوثائق والمراجع الأصلية المعتد بها على نحو كاف، الأمر الذي يمكن أن لا يتاح للبحث نتيجة للتساهل والحرص على السرعة والميل إلى تجنب المشاق والتعويل أكثر مما ينبغي على الذاكرة إضافة إلى عدم تلقي الباحث لتعليم يسبق مزاولته للبحث. إن التسرع هو الخطأ الذي يقع فيه الباحثون الشباب، كما أن الباحث المحترف بالطبع ربما فقد رصانته العلمية وسمعته بسبب وقوعه في خطأ لا يغتفر. ومن جهة أخرى

---

[1] - م. ن، ص15.

نلاحظ أن ميل الباحث إلى الدعة والراحة يحولان بينه وبين ما ينبغي ممارسته من نقد ودراسة دقيقة للوثائق.

ينوه المرحوم زرين كوب إلى أن التعويل على الذاكرة هو فخ يقع فيه الباحثون، ومن هنا كان كبار الباحثين في العالم يحذرون من ذلك. يقول المرحوم القزويني: ((عندما أريد الاستشهاد بآية من الكتاب في بعض أبحاثي فإنني أعود إلى القرآن كي أتثبت منها، حتى لو كانت آية﴿قل هو الله احد﴾[1]. لقد لاحظت خلال مراجعتي تحقيقاً أجراه أحدهم لبعض النصوص، نموذجاً بارزاً للوقوع في ذلك الفخ والتعويل على الذاكرة. إذ أنه تولى تحقيق نص فلسفي – عرفاني وتوفرت لديه نسخة من النص بخط المؤلف، مما دفعه إلى عدم مراجعة النسخ الأخرى وعدم استخدام مناهج التحقيق ومقابلة النصوص وتقييمها. بينما كان المؤلف يعتمد على ذاكرته في إيراد الآيات القرآنية وقد أوقعه ذلك في بعض الاخطاء، غير أن محقق النص لم يأخذ احتمال الخطأ هذا بعين الاعتبار وفاتته حالات متعددة من ذلك.

وفي ضوء المقاييس المذكورة، يحتاج الباحث إلى الدقة أكثر من أي شيء آخر في عملية انتقاء المعلومات. وهذه الدقة تكون عرضة للخطر نتيجة لعاملين أساسيين: التسرع والغرور. وغالباً ما يعاني الباحثون الشباب من تأثير العامل الأول، بينما يخضع الباحث الشهير ذو الخبرة الطويلة، إلى تأثير العامل الآخر. ويسجل المرحوم زرين كوب ملاحظة مفيدة في تفسيره لهذين العاملين. يقول:"إن غياب الدقة ناشئ عن التسرع، وهذا ما يمثل مشكلة كبيرة في البحث كثيراً ما أدت إلى وقوع أخطاء فظيعة. يمكن أن يتورط الباحث في خطأ كبير نتيجة للتشابه بين اسمين مثلاً، مما في وسع المرء أن يتفاداه بشيء من الدقة. كثيراً ما نجد أن

---

[1] - الأخلاص1.

التعويل على معلومة منقولة يؤدي إلى تضليل الباحث الساذج ويورطه في الخطأ. وربما افتقد البحث الدقة اللازمة في كثير من الحالات، نتيجة لتعويل الباحث على ذاكرته لفرط غروره وإعجابه بنفسه"[1].

ط: عدم توفر المعلومات، معلومة في حد ذاته

لا يمكن الاقتصار على ما هو متوفر من المعلومات خلال عملية جمعها، بل لا بد أن نهتم كذلك بما هو غير متوفر. وهذا من الفوارق بين البيانات والمعلومات. ذلك أن عدم توفر البيانات سيتحول لدى الباحث عبر عملية التحليل، إلى معلومة مفيدة. وعلى سبيل المثال نلاحظ حين نتناول بالبحث الألغاز المنطقية في أعمال صدر المتألهين، انه لم يتحدث عن لغز الجذر الأصم أو المفارقة الكاذبة، ولكن علينا أن لا نتجاهل ذلك بل ينبغي أن نتعامل مع إعراض صدر المتألهين عن مناقشة ذلك اللغز، بوصفه معلومة مهمة نتولى تحليلها. وهكذا فيما يتصل بالمفهوم الذي بلوره العلماء للنبوة، حيث أن حرصنا على دراسة المحددات والعناصر التي لم يتضمنها تعريف النبوة، لا بد أن يتمتع بقدر من الأهمية يعادل حرصنا على دراسة العناصر التي يتكون منها ذلك التعريف.

وفي ضوء المبدأ الذي يقرر أن"عدم توفر المعلومات يمثل معلومة في حد ذاته" سيولي الباحث أهمية لغياب المعلومة أيضاً، ويأخذ في دراسة ما لم يقله الخبراء والمسكوت عنه في نصوصهم، كدراسته لما صرحوا به وما قالوه، بالمستوى ذاته.

وهكذا فإن المعلومات التي تستحق المشاركة في عملية البحث، تتحلى بتسع مواصفات كما في الشكل رقم 1-3.

---

[1] - م. ن، ص15.

مواصفات المعلومات المناسبة	
1	معلومات لا معطيات .
2	ذات صلة بالموضوع .
3	كافية ومتكاملة .
4	صادقة .
5	دقيقة .
6	واضحة ومحددة .
7	حديثة .
8	موثقة .
9	ان عدم توفر المعلومات، هو معلومة في حد ذاته .

الشكل 1-3: مواصفات المعلومات المناسبة

2- المعالجة

تمثل المعلومات بمواصفاتها المذكورة سابقاً، شرطاً ضرورياً في البحث. غير أن الشرط لا يكفي لوحده في تحقيق المشروط، فالبحث يبدأ منطلقاً من المعلومات لينتهي بالإبداع، وثمة مسار يمر به البحث وينتقل عبره من المعلومات إلى المعطيات الجديدة، وذلك هو معالجة المعلومات وتحليلها على أساس منهجي. حيث تتحول المعلومات إلى معطيات جديدة من خلال تحليل منهجي ومعالجة منظمة. ويقدم لنا فرانسيس بيكون (1561-1626) تصوراً تشبيهياً معروفاً حول أهمية المعلومات ودور التحليل في البحث، فهو يقسم الباحثين إلى ثلاثة أصناف: الديدان، والعناكب، والنحل. ويمكن تعميم تصويره هذا عبر القول بأن أولئك الذين يعدون من الباحثين ينقسمون إلى أربعة مجموعات كما يلي:

يكون الباحثون في المجموعة الأولى بمثابة ديدان حيث يكتفون بجمع المعلومات وحسب، وعلى تقدير أنهم يمارسون لوناً من البحث فإنهم إنما يحولون البيانات إلى معلومات فقط. أما المجموعة الثانية فهم العناكب الذين يخوضون في المعالجة والتحليل دون جمع المعلومات ودون توفر رصيد معلوماتي، مما لن ينتج سوى تمويمات وترهات أو حديثاً لا أساس له على حد تعبير المرحوم زرين كوب. وفي المجموعة الثالثة نلاحظ النحل وهو يبدأ بجمع المعلومات أولاً ثم يقوم بتحويلها إلى عصارة علمية من خلال التحليل والتفكيك. ان تصوير بيكون يحدد بوضوح طبيعة الفرق بين نتيجة المعالجة والتحليل (العصارة)، ونتيجة جمع المعلومات.

أما المجموعة الرابعة فهي تشبه الذباب حيث تتجمع حول طاولة بحوث الآخرين وتأخذ في انتحال الأبحاث وتلويثها، ولكن ((ليس ثمة عاهة يبتلى بها الباحث أسوء من أن يعتاد سرقة أعمال الآخرين وانتحالها))[1]. يمكن أن تكون السرقات هذه على أشكال مختلفة ولها أسبابها المتعددة، من قبيل السرقة الصريحة *(plagiarism)* والسرقة المتخفية التي تقترن بالمكر والاحتيال *(paraphrase)* مما لسنا في صدد تناوله هنا.

لسنا هنا في صدد الحديث عن أبعاد السرقات تلك، بل نحاول التركيز على دورها في تشويه البحث. هنالك من ينتحل كتاباً علمياً كاملاً ويقدمه باسمه بوصفه رسالة ينال بها درجة الماجستير، وربما جاء احدهم بالكتاب ذاته وادعى انه له ايضاً ولكن بعد أن يجري عليه تغييرات لا تقوم على مبرر ويتصرف فيه بنحو عشوائي. ويختلف المثالان في أن الثاني أضاف إلى السرقة خطيئة أخلاقية أخرى حين شوه البحث المسروق وبعثره.

[1] - م. ن.

تحدث عمانوئيل كانط (1724-1804) عن العلاقة بين المشاهدة والقوة العاقلة[1]، ويمكن القول في ضوء تعبيراته هناك ان المعلومات حين تتجرد عن التحليل والمعالجة فإنها تكون حصيلة عقيمة لا طائل منها، كما ان المعالجة أو عملية التحليل عندما تفتقد الرصيد المعلوماتي فإنها تصبح جوفاء لا قيمة لها. ان معالجة المعلومات تمنحها دلالتها وجدواها، وإنما يتأكد دور الباحث من خلال ذلك وحسب. وللمعالجة هذه أربعة مستويات متباينة: التعريف، والوصف، والتبرير، والتفسير. وتقوم المعالجة وعملية التحليل في ضوء المستويات هذه، على شكل محدد من المناهج والأساليب والأدوات. وفيما يلي سنخصص حديثنا حول المناهج والأساليب هذه، الأمر الذي يدفعني إلى الاكتفاء بما قلته حتى الآن فيما يتصل بمعالجة المعلومات.

3- التنظيم

إن تحليل المعلومات الذي يمثل العنصر الأساسي في البحث، يعكس ما يتطلبه هذا من التنظيم والتحديد المنضبط. إذ أن البحث بوصفه عملية محددة، يمتلك اطاراً وضوابط وقواعد معينة. وما يميز البحث عن الدراسات المشتتة هو خضوعه لإطار منهجي عام، الأمر الذي يمثل أهم خصائصه.

يقول فرانسيس بيكون في الأرغانون الجديد مذكراً:"إن الأعرج الذي يسير في طريق مستقيمة سيبلغ هدفه على نحو أسرع من ذلك العداء الذي ينتهج طريقاً متعرجة. بل إن الأخير سيضل طريقه بقدر ما يسرع في الحركة"[2].

---

[1] - كانط، عمانوئيل. نقد عقل محض. ط2، ص75.

[2] - لاحظ:

Bacon, Francis, The New Organon, ed. By Fulton H. Andersen, New York, 1980, p.1,16,58-59.

إن الضوابط والتنظيم المناسب يحددان مسار البحث واتجاهه، وإنما يمكن ان تحظى نتائج البحث بترحيب الأوساط العلمية، فيما لو اعتمد الباحث المعايير والضوابط المتداولة المتعارف عليها *(well disciplined)*. ومن هنا كان نقد معايير البحث واحداً من أساليب نقد البحث نفسه. وكمثال على ذلك فقد ظلت نظرية (أليس) بوصفها نتيجة بحثية مؤكدة فيما يتصل بالعلاقة بين الإيمان والسلامة النفسية، حتى عثر بيل واتسون على ثغرة في معايير البحث عند أليس[1].

رغم أن معايير البحث وتنظيمه يتسمان بالعمومية، بيد أن ذلك لا يتحرك في سياق التقليد أو الصياغات الجاهزة، بل يتحدد إلى حد كبير بما يقتضيه الموضوع وما تتطلبه مسألة البحث. حين نريد مثلاً أن نؤرخ لأحد الفلاسفة ونحدد تاريخ ولادته، ففي وسعنا أن نستعين بنصوصه المكتوبة. غير أن الاستعانة بنصوص شاعر من طراز سعدي الشيرازي في تحديد تاريخ ميلاده، لن توفر لنا سوى الحيرة والغموض[2].

4- الاختصاص بنطاق محدد

ان اختصاص البحث بفرع علمي محدد يمثل المرتكز الرابع للمشروع البحثي. لا نستخدم مصطلح البحث في دراساتنا على نحو مطلق، بل غالباً ما نستخدمه مضافاً لفرع من المعرفة البشرية فنقول: الأبحاث الفلسفية، أو الأبحاث الكلامية، أو النفسية، ...الخ. وهذا هو النطاق الذي يتحرك فيه البحث. إن السر في اختصاص البحث بواحد من العلوم يكمن في ان الممارسة البحثية لا تمثل سوى

---

1 - لاحظ:

Watson, P. T. Morris, & Hood, R. W, Religion and Rationality: comparative analysis of rational- emotive and intrinsically rationalities, journal of Psychology and Chrisitionaity, p. 3, 373-384.

2 - موحد، ضياء. سعدي. تهران، طرح نو، 1373. ص33-44.

معالجة منهجية لمسألة محددة، وهذه تنتمي إلى واحد من الحقول العلمية. ومما تمتاز به المسألة العلمية عن الإشكالية هو أن المسألة أو القضية إنما تكون فلسفية أو سوسيولوجية...الخ.

ثمة آثار عديدة يتركها اختصاص البحث بنطاق محدد، على مشروع البحث برمته. فنجد أولاً إن البحث يتطلب مراناً وتعليماً مسبقاً يتلقاه الباحث، باعتبار أن البحث ذاته يتصل بحقل علمي محدد، ولا يمكن للمرء أن يخوض حقلاً علمياً ويتناوله بالبحث دون أن يتعلم ذلك الحقل. ومن هنا فإن في وسعنا أن نقيس حجم مؤهلات المرء للبحث في حقل معين، في ضوء تحديدنا لحجم الأخطاء التي ارتكبها عند استخدامه للمفاهيم العلمية ذات الصلة بذلك الحقل، وهو يحسب نفسه باحثاً خبيراً فيه. إن البحث في علم معين يتطلب الإحاطة بمبادئه وموضوعاته ومناهجه وبنيته.

ونلاحظ ثانياً ان اختصاص البحث بنطاق علمي محدد يعني صلته بتاريخ ذلك العلم، فحين يمارس المرء البحث في حقبة معينة من تاريخ العلم، سيعتمد على الموروث التاريخي والمنجزات السابقة، أي انه بحثه سيمثل تواصلاً لمسار الأبحاث السائد في ذلك العلم. ليس البحث العلمي شأناً شخصياً عديم الصلة بتاريخ العلم وتطوره، وهكذا فلا يمكن ان نغتفر للباحث جهله بما يدور في الأوساط العلمية.

ثالثاً: ان الاختصاص بعلم محدد سيفرض ضوابط البحث أيضاً ويضع معاييره، ذلك ان الأبحاث القرآنية مثلاً تتطلب التقيد بإطار هذا الحقل المعرفي ومناهجه المتداولة، ولا يتنافى ذلك كما ذكرنا سابقاً، مع الإبداع المنهجي للباحث.

رابعاً: إن اختصاص البحث بنطاق محدد، يعبر عن هوية العلم العامة. ولأهمية هذه النقطة فقد أدرجناها ضمن عناصر تعريفه.

لا بد ان نشير كذلك إلى ان اختصاص البحث بنطاق علمي محدد، لا يتنافى مع الدراسات البيتخصصية[1]. إذ ان اختصاص البحث بنطاق محدد لا يتعارض مع ما تتطلبه معالجة بعض الموضوعات من استعانة بعلوم متعددة.

5- الهوية العامة

ذكرنا آنفاً ان اختصاص البحث بنطاق محدد يؤدي إلى تكوين هوية عامة للبحث، وهكذا فإن ذكر الهوية كعنصر في تعريف البحث لا يخلو من الزيادة والحشو، أي ان التذكير به يستهدف التنويه إليه وحسب، وذلك لغفلة البعض عنه. لا نريد بالهوية العامة هنا مجرد القول بأن البحث يتطلب جهداً جماعياً، وإنما نريد التأكيد على أن كل مشروع بحثي وفي ضوء اختصاصه بنطاق محدد، هو جزء من هوية العلم العامة يمتلك موقعه الخاص في مجموعة العلوم، وهو يلعب دوراً معيناً بوصفه عنصراً في منظومة محددة وشبكة خاصة. ان أي بحث هو في حقيقة الأمر جزء من الممارسة العامة للباحثين في نطاق معين ضمن تاريخ العلم المأخوذ بنظر الاعتبار، كما انه يحتل نقطة في مسار تطور العلم هذا.

إن الاهتمام بهوية البحث العامة ينطوي على فوائد عدة: فهو أولاً يدفع الباحث إلى تكوين ملاحظة منهجية للعلم ويلعب دوراً رئيساً في ذلك. كما انه يحول ثانياً دون اقتصار الباحث على ملاحظة البنية والقواعد والمعايير المنطقية، فيتيح له ان يدرك ما وراء ذلك من تأثير متبادل بين البحث ونطاقه العلمي.

---

[1] - ذكرنا في هامش سابق ان المؤلف يستخدم تعبير (ميان رشته اى) كمعادل فارسي للمصطلح الانجليزي ***Interdisciplinary*** وهو وصف لمنهج في البحث او لنوع من الدراسات ويستخدم بعض الأكاديميين تعبير (بينية التخصصات) في الدلالة على ذلك. وهذا نظير كلمة:

Multi disciplinary - متعدد التخصص. يقال مثلاً ان الجامعة الكذائية تتميز بتعدد التخصصات. ولعل من المناسب هنا اجتراح مصطلح (بيتخصصي) على غرار ***Intersubjective*** التي تترجم إلى بيذاتي، وهكذا (بينصّي) وسواها. (المترجم).

ليس في وسع المرء اليوم ان يمارس البحث على نحو فردي، وبشكل منفصل تماماً عن جهود الأوساط العلمية.

وعلى هذا الأساس يقول نيوتن: ((إذا كنت قد تقدمت [على غيري من العلماء] فلأنني كنت اعتلي مناكب العمالقة)). وهو يقصد بالعمالقة رواداً من طراز ديكارت وغاليليو وأمثالهم[1]. يمثل الباحثون في حقل معين في حقيقة الأمر، أعضاءً في أسرة واحدة يتكفل كل منهم من خلال آصرة منهجية، بدور في حركة العلم العامة تاريخياً.

ان اهتمام الباحث بالهوية العامة للبحث يؤدي به منذ بداية عمله، إلى العثور على موقع بحثه في مسار العلم المعني. حين نتساءل: أين موقع البحث الكذائي من جغرافيا العلم؟ فإن سؤالاً كهذا سيحدد لنا ضرورة البحث وراهنيته، أو يعكس عدم جدواه ويكشف لنا انه عمل مكرر اجتراري.

6- الإبداع

يمثل الإبداع أو الإضافة العلمية، أهم ما يميز البحث عن برامج التعليم أو الجهد التبشيري. فحين يهدف الأخيران إلى تعليم المعطيات العلمية وإشاعتها، يحاول البحث ان ينتج المعرفة العلمية. ان الباحث في صدد اكتشاف أمر لم يجر اكتشافه بعد.

ثمة جوانب متعددة للإبداع، فحصيلة البحث تكون تارة صياغة سؤال جديد وقضية مستحدثة، بينما يتمخض تارة أخرى عن نظرية جديدة، ويتمثل الإبداع في البحث ثالثة بما يؤسسه من منهج جديد. ونعني بالإبداع في بعض الحالات بناء مفهوم جديد، ويهدف البحث في حالات أخرى إلى بلورة مفهوم

---

1 - برث، ادفين آرثر. مبادى ما بعد الطبيعي علوم نوين (ميتافيزيقيا العلم الحديث). ترجمة عبد الكريم سروش. طهران، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، 1366، ص302.

مستحدث في ضوء مفاهيم مسبقة. إن البحث في حقيقة الأمر مرحلة في السياق التطوري لذلك النطاق الذي يتحرك فيه، مما يعني ان الفرق بين البحث والبرنامج التعليمي هو الفرق ذاته بين الإنتاج والتوزيع أو النقل.

ثمة نقطة غامضة فيما يتصل باستخدامنا للإبداع عنصراً في تعريف البحث، وهي تتطلب ان نحدد مقياس الإبداع ومعياره. إن الجدة أو الحداثة مفهوم نسبي، فحين نتحدث عن جدة الشيء وحداثته يمكن أن نتساءل: على أي أساس حكمنا بجدته، ومن أي زاوية ومقارنةً بأي الأشياء، قلنا بحداثته؟ ما هو المعيار في جدة نتائج البحث؟ من المؤكد ان الأشخاص ليسوا مقياساً في تحديد ذلك، ذلك أننا نجد خلال العملية التربوية أو التعليمية ان المتدرب أو الطالب يكتشف أفكاراً جديدة وتتكوّن لديه قناعات جديدة. ولكن في وسعنا ان نقدم إجابة حيال السؤال هذا من خلال العنصرين الرابع والخامس في تعريف البحث. ان معيار الجدة هو النطاق الذي يتحرك فيه البحث، أي انه ينبغي ان يكون البحث قد جاءنا بجديد ضمن مسار العلم العام والتاريخي.

وعلى هذا الأساس يتسم البحث بالتعقيد والصعوبة، ويحتاج الباحث إلى معلومات دقيقة حول آخر ما تضمنته الأبحاث في مجال تخصصه. وعند هذه النقطة بالذات يتضح لنا ما يعانيه البحث المعاصر في مجالي علم الكلام وفلسفة الدين، من أزمة جعلت الباحثين في الغالب أقرب إلى مترجمي النظريات المتداولة وشارحيها، منهم إلى من ينتج نظرية جديدة.

ندرك في ضوء ما يعنيه الإبداع وما يمثله من ضرورة في البحث، أننا نستخدم مصطلح البحث بتساهل شديد، ونخلع هذه الصفة بسخاء كبير على الأعمال الاجترارية، كما نعد من البحث، كتابات تبشيرية دعائية وتعليمية أو ما كان من الموسوعات ونحو ذلك. لو توفرت حقاً مواصفات البحث_ وأعني هنا تحقق المنجز الإبداعي_ في عدد قليل من الأعمال التي تعد اليوم من البحوث، لما

بقي حالنا على ما هو عليه. إن أوهام المرء حول مستوى البحث، حجاب يخفي وراءه الوضع المزري للأبحاث وعقمها وافتقادها لمعطيات إبداعية، الأمر الذي يولد شعوراً زائفاً بالرضا.

نجد ان معظم الأبحاث لا تتجه نحو مسألة بحثية ***(Problem Oriented)***، مما يمثل واحداً من أسباب تحويل البحث إلى برنامج تعليمي أو الحؤول دون إنتاجية البحث بكلمة أخرى. نتوقع أن يتولى البحث طرح موضوعات جديدة أو أن يقوم بمعالجة موضوعات لم تخضع للمعالجة سابقاً، أو أن يقدم طريقة جديدة في اكتشاف الموضوع ومعالجته.

لكن البحث حين يرهن بموضوع محوري ***(Subject Oriented)*** فإن الباحث سيظل يدور حول الموضوع ويجمع شتى الكلمات والأقوال غثة وسمينة وسواء كانت لها صلة بالموضوع أم لا. لن يؤدي ذلك إلى تعويق الإبداع وحسب، بل ان دوران الباحث ولهاثه المتزايد سيضاعف من حيرته وتشتته. وسنتناول هذا الأمر على نحو موسع في الفصل الرابع.

وتأسيساً على ما مضى فإن البحث يتقوّم بستة مرتكزات أساسية، ويؤدي اختلال كل منها إلى تشويهه. يتضمن الجدول التالي تلك المرتكزات الستة.

مقومات البحث ومرتكزاته	
المعلومات .	1
المعالجة والتحليل .	2
التنظيم .	3
الإختصاص بنطاق محدد .	4
الهوية العامة .	5
الإبداع .	6

الجدول رقم 1-4: مقومات البحث ومرتكزاته .

الفصل الثاني:

مجالات البحث الديني

مدخل

لا بد ان يتحدد أي مشروع بحثي، بنطاق علمي خاص حسب التعريف المتقدم. وفي ضوء ذلك فإن دراسة مناهج البحث التي تتطلب اكتشاف ماهية البحث ذاته، تتطلب أيضاً الإحاطة بالعلم أو المجالات العلمية التي يتصل بها البحث. ونستهدف في تناولنا لمناهج البحث، معالجة مناهج البحث في الدراسات الدينية *(religious studies)*. وتتمتع الإحاطة بهذا المجال المعرفي واكتشاف فروعه ونطاقاته، بأهمية فائقة في الحديث عن مناهج البحث في الدراسات الدينية.

ان الباحث في نطاق علمي خاص، بمثابة من يعوم في بحيرة أو مسبح. فكما ان العوم في الماء سيكون محفوفاً بالمخاطر حين لا تتوفر لدى المرء معلومات حول مساحته وعمقه ودرجة حرارة الماء وما إلى ذلك، فإن ممارسة البحث لن تتيسر دون الإحاطة بالمجال البحثي. تتطلب الحكمة ان يحيط الباحث بالنطاق العلمي المحدد قبل ان يبدأ بحثه في ذلك المجال.

وعلى أساس ذلك نجد العلماء المسلمين يهتمون بتكوين تصور إجمالي حول العلم قبل الخوض فيه، لا على سبيل البحث وحسب بل في البرنامج التعليمي أيضاً. ولهذا نجدهم قد تحدثوا عن موضوع الرؤوس الثمانية، وكانت هذه الموضوعات الثمانية في واقع الأمر جانباً من علم مناهج البحث في الثقافة الإسلامية.

وفضلاً عما تقدم فإن البحث يمثل حقبة من تاريخ العلم، كما ان تطور العلم منوط بالأبحاث السائدة فيه. ان أي مشروع بحثي منهجي في نطاق علمي ما، يمثل في حقيقة الأمر انتقالاً من الوضع القائم إلى الوضع المثالي، أو تحولاً من النقص إلى الكمال مقارنة بالمسار التاريخي للعلم. وهذا ما لن يتحقق إلا من خلال وعي الباحث بتطورات العلم والنطاق الذي يتعلق به بحثه. ان إدراك الفارق بين مستويات التطور المنوه إليها يتوقف على الإحاطة بهوية العلم.

لكل علم مستويان: مستوى التعريف والمفهوم، ومستوى الواقع والمنجز والمتحقق. ونريد بالأول هوية العلم بالنحو الذي ينبغي ان تكون عليه، فالفلسفة التي شاعت لدى الفلاسفة المسلمين مثلاً، هي في مستوى المفهوم والتعريف، مجموعة من المسائل المبرهنة التي تتناول الموجود من زاويته الوجودية.

ويتسم العلم في مستوى مفهومه وتعريفه، بثلاث خصائص أساسية وهي كونه كاملاً ومحضاً نقياً وواقعياً. غير ان العلم في مستوى تحققه وواقعه يتمثل بالتراث العلمي والمصنفات والآراء والأنشطة التعليمية والبحثية، مما هو شائع في محافل العلم. ان للعلم هوية تاريخية عامة، ويزخر تاريخ العلم بالنصر والهزيمة، والنقص وعدم الفرز. ان هذا المستوى مس العلم هو حركته الموضوعية الي تصاب بالشلل والعجز تارة، وتتميز بالحيوية والفاعلية تارة أخرى.

يتعين على الباحث في الدراسات الدينية، ان يدرك الفجوة أو المسافة الفاصلة بين راهن العلوم ذات الصلة بمجال اهتمامه، وما ينبغي ان تكون عليه هذه

العلوم، وذلك من خلال الإحاطة بالجانب القيمي للأبحاث في هذا المجال المعرفي، والتعرف بنحو دقيق على الراهن القائم للدراسات الدينية في عصره. ثمة أهمية مزدوجة لذلك في الدراسات الدينية، فهو يجنب الباحث أوهاماً ربما تساوره حول تكامل البحث ومستواه، كما انه يحدد بدقة وجهة الدراسات الدينية من خلال رسمه لأولويات البحث وما يتطلبه.

تشيع في أوساطنا تصورات موهومة حول المساهمات العلمية تجعلها بسهولة في مصاف الأبحاث، كما يسود طابع الاجترار والتكرار وطرح القضايا الترفية على نحو عتيق رثّ، وهو أمر كثيراً ما ينشأ عن عدم إدراك الحاجات الحقيقية في البحث العلمي وما يعاني من نواقص. لن يكون في وسع الباحث ان يساهم في تطوير مسار الأبحاث حين لا يكون قد استوعب تلك الثغرات أساساً[1].

ان أهمية الوعي بالحقل العلمي تدفع الباحث في القضايا الدينية إلى تقديم إجابات حيال ما يلي من الأسئلة، للتخلص من المعوقات التي تحول دون نجاح بحثه:

1- ما هي هوية الأبحاث الدينية وما هو تعريف هذا اللون من الدراسات؟

2- ما هو المقياس في كون العلم دينياً؟ ما هو السر في ان الحديث عن فقه إسلامي يبدو مبرراً، بينما ليس من المبرر جداً ان نتحدث عن علم مثلثات إسلامي؟ ألا يبدو وصف الفلسفة المتداولة بين العلماء المسلمين بأنها فلسفة إسلامية، لوناً من المجاز والتساهل في الوصف؟

3- ما هي الفروع المعرفية الرئيسة التي تشتمل عليها الدراسات الدينية؟ ما هي النطاقات العلمية التي يستوعبها البحث الديني؟

---

1 - يكثر المؤلف في العديد من الموارد، من الاستشهاد بالنصوص الشعرية، غير اننا اقتصرنا في التعريب على الحالات التي وجدناها ضرورية، نظراً للإشكالية القائمة أساساً في ترجمة الشعر. وفي الفقرة أعلاه مثلاً أهملنا تعريب بيت شعري استدركه المؤلف. (المترجم).

4- ما هو المرجوّ من الأبحاث الدينية؟ على أي نحو ينبغي ان تكون العلوم ذات الصلة بهذه الأبحاث ومجالاتها؟ وما هي الحالة المثلى المتكاملة للبحث الديني؟ ما هي أهدافه وقيمه؟

5- ما هو راهن الأبحاث الدينية في بلادنا اليوم؟ وهل تتمتع شتى مجالات البحث الديني بالحيوية ويزدهر فيها العطاء؟

6- ما هي المسافة بين راهن هذه الدراسات *(present state)*، وما ينبغي ان تكون عليه *(desired state)*؟

7- كيف لنا ان نفسر تكوّن الوضع الراهن أو ظهور تلك المسافة بين الحالتين المنوه إليهما، ومن خلال أي عوامل ومؤثرات يا ترى؟

8- ما هو الدور الذي لعبه الباحثون في المجال الديني، في تأسيس الحالة الراهنة، وما هي طبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم في تقليص الهوّة بين ما هو قائم وما ينبغي ان يكون في مجال الأبحاث؟

9- وفيما يتصل بالهوّة تلك أيضاً، فما هو دور المناهج المتداولة في الدراسات الدينية، في تقليصها؟ هل يلعب منهج البحث دوراً إستراتيجياً في تطور الأبحاث الدينية وتقدمها؟

تنطوي كل الأسئلة المذكورة على أهمية فائقة لا يمكن تجاهلها، غير ان تناولها على نحو تفصيلي يبرر أهميتها، بحاجة إلى فرصة أفضل من العجالة هذه. كنا في مناسبة سابقة قد تحدثنا عن النقاط التسعة الهامة هذه، وتطرقنا في كتاب (مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان) عبر أسلوب دراسة الحالات والقضايا *(case study)*، إلى راهن الأبحاث في علم الكلام الجديد، وهو من المجالات المهمة في البحث الديني المعاصر[1].

[1] - لاحظ: قراملكي، أحد فرامرز. موضع علم ودين در خلقت إنسان (مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان). تمران، آرايه 1337.

واخترت في الدراسة تلك موضوع التعارض الشكلي بين النظرية التحولية[1] (الدارونية) والتصور القرآني حول موضوع الخَلق. وهذا موضوع يمثل أهم مستويات جدل العلم والدين وأبرزها، كما ان جدل العلم والدين من أهم الموضوعات في قضايا الكلام الجديد وأكثرها تأثيراً.

ويتولى كتاب (مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان) تسليط الضوء على راهن الأبحاث الكلامية الجديدة حتى عام 1373 [1994] على أساس أكثر موضوعاته شيوعاً. ثمة بحث آخر يمكن التنويه إليه وهو يتصل بالأفكار الكلامية الحديثة، حيث يقوم بدراسة أبحاث الكلام الجديد وظروفها منذ الحركة الدستورية (المشروطة) حتى الثورة الإسلامية في ايران[2].

كما عمدنا في (دروس الأخلاق المهنية) إلى تحليل راهن علم الأخلاق الإسلامي في مستوى الأخلاق المهنية، وهي من أكثر المجالات حاجة إلى البحث في نطاق الدراسات الدينية.

وفي ضوء ما تقدم نكتفي هنا بطرح الأسئلة الثلاثة الاولى مقدمة لمنهج البحث في الدراسات الدينية. وقبل الخوض في ذلك نعود إلى ما صنعناه في الفصل الأول بغية إشراك الطالب في موضوعات الكتاب، فأدعو القارئ إلى تدوين تصوره حول الموضوع والإجابة على الأسئلة التالية، كي يقارنها فيما بعد بالموضوعات القادمة، ويصار بعد ذلك إلى نقد كلتا الإجابتين وتحليل كل منهما مقارنة بالآخر. سيدون القارئ من خلال ملء القسائم في الجداول (2-1) و(2-2) و(2-3)، تصوره حول الأبحاث الدينية والمقياس في كون العلم دينياً وتعداد الفروع الرئيسة للأبحاث الدينية وآفاقها المتنوعة، ثم ترتيبها على نحو محدد.

---

[1] - التحولية: transformism وصف لمذهب تشارلز دارون في موضوع خلق الإنسان. (المترجم).

[2] - محمد مشهدي نوش آبادي. كلام جديد در ايران از دوره مشروطه تا انقلاب إسلامي (علم الكلام الجديد في ايران منذ المشروطة حتى الثورة الاسلامية). قيد النشر.

ماهية البحث الديني :

....

....

....

....

الشكل 2-1: ماهية البحث الديني في تصورك

فروع الأبحاث الدينية	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....
6	....
7	....
8	....

الشكل 2-2: فروع الأبحاث الدينية كما تصورها.

ترتيب فروع الأبحاث الدينية :

....

....

....

....

الشكل: 2-3: تصورك حول ترتيب فروع الأبحاث الدينية

ماهية الأبحاث الدينية

تعني عبارة البحث الديني وفق دلالتها اللغوية، تلك الدراسات ذات الصلة بالدين. ونطلق وصف الأبحاث الدينية بنحو عام على تلك الدراسات التي تُعنى بالأديان، والتعاليم الدينية، والأبحاث التي تتناول السلوك والطقوس والظواهر الدينية. ونريد بالبحث الديني هنا مفهومه الأعم وهو ما يشمل فئتين من الدراسات الدينية على ما سيأتي مفصلاً، إحداهما تلك العلوم الدينية ذات الطابع الأداتي الآلي، وتتمثل الأخرى بالدراسات الدينية التي لا تحمل طابعاً كهذا.

الدراسات الدينية، مجالات متنوعة

يمكن القول بأن الدراسات الدينية تشمل سبع مجالات رئيسة (الجدول 2-4). بينما تظل شتى المجالات المعرفية الأخرى ذات الصلة بالدين، نطاقات فرعية أو علوماً أداتية آلية مقارنة بالمجالات الرئيسة تلك. ان علوم الكلام والفقه والأخلاق تمتد على حقبة طويلة في تاريخ الدراسات التقليدية ذات الصلة بالدين (الإسلام)، فيما نجد ان فلسفة الدين وعلم نفس الدين وعلم اجتماع الدين وتاريخ الأديان، تمثل حصيلة الحداثة، وقد جرى تدوينها بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما ما يوصف بأنه علم كلام جديد أو لاهوت معاصر، فهو علم الكلام أو اللاهوت ذاته، رغم انهما يتباينان في الهيكلية والنظام المعرفي.

إن علوماً مثل التفسير والحديث ونحوهما هي في حقيقة الأمر أدوات للعلوم المذكورة أعلاه. ورغم ان الفلسفة الإسلامية ونحوها من حقول المعرفة، تستلهم تعاليم الدين بنحو أو آخر، غير انها لا تعد من الأبحاث الدينية بالمفهوم الذي نتصور حول ذلك.

فروع البحث الديني	
1	علم الكلام .
2	الفقه.
3	الأخلاق.
4	علم نفس الدين .
5	علم اجتماع الدين .
6	فلسفة الدين .
7	تاريخ الأديان .

الشكل 2-4: فروع البحث الديني

ترتيب مجالات البحث الديني

على الرغم من التمايز منطقياً وعلى المستوى المعرفي بين المجالات السبعة في الدراسات الدينية، بيد ان ثمة آصرة معقدة تربط بينها. ويبلغ تعقيد هذه الآصرة درجة لا يتيسر معها استيعاب ذلك الترابط إلا من خلال ملاحظة الأبحاث الدينية منهجياً. ويتطلب بيان مستويات الاختلاف بين المجالات المذكورة وتحديد مستويات ترابطها، ان نكتشف الأساس الذي قام عليه تقسيم الدراسات إلى تلك الفروع.

تنقسم الدراسات الدينية كما تقدم، إلى علوم تقليدية وأخرى حديثة. ورغم ان هذا التقسيم يبدو قائماً على أساس زمني، حيث ان الأبحاث التقليدية تختلف عن الأبحاث العصرية في كون الأخيرة قد تكونت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بيد ان هذا التصنيف يقوم على أساس آخر أكثر أهمية يمكن في ضوئه مقاربة التباين بين نموذجين من مجالات البحث الديني. ان تباين فروع البحث الديني يقوم على تفاوت بين رؤيتين للدين وتعاليمه.

ويتجرد كل من اصطلاحي "التقليدي" و"الحديث" عن أي لون من القيمية أو المعيارية ذات الصلة بإصدار حكم معين، ويستخدم هذان التعبيران على نحو تنويهي إشاري – لا على نحو وصفي – كعنوان يشير إلى ما كان متداولاً في الثقافة الدينية والإسلامية وما ظهر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولا

يعني التقليدي أو التراثي أمراً عتيقاً استنفد جدواه، كما لا يدل تعبير الحديث أو الجديد على قيمة تمنح الشيء أهميته وجدواه.

ان الرؤية التقليدية للدين تعني التصور السائد لدى علماء السلف حول الدين كما تجلى في الثقافة الإسلامية منذ صدر الإسلام حتى اليوم، وما شاع بوصفه فهماً واحداً للدين. اما التصور الحديث فهو الرؤية التي أخذت تتكون وتشيع تدريجياً منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر.

يمكن طرح قضايا عديدة فيما يتصل بالتقليدي والحديث من هذه التصورات، ففي وسعنا ان نتساءل حول مدى حقانية كل منهما ومدى تطابقه مع هوية الدين وحقيقته. أيهما أكثر وفاءً لتعاليم الدين وهدف الرسالة؟ أي التصورين سيحظى بدعم آيات الكتاب ونصوص السنة ومعطيات البحث "الجوّاني"[1]؟ هل

---

[1] - أقتبس هنا تعبير (الجوّاني) أو (interne) من المذهب الذي بشر به د. عثمان أمين، رغم الفارق بين المقصودين. إذ نريد به هنا ما يعرف بالفارسية بـــ (درون ديني) أي (داخلديني) وما يقع داخل مرجعية النصوص الدينية، وهو تعبير يصف المعالجات التي تعتمد على معطيات الدين المباشرة ونصوصه بمعزل عن المناهج المعرفية، وما يمكن وصفه بالمعالجات اللاهوتية لو ساغ التعبير، تأسيساً على التقابل بين المعرفي واللاهوتي. أما عثمان أمين وكما هو معروف فيريد بالجوّاني اعتبار قوة الروح المعبر الاساسي عن القوة الحقيقية، وأن سيادة الإنسان لن تتحقق سوى من خلال سيطرته على نفسه وتعاليه على البواعث المادية. يمكن تبرير هذا اللون من المحاكاة رغم وجود خيارات أخرى في الترجمة، بشيوع هذا المصطلح وهو ما يجعل الكلمة الجديدة تتفادى ما يمكن ان يواجهه أي وافد شاذ حديث إلى اللغة. ان الفوضى التي يعانيها تعريب النصوص الفارسية، والمستوى الرديء للترجمات السائدة وافتقادها لأبسط مواصفات الجهد العلمي، هي أمور تزيد من صعوبة نحت معادلات مناسبة، لا سيما حين تكون الكلمة أو المصطلح مترجماً هو الآخر عن بعض اللغات اللاتينية ومأخوذة عن أدبيات اللاهوت المعاصر وجدل الدين والعلم، خاصة وأن الجهود الإيرانية في هذا المجال تتعامل مع اتجاهات في الفكر الحديث غير تلك التي يتعامل معها الفكر العربي المعاصر ويتوفر على ترجمة متواصلة لمصطلحاتها، وهو ما تحدثنا عنه في مقدمة المترجم. وعلى أي حال فقد فضلت استخدام مصطلح الجواني والبراني على نحت مصطلح (الداخلديني) مقابل (الخارجديني) مثلاً، وهما مستخدمان في=

من الممكن التوفيق بين التصورين المذكورين أم انهما متقاطعان لا سبيل إلى الجمع بينهما؟

لسنا هنا في صدد التطرق إلى الأسئلة المذكورة أو ما يتصل بها من إجابات، غير ان ما يمثل موضوعاً للتأمل هو ظهور هذين النمطين من المعرفة ذات الصلة بالدين، على أساس التصورين المنوه إليهما.

القراءة التقليدية للدين

ليست هوية الدين طبقاً للقراءة التقليدية، سوى رسالة الله إلى الإنسان ورد فعل الإنسان حيالها واستجابته لها. ويكتسب الوحي في هذه القراءة هوية تواصلية أولاً، وهو في حقيقته ثانياً رسالة السماء التي يجري إبلاغها إلى الناس عبر انبياء الله المصطفين. وتعني الهوية التواصلية ان الوحي آية وعلامة ومظهر أو تجلّ، في قبال الوجود أو التحقق المستقل. كما يعني كونه رسالة، انه كلام الله واتصاله من خلال الكلام، بالإنسان. ان الله في الإسلام متكلم أو مكلّم حسب تعبير الشيخ المفيد الأكثر دقة، وهو قد خاطب بني البشر في ضوء مبدأ اللطف الإلهي[1].

ثمة معطيات منطقية ولوازم معرفية عديدة تتفرع على القول بأن حقيقة تعاليم الدين هي كونها رسالة وخبراً من السماء. أول هذه المعطيات ان القضايا الدينية ستكتسب طابعاً حكائياً خبرياً، فآيات القرآن تعاليم تعكس أمراً مستقلاً عنها وتعبر عنه، وهذا ما يمثل السر في اطلاق اسم (الآية) على النص القرآني. يزعم

- النص العربي الحديث للدلالة على ما هو أعم من مذهب عثمان أمين وما يتصل بالمعنى اللغوي العام لهما. (المترجم).

[1] - راجع: ايزوتسو توشي هيكو. خدا و انسان در قرآن (الله والانسان في القرآن). ترجمة احمد آرام. طهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1368. ص192-248.

كل خبر انه يحكي الواقع – خلافاً للإنشاء – وهو يتضمن دلالة على صدق حكايته، بمعنى انه يزعم الصدق ويدعي تطابق الحكاية مع الواقع[1].

والخصوصية الأخرى لذلك هي ان من الممكن تصديق الخبر أو تكذيبه، على عكس الإنشاء، وعلى حد تعبير ابن سينا فإن الخبر هو ما يمكن وصف قائله بالصدق أو الكذب[2]. وفي ضوء هذه الخصوصية المنطقية ظهرت المواجهة التاريخية بين الوحي ومخاطبيه على أشكال مختلفة تراوحت بين التصديق والتكذيب والحيرة أو الشك.

وفي ضوء التصور التقليدي لهوية الوحي، فإن الإيمان بوصفه موقفاً إيجابياً من قبل متلقي الوحي، سيفسر بأنه تصديق يقيني، بالمفهوم الشائع في علم المنطق "النظرية التي تقرر ان الإيمان هو التصديق بقضية محددة".

ومن السمات الهامة للتصور التقليدي، ان الوحي وتعاليم الدين بوصفهما رسالة وخبراً، يعترفان للمتلقي بحقه في طرح تساؤلين. ذلك اننا حين نخاطب أحدهم بخبر أو رسالة، فإننا نمنحه الحق في طرح تساؤلين، على نحو لا يتيح لنا عقلاً، الظن بأن تساؤله ينطوي على لون من الوقاحة. السؤال الأول: ماذا تقول؟ والآخر: لماذا تقول ذلك؟

ان طرح كلا السؤالين يمثل أمراً عادياً مشروعاً في ضوء التصور التقليدي للوحي، لأن الوحي خاطب الناس وطالبهم بتقديم الإجابة. وتتوقف الإجابة هذه بناءً على كون الوحي خبراً، على فهم الرسالة في مستوى مضمونها، ونقدها على مستوى أدلتها. وتظل الإجابة منوطة بفهم الوحي على نحو معقول، وهذا مصداق

---

[1] – جلال الدين الدواني. نهاية الكلام. تصحيح وتقديم: أحد فرامرز قراملكي. مجلة: نامه مفيد، شماره 5، 1357، ص122.

[2] – ابن سينا. الاشارات والتنبيهات. تصحيح محمود الشهابي. طهران، انتشارات دانشگاه تهران. 1339، ص15.

لنموذج تعامل الإنسان مع أي لون من الإخبار، حيث يتساءل بالدرجة الأولى عن حقيقة الزعم وصدق الادعاء.

حين نسأل من يوجه نحونا خطابه أو يطرح علينا رسالته: ماذا تقول؟ فإن سؤالاً كهذا غالباً ما يتصل بمحور محدد. والتساؤل هذا إنما يستفهم في حقيقة الأمر عن موقف المتكلم حيال الأمر الكذائي. ويناط تحديد محور الاستفهام بالقائل نفسه وصاحب الرسالة وطبيعة العلاقة بين المتكلم والمتلقي ومعرفة الأخير بالمتكلم ذاته وسوى ذلك. وعلى هذا الأساس فإن التساؤلين المهمين حيال الوحي، يطرحان في ثلاثة مجالات مهمة: واجبات الجوارح، وطباع الجوانح وخُلقها، والأفكار النظرية التي تشير إلى الواقع.

ثمة اختلاف في وجهات النظر فيما يتصل بهذه النطاقات الثلاثة وكونها محوراً للتساؤلين المذكورين، إذ تقرر الفكرة السائدة ان للوحي ثلاثة أنماط من الإخبارات أو الرسائل، وبالتالي فإن القضايا والمقولات الدينية تتوزع في الوحي والسنة، على ثلاثة أقسام. ان بعض الآيات والروايات تلاحظ الواقع، بينما يتولى بعضها الآخر توصية الإنسان بواجباته، ويتضمن نوع ثالث منها، بياناً لقيم الأخلاق. وعلى هذا الأساس نجدهم يقسمون النصوص القرآنية إلى آيات الاحكام، وآيات العقائد، وآيات الأخلاق والمناسك.

وهنالك تصور آخر لا يخلو من الدقة، يفسر تنوع النطاقات المذكورة على أساس تنوع ما ينتظره المرء من الدين، وهكذا فإن طرح التساؤلات المتقدمة في مستوى الواجبات والأخلاق والمعتقدات، يقوم على أساس ثلاثة أمور يتوقع المرء من الدين ان يتولى الوفاء بها، أي ان من يتلقون الوحي ينتظرون منه ان يتحدث إليهم حول النطاقات الثلاثة تلك. ومن الممكن ان تتضمن آية واحدة خطاباً

للإنسان يتصل بالنطاقات تلك أجمع، أي انه سيتضمن حديثاً عن قيم الأخلاق والتعاليم التي تشير إلى الواقع وما يتعلق بالواجبات في آنٍ واحد[1].

وعلى أي حال فإن من يتلقى الوحي سيطرح ستة أسئلة رئيسة حيال ذلك، في ضوء التصور التقليدي:

1- ماذا يقول الوحي فيما يتصل بواجبات الإنسان البدنية حيال الله وبني البشر؟.

2- ماذا يقول الوحي حول السعادة والفضائل والرذائل وما ينبغي وما لا ينبغي أخلاقياً؟.

3- ما هو التصور الذي تطرحه رسالة السماء حول الكون والإنسان والطبيعة والقدر...؟.

4- لماذا يتحدث الوحي بهذه الطريقة فيما يتعلق بواجبات الجوارح (الجسد)؟.

5- ولماذا تحدث بتلك الطريقة حول واجبات الجوانح؟ لماذا يعد الحسد من الرذائل ولا تعد الغبطة منها؟.

6- على أي أساس يطرح الدين تصوره حول الكون؟ كيف لنا تقييم التفسير الذي قدمه الوحي للكون والإنسان والمفاضلة بينه وبين التفاسير الأخرى؟.

القراءة التقليدية

ان متلقي الوحي لم يرتكبوا أي وقاحة من خلال طرحهم الأسئلة هذه، بل تصرفوا طبقاً للطبيعة الإنسانية التي حباهم بها الله. وبكلمة أخرى فإنه لا مفر للإنسان من طرح هذه الأسئلة في ضوء القراءة التقليدية للدين. ونجد من جهة أخرى ان تقديم إجابات مناسبة وافية حيال الأسئلة المذكورة، لا يتيسر دون

---

[1] - محمد لغنهاوزن. اقتراح. مجلة نقد ونظر، شماره2، بهار 1374، ص34.

الاستعانة بعدة معرفية وأدوات تناسب ذلك الغرض، وذلك لسعة دائرة التلقي زمانياً أو تاريخياً، ومكانياً أو جغرافياً، إلى جانب ما يتمتع به الخطاب الإلهي من عمق وفي ضوء تباين التوقعات والعقليات السائدة.

نجد ان شعار"حسبنا كتاب الله" يعني رفضاً للعدة المعرفية التي تتيح فهم النصوص على نحو عميق ودقيق، ولن يؤدي شعار كهذا سوى إلى الابتعاد عن خطاب الوحي وتجاهله. من المؤكد اننا بحاجة إلى وسائط وأدوات للعثور على أجابات حيال الأسئلة المطروحة على الوحي، وهي أدوات تدلل على حقيقة الآيات والروايات وحقانيتها. وهذه الأدوات تنتمي إلى مقولة العلم والمعرفة، أو انها لون من الدراسة المنهجية والبحث المنظم بتعبير أكثر دقة. ان من يتلقى الوحي بحاجة إلى علوم الوسائل التي تجعل من نصوص الكتاب والسنة، أموراً يمكن فهمهما والتصديق بها.

وفي ضوء ذلك كان وجود القرآن والسنة بوصفهما مصدراً معرفياً ثرياً في الثقافة الإسلامية، سبباً في إثراء هذه الثقافة، الأمر الذي أتاح للعلماء المسلمين بناء علوم متعددة تتيح لهم استلهام أسئلتهم من القرآن والسنة. ان العلوم المنهجية والدراسات المنظمة ذات الصلة بتعاليم الدين والتي تتحدث حول الدين، أخذت تتطور تدريجياً واستعانت بعدة معرفية أخرى، كما تطورت في ظل هذه الثقافة العديد من علوم الوسائل الأخرى أو تلك التي تكونت وتأسست في إطار الثقافة الإسلامية.

انكب العلماء على التفقه في الدين في تعاملهم مع القرآن والسنة، وحاولوا العثور من خلال الاجتهاد، على إجابات للأسئلة المذكورة. ان الاجتهاد المنهجي في تقديم إجابة حيال السؤال الأول (ماذا يقول الوحي فيما يتصل بواجبات الإنسان البدنية حيال الله وبني البشر؟) أدى إلى ظهور علم الفقه. والفقه من علوم

الوسائط[1]، يوضح لمتلقي الوحي ما حدده من واجبات للجوارح. ونحن نعد الفقه علماً إسلامياً بالمعنى الحقيقي للكلمة على أساس طابعه الآلي الوسائطي هذا. لقد أنتج تاريخ هذا العلم بما زخر به من تحولات، العديد من علوم الوسائل كعلم الأصول والرجال والدراية...الخ، كما تحدث الفقهاء كثيراً فيما يتصل بتحديد العلوم التي يتطلبها الاجتهاد.

ان السؤال الآخر: ما هي واجبات الجوانح ومناهج الأخلاق في تصور الوحي؟ حظّي بمعالجات وأبحاث منهجية أدت إلى ظهور علم الأخلاق لدى العلماء المسلمين. وهو علم إسلامي حقاً على أساس طابعه الآلي الوسائطي. وليس المقصود بالأخلاق الإسلامية بوصفها علماً وسائطياً، ما يعرف عند الفلاسفة بالحكمة العملية وأخلاق أرسطو، بل يراد بها أخلاق القرآن التي أنجز الكثير من العلماء المسلمين أعمالاً متعددة حولها. ويشمل علم الأخلاق الإسلامي أسئلة من قبيل: ما هو المعيار النهائي للقيم في تصور الوحي والسنة؟ ما هو الشكل الذي في وسعنا بلورته لترتيب الفضائل والرذائل في ضوء الوحي؟ إضافة إلى ما يتصل بتحديد الواجبات الأخلاقية وموضوعات مشابهة أخرى.

اما الواسطة الأخرى التي تجيب عن سوى ذلك من الأسئلة فهي علم الكلام. حين ندرك الموقف المطلوب حيال السارق من خلال علم الفقه، ونرغب في التساؤل عن علة ذلك والعثور على مبرر مقنع له، فإن هذه الأسئلة لا تتعلق بعلم الفقه، لأن وظيفة الأخير تنحصر في تحديد ما تريده الشريعة عبر مناهج وأدلة خاصة تثبت ان الشريعة تطلب كذا ولا تطالب بكذا. ولكن لو أراد المرء ان يتساءل حول مدى ما يتوفر من مبررات للحكم الكذائي، ولا سيما في مواجهة الاتجاهات الأخرى، فإن الأمر يتطلب علماً آخر.

---

[1] - يريد المؤلف هنا بهذ التعبير ان هذه علوم تتوسط بين الوحي والمتلقي للكشف عن مقاصد الرسالة بأنحاء مختلفة. وهو غير قولهم ان علم أصول الفقه أو المنطق مثلاً من علوم الوسائل. (المترجم).

وهكذا نواجه أسئلة تتعلق بمبرر ما يقوله الوحي حول واجبات الجوارح والجوانح، وتصوره حول الكون والإنسان وما يستند إليه من مبررات في ذلك، وهي أسئلة تنتمي إلى علم الكلام. تولى كتابنا "الهندسة المعرفية للكلام الجديد" وعلى نحو تفصيلي، معالجة أسئلة من قبيل: ماذا ننتظر من علم الكلام؟ وما هي المقاربات التي قدمها العلماء حول هذا العلم؟.

وهكذا نكون بحاجة إلى ثلاثة علوم، في ضوء طابع الإخبار في الوحي والمستويات الثلاثة لما ينتظره الإنسان من تعاليم الوحي. وعلى هذا الأساس ظهرت وتطورت لدى المسلمين ثلاثة علوم وسائطية. اما سواها من العلوم التي تكاملت في نطاق الفكر الديني، فهي وسائل وأدوات للعلوم الثلاثة المذكورة، نظير علمي الحديث والتفسير، أو ان وصفها بالاسلامية لا يخلو من التسامح والمجاز، كما هو الحال مع الفلسفة الإسلامية.

ان الطابع الآلي الوسائطي للعلوم الثلاثة المذكورة، يعبر عن نقطتين مهمتين:

أولاً: ان هذه العلوم إسلامية حقاً، لأن المقياس في إسلامية العلوم كونها آلة وواسطة فحسب [بالمعنى المتقدم].

ثانياً: ان كلاً من العلوم الثلاثة هذه يمكن ان يتطور ويتجدد في ضوء تعريفها، لأن تحولها يخضع لتجدد متلقي الوحي وتغيرهم، وهذه التبعية تنشأ عن كون العلوم المذكورة واسطة بين الوحي ومتلقيه. وربما كان هذا التحول تدريجياً بطيء الإيقاع، كما هو الأمر مع التحول الذي طال منظومة الكلام لدى نصير الدين الطوسي مقارنة بنظيرتها عند الشيخ المفيد. وربما كان تحولاً جذرياً دفعة واحدة، كما هو حال علم الكلام المعاصر مقارنة بالكلام الكلاسيكي.

لم يحظ هذا الجانب في العلوم الثلاثة باهتمام الباحثين. ونلاحظ ان هاجس تجديد الفقه وتأهيله لتلبية الحاجات المعاصرة، أدى إلى طرح العديد من القضايا

فيما يتصل بالبنية والمنهج والموضوعات ومبادئ الفقه كذلك. كما أدت الأفكار العقيدية المطروحة منذ الحركة الدستورية حتى اليوم إلى إثارة العديد من الموضوعات، وهي قضايا تتطلب معالجتها الاستعانة بأدوات ومناهج ومبادئ جديدة، الأمر الذي دفع المتكلمين إلى الإقبال على الموضوعات الكلامية الجديدة وأدى إلى تعزيز الشعور بالحاجة إلى تأسيس منظومة كلامية جديدة. لقد احتل الكلام الجديد مكانة جعلته بمثابة مادة في الإلهيات ومقرراتها في الحوزة العلمية، كما انه بات فرعاً مستقلاً أيضاً.

غير ان علم الأخلاق تعرض إلى إهمال شديد من هذه الناحية، فجرى تجاهله من قبل الأوساط العلمية والباحثين في الفكر الديني. لم يتكون شعور بالحاجة إلى تجديد هذا العلم وتأهيله لتلبية الاحتياجات المعاصرة ولا سيما في مجال الأخلاق المهنية. ورغم الحاجة إلى أخلاق مهنية مجدية في مجال الصناعة والتجارة والمؤسسات الحكومية والطبية والرياضية، إلى جانب مؤسسات الإدارة والنظام القضائي، غير اننا لا نلمح حتى الآن برامج بحثية منظمة تتوفر في تلك المجالات على نحو وافٍ. لا يوجد في الجامعة اتجاه أو فرع يحمل اسم الأخلاق، كما ليست هنالك مجلة أو دورية علمية – بحثية تصدر في هذا الحقل. لو أراد مدير مؤسسة اقتصادية ان يدون ضوابط للأخلاق المهنية في ضوء تعاليم الإسلام، فإنه لن يجد بسهولة خبيراً يستشيره في هذا الحقل كما يبدو. ان من أهم عوامل ركود هذا الفرع، غياب التواصل الفاعل والآصرة العميقة بين الباحثين في الدراسات الدينية ومؤسسات المجتمع.

القراءة الجديدة

أدى الفكر السائد في عصر الحداثة إلى ظهور رؤية جديدة حيال الدين. ثمة عاملان رئيسان لعبا دوراً في تكوين تلك الرؤية هما ولادة العلوم التجربية وتطورها

المذهل إلى جانب شيوع الأفكار المدرسية. نجد ان علماء في فروع نظير السايكولوجيا والاجتماع في القرن التاسع عشر، ولا سيما رجالاً من طراز فرويد وماركس ودوركهيم الذين مثلوا في حقيقة الأمر كبار الباحثين في هذه العلوم، بادروا إلى تناول الدين وتعاليمه وظواهره بوصفها ظاهرة نفسية واجتماعية، الأمر الذي أسس اتجاهاً جديداً في البحث الديني.

ان التصور الحديث لا يفترض الدين رسالة وخبراً، بل يفسره بوصفه حقيقة مستقلة. ورغم ان القراءة الجديدة لا تتقاطع مع القراءة التقليدية وأن التوفيق لا يمتنع بين هذين التصورين على المستوى المنطقي، بيد ان القراءة الثانية لطالما أصبحت بديلاً عن القراءة الأولى. لا يعد الدين في ظل القراءة الجديدة رسالة من قبل مصدر معين، ولذلك فإن موضوعات البحث الديني الجديد لا علاقة لها بصحة الرسالات الدينية أو بطلانها، اللهم إلا ان يكون ذلك في إطار واحد من التوجهات التي سنتولى الحديث عنها لاحقاً.

غالباً ما لا تكون الدراسات الدينية الجديدة، في صدد ممارسة بحث معياري أو الحديث عن الصدق والكذب والصحة والبطلان، بل يجد الباحث في هذا الاتجاه نفسه أمام ظاهرة فريدة معقدة وينهمك في فهمهما واكتشافها. ومن الأسئلة الأساسية التي تثيرها الرؤية الحديثة هذه، ما يتصل بماهية الدين وهوية الظواهر الدينية وأبعادها، وأهداف الطقوس الدينية وجوانبها وآثارها، إضافة إلى منطلقات الإيمان ومنشئه ومكانته، وتعدد الأديان وما يطرأ من تغير على الحالة الإيمانية. ان وصف الظواهر الدينية وتفسيرها من أهم أهداف البحث في الرؤية الجديدة للدراسات الدينية، بينما نجد في الرؤية التقليدية ان البحث الديني يستهدف فهم تعاليم الدين وتفسيرها وتبريرها والبرهنة على صدقها.

نلاحظ ان الدين بوصفه وحياً أرسله الله إلى الإنسان، لا يمثل في حقيقة الأمر موضوع الدراسة في ظل الرؤية الجديدة للدين، بل موضوعها الإيمان بوصفه

معتقدات وسلوكاً بشرياً يخضع للبحث والمدارسة. لا يطرح الباحثون في هذا الاتجاه أسئلة حول صدق التعاليم الدينية، بل يتوفرون على اكتشاف الظواهر الدينية. فكما ان من الضروري ان نفهم الإنسان ونكتشف الطبيعة فإن من الممكن أيضاً اكتشاف الدين. بدلاً عن التساؤل حول صدق القضية التي تقرر"ان الله رحيم" أو كذبها مثلاً بوصفها خبراً سماوياً، نجد ان الاتجاه هذا يتساءل حول منشأ الإيمان برحمانية الله وآثار ذلك وما يتحرك عنه من منطلق. وتتحرك الأبحاث في ظل القراءة الجديدة على مستوى الواقع، بعيداً عن مستوى التقييم والحكم، على حد تعبير يونغ (1875-1961) في تنويهه إلى ذلك[1].

ويلاحظ جون هيك التحول المذكور في مسار البحث الديني ويصفه بأنه تغير في الموقع الذي احتله مصطلح (الله) بوصفه مفردة أساسية هي مدخل لمجموعة من المفردات والمصطلحات، حيث تخلت عن موقعها لصالح مفردة أخرى هي مصطلح "الدين" الذي أصبح هو المصطلح الرئيسي في تلك الفصيلة أو المجموعة اللغوية ذاتها[2]، وبكلمة أخرى فإن الإلهيات [علم معرفة الله] تحولت إلى علم معرفة الدين [أو علم الأديان].

:"ان صيرورة "الدين" بديلاً عن "الله" بوصفه المحور الأساسي للبحث والمعالجة، أدى إلى لون من التحول في طبيعة الأسئلة التي تطرح دوماً بشكل جاد في هذا النطاق. كان التساؤل التقليدي يستفهم طبعاً فيما يتصل بالله: هل ثمة وجود لله؟ أو هل يمثل الله أمراً حقيقياً؟ غير انه ليس في وسعنا طرح سؤال كهذا

---

[1] - غوستاف يونغ كارل. روان شناسي ودين (الدين وعلم النفس). ترجمة فؤاد روحاني. تهران، شركت سهامي كتابهاي جيبي، 1370، ص4.

[2] - جون هيك، فلسفه دين. ترجمة بهرام راد (سالكي). تهران، انتشارات بين المللي الهدى، 1372، ص185.

حيال الدين إذ من الواضح ان الدين موجود. تتمثل أهم الأسئلة بتلك التي تتصل بغايات الدين وأهدافه في حياة الإنسان"[1].

المجالات الهامة في البحث الديني

بلورت القراءة الجديدة للدين مجالات جديدة في الأبحاث الدينية، فالدين حينئذ وبوصفه حقيقة معينة، أمر بشري أي انه ظهر في حياة الإنسان كحقيقة وظاهرة. وهذه الحقيقة التي اقترنت بظهور الإنسان وواكبته، ليست حقيقة ذات مستوى واحد في ضوء تعقيدها وتعدد أبعادها، بل تتمتع بمستويات متعددة. ان الدين حقيقة فردية يصفها يونغ مؤسس التحليل النفسي بأنها قضية شخصية مهمة[2]، وهو أيضاً ظاهرة اجتماعية تتصل عبر آصرة وثيقة بالمؤسسات والكيانات الاجتماعية الأخرى. وهو كذلك حقيقة تاريخية أخذت مسارها في حضارة الإنسان واكتسبت هوية تاريخية.

وفضلاً عن المستويات المتعددة المذكورة فإن تعقيد الحقيقة الدينية يتمثل في الحقيقة المعرفية أيضاً، والمراد بها ان الفكر الديني أدى تدريجياً إلى ظهور علوم دينية نظير الكلام والإلهيات. وقد حظيت هذه العلوم كما هو الحال مع سواها، باهتمام فلاسفة العلم. ان تعدد مستويات الحقيقة الدينية في الإطار الإنساني أدت إلى ظهور فروع جديدة في البحث الديني ضمن الدراسات الدينية.

---

[1] - م. ن. ص 186.

[2] - روان شناسي ودين، مصدر سابق، ص1.

والدين بوصفه حقيقة فردية في الإطار الإنساني، يمثل موضوعاً للدراسة عند علماء النفس. فهم يتناولون السلوك الديني على أساس قوانين السلوك العامة، وثمة مفاهيم وتحديدات عديدة قدمت لتعريف علم نفس الدين[1]، على نحو يجعل من الصعب بلورة تعريف يرضي جميع علماء النفس. لكن التنويه بالقضايا الرئيسية في هذا المجال من الأبحاث الدينية يقدم لنا تصوراً واضحاً حوله، ومن أهم تلك القضايا أساس الدين ومنشؤه ومكانة الإيمان وما يطرأ عليه من متغيرات نفسية، إلى جانب أنماط الإيمان وأشكاله والتجربة الدينية إضافة إلى الآثار النفسية للإيمان[2].

بدأ علم نفس الدين للمرة الأولى مع باحثين كبار من طراز فرويد (1856-1939) ووليم جيمس (1842-1910) وفرانكل (1905) ويونغ (1875-1961) وهو حقل يشهد اليوم ازدهاراً كبيراً بفضل استخدامه المناهج والعدة التجربية بما يمثل دراسة تجربية للدين. وقد حظي هذا الحقل من الأبحاث الدينية باهتمام الباحثين المسلمين كذلك[3].

أصبح الدين بوصفه حقيقة اجتماعية موضوعاً في بحوث علماء الاجتماع، فقد تأثر الإيمان بالعوامل الاجتماعية كما أفرز آثاراً اجتماعية، ويرتبط الدين مع مختلف مؤسسات المجتمع بوصفه واحداً من أهم الكيانات والمرتكزات القائمة فيه.

ان الموضوع الرئيسي في علم اجتماع الدين هو علاقة الدين بالمجتمع، ويتوفر الباحثون في هذا المجال على مقاربة الآثار الاجتماعية للدين في تعزيز التكافل

---

1 - Wulf. D, Psychology of Religion: Chassic and Contemporary, New York, 1991, p. 18-20.

2 - نيما قرباني. روان شناسى دين: يك روى آورد علمى چند تبارى (علم نفس الدين: اتجاه علمي متعدد الأصول). قبسات، شماره 8-9. سال 1377، ص22-45.

3 - بل واطسون ونيما قرباني. روان شناسى دين در جامعه مسلمين (علم نفس الدين في الاوساط الاسلامية). ترجمة بونه بناكار. قبسات، شماره 8-9. سال 1377، ص53-72.

الاجتماعي واستقرار الحياة الاجتماعية. وهذا النطاق من الأبحاث الدينية يتحرك في إطار موضوعين مهمين:

الأول: الدور الهام الذي تلعبه المعتقدات والسلوك والطقوس الدينية في كل من الثقافة والمجتمع.

والثاني: التحول والتطور الذي طال أشكال المعتقد والسلوك الديني في المجتمعات الإنسانية[1].

ظهر علم اجتماع الدين لأول مرة على يد باحثين كبار ضليعين من طراز كارل ماركس (1818-1883) بتوجهاته المادية الديالكتيكية، وإميل دوركهيم (1858-1917) باتجاهه الوظيفي، وماكس فيبر (1864-1920) بتوجهه العقلي، وهؤلاء نماذج للعلماء الذين أخذوا في دراسة الدين. لقد ابتعد هذا الحقل اليوم، عن التنظير شبه العلمي الذي غالباً ما يستعصي على التكذيب، وظهر كدراسة تجريبية للدين يتسلح بأدوات علم الاجتماع ويتحرك في إطاره[2].

غالباً ما يغيب التمييز بين علم نفس الدين*(Psychology of Religion)* وعلم النفس الديني *(Religious Psychology)* وكذلك علم اجتماع الدين *(Sociology of Religion)* وعلم الاجتماع الديني*(Religious Sociology)*. غير ان الالتفات إلى التباين المعرفي بين هذه الحقول يساهم بنحو أساسي في فهم شتى مجالات البحث الديني.

يمتلك النطاق الثالث في الأبحاث الدينية الجديدة سابقة تاريخية أعرق مقارنة بالحقلين المذكورين، وأعني بذلك الدراسات التاريخية للدين. وحيث ان الدين ولد

---

[1] - لمزيد من التفصيل راجع: ملكم هلتون، جامعه شناسي دين (علم اجتماع الدين). ثلاثة مترجمين. طهران، تبيان. 1375.

[2] - Davis Winston, Sociology of Religion, the Encyclopedia of Religion, P. Edwards (ed.), 1987, Vol. 13 p. 393-410.

مع الإنسان وواكبه فهو من أهم العناصر المكونة لأسس الحضارة الإنسانية، كما يمكن رصد التجارب الدينية على اختلاف أنماطها، في شتى مظاهر الحياة الإنسانية. وقلما وجدنا ظاهرة تتمتع بهوية تاريخية كتلك التي يمتلكها الدين ربما. والمراد بالحقيقة التاريخية تلك التي تتحرك في نطاق الزمن وتتسم بتواصل تاريخي.

كانت الدراسة التاريخية للأديان تعد يوماً ما، بحثاً حول تاريخ المعتقدات والسلوك الديني، وعلى هذا الأساس كانت برامج البحث في الاتجاه التاريخي تنطلق من الماضي لتتحرك نحو المستقبل. أما اليوم وفي ظل الاتجاه الحديث العلمي في الدراسات التاريخية، فقد اكتسب تاريخ الأديان مفهوماً جديداً. ان البحث الديني التاريخي يمثل اكتشافاً للماضي في ظل المستقبل، ويتناول الظواهر والتجارب والسلوك الديني في إطار الزمن وفي ظل تطورها التاريخي، ويجعل من الممكن تفسيرها وفهمها من خلال المقارنة بين أشكالها وصورها المتنوعة. لقد أدت أدوات البحث التاريخي الحديثة إلى جعل هذا الحقل من الأبحاث الدينية جزءاً من الدراسات التجريبية للدين. ومن أهم موضوعات الدراسات التاريخية للدين، وحدة تجارب الإنسان الدينية، والتطور التاريخي للإيمان، وما يلعبه الدين والتطور الثقافي والمتغيرات الإنسانية وأشكال الإيمان المختلفة، من دور في هذا الإطار.

ثمة للحقيقة الدينية عند الإنسان، مظهراً آخر سوى الإيمان، إذ ان الإنسان في تعامله مع الدين لم يكتف بممارسة التدين والإيمان وممارسة الطقوس الدينية، بل جعل من ذلك بمجمله موضوعاً للجهد المعرفي المنهجي. وكما أسس الإنسان منظومات معرفية كالفيزياء والرياضيات والاحياء، فإنه قام بتأسيس الفكر الديني أيضاً.

ورغم ما يتسم به الفكر الديني من طابع وسائطي بين الوحي ومتلقيه، بيد انه فكر بشري على أي حال، وكما شيد الإنسان الحضارة وابتدع الصناعة والتكنولوجيا، فإنه أسس الكثير من العلوم ثم راح ينظر إليها ويتناولها من منظور

إبستمولوجي. وكما يجعل الإنسان ظواهر الطبيعة موضوعاً للمعرفة، فإنه يجعل من المعرفة الإنسانية ذاتها موضوعاً للدراسة، ومن خلال ذلك يتوصل إلى معطيات الدرجة الثانية[1] *(second order knowledge)*. وتمثل فلسفة العلم بفروعها ومجالاتها المتنوعة، حصيلة أبحاث الدرجة الثانية التي يكون موضوعها العلم. ويطلق اسم فلسفة الدين على أبحاث مماثلة تدور حول الفكر الديني وتكون المعرفة الدينية موضوعها، بوصفها واحداً من العلوم البشرية. ان فلسفة الدين هي من حقول الأبحاث الدينية، وعلى حد تعبير بازل ميشيل فإن العلاقة بين الدين وفلسفة الدين كالعلاقة بين علم التاريخ وفلسفة التاريخ أو العلم وفلسفة العلم[2].

وتتولى فلسفة الدين دراسة الدين بوصفه حقيقة إنسانية كما هو الحال مع الحقول المذكورة سابقاً، غير ان موضوع فلسفة الدين لا يتمثل بالإيمان في مفهومه النفسي أو الاجتماعي أو التاريخي، بل موضوعها علم بشري هو علم الدين (نظير علم الكلام أو الإلهيات). وهكذا فإن التمييز بين فلسفة الدين وعلم الكلام والإلهيات أمر أساسي.

ليست فلسفة الدين كما يقول جون هيك، أداة لتعليم الدين أو تعلمه، بينما نجد ان علم الكلام والإلهيات يمثلان برنامجاً تعليمياً تبشيرياً يحمل طابعاً

---

[1] – يشير في هذا إلى ما يعرف في الفلسفة الكلاسيكية بالعلم المضاعف أو المركب مقابل العلم البسيط. فثمة علم بسيط يمثل الادراك المألوف كالعلم بأن أرسطو إنسان، وهنالك علم آخر يكون موضوعه العلم الأول البسيط أي انه علم بعلمنا بأن ارسطو انسان. اذ ان قضايا الدرجة الثانية هي تلك التي يكون موضوعها الإدراكات والمعارف البسيطة بحيث تكون حصيلة القضية عبارة عن العلم بالعلم، وقد يعبر عنها في المنطق الكلاسيكي بالقضايا التي تتولى تحويل العلم الارتكازي المغفول عنه إلى علم تفصيلي ملتفت اليه. (المترجم).

[2] – Mitchell, Basil (ed.), The Philosophy of Religion, Oxford University Press, 1986, p.1.

وسائطياً. ان فلسفة الدين مستقلة عن موضوع البحث فيها [أي انها علم لا وسائطي] على العكس من علم الكلام[1].

العلاقة بين مجالات البحث الديني

ثمة آصرة تجمع بين المجالات السبعة للبحث الديني. فالعلوم التي تتأسس على القراءة التقليدية للدين، تتحدث عن الدين في واقع الأمر فتفسر ماهية الرسالة الدينية وحقيقتها وتثبت صدق تعاليم الدين. والهدف من هذه الأبحاث مقاربة الرسالة التي حملها الدين للإنسان والمبرر للرسالة تلك. وهكذا فإنها تتسم بطابع وسائطي وهي حقول دينية وإسلامية بالمعنى الحقيقي للكلمة. غير ان العلوم التي تتأسس على القراءة الحديثة للدين إنما تتحدث حول الدين (بمعنى الإيمان أو الفكر الديني).

ان البحث الديني الجديد يشكل منعطفاً مهماً في الدراسات الدينية، ويتولى جون هيك وصف هذا التحول على نحو واضح بقوله: "ان نظرية راندال فيما يتصل بالدين والدور الذي تلعبه لغة الدين، تعكس بوضوح كامل لوناً من الفكر يشيع اليوم بأشكال أخرى وبدرجة أقل من الوضوح، في كل مكان، فيما هي السمة التي تميز ثقافتنا في حقيقة الأمر. وقد تبلور هذا اللون من التفكير إلى درجة جعلت مصطلح الدين يتقدم إلى حد كبير كبديل عن مصطلح الإله. نجد اليوم في المجالات والموضوعات التي كانت تتولى في الغالب معالجة قضايا تتصل بالله ووجوده وصفاته وغايات فعله، ان الموضوعات والقضايا ذاتها على سبيل المثال،

---

1 - هيك. مصدر سابق. ص 22.

تدور اليوم حول الدين وماهيته ودوره وصوره وقيمته العملية. ان صيرورة "الدين" بديلاً عن "الله" بوصفه المحور الأساسي للبحث والمعالجة، أدى إلى لون من التحول في طبيعة الأسئلة التي تطرح دوماً بشكل جاد في هذا النطاق"[1].

هنالك تداخل بين موضوعات الحقول السبعة في الأبحاث الدينية، إذ نجد ان قضية واحدة هي التجربة الدينية مثلاً، تكون موضوعاً للبحث الكلامي والفلسفي والنفسي والتاريخي. ويعود ظهور حقول وعلوم متنوعة تتناول قضايا واحدة، إلى ما تتسم به الموضوعات أو القضايا ذات الصلة بالدين من طابع أو هوية متعددة الأصول *(multiple-origins)*. وسنتناول ذلك على نحو تفصيلي في بحثنا لاتجاه الدراسات البينخصصية[2].

كان هذا التداخل في الموضوعات يؤدي تارة إلى خلط المباحث والدمج بين الحقول والمجالات، ويتمخض تارة أخرى عن نـــزعة حصرية. وبعبارة أكثر دقة فإن العلماء كانوا يواجهون هذا اللون من القضايا أحياناً باعتماد الحصرية المنهجية *(methodological exclusivism)* فلا يحفلون إلا بمعطيات علمهم الخاص. بينما نجد أحياناً باحثاً مبتدئاً يخلط بين معطيات علمية متنوعة ولا يعود عليه منها سوى الحيرة والضياع. لقد بلور الاتجاه البيتخصصي اليوم آصرة مفيدة مؤثرة بين المجالات المتنوعة للأبحاث الدينية، وسنقوم في الفصول القادمة بتناول المنهج البيتخصصي وبحث طبيعته وأهميته، في الدراسات الدينية.

تتجلى بعض مستويات العلاقة بين حقول البحث الديني المتنوعة، في ان كلاً منها ربما رفد الآخر بقضية جديدة أو أسس له مبادئ جديدة. وعلى سبيل المثال فإن المتكلم الذي يعد نظرية القبض والبسط في المعرفة الدينية، لوناً من الشبهات بوصفها واحدة من معطيات فلسفة الدين، سيجد ان هذه النظرية تمثل

---

1 – م. ن. ص 185–186.

2 – أوضحنا هذا المصطلح في هامش سابق. (المترجم).

قضية لا بد من معالجتها وتفنيدها. بينما ستكون تلك النظرية واحدة من مقدمات البحث الكلامي وأسسه، لدى متكلم آخر يرى فيها تصوراً مفيداً[1].

ويعبر التفاعل المعقد بين حقول البحث الديني المتنوعة، عن مدى صعوبة الأمر في الدراسات الدينية، ويوضح ان جدوى هذه الدراسات يتوقف على تبلور آصرة معرفية مع شتى المجالات الأخرى.

إيجاز لما مر

ان الدراسات الدينية أبحاث تتصل بالدين وتعاليمه وظواهره. وفي ضوء القراءة التقليدية يؤدي اعتبار الدين رسالة وخبراً، إلى ظهور علوم الكلام والفقه والأخلاق بوصفها علوماً وسائطية بين الوحي والعقل واللغة لدى المتلقي. وهذه علوم إسلامية حقاً، أما سواها فهي أدوات للعلوم الثلاثة تلك أو ان وصفها بالإسلامية لا يخلو عن التسامح والمجاز.

وفي ضوء القراءة الجديدة للدين، ظهر علم نفس الدين وعلم اجتماع الدين وتاريخ الأديان وفلسفة الدين. وتصنف الحقول الثلاثة الأولى ضمن الدراسات الدينية التجربية، التي تتولى معالجة الدين باعتباره حقيقة نفسية أو اجتماعية أو تاريخية. أما فلسفة الدين فهي تتولى دراسة الفكر الديني وتستعين في ذلك بالتحليل المنطقي.

والمقياس في وصف علوم الكلام والفقه والأخلاق بالدينية، هو طابعها الوسائطي وكونها تتحدث عن الدين، أما فيما يتصل بسواها من العلوم فالمقياس هو كونها تتناول الدين وتمارس البحث في هذا الإطار.

---

[1] - لمزيد من التفصيل وملاحظة أمثلة عديدة، يراجع: احد فرامرز قراملكي، كتابشناسي توصيفي تحول معرفت ديني (ببليوغرافيا وصفية لتطور الفكر الديني). كتاب نقد. زمستان 76-بهار77. شماره 5-6. ص362-384.

ثمة تداخل بين المجالات السبعة المذكورة في قضاياها وعلى مستوى التأثير العلمي المتبادل، رغم ما بينها من تباين معرفي. كما ان أكثر الأساليب جدوى في الدراسات الدينية في ظل استيعاب تلك العلاقة المتبادلة، هو التخلي عن الحصرية المنهجية واللجوء إلى الدراسات البيتخصصية. يتكفل الشكل 2-1 باستعراض ترتيب المجالات السبعة، وينبغي للقارئ ان يدرس الشكل التوضيحي ويقارن ذلك بالإجابات التي قدمها حيال الأسئلة الواردة في مدخل الفصل.

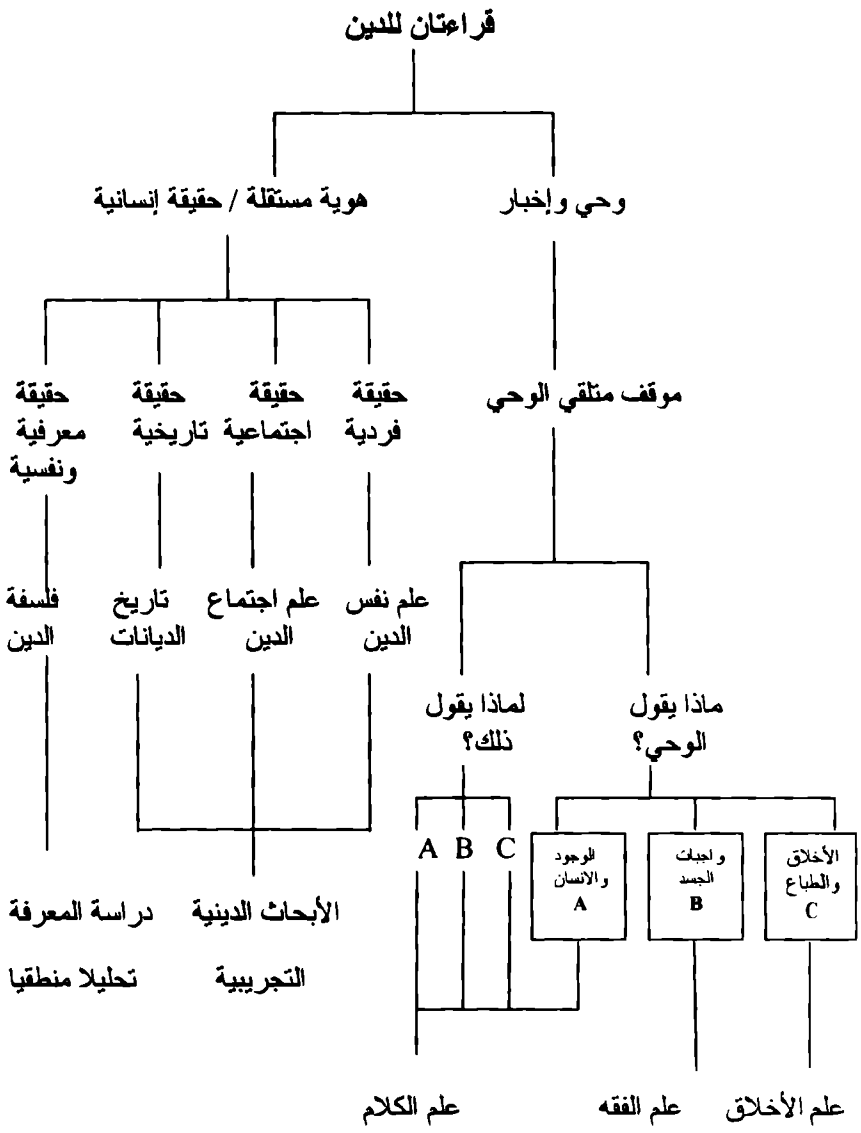

الشكل 2-1: ترتيب المجالات المتنوعة في البحث الديني.

تمرين

1- ان ترتيب حقول البحث الديني المتنوعة قد تجاهل ظاهريات الدين و لم يشر إليها. قدم تفسيراً ونقداً لذلك.

2- يتضمن الفهرس أدناه العلوم التي توصف بأنها إسلامية. كيف تفسر وصفها بالإسلامية طبقاً للنطاقات البحثية المذكورة وفي ضوء المقاييس التي ذكرت من قبل؟ يقدم الجدول 2-5 إطاراً للتحليل المطلوب.

ت	العلم	إسلامي	علم وسائطي آلي	إسلامي مجازا	السبب
1					
2					
3					
4					
5					
6					

الجدول **2-5**: تفسير إسلامية العلوم الموصوفة بأنها كذلك

الفصل الثالث:

الجدوى في مشروع البحث

مدخل

لو افترضت نفسك مدرساً تتولى تنفيذ برنامج تعليمي محدد، فهل ستنهمك بالكامل في إيصال الموضوعات والأفكار إلى الدارسين وينحصر هدفك في ذلك الغرض، أم ان جهدك هذا سيقترن بحرصك على مقدار ما سيتقنه الدارسون ويتعلمونه؟ هل يمكن لذلك الجهد ان يتكلل بالنجاح بمجرد الاعتماد على التقنيات التربوية والتعليمية ودون ان يتوفر لدى المدرس حرص كهذا؟

ان الحرص على جدوى البحث ومدى فائدته هو السر في نجاحه، أما ممارسة البحث من أجل البحث وحسب فليس سوى تسلية ممتعة.

حين يستهدف البحث بلورة نتيجة محددة فإنه سيكتسب معناه ويكون مجدياً، وهذا ما يتحقق عبر حرص الباحث على نتيجة جهده. ما هي أبعاد هذا الحرص؟ كيف يمكن ان نختبر مدى التزام البحث بمساره الطبيعي، أو جنوحه نحو الجهة الخطأ؟

يظل نجاح المشروع البحثي مرتبطاً بعوامل وظروف متعددة، ومنوطاً بالتخلص من معوقات متنوعة. وسيحول اكتشاف هذه العوامل والمعوقات، دون إخفاق الباحث، ويجعل من البحث أكثر جدوى. ما هي عوامل إخفاق البحث؟ ما هو السر في كثرة عدد الباحثين وندرة البحوث المجدية؟ لماذا لا تتوفر لدينا

مؤشرات مُرضية حول الأبحاث؟ ما بال الأبحاث غالباً ما تكون مكررة عديمة الفائدة أو بعيدة عن حاجات المجتمع الملموسة والأساسية؟

يقول الدكتور زرين كوب في وصف أحوال البحث العلمي عام (1333هـ - 1954م):"رغم وفرة الباحثين لدينا، غير ان تقاليد البحث تبدو هزيلة جوفاء، وهو أمر يبعث على الأسف"[1].

ثمة ثلاث ملاحظات جديرة بالاهتمام في كلامه، وهي: وفرة الأبحاث على نحو ملفت للنظر، وضعف تقاليد البحث وخواؤها، والبحث الصحيح.

لا يمكن القول بأن كل الأبحاث تتوافر على المواصفات المطلوبة والمناسبة، ولكن ما هو البحث الصحيح وما هي مقاييسه؟ هنالك إجابة تقول:"ان البحث الصحيح هو ذلك الذي يتأسس على تقليد بحثي رصين وعلمي". ورغم ان إجابة كهذه تتحدث عن شرط ضروري، ولكن ما هي الفائدة يا ترى من إنجاز عمل لا قيمة له، على أساس تقاليد رصينة؟[2] وبكلمة أخرى فإن في وسعنا سلوك أي طريق كان إذا لم نعلم مسبقاً بالوجهة التي علينا ان نقصدها.

يتقوم البحث الصحيح اليوم بعنصرين هما "أن يكون عمليا" و"أن يكون مثمراً" كما يعرّفونه. ولكن ما هي طبيعة هذين العنصرين وعلى أي عوامل وظروف يتوقفان؟ غالباً ما يكون البحث الصحيح (العملي المفيد) نادراً، فما هو السر في ذلك؟ ما هو سبب الهزال والخواء في تقاليد البحث؟

يسلط زرين كوب الضوء على سبعة نماذج لأخطاء البحوث السائدة،

---

[1] - زرين كوب. يادداشتها، مصدر سابق، ص 12.

[2] - كن بلانتشارد. مديريت بر قلبها (الهيمنة على القلوب). ترجمة عبد الرضا رضائي نژاد. تهران، 1379، ص10.

وهي:

- تجاهل مناهج البحث المحددة.
- تقيد الأداء بقالب محدد.
- الرتابة.
- الخواء.
- عدم الجدوى.
- غياب تقاليد البحث.
- السطو والانتحال وعدم الاعتماد على ما هو ضروري من المصادر الكافية.

وتعود هذه الحالات إلى عوامل عدة كما تترك جملة من التبعات والآثار. ان اللامبالاة والتسرع والتساهل فيما يتصل بالبحث، هي ثلاثة عوامل نفسية يجري التأكيد عليها في معالجات زرين كوب، وهي تؤدي إلى الضياع وفقدان العمل لقيمته. لاحظ الشكل 3-1.

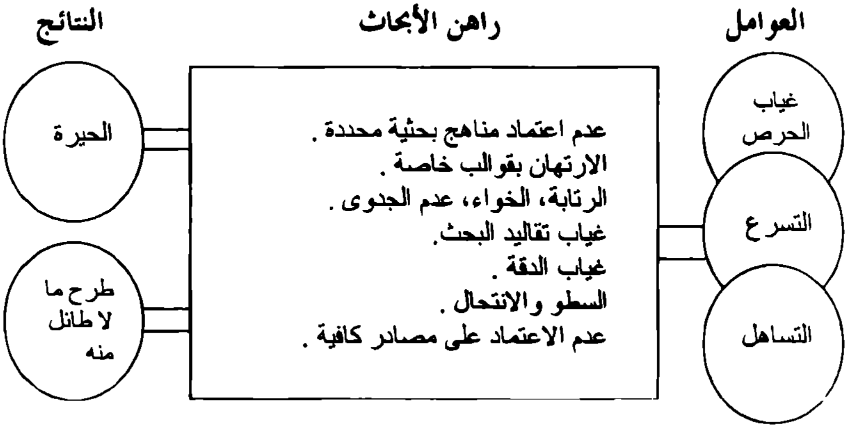

الشكل 3-1: حال الأبحاث عام 1377 [1958] كما يصوره الدكتور زرين كوب.

أما اليوم وبعد مرور أعوام من التجربة والخبرة في مجال الأبحاث في البلاد، فإن أسف المرحوم زرين كوب تحول إلى صيحة محقة تقول:"أناشدكم بالله أن تكفوا عن الكتابة"[1]، إذ ان الأعمال التي توصف بأنها أبحاث، غالباً ما تفتقد روح البحث ويعوزها الحد الأدنى من المواصفات المطلوبة ولا تنطوي على جدوى. سنصاب بخيبة الأمل والإحباط، لو كنا نأمل ان تكون الرسائل الجامعية (الماجستير والدكتوراه) بمستوى برامج الأبحاث، أو كنا نراهن على ذلك الكم الهائل من مشاريع البحث في مراكز التعليم العالي ومؤسسات الأبحاث والمنظمات الحكومية والمؤسسات والقطاع الخاص، ونتطلع إلى ان تساهم هذه البرامج في تخطي أزمات البلاد، وهكذا لو حاولنا تحديد مدى الإبداع الذي انطوت عليه.

لا بد في تحديدنا لأوضاع البحث السيئة، ان نهتم بالعوامل المتعددة التي تؤدي إليها *(multiple factorial)* دون الاهتمام بعامل واحد حصري في ذلك بوصفه علة العلل. ان المناهج هي أكثر عوامل النجاح أهمية، ونحن نسعى في هذا الفصل إلى معالجة تلك العوامل التي تقع خارج عملية البحث، أي الظروف والشروط التي تؤدي إلى جعل البحث منتجاً ومجدياً. وعلى فرض ان تتوفر مناهج وتوجهات مناسبة، فيمكننا حينئذ ان نتساءل: كيف لنا ان نستثمر تلك المناهج؟

كيف يمكن توجيه عملية البحث وفريق الباحثين نحو مسار صحيح يحول دون إخفاق البحث؟ كيف يسعنا توفير ضمانة تكفل جدوى مشروع البحث، وتأمين تحقيقه للهدف أو الأهداف المحددة؟

وبغية رفع مستوى المشاركة في هذا الموضوع، يمكن عبر التمييز بين القضيتين المركزيتين في البحث المشار إليه، ان نستعين بمنهج آخر في مقاربة

---

[1] - اسفندياري. "از هر خدا منويس (نويسندگي در روزگار ما)" (الكتابة في زماننا). مجلة آينه پژوهش، شماره 33، 1374، ص 2-8.

الموضوع. الأولى: هل ترى انك باحث ناجح؟ ما هي مؤشرات نجاحك؟ في ضوء أي المقاييس يمكننا تقييم مدى نجاح المشروع البحثي؟ أكمل الجدول رقم 3-2.

المقياس في نجاح مشروع البحث	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

جدول رقم 3-2: المقياس في نجاح مشروع البحث.

يتولى المقياس المنوه إليه، التدليل على تحقق النجاح وتسويغه *(justification)* ويضع بين أيدينا الفارق الحقيقي بين النجاح الموهوم والنجاح الفعلي *(demarcation)*. وفي تعاملنا مع قضية النجاح يمكننا ان نتساءل حول أسبابها وعواملها وهو السؤال الثاني: ما هي العوامل التي يتوقف عليها النجاح؟ ان الأسباب والعوامل وعلى العكس من الأدلة، تتولى تبيين النجاح *(explanation)*. ويلعب طرح السؤال هذا دوراً في تيسير عملية توفير الشروط الملائمة والتوصل إلى بحث مثمر. ما هي العوامل التي يتوقف عليها نجاح المشروع البحثي؟

أكمل الجدول رقم 3-3.

عوامل نجاح البحث	
1	
2	
3	
4	
5	

الجدول رقم: **3-3**: عوامل نجاح مشروع البحث.

نتساءل أخيراً كحصيلة لما سبق: ما هي العملية التي توفر لدى الباحث ضمانة فيما يتصل بثمرة بحثه وجدواه؟

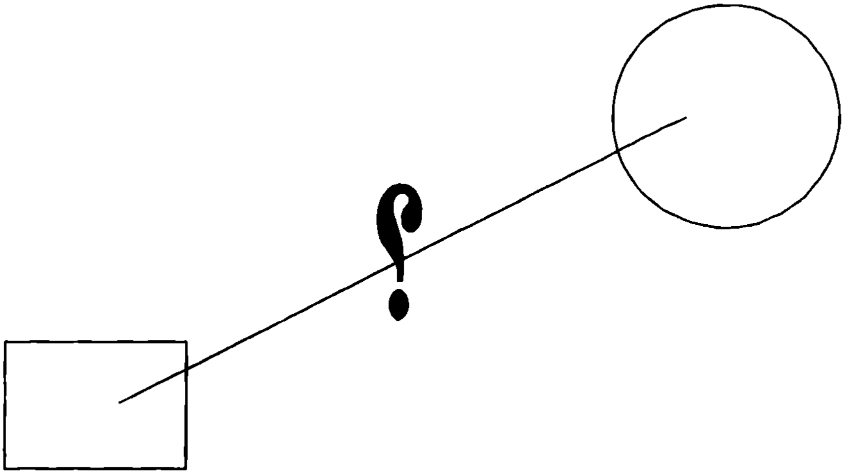

الشكل **3-2**: جدوى البحث.

إدارة برنامج البحث

تلعب الإدارة بين العناصر المؤثرة في نجاح البحث، دوراً مركزياً، ويظل نجاح برنامج البحث بحاجة قبل كل شيء إلى عنصر الإدارة. ان الممارسة البحثية تمثل خطوات يجري إنجازها على شكل مشروع ومن خلال فريق عمل أو بالمشاركة مع هذا الفريق. وهذه السمات الثلاث (كون البحث مجموعة خطوات على شكل مشروع، ووجود فريق العمل) تلقي ضوءً أفضل على حاجة البحث إلى عنصر الإدارة، وذلك لما يلي:

أولاً: يتطلب العمل الجماعي في مشروع البحث، تنظيماً لجهود الأعضاء وتنسيقاً بينها لتحقيق الهدف المأخوذ بنظر الاعتبار، وهذا ما يتحقق من خلال عنصر الإدارة. ويعبر مفهوم الإدارة كما تبلور لدى *(P.Heresy)* و*(K. Blanchan)* عن العمل المشترك مع آخرين ومن خلالهم، بغية تحقيق أهداف تنظيمية.

ثانياً: يصبح المشروع في ضوء تعريف الإدارة، أمراً لا مناص منه. وهو عدد من الخطوات المتخذة والعمليات المعقدة الخاصة التي تتكون من أنشطة منطقية

مرتبطة ببعضها، ويجري تنفيذها تحت إشراف إدارة محددة ومؤسسة تنفيذية لأجل تحقيق هدف أو أهداف معينة، في إطار برنامج زمني وميزانية محددة مسبقاً[1].

ثالثاً: لا يمكن تحقق جدوى عملية البحث وإنتاجيتها، إلا من خلال عنصر الإدارة، فالإدارة على حد تعبير أشخاص من قبيل دراكيه، تمثل في حد ذاتها عملية رفع معدل الاستثمار، وليس الاستثمار سوى جعل الأمر عملياً مجدياً.

لو افترضنا انك في صدد كتابة رسالة الدكتوراه، فلا بد ان يكون بحثك هذا عملاً جماعياً. ثمة أستاذ مشرف وأستاذ مستشار أو أساتذة مستشارون إضافة إلى الباحث نفسه صاحب الرسالة، وهذه التشكيلة تمثل الحد الأدنى من فريق البحث. ما هو دور كل من هؤلاء؟ كيف جرى تقسيم مراحل هذا المشروع وكيف يتم التنسيق بين أدوارهم؟ هل أخذت على عاتقك مهمة التخطيط وإدارة فريق العمل إضافة إلى دورك كباحث، أم ان إدارة الفريق يتولاها شخص آخر كالأستاذ المشرف؟

ان ملاحظة دقيقة لأدوار هؤلاء تدل على ان مشروع البحث يتطلب لونين من الإدارة: تنفيذي وعلمي. وفي المثال المذكور غالباً ما يلتزم الطالب بمسؤولية الإدارة التنفيذية، بينما تكون الإدارة العلمية من حصة الأستاذ المشرف. ان التمييز بين نمطي الإدارة هذين يلعب دوراً أساسياً في زيادة جدوى البحث. ويناظر التباين هذا إلى حد ما التباين بين أدوات البحث، أي بين الأدوات اللوجستية والقطعات الصلبة، والأدوات اللينة[2] المنهجية والفريق العلمي. ونستعرض بشكل سريع أهم مسؤوليات الإدارة التنفيذية والعلمية في مشروع البحث.

---

[1] – محمود نادري بور. برنامه ريزي وكنترل بروژه (خطة المشروع وتوجيهه). تهران، انتشارات سازمان برنامه وبودجه. 1372. ص23.

[2] – ذكرنا سابقاً ان هذا تقسيم شائع في بحوث المنهج، حيث يقال بأن أدوات البحث تنقسم إلى صلبة hardware ولينة software، أو (سخت افزار) و(نرم افزار) في اللغة الفارسية. كنت =

الإدارة التنفيذية

من أهم مسؤوليات هذا المستوى من الإدارة، تأمين ما من شأنه ان ييسر عملية البحث ويساهم في تسريعها، إلى جانب التخلص من معوقاتها. وفي هذا الإطار هنالك ثلاثة اتجاهات رئيسة هي التنظيم والسرعة والدقة. ان المسؤوليات الأساسية في المستوى التنفيذي من إدارة البحث هي:

1- **التخطيط**، أي التحديد المسبق لتلك الأمور التي لا بد ان تنجز وتعيين طريقة لتنفيذها.

2- **التنظيم**، وهو توفير المصادر البشرية والمالية والمادية، والتنسيق بين هذه المصادر على نحو يحقق الأهداف المسبقة[1].

3- **تشكيل الفريق**، أو مجموعة العمل بهدف مضاعفة جدوى البحث وتوفير الظروف التي تضمن لعمل الفريق هذا ان يسير على نحو جيد ويتطور باستمرار، على مختلف الصعد[2]. ومن الاستراتيجيات الرئيسة لتحقيق الأهداف المذكورة، توزيع العمل، وتنظيم واجبات كل من أفراد الفريق، وتحقيق الانسجام بينهم ومضاعفة حجم التعاون المشترك.

4- **إدارة عنصر الوقت**، أي الاستفادة المثلى من الزمن بما يحقق أكبر قدر من الجدوى. فالوقت من أهم مرتكزات البحث، ونجد اليوم ان العديد من خبراء

= أتحرج من استخدام كلمة ناعم أو ليّن مقابل soft، وهكذا فيما يتصل بالصلب ومعادلها الانجليزي، لأنها ستكون دلالة ثقيلة على السمع حينئذ فيما لو اتصل الأمر بالبحوث والدراسات! لكن ما شجعني على ذلك هو استخدام د. عادل ضاهر للمعادل ذاته، في كتابه المهم "الأسس الفلسفية للعلمانية"، لندن، دار الساقي، 1998، الذي تحدثت عنه في المقدمة. (المترجم).

[1] – نسرين نجزني. مديريت منابع انساني (إدارة المصادر البشرية). طهران، نشر ني. 1378. ص25.

[2] – كهر ساسان. "مقدمه اى بر بهبود سازمان"، بهبود سازمان (تطوير المؤسسة). طهران، مركز آموزش مديريت دولتي. ص 13 -14.

الإدارة يعدون إدارة الوقت بمثابة إدارة ذاتية ***self-management*** ويعرفونها على هذا الأساس.

ويتطلب التوظيف الأمثل للزمن إعداد جدول زمني لتنفيذ مختلف مراحل البحث وإهمال الخطوات التي تستهلك الوقت، وتوجيه مشروع البحث نحو القضية المركزية مع تجنب حصر البحث في موضوع مقيد. لا بد للباحث ان يدرك ان في وسعنا الحيلولة دون هدر الوقت رغم اننا نظل عاجزين عن إيقاف عجلة الزمن.

نلاحظ ان كلاً من الإفراط والتفريط يؤدي إلى الإضرار بالبحث، فالتسرع في العمل يتسبب في تقليص مستوى الدقة وضياع المعلومات اللازمة وتطرق الخطأ إلى التحليل ومعالجة المعلومات، كما يؤدي تبديد الوقت وهدره من جهة أخرى إلى تأخر العمل وينعكس سلبياً على جدوى البحث. ثمة حكمة تقول "في التأخير آفات" وهي تشير إلى ما ذكرنا آنفاً، إذ ان التسويف والتأجيل من أهم أسباب هدر الوقت (وهو الرصيد الأكثر أهمية). ينبغي للباحث ان يستوعب أهمية الزمن ويكون (ابن زمنه) على حد تعبير المتصوفة. ورغم ان تعبير (ابن اللحظة أو ابن الزمن) يدل اليوم على اللامبالاة والإهمال فكرياً وعملياً، غير انه يدل عند المتصوفة على اغتنام الفرص[1].

ويدل قولهم "الوقت سيف قاطع"[2] على أهمية الوقت والزمن لدى العلماء وأهل السلوك العرفاني.

5- **خدمات البحث**، أي إعداد ملف علمي وتوفير مصادر البحث وأدواته. يقع على عاتق فريق البحث العلمي إعداد قوائم البيليوغرافيا ونقد المصادر والوثائق وهذا من خطوات البحث الأولى، بيد ان توفير المصادر تلك أمر يقع على

---

[1] - بديع الزمان فروزانفر. شرح مثنوي شريف. طهران، انتشارات زوار، 1367. ج1، ص96.

[2] - يقول المثل العربي المعروف ((الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك)). وربما كان المؤلف يشير إلى المثل هذا. (المترجم).

عاتق الإدارة التنفيذية للبحث. وكلما كان ملف البحث أكثر ثراءً وانطوى على وثائق أصلية معترف بها، توفرت إمكانية أكبر للوصول إلى المعلومة وتضاعف مستوى التنظيم وعنصر السرعة في البحث. سيفتقد البحث لجدواه وأثره ويصبح عقيماً حين يبدأ من نقطة مجهولة ويتجاهل الرصيد العلمي السابق في الموضوع. وهكذا فإن تاريخ البحث ورصيده السابق من المرتكزات الأساسية في الملف العلمي للبحث. ان تنظيم الملف العلمي على نحو منطقي تاريخي، يساعد على إعداد بطاقات المعلومات بنحو أسرع ويسهل معالجة المعلومات.

6- **بطاقة المعلومات**، حيث يلعب تحديدنا للأسلوب الأفضل في إعدادها، دوراً مهماً في إنجاح مشروع البحث ولا سيما فيما يتصل بالاستفادة المثلى من الزمن. ثمة أساليب متنوعة لإعداد البطاقات تلك، وحين يكتسب البحث شكل ممارسة للتسلية والمتعة فإن أساليب إعداد البطاقات تتعدد وتشيع على هذا النحو كذلك، إلى درجة تتسبب في تناسي ما يلعبه إعداد البطاقات هذه من دور أداتي آلي، ويحوله إلى لون من التسلية.

هنالك عنصران أساسيان في تصميم أسلوب البطاقات هذه:

أولاً: التركيز.

ثانياً: ترشيد استخدام عنصر الوقت.

ان بعض أساليب إعداد البطاقات، يؤدي إلى عقم في معالجة المعلومات. وحين تقوم هذه العملية على أساس الموضوعات فإنها تكون على حساب عنصر التركيز كما تؤدي إلى هدر كثير من الوقت. أما اتجاه العملية هذه في ضوء مسائل محورية فإنه يحافظ على الترتيب التاريخي المركّز، ونلاحظ ان جمع المعلومات بهذا الأسلوب، سيكون في هامش المسائل الفرعية، محدداً ومركّزاً (لا على أساس تنوع المصادر) ويتم تنفيذه وفقاً للترتيب التاريخي. لا ينبغي لإعداد البطاقات هذه ان

يفصل بين المعلومات والمنظومات الفكرية ذات الصلة بها، على نحو يجردها من دلالتها المنهجية.

الإدارة العلمية

يقع على عاتق الإدارة العلمية التنسيق بين الفرق العلمية والتخطيط على مستوى أداوت البحث الدقيقة إلى جانب رسم هيكلية البحث واستراتيجياته. يمكن ان نجمل ما يقع على عاتق الإدارة العلمية لمشروع البحث، في سبع حالات: تحديد الهدف، مقاربة الموضوع، تقديم فرضية البحث، تحديد اتجاهات البحث المساعدة، تعيين مقياس لانتقاء المعلومة وأسلوب تقييم المعلومات، إضافة إلى بلورة أساليب ومناهج للتحليل والتقييم العلميين في مشروع البحث.

1- تحديد الهدف

لا يمكن للبحث وكما هو الحال مع أي فعل بشري واعٍ آخر، ان يكون مجدياً ما لم يحدد له هدف مسبق. ما هو الهدف من البحث، وما هي الأهمية في تحقيقه؟ ما هي رسالة البحث وقيمه، وما هي الأهداف التي لا بد ان تتحقق في سبيل ذلك؟

ان موضوع البحث ومسائله ونطاقه، إضافة إلى مستوى التقييم والإدارة التنفيذية للمشروع، هي جميعاً على صلة بهدف البحث. ويمثل تحديد الهدف واحداً من أبرز القرارات الاستراتيجية في البحث. ليس الأداء الجيد بشكل عام، سوى نتيجة لتحديد الهدف على نحو صحيح[1]. كما ان البحث الذي يفتقد الهدف سيكون بمثابة تجربة حب لا وجود لحبيب فيها.

---

[1] – بلانشارد. مديريت بر قلبها. مصدر سابق. ص36.

يناط النجاح في تحديد الهدف باستيعاب الظروف والخصوصيات التي تكتنف الهدف المناسب. ينبغي ان يتمتع هدف البحث بالوضوح والتحديد وأن يكون قابلاً للتحقيق والتقييم، مفيداً يتسم بأنه ضروري ويقع على سلم الأولويات، طبقاً لما يلي:

أ- ان يكون محدداً *specific*: لا ينبغي ان يكون هدف البحث عاماً ضبابياً *general*، وكلما كان الهدف هذا أوسع دائرة كلما تقلص عمق المعالجة في البحث وتكرست سطحية نتائجه وهشاشتها. ان الهدف يختلف عن المُثُل والقيم التي يأخذها البحث بعين الاعتبار، إذ في وسعنا القول بأن الهدف في شتى الأبحاث الأخلاقية هو تحقيق سعادة الإنسان، غير ان ذلك لا يمثل هدفاً لأي برنامج بحثي محدد في مجال الأخلاق. "ليس بالضرورة ان ننجز في الخطوة الأولى، ذلك الشيء الذي يستحق الإنجاز"[1]، ويمثل تجاهل هذه الحقيقة عاملاً رئيساً في مجموعة الأسباب التي تدفع الباحث إلى السعي وراء أهداف عامة شمولية. ان أهداف الأبحاث ذات الصلة بنطاق خاص، **تمثل غايات محددة *specific* تلتقي في نهاية المطاف مع تلك** المبادئ.

حين يقترح طالب عنوان "الإلهيات عند الأشاعرة والمعتزلة والشيعة" لرسالة الدكتوراه في الفلسفة وعلم الكلام الإسلاميين، سنجد ان اقتراحاً كهذا يعكس جهلاً بنطاق البحث وتاريخه، أو انه ناشئ عن عدم الوضوح في أهداف البرنامج التعليمي أو البحثي. ان التمادي في تحديد الهدف وتأسيسه على طموحات مبالغ فيها، يؤدي إلى إخفاق البحث وعقمه.

ب- قابلية التحقق *attainable*: سيتحول البحث إلى جهد عقيم وتعب لا طائل منه، حين يأخذ بنظر الاعتبار أهدافاً لا يمكن تحقيقها. لنفترض ان باحثاً

---

[1] - م. ن. ص36.

يعتزم البحث عن مركز الكون، فهل تتوفر لدينا أداة أو أدوات لبحث كهذا؟ ان تمادي الباحث وطموحاته الكبيرة يقودانه أحياناً نحو أهداف لا يمكن تحقيقها.

كان كانط يعتقد ان عقل الإنسان عاجز عن ممارسة البحث في أربعة مجالات. فلو تقبلنا ما يقوله كانط فإننا في حقيقة الأمر سنقصي أربعة أمور من نطاق البحث بوصفها أهدافاً لا يمكن تحقيقها. ذلك ان هذه الموضوعات الأربع ستؤدي بالباحث إلى الحيرة والضياع كلما حددها كأهداف لبحثه.

ثمة مفهومان مطلق ونسبي لإمكانية التحقيق. إذ ان هدف البحث يكون تارة مما لا يمكن تحقيقه مطلقاً وأبداً، كما هو الحال مع ما يتصوره كانط. وربما كان هدف البحث تارة أخرى مما لا يمكن تحقيقه مقارنة بما يتوفر لدينا من أدوات وإمكانات. ومثال ذلك إبداعات صدر المتألهين، فهي كهدف للبحث ستكون مما لا يمكن تحقيقه، ولكن لا على نحو مطلق، بل على أساس الغموض الذي يحيط بتاريخ الفلسفة في الحقبة التي سبقته ولا سيما فيما يتصل بمدرستي قزوين وشيراز، وليس في وسعنا حتى الآن العثور على أعمال فلاسفة تلك الفترة وآرائهم، مع بالغ تأثيرهم على صدر المتألهين. فكيف يمكن تحقيق هدف كهذا في بحث قصير الأمد؟

ج- **إمكانية التقييم** ***measurable***: يتوقف تقييم مراحل البحث المختلفة، على تحديد مقدار ما تحقق من أهداف، وهذا ما لا يمكن إلا في تلك الأهداف التي في وسعنا قياسها. ان عدم قابلية الهدف للتقييم يفتح الطريق أمام كل تلك الأقوال والأحكام غير المنطقية التي لا قيمة لها. لنفترض مثلاً ان باحثاً في علم النفس يتولى إجراء اختبارات على مريضه، فيواصل تعريضه لمحفز خاص على أمل ان يكتشف أثر هذا المحفز في التغييرات النوعية والكمية التي تطرأ على ما يشاهده المريض من أطياف في منامه. لكن من الواضح انه لا يمكن الاعتماد على ما يقوله المريض عن رؤياه ومناماته.

ان إمكانية تقييم الهدف منوطة بموضوعيته *objective*، إذ ان الأهداف غير الموضوعية *subjective* التي يمكن تفسيرها بأنحاء شتى، لا تتوفر لها إمكانية التقييم. وهكذا ينبغي للباحث ان يحدد مستوى ما تحقق من أهداف.

د- ان يكون مفيداً *fruitful*: من المهم ان يلبي حاجة محددة وأن ينطوي على فائدة وقيمة، وليس تناول الموضوعات المكررة الاجترارية سوى فعل رتيب يستهدف إسقاط الواجب وحسب. ان فائدة البحث ليست تطبيقية علمية بالضرورة، بل نريد بها جدواه وأثره على مستوى المبادئ أو مستوى التطبيق. والهدف من البحث على مستوى المبادئ، تطوير المقولات النظرية في حقل معرفي محدد. ومن الأهداف المجدية في هذا المستوى من البحث، اكتشاف ألوان التناقض والثغرات في المبادئ المعرفية، وبلورة رؤية جديدة أو منهج مستحدث، أو تأسيس تصور جديد في نطاق خاص. أما أهداف البحوث التطبيقية فهي تتناول السلوك وما يطاله من تغيير في شتى مجالات الحياة، في ضوء المبادئ النظرية.

هـ- ان يكون من الأولويات *priority*: لا بد لهدف البحث ان يكون ضرورياً، علاوة على كونه مفيداً. ومن أهم المقاييس في ذلك ان ينطوي هدف البحث على الحد الأقصى من الجدوى، أو ان يلبي أكثر الحاجات إلحاحاً ويتخطى الثغرات الأكثر احتياجاً للمعالجة في البحث، أو ان ينطوي على أبلغ الأثر، وأن يكون مسبوقاً بأبحاث رصينة، إضافة إلى كونه متناسباً مع المؤهلات والميول الشخصية للباحث.

ثمة رواية منقولة في غرر الحكم جاء فيها "احذروا ضياع الأعمار فيما لا يبقى لكم، ففائتها لا يعود"[1] وينبغي على الباحث ان يتخذها شعاراً في عمله.

---

[1] - جمال الدين خوانساري. شرح غرر ودرر آمدي (شرح الغرر والدرر للآمدي). مقدمة وتصحيح وتعليق: مير جلال الدين حسيني أرموي (محدث). تهران، انتشارات دانشگاه تهران. 1366. ج1، ص144.

مواصفات أهداف البحث	
1	التحديد .
2	إمكانية التحقيق .
3	إمكانية التقييم .
4	الجدوى.
5	الأولوية .

الجدول 3-4: مواصفات الهدف البحثي

الهدف: عوامل دخيلة في التحديد

ثمة سؤال يطرحه معظم الباحثين المبتدئين، ولا سيما طلاب الدراسات العليا، وهو: كيف يمكن تحديد هدف تتوافر فيه المواصفات المطلوبة؟ وبكلمة أخرى فكيف يمكن ان ننجح في تحديد الهدف هذا؟

هنالك عوامل متعددة تتدخل في اختيار هدف مناسب:

1- تراكم المعرفة وسعة الإطلاع على النظريات ومتابعة الجديد: من العوامل المهمة في تحديد أهداف مفيدة مناسبة، ان يكون البحث مسبوقاً بالتدريب والتعلم، وأن لا يكون المرء ممن يعانون مرض الهروب من القراءة. ان عمق الرؤية والقدرة على اكتشاف الاستراتيجيات هما حصيلة عقل مشبع بالمعلومات والنظريات.

2- القدرة على صياغة المسائل: ان تحديد الثغرات والأخطاء والحاجات الموضوعية، أمور تنتج عن التعامل بدقة مع الأشياء. ستتكلل بالنجاح جهود المرء

في تحديد هدف البحث، إذا كان من أولئك الذين يحسنون اكتشاف المسائل وصياغتها في تعاملهم مع الأشياء. والمراد بالمسألة هنا معناها العام الشامل لكل من الإشكالية والمسألة. وسنتحدث عن الفارق بين الأمرين في الفصل التالي.

3- روح الإبداع: تلعب الخلاقية الشخصية وروح الإبداع والابتكار، الدور الأكثر أهمية في تحديد أهداف مناسبة. ثمة اليوم تأكيد على التمييز بين الخلاقية *creativity* والإبداع، ويرى آلبرو مارتن ان الشخص الخلاق في المفهوم الفني والأدبي، لن يكون مبدعاً بالضرورة، لأن المبدع لا يجدد من خلال أفكار خلاقة، بل يتجسد تجديده في اكتشاف قيمة الأفكار وممارسته لتوظيفها[1].

4- الحرص على نتيجة البحث: ان حرصاً كهذا هو الذي يدفع المرء نحو اختيار الهدف الأكثر أهمية، فالهدف لن يكون مهماً بالنسبة إلى شخص لا ينتابه القلق حيال نتيجة البحث وجدواه، أو شخص يمارس البحث من أجل البحث ذاته. ذلك ان الأخير لا يمارس البحث في سبيل هدف محدد، بل لمجرد متعة البحث ولذته. وسنتحدث في الفصل الحالي حول ما يتصل بمفهوم جدوى البحث وأهميته في المشروع البحثي.

5- تحديد الحاجات: تمثل الإحاطة بحاجات المجتمع الملموسة من خلال دراسة منظمة، واحداً من أساليب تحديد هدف للبحث. أما التعامل الانفعالي والمبادرة إلى تناول الموضوعات الشائعة، فهو نتيجة لعدم تحديد الحاجات البحثية.

3 - مقاربة المسائل

رغم ان هدف البحث يتصل بالاحتياجات البحثية، غير ان الاحتياجات هذه لا تمثل بالضرورة مسائل للبحث. يبدأ البحث حين يواجه الباحث مشكلةً ما،

---

[1] - لمزيد من التفصيل لاحظ: دارياني احمد بور. كارآفريني. تهران، الناشر: المؤلف. 1379.

إذ "ان الشعور بوجود مشكلة ما، هو الخطوة الأولى للبحث"[1] على حد تعبير باحث متميز رصين.

ان المشكلة تتسم بالإبهام والعمومية وتفتقد التحديد الدقيق، وهكذا فهي لا تتقبل طرح فرضية محددة ولا تفرض منهجاً معيناً للبحث. سينهار البحث حين يكون المرء مهووساً بالانتقال من المشكلة إلى الحل مباشرة، طالما ان مسار البحث لم ينتقل إلى مرحلة تجري فيها صياغة المسألة ومقاربتها، أي ان الخطوة الأولى في عملية البحث هي الانتقال من تحديد المشكلة إلى صياغة المسألة.

تؤدي مقاربة المسائل على نحو دقيق، إلى اكتساب المشكلة تلك صياغة محددة وواضحة يمكن تناولها في البحث، الأمر الذي يتطلب خبرة وتجربة واسعتين. وتظل جدوى البحث منوطة بمدى الدقة في مقاربة المسائل "حسن السؤال نصف العلم".

وتمثل مقاربة مسألة البحث أو مسائله، واحداً من أبرز الأدوار الاستراتيجية التي تقع على عاتق الإدارة العلمية للبحث. وتتضاعف هذه الأهمية على نحو بالغ، في الدراسات الدينية التي غالباً ما تنطوي على مسائل متنوعة الأبعاد وذات أصول وجذور متعددة، وسنتناول ذلك في الفصل التالي في حديثنا عن الأساليب والأنماط.

3- تقديم فرضية البحث

غالباً ما تعد الفرضية لوناً من التصور التخميني الظني، يجري تقديمه لمعالجة مسألة البحث، ويستهدف البحث اختبار الفرضية وتقييمها. ان تقدم فرضية البحث أو فرضياته يمثل واحدة من أهم الواجبات التي يتكفل بها الفريق العلمي. لا بد من التمييز بين فرضية البحث *hypothesis* وبين ما يعرف بالفرضية الجوفاء أو

---

[1] - ديوي، منطق تحقيق. مصدر سابق. ص135.

اللاغية، إذ ان هذه الأخيرة تلعب دور الفرض المساعد في برهان الخُلف، وتتولى تكذيب أو دحض ما يعارض فرضية البحث. كما تتضمن صياغة البحث استعراضاً لفرضية البحث ذاتها، بينما يتجاهل الفرضية اللاغية.

4- تحديد الاتجاهات المساعدة

ثمة حاجة إلى تدابير متزايدة بغية تحديد الخيار المناسب للاقتراب من مسألة البحث. ينبغي على الباحث بعد تقديمه للمسألة ان يحدد اتجاه البحث بما يناسب الفرضية المعتمدة. فهل يتطلب بحثه اتجاهاً (جوّانياً) أم ان في وسعه تنفيذه عبر اتجاه (برّاني)[1]؟ هل من الأفضل ان يستخدم في بحثه اتجاهاً تاريخياً أم مقارناً؟ ثم هل يمكنه معالجة المسألة من خلال اتجاه تحليلي أم بينتخصصي؟

يحتاج الباحث في المجال الديني أحياناً إلى معالجة جوانية، لكن عليه حينئذ ان يدرك على نحو مبرر، أيّ الاتجاهات أجدى لبحثه، فهل يختار السيمانطيقية[2] أم الهرمنيوطيقا؟ ان الاتجاه *approach* يختلف عن المنهج *method*، وهذا ما سنعمد إلى تحليله في البحوث القادمة.

5- تعيين مقياس وأسلوب لتقييم المعلومات

نجد ان واحدة من أهم خطوات البحث تتمثل بجمع المعلومات وفق المواصفات السبعة التي جرى الحديث عنها في الفصل الأول. غير ان هذا يتوقف على وجود مقياس يتيح لنا انتقاء المعلومات المناسبة وتقييم مدى صحتها ودقتها.

---

[1] - تحدثنا عن هذين المصطلحين في هامش سابق من ملاحظات الترجمة. (المترجم).

[2] - Semantics أو علم الدلالة: مبحث من الألسنية أو علم اللغة يعنى بالدراسة التاريخية والسيكولوجية لدلالات الكلمات وتطورها مع الزمن وموت بعض معاني الكلمة الواحدة ونشوء معان جديدة لها. (المترجم).

ويقع على عاتق الإدارة العلمية للبحث، تحديد مقاييس ومناهج مناسبة لانتقاء المعلومات وتقييمها وتحديد آليات لتحويل المعطيات الخام إلى معلومات.

تتسم هذه المقاييس والأساليب بأنها منطقية موضوعية وعامة، وهي في الوقت ذاته متغيرة بتغير مجالات الأبحاث والمسائل وفرضيات البحث.

وبكلمة أخرى فإن المناهج في هذا المستوى، تظل منوطة بالمسائل.

6- تحديد منهج التحليل

يمثل تحليل المعلومات ومعالجتها المرتكز الثاني للبحث، والتحليل هذا عملية تؤدي إلى تكوين رصيد أو نتيجة علمية جديدة، غير ان جدوى ذلك تتوقف على منهجية التحليل.

كيف يمكن معالجة المعلومات المتوفرة، ومن خلال أي المناهج في وسعنا تقييم فرضية البحث؟ كيف يمكن نقد التصورات المعارضة؟ لنفترض ان ثمة نظريتين متعارضتين طرحتا في موضوع الحجاب، تنادي إحداهما بعفة المرأة والأخرى بقداستها. كيف يمكن نقد كل من القراءتين وتقييمهما وعلى أي أساس؟ ان ملاحظة منهج التقييم يمثل شرطاً مهماً في تركيب النظرية، وليست هنالك قيمة علمية للفرضيات التي لا تتمتع بمنهج للتقييم والإثبات. لو لم يتوفر حرص على منهج المعالجة فإن الطريق يظل مفتوحاً أمام آلاف الفرضيات بما لا يضيف سوى الحيرة والارتباك.

رغم ان لكل مسألة مناهجها الخاصة التي تناسبها، غير ان المنهج وعلى العكس من اتجاه البحث، لا يرتكز على الميل والذوق الشخصيين، وإنما يتمتع بطابع عام موضوعي. والمنهج مقياس يتاح لشتى الباحثين اعتماده في عملية التقييم والمعالجة.

تتوزع عملية تحليل المعلومات على ثلاث مراحل:

الأولى: إعداد المعلومات ووصفها وتبويبها.

الثانية: تحليل العلاقات القائمة بين التوصيفات والتفسيرات.

الثالثة: المقارنة بين النتائج المتوفرة وتلك التي كان يترقبها الباحث، وتفسير الأخطاء[1].

يمثل تنوع المناهج جانباً مهماً في تحليل المعلومات. وغالباً ما تقسم المناهج المتعددة في معالجة المعلومات، إلى قسمين رئيسين هما: التحليل الإحصائي وتحليل المضمون الشامل للمناهج الكمية والنوعية. ومن ابرز أساليب تحليل المعلومات في الدراسات التجربية، أسلوب معالجات المضمون كتحليل المقولات وأساليب التحليل الصوري، ومثال الأخير تحليل الخطاب والقضايا والبنية من قبيل تحليل مستويات الترابط.

ان مناهج تحليل المعلومات الرئيسية في البحث الديني هي مناهج جوّانية، من قبيل التحليل السيمانطيقي (الدلالي)، والمناهج المنطقية كتحليل المفاهيم والقضايا، إلى جانب المناهج التجربية وشبه التجربية التي سنتعرف عليها لاحقاً.

7- تقييم البحث

تتوقف جدوى البحث على ممارسة تقييم متواصل لمختلف مراحل المشروع البحثي، والبحث الناجح هو الذي يقترن بالحرص على التقييم. ينقل عن المغفور له الأستاذ روزبه، قوله ان الناس ينقسمون إلى أربعة أصناف على المستويين الفكري

---

[1] – لمزيد من التفصيل لاحظ: كيفي ريمون وكومنهود لوك فان. روش تحقيق در علوم اجتماعي (منهج البحث في العلوم الاجتماعية). ترجمة عبد الحسين نيك كهر. تهران، فرهنك معاصر. 1370.

والعملي:

1- **العقلاء أو ذوو الحزم والحكمة**، وهؤلاء لا يقدمون على عمل إلا بعد التفكير وفيه والتدبر بشأنه.

2- **الحمقى أو ذوو الندامة**، وهؤلاء لا يفكرون في الأعمال إلا بعد القيام بها.

3- **السفهاء أو الذين لا يبالون بشيء**، وهم يقومون بأعمالهم بإهمال شديد ولا يفكرون فيها أبداً سواء قبل القيام بها أم بعده.

4- **المجانين الذين يفتقدون أساساً لنظام السلوك العادي**، ويعرفهم الناس على وصفهم هذا.

وفي ضوء تصور الأستاذ روزبه فإن السفهاء أخطر بكثير من المجانين، ذلك انه لا يمكن تحديد السفهاء والتعرف عليهم بسهولة وغالباً ما لا يشتهرون بالسفه، الأمر الذي يؤدي إلى تكليفهم بمسؤوليات وأدوار دون ان يدرك من أناط بهم الأدوار تلك، مدى سفاهتهم، وهكذا ينخرطون في الهيكل الإداري للبلاد، بينما هم لا يتوفرون على مؤهلات ذلك.

وفي ظل ما نقل عن الأستاذ روزبه، يمكن ان نعدّ التقييم عملاً مسبوقاً بالفكر وسلوكاً يرافقه الحزم والحكمة، تلك الحكمة التي تقوم على تقدير الأمور.

وهكذا فإن التقييم هو موقف يقوم على الحقائق بعيداً عن الأوهام والخيالات، فذو الحزم والحكمة هو في واقع الأمر من لا يتصرف على أساس تقديرات خيالية بل يتخذ من التقييم الموضوعي الدقيق، أساساً لتكوين وجهات نظره ومخططاته وممارساته.

ينبغي للباحث ان يدرك ان النجاح لا يمثل لوناً من ضربات الحظ *chance* بل هو انتقاء واختيار *choice* منوط بالتقدير والتقييم. وكلما كان التقييم والتقدير أكثر دقة، كان الاختيار أكثر توفيقاً.

تقييم جدوى البحث

ما هو موضوع التقييم في مشروع البحث، وما هو الشيء الذي نتولى تقييمه في تحديدنا لأهمية البحث؟ المراد بالتقييم هنا تقدير إنتاجية البحث وجدواه، وقد عرّفوا الإنتاجية بأنها الحد الأقصى من الإنتاج مع *Productivity* الحد الأدنى من النفقات، وهو ما يتألف من عنصرين رئيسين هما: ان يكون عملياً *efficiency* وأن يكون مجدياً *effectiveness*، ومفهوم العنصر الأول (ان يكون عملياً) يتصل بأساليب تنفيذ البحث ومناهجه، بينما يتعلق مفهوم الجدوى بقيمة العمل ونتيجة البحث. ويمكن ان نترجم هذين المفهومين في برنامج البحث إلى تعبيرين يخضعان لقدر من التساهل: كيف ينبغي ان نقوم بالبحث ونمارسه؟ ما الذي ينبغي ان يكون موضوعاً للبحث؟

نجد مثلاً ان احدهم حين يتناول في البحث الفقهي المعاصر أحكام العبيد والإماء، فإن بحثه لا ينطوي على جدوى. ولكن ثمة باحث آخر تناول الحكم الفقهي لبطاقات الائتمان، الأمر الذي يقدم لنا موضوعاً مجدياً.

حين نتحدث عن قيمة عمل معين فإننا نلاحظ جدواه. هنالك أمثال من قبيل: "عمل الأعاظم أعظم الأعمال" و"يصدر العمل السيئ عن الشخص السيئ" و"كلام الملوك ملوك الكلام"، وهي تشير في مجملها إلى جدوى الأشياء ونتائجها. ان كون الأمر مفيداً يتمتع بالأولوية على مستوى هدف البحث، سيحقق جدوى البحث ونتيجته.

عندما نتناول أسلوب التنفيذ فإننا نلاحظ مدى كونه عملياً، وهذا ما يؤخذ كذلك بنظر الاعتبار في قولهم "ان البحث الميكانيكي عملياً أقل كفاءة من البحث الذي يجري إلكترونياً أو بواسطة الحاسوب".

طلب أحدهم من بعض الخطباء ان يقارن نفسه بخطيب معروف آخر، فقال:"انه يتحدث بشكل جيد، غير انني اطرح حديثاً جيداً". ان التحدث على نحو

جيد يشير إلى الناحية العملية، أما طرح حديث جيد فهو يتصل بالجدوى والأثر. ويوضح دراكيه وهو من العلماء المعروفين في حقل الإدارة، كلاً من العنصرين المذكورين (ان يكون الأمر مفيداً وأن يكون عملياً) من خلال المثل الإنجليزي التالي:

If a job is worth doing, its worth doing well.

------ ------

effectiveness efficiency

وقد جاءت فحوى هذا المثل في حديث نبوي معروف نقله العلامة المجلسي في بحار الأنوار على النحو التالي:"...ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملاً، أحكمه"[1].

وتنطوي وصية المغفور له الأستاذ زرين كوب إلى الباحثين، على ملاحظة تتصل بموضوع الجدوى كذلك، فهو يقول:"لا تعني المهارة في البحث ان يدرك الباحث ما ينبغي كتابته وحسب، بل المهم ان يدرك ما لا ينبغي كتابته"[2].

ينسب إلى أنوشروان انه قال:"أوكل العمل إلى من هو خبير به"[3]. وهو يشير هنا إلى كون الشيء عملياً، وصلة ذلك بالجدوى من العمل.

في ظل المفهومين السابقين (كون الشيء عملياً ومجدياً) يمكن ان نعد الحرص على تقييم البحث، حرصاً على تقدير حجم إنتاجيته، أي تقييم عمليته وجدواه.

---

1 – محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. بيروت، مؤسسة الوفاء، 1403هـ. ج6، ص240، الحديث 14.

2 – زرين كوب، مصدر سابق، ص 14.

3 – علي اكبر دهخدا. امثال وحكم. تهران، امير كبير، 1363، ص 1172 .

ثمة حالات أربعة لمشروع البحث فيما يتصل بالإنتاجية والجدوى:

1- ان يكون عملياً ومجدياً: مستوى عالٍ من الإنتاجية.

2- ان يكون مجدياً ولكنه ليس بعملي: مستوى منخفض من الإنتاجية.

3- ان يكون عملياً، غير انه ليس مجدياً: عدم الإنتاجية.

4- ان لا يكون عملياً كما لا يكون مجدياً: عدم الإنتاجية.

ثمة باحث يتناول موضوعاً مفيداً ضرورياً له الأولوية، ويتحرك في بحثه نحو أهداف محددة، وهذا بحث ينطوي على الجدوى. كما انه سيكون بحثاً عملياً حين يعتمد الباحث تقاليد البحث ويوظف الأدوات اللازمة والمناهج المناسبة على نحو جيد. وهنالك باحث آخر يدير ظهره للهدف المحدد ويتحرك في الاتجاه المعاكس، أو انه يتناول موضوعاً لا أهمية له، وهذا ما لن يكون مجدياً أو منتجاً، حتى لو اعتمد الباحث أكثر الأدوات والمناهج دقة. ان كون البحث عملياً هو شرط لنجاحه، ولو لم ترافق ذلك جدوى تتأتى من البحث فإنه لن يفرز سوى عدم الفائدة.

تتوقف جدوى البحث على عاملين: داخلي وخارجي. ونريد بالعامل الخارجي ان يكون موضوع البحث مفيداً، كما نقصد بالعامل الداخلي اتجاه مشروع البحث منذ الخطوة الأولى حتى نهايته، نحو الموضوع المذكور. وعلى هذا الأساس فإن إنتاجية البحث حصيلة لعمليتين هامتين تقعان على عاتق الإدارة العلمية لمشروع البحث:

1- تحديد هدف مهم تمس إليه الحاجة، وقد تناولناه بالتفصيل.

2- تقييم مختلف مراحل البحث على المستوى العملي وفيما يتصل بالجدوى وحجم وفاء مشروع البحث بالهدف المحدد.

ثمة ثلاث مراحل مهمة لتقييم البحث هي: التقييم المسبق، والتقييم أثناء العمل، والتقييم اللاحق.

أ: التقييم المسبق

ان البحث شبيه بالتنقيب عن النفط واستخراجه، ويظل نجاحه منوطاً بالدراسات التحضيرية التي تسبق عمليات التنقيب[1]. وكلما كانت الدراسة المسبقة أكثر دقة وشمولاً، حقق البحث نجاحاً أكبر. لا ينبغي للبحث ان يكون على غرار قصة حافر الآبار، الذي لن يحصل على أجره فيما لو اتضح ان البئر خالية من الماء.

لا يمكن ان يبدأ البحث من لا شيء، كما ان انطلاق البحث من نقطة البداية يقوم على تصور ساذج حيال مهمة الباحث. ثمة خط يبدأ عنده البحث وهو يتكون مما لا يحصى من النقاط، من قبيل استيعاب الحاجات البحثية، الإحاطة براهن الحقل البحثي والرصيد المسبق للموضوع، التحديد الواقعي للمؤهلات والميول الشخصية، إلى جانب المعرفة بالأدوات والمناهج، إذ ان هذه تشكل نقاطاً رئيسية في خط البداية. وفي ضوء ذلك فإن على الباحث وقبل اختيار موضوعه أو خوضه عملية البحث، ان يتولى دراسة وتقييم الجوانب المذكورة أعلاه.

1- **تحديد الحاجات**: من الضروري القيام بتقدير دقيق من أجل تحديد أولويات البحث في سياق اختيار الهدف، والموضوع، ومسألة البحث. أما غياب التقديرات المنهجية فهو يعني عدم الجدوى من البحث، وكون الباحث عرضة لممارسة أبحاث اجترارية انفعالية تخضع للميول الخاصة.

2- **تقييم راهن الحقل البحثي**: لا بد للباحث ان يقف على تاريخ المسألة المبحوثة، كي يطلع على الأبحاث التي تناولتها في السابق ويحدد نجاحها أو إخفاقها

[1] - كيفي. روش تحقيق در علوم اجتماعي. مصدر سابق. ص1.

وما تعانيه من ثغرات ونقاط ضعف إلى جانب ما يتوافر فيها من أرضية وما تتحرك ضمنه من نطاقات.

ذكرنا تواً ان بدء البحث من نقطة الصفر ومن لا شيء، سيعني عقمه وعدم جدواه، بل ان بدء البحث عند نقطة البداية يمثل موقفاً ساذجاً كذلك. لدينا في الأبحاث دائماً خطاً للبداية، وهو يتكون من نقاط متعددة إحداها راهن الحقل البحثي والأبحاث السابقة في الموضوع، ولا بد للباحث ان يحدد موقعه من هذا بمجمله. عندما يعتزم المرء البحث حول الإيمان فليس في وسعه تجاهل الأبحاث الكلامية والعرفانية والتراثية التي تناولت الموضوع. ولا يمكنه في الوقت ذاته ان يتجاهل جهود الباحثين في اللاهوت المعاصر وفلسفة الدين أو الدراسات القرآنية ذات الصلة بالإيمان. ان استيعاب راهن الأبحاث ذات العلاقة بالمسألة يزود الباحث بإثارات هامة ويكشف له عن المعوقات التي يعانيها البحث ويجعل من الممكن رصد الإخفاقات ومستويات النجاح.

3- **تقييم المنهج**: يتحدد استخدام أدوات البحث ومناهجه في ضوء الثقة بمدى كونهما عمليين، وهو ما يمكن التحقق منه عبر الاختبار. غير ان اللجوء إلى اختبار كهذا أثناء البحث يقلص إنتاجيته وجدواه. ثمة اليوم تأكيد على أهمية تقييم المنهج في مختلف المشاريع ولا سيما البحثية منها، ويقترح من أجل ذلك اعتماد دراسة منظمة في تقييم المنهج *method study*. ان تقييم المنهج ضمن الاتجاه هذا، يمثل دراسة مناهج البحث القائمة على مستوى نظامها، عبر تصور نقدي واقتراح المناهج المناسبة للبحث[1].

4- **تقييم المؤهلات الشخصية**: ان مواهب المرء من النقاط المهمة التي يتكون منها خط البدء في عملية البحث. كثيراً ما نلاحظ طلاباً في مراحل

---

[1] - شهنام طاهري. كارسنجي وروش سنجي (تقييم العمل والمنهج). طهران، نشر آوين، 1378، ص7.

الدراسات العليا لا يتقنون لغات أجنبية وليسوا بذوي خبرة في الاتجاهات الفلسفية، ورغم ذلك فإنهم يعتزمون المقارنة بين فيلسوفين مهمين مثل صدر المتألهين وهيغل. ثمة طالب اختار موضوع "الجوهر والعرض في الفلسفتين الشرقية والغربية!!" لرسالة الماجستير التي يتولى إعدادها، وهنالك طالب آخر من المؤكد انه لا يفقه ألف باء اللغة اليونانية كما انه يواجه مشاكل في قراءة النص العربي ولا يتمتع باطلاع كاف على تاريخ الفلسفة، بيد انه مولع بدراسة تأثيرات أفلاطون في شيخ الإشراق.

لا يعني تأكيدنا على تناسب التأهيل الشخصي مع موضوع البحث، تثبيطاً لعزيمة الباحث وقمعاً لطموحه، لكن المرء حين يقف على مبدأ التناسب هذا فإن عليه ان يطور مؤهلاته بالمستوى المطلوب، أو ان يتجنب الخوض في الموضوع المشار إليه.

هنالك عاملان يحولان دون استيعاب المرء لمبدأ التناسب هذا:

أ- الجهل بموضوع البحث وعدم الإطلاع على نطاق البحث.

ب- أوهام الشخص حول مستواه، إذ ان المرء حين يحمل تصوراً غير منطقي حول ذاته فإنه سيعجز عن تحديد مؤهلاته على نحو واقعي[1].

5- تقييم الميول الشخصية: ان مستوى اشتراك الباحث في عملية البحث يمثل أحد العوامل التي تضاعف من جدوى تلك العملية، وهذه المشاركة تتوقف على أمور متعددة، فكلما كان هدف البحث مثلاً يتيح قدراً أكبر من المشاركة *participative* تزايدت مشاركة فريق البحث في العمل. غير ان ميل الباحث نحو موضوع البحث ورغبته في تناوله، يتركان تأثيراً أكبر على ذلك. لا بد ان يجري تقييم منهجي وتقدير منظم في سبيل اكتشاف المرء ميوله الحقيقية وفرزها عن الميول الكاذبة الموهومة. ان المشكلة في تقدير الميول الشخصية هي تلك الميول الزائفة ومدى إمكانية

[1] - لمزيد من التفاصيل لاحظ: قراملكي، پرده پندار (حجاب الوهم). طهران، 1378.

تمييزها عن الرغبات الحقيقية. هنالك فعل نفسي *formation reaction* ، يجعل المرء يبدي ميلاً نحو أمر هو لا يميل نحوه في الحقيقة، فيوهمه بأنه هدفه الحقيقي.

ب: التقييم أثناء البحث

تجري عملية البحث على شكل مشروع يتوزع بين مراحل مختلفة وينجز في زمن معين. ثمة دور فاعل تلعبه كل من جدوى البحث ومدى كونه عملياً، في إنتاجية عملية البحث. وهذه حقيقة تعبر عن ضرورة التقييم المتواصل لعملية البحث، ويمثل التقييم أثناء البحث تقديراً وملاحظة مستمرين منذ بداية المشروع البحثي وحتى نهايته، كما يشمل شتى جوانب البحث وأبعاده وفقاً لما يلي:

1- **تقييم المعلومات**: ثمة دور رئيسي يلعبه تقييم مرحلة جمع المعلومات، في إنتاجية مختلف مراحل البحث. ويتولى الباحث تقييم المعلومات التي جرى جمعها من حيث كونها كافية ودقيقة وصادقة وذات صلة واضحة بمحور البحث وعلى أساس كافة المقاييس التي مر الحديث عنها في الفصل الأول.

2- **تقييم معالجة المعلومات وتحليلها**: ثمة أهمية فائقة يكتسبها نقد منطق البحث وتقييمه، بالنسبة إلى نجاح مرحلة التحليل والمعالجة. هل توفرت أدلة كافية للبرهنة على ما يدعيه البحث؟ ألم يتورط البحث في مغالطة من قبيل "أخذ ما ليس بعلة، علة؟"هل جرى اعتماد ضوابط الاستدلال وقواعده بدقة في شتى مراحل البحث؟ هل اتبعنا مقاييس منطق التعريف أثناء تقديمنا للتعريفات، وهل استخدمنا الأدوات اللازمة في عمليات الوصف والتبرير والتفسير؟

3- **تقييم مدى الوفاء بالهدف**: كثيراً ما نلاحظ نصوصاً لا يتوفر فيها انسجام وتناسب بالقدر الكافي بين الموضوع والمضمون المطروح. وذلك ما ينشأ عن غياب التقييم المتواصل لمدى اتجاه خطوط البحث نحو هدفه. يحرص الباحث خلال مراحل عمله المختلفة، على تجنب الابتعاد عن هدفه، وهنالك حكمة معروفة لباسكال من المفيد اعتمادها في التقييم المتواصل لتحليل المعلومات ومدى

الوفاء بفرضية البحث ومسألته. ان باسكال يوصي الباحث ان يتدبر في الأدلة التي من شأنها دحض فرضيته، قبل ان يخوض في أدلة اثباتها.

4- **تقييم عنصر الزمن:** قمنا سابقاً بالتأكيد على الأهمية التي تكتسبها إدارة عنصر الزمن في مشروع البحث. ان الحرص على التوظيف الأمثل للزمن يتطلب منا تقييم مدى التزام البحث بالسقف الزمني المحدد له مسبقاً. نعمد إلى تقدير معدل الوقت المستهلك والطاقة المستخدمة، ثم نخطط لتقسيم الزمن *time budgeting* في سبيل ترشيد استهلاكنا لهذا العنصر.

جـ: التقييم اللاحق

المراد بالتقييم اللاحق، ان يبادر الباحث بعد مرور فترة معينة على انتهاء عمله وصدوره، إلى دراسة الآثار والمعطيات التي تركها البحث ضمن الدائرة التي انتشر فيها. فالتقييم اللاحق في حقيقة الأمر يمثل تقديراً لحجم النتائج التي حققها البحث بعد مرور فترة محددة، وهذه الفترة تتحدد في ظل نوع البحث. ان ارتباط البحث بنطاق معرفي خاص وهو ما عالجناه في الفصل الأول، يتطلب ان يؤثر البحث في الدراسات اللاحقة التي تتم ضمن ذلك النطاق. ويمكن من خلال التقييم اللاحق، ان نحدد مدى تأثير البحث في تاريخ العلم. يحتوي الجدول 3-5 على حصيلة المعالجة الآنفة.

مراحل التقييم		حالات التقييم	
1	سابق	1	تحديد الحاجات .
		2	تقييم راهن الحقل البحثي.
		3	تقييم المنهج.
		4	تقييم المؤهلات الشخصية.
		5	تقييم الميول الشخصية.
2	حالي	1	تقييم المعلومات.
		2	تقييم معالجة المعلومات.
		3	تقييم مدى الوفاء بالهدف.
		4	تقييم عنصر الزمن.
3	لاحق	1	الأهداف والنتائج.

الجدول رقم 3-5: مراحل تقييم مشروع البحث وتقدير جدواه وحصيلته.

يتطلب البحث بوصفه مشروعاً، لونين من الإدارة: علمية وتنفيذية. ويتضمن الجدول 3-6 البرامج الستة للإدارة التنفيذية والأدوار السبعة للإدارة العلمية.

إدارة مشروع البحث			مسؤوليات الإدارة
1	تنفيذية	1	التخطيط.
		2	التنظيم.
		3	أعداد الفريق.
		4	إدارة عنصر الزمن.
		5	خدمات البحث.
		6	أساليب إعداد بطاقات المعلومات.
2	علمية	1	تحديد الهدف.
		2	مقاربة المسألة.
		3	تقديم فرضية البحث.
		4	تحديد الاتجاهات المساعدة.
		5	تحديد مقياس التقييم وأسلوب تقييم المعلومات.
		6	منهج تحليل المعلومات .
		7	تقييم عملية البحث وجدواه (مسبقا، أثناء البحث، لاحقا)

الجدول رقم 3-6: الواجبات التي تقع على عاتق إدارة مشروع البحث.

تمرين

هل تلتزم بالسقف الزمني المحدد في بحثك؟ وإذا كنت ملتزماً بذلك، فما هو حجم نجاحك في الالتزام بالسقف الزمني الدقيق؟ ما هي العوامل التي تتدخل في تنفيذ السقبف الزمني في برنامج البحث؟

أما لو لم تكن تلتزم بذلك، فحاول ان تخطط لبحث اختباري وفق سقف زمني قصير، كي تقدر حجم التقدم الذي حققته في استغلال عنصر الوقت.

الفصل الرابع:

البحث المتجه حول مسألة

مدخل

يتناول الفصل الحالي أهمية البحث المتجه نحو مسألة محددة، ومحاولة تحديد السبل والآليات المناسبة لهذا اللون من الأبحاث ***problem oriented research***.
ان البحث المتمحور حول مسألة يمثل الشرط الأكثر أهمية في تحقيق عنصر الجدوى، الأمر الذي يتجلى من خلال الإحاطة بالمشاكل المنهجية لهذا النوع من الأبحاث والوعي بضرورة صياغة المسألة المركزية لمشروع البحث. ويتباين البحث المتمحور حول المسألة والبحث الذي يدور حول الموضوع، على أساس تصورين مختلفين فيما يتصل بالإجابة على الأسئلة التالية:

1- ما هي الجوانب التي نتناولها في بحثنا لموضوع معين؟

2- ما هو الدور المنهجي الذي يلعبه موضوع البحث في تحقيق عنصر الجدوى، وفي كون البحث عملياً؟

3- هل يخضع اختيار جوانب البحث والمعلومات والمناهج، لطبيعة الموضوع؟

نجد ان معظم الباحثين في مجال الدراسات الدينية ولا سيما المبتدئين منهم، يؤكدون حيال الأسئلة المذكورة، على أهمية الموضوع ودوره المركزي. ولذلك فإن العديد من الأبحاث في هذا الحقل تمتلك بنية محورها الموضوع.

يجري في البداية اختيار موضوع غالباً ما لا يكون مسبوقاً ببلورة المسألة، بل يطرح الموضوع تأثراً بما يسود ويشيع في الأوساط ذات العلاقة بهذا اللون من الأبحاث، أو على أساس اقتراح الأساتذة أو بدعوة من المؤسسات والمراكز التي تلتزم بتنفيذ أبحاث معينة.

وبعد اختيار الموضوع تُستدعى الجوانب التي تتصل به بنحو أو آخر، وفق ما يتمتع به الباحث من سعة في الاطلاع وخبرة في الموضوع. وهذه جوانب وعناوين متباينة متنوعة يجري حشدها معاً على أساس ارتباطها بالموضوع وحسب، ومنها مثلاً: المسائل ومقدمات البحث القريبة أو البعيدة، ومصادر البحث ونطاقه، إلى جانب مصاديق الموضوع وأبعاده ومستوياته.

ان تنوع الجوانب والعناوين التي يستدعيها الباحث، يؤدي إلى تنوع المناهج والأدوات، كما تظل نتيجة البحث منوطة برؤية الباحث وأساليبه في جمع موضوعات البحث وعناوينه وتنظيمها.

يمثل البحث الدائر حول موضوع في حقيقة الأمر، متابعة وجمعاً لموضوعات يمكن في أفضل الحالات استخدامها وحسب في مجال الأهداف التعليمية والتبشيرية، مما يعني انها ستظل جهوداً عقيمة غير منتجة فيما يتصل بالاهداف البحثية.

ثمة فروق عدة بين برنامج البحث والبرنامج التعليمي، منها ان البحث لا يسعه سوى ان يتمحور حول مسألة معينة، بينما يمكن للبرنامج التعليمي أو التبشيري أن يتمحور حول موضوع أو مصدر معين.

ولإيضاح ما نريده من البحث الدائر حول الموضوع وتحديد نواقصه، نتناول هنا البنية التي قامت عليها رسالة دكتوراه *PH.D* في الفلسفة الإسلامية جرى تناولها

في نقاش تحضيري سبق مناقشة الرسالة. لاحظ الجدول 4-1.

تتكشف لنا هوية البحث الدائر حول الموضوع من خلال مباحث الرسالة هذه وعبر لون ارتباطها بالموضوع، إلى جانب المساحة المخصصة لكل من المباحث. حاول ان تعثر على مسألة الباحث عبر ملاحظة محتويات الرسالة.

ترى ما هي المسألة أو المسائل التي كان الباحث بصدد معالجتها هناك؟ هل كان الكاتب بصدد تدوين نص دراسي أو يتصل بالخطابة وغط المقالات التي تنشر في الموسوعات ودوائر المعارف؟ أم انه كان يعمل على تطبيق مشروع بحثي يدور حول مسألة أو مسائل محددة؟

الموضوع : جدل العرفاء والمشائين حول العقل			الصفحات المخصصة
الرسالة	الفصل الأول	الإنسان والمنظومات العقدية في الإسلام:رؤية للإنسان، المنظومات العقدية في الإسلام.	15
	الفصل الثاني	الفوارق الجوهرية بين الفلسفة والعرفان: الوحدة والكثرة، بشرط ولا بشرط، الله موضوعا للفلسفة، العلية والتجلي، السادة الخمسة، التنزيه والتشبيه، الظهور والكمون، العقل والقلب، البرهان والتمثيل.	13
	الفصل الثالث	معارضة الفلاسفة: الاختلاف نعمة أم نقمة،قصة الفكر الفلسفي، جدل الفلاسفة مع غيرهم، خلاف المتصوفة والمتشرعة، التجريبيون، العرفاء والسالكون، ما شنع به العرفاء على الفلاسفة.	36
	الفصل الرابع	العقل عند العرفاء: استعراض تفصيلي جدا، من الهجويري حتى ابن عربي	53

الجدول رقم 4-1: خطة مشروع بحثي قدمت كرسالة دكتوراه في جلسة تحضيرية سبقت مناقشتها.

يظل مشروع البحث في جدواه وفائدته، منوطاً باستيعاب الباحث للتباين البنيوي بين البحث الدائر حول الموضوع والبحث المتمحور حول المسألة، وأن يقارن البنيتين من حيث نتيجة البحث، وأن يكون قادراً في ضوء استيعابه لذلك، على رسم خطة للبحث تدور حول المسألة.

من اجل إعادة تحديد تصور القارئ حول هذين اللونين من الأبحاث، حاول ان تختار احد الموضوعات التالية على أساس الميل الشخصي والرصيد العلمي المسبق، ثم قدم خطة لبرنامج بحثي لمعالجة ذلك الموضوع. قارن بعد ذلك البنية التي تقترحها، مع ما سيأتي لاحقاً في الصفحات القادمة.

1- الله عند المعتزلة والأشاعرة والشيعة.

2- الآثار التي تركتها نظريتا "أصالة الوجود" و"التشكيك في الوجود" على الفلسفة الإسلامية.

3- ظاهر النص وباطنه في تصور القرآن والسنة.

4- قاعدة الإلزام.

5- تناسب سور القرآن.

6- عوالم الوجود.

كان عدد من المشاركين في الورشات التعليمية التي تولى كاتب السطور تنفيذها تحت عنوان "مناهج البحث في الدراسات الدينية" يبدون إعراضاً وصدوداً ذهنياً حيال البحث المتجه نحو مسألة. وهذا نتيجة لما تلقوه من تعليم وتدريب في مجال البحث، يؤكد بشدة على مركزية الموضوع.

ستكون القضايا الرئيسة المطروحة في هذا الفصل كما يلي: ما هو التباين البنيوي بين البحث الدائر حول الموضوع وذلك المتمحور حول المسألة؟ ما هي طبيعة التباين هذا على مستوى جدوى التحقيق ومدى فائدته؟ ما هي مواصفات مسألة البحث؟ كيف لنا ان نصمم بحثاً يدور حول المسألة؟ كيف للباحث ان يتمتع بقدرة على تحديد المسائل واكتشافها؟

حاول ان تطرح وجهة نظرك فيما يتعلق بدور المسألة في مشروع البحث في الجدول 4-2 وقارنها بالجدول 4-6، بغية المزيد من المشاركة في النقاش.

دور المسألة في البحث	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....
6	....

الجدول رقم 4-2: تصورك حول دور المسألة في مشروع البحث.

ما هي الخصوصيات التي تتمتع بها المسألة والشروط التي تخضع لها في البحث؟ هل في وسعنا يا ترى ان نعمد إلى أي شيء كان، ونتناوله بمثابة مسألة للبحث؟ سجّل تصورك في الجدول 4-3، وقارنه بالجدول رقم 4-7.

مواصفات مسألة البحث	
1	
2	
3	
4	
5	
6	

الجدول رقم 4-3: ما هي خصوصيات مسألة البحث؟

ان الممارسة العملية في مشروع البحث، تمثل واحدة من أهم الخطوات التطبيقية فيه. كان السؤالان الأول والثاني مفهومين إلى حدٍ ما، إذ ان وضوح المفاهيم شرط ضروري في البحث، غير انه ليس الشرط الوحيد الكافي في انجازه. ان الشرط الرئيسي على هذا المستوى هو ان ننجح عملياً في تصميم خطة مشروع بحثي يدور حول المسألة. دوّن تصورك حول هذه العملية في الجدول 4-4 وقارن ذلك بالجدول رقم 4-8.

خطة البحث المتجه نحو المسألة	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

الجدول رقم 4-4: ما هو تصورك حول خطة البحث المتجه نحو المسألة؟

التفاوت في البنية بين نمطي البحث

في البحث الدائر حول الموضوع يبتدئ الكاتب مع الموضوع ذاته ويرسم خطة البحث على أساسه، ثم يستدعي ما يتصل بالموضوع وما يناسبه.

أما البحث المتجه نحو مسألة فإنه يبدأ من المسألة ذاتها، ويستدعي ما تتطلبه معالجتها وتتحول المسألة إلى فرضية يحاول الباحث إثباتها. وعلى حد تعبير دقيق لباسكال فإنه يجري معالجة ما يمكن ان يدحض الفرضية.

سيكون الموضوع في البحث المتجه نحو المسألة، أمراً ثانوياً تابعاً، يستخدم للتنويه إلى مجموعة من المسائل تنتمي إلى فصيلة واحدة. يتولى الجدول 4-5 إيضاح تفاوت نمطي البحث على مستوى البنية.

عناوين بحث يتناول معرفتنا بالله			
	بحث يدور حول الموضوع		بحث يتجه نحو المسألة
1	تعريف العلم والمعرفة .	1	ضرورة المعرفة بالله ووجوبها .
2	أقسام المعرفة: الحضوري، الحصولي...	2	إمكان معرفة الله.
3	إمكان المعرفة .	3	تغير معرفة الله.
4	تصورات حول العلم الإلهي.	4	مناهج معرفة الله.
5	معرفة الله في ضوء الآيات والأحاديث.	5	معرفة الله: أساليب صحيحة وخاطئة.
6	معرفة الله في تصورات الفلاسفة والمتكلمين.	6	آثار معرفة الله في الحياة الفردية والاجتماعية .
7	مناهج معرفة الله.	7	تنوع معرفة الله .
		8	تطور معرفة الله .
		9	معوقات معرفة الله .

الجدول رقم 4-5: مقارنة بين نمطي البحث على مستوى البنية.

يمكن الاستعانة بمثال آخر لمزيد من الإيضاح فيما يتصل بتمايز بنية المتابعة القائمة على الموضوع، والبحث الدائر حول مسألة. اختار طالب موضوع "أصالة

الوجود والتشكيك في الوجود: أثرهما على الفلسفة الإسلامية" لبحثه في رسالة الدكتوراه بفرع الفلسفة الإسلامية، واقترح له الخطة التالية:

1- تحليل نظرية اصالة الوجود وشرحها.

2- تحليل نظرية التشكيك في مراتب الوجود وشرحها.

3- تأثير كلتا النظريتين في مقولة الحركة.

4- تأثيرهما في الجعل والعلية.

5- تأثيرهما في التشخص.

6- تأثيرهما في الإدراك.

7- تأثيرهما في الإلهيات.

وحين جرى الحديث مع هذا الطالب واستعرضت له أهمية البحث الدائر حول المسألة وجدواه، تم التأكيد على انه لا توجد مسألة في الفلسفة الإسلامية قد تأثرت بأي من هاتين النظريتين، كما اقترحت له هيكلية تتمحور حول المسألة بدلاً عن خطته السابقة القائمة على مصاديق الموضوع وحالاته (أي نماذج تأثيرات النظريتين). كانت الخطة البديلة المقترحة كما يلي:

1- مدخل إلى المسألة (تعريفها واستعراض الأسئلة الأساسية وتحليل كل من النظريتين وشرحهما).

2- مدى جدوى هاتين النظريتين في تخطي الثغرات المنهجية في الميتافيزيقا.

3- دور هاتين النظريتين في اتساق المنظومة الفلسفية.

4- تأثير هاتين النظريتين في جعل الإلهيات بالمعنى الأخص[1]، أكثر التصاقاً بالفلسفة.

---

[1] - المراد بالإلهيات بالمعنى الأخص في الفلسفة الكلاسيكية، المباحث ذات الصلة بالله وصفاته وأفعاله والتي يفرد لها باب مستقل في مدونات الفلاسفة المسلمين. وتقيد بأنها (اخص) تمييزاً لها عن الإلهيات العامة التي كانت تطلق يوماً ما على عامة مباحث الانطولوجيا في الفلسفة، تسمية للشيء باسم =

5- تأثير هاتين النظريتين منهجياً على الفكر الفلسفي.

6- المفاهيم الفلسفية الجديدة التي تبلورت على أساس هاتين النظريتين.

يمكن في ضوء خطة البحث الدائر حول المسألة، إعادة النظر في الفرضية التي كانت تؤكد ضمن البحث الدائر حول الموضوع، تأثير هاتين النظريتين على كثير من المسائل الفلسفية، إلى جانب استثمار شتى تلك الموضوعات في تحليل مسائل البحث. بينما نجد ان البحث الدائر حول الموضوع كما استعرضناه سلفاً، كان يقتصر على حشد حالات تأثير هاتين النظريتين وتتبعها وتحليلها، وذلك دون ان يؤدي البحث إلى اكتشاف جوانب التأثير هذا في المنظومة الفلسفية.

جدوى البحث الدائر حول المسألة

هنالك العديد من المشاكل التي تفرزها خطة البحث القائمة على أساس الموضوع، على نحو يصيب البحث بالعقم في نهاية المطاف. لكن الخطة القائمة على أساس محورية المسألة يعزز من جدوى البحث. ان مقولة"حسن السؤال نصف العلم" تعبر عن توقف جدوى الأبحاث على محورية المسألة في البحث. ان حسن السؤال يتفرع على كون المسألة محوراً للبحث.

ثمة مقولة لكارل بوبر توضح أهمية كون المسألة محوراً للبحث. نحن ابناء المسائل، لا العلوم وفروعها. ان هدفنا الأساسي في الأبحاث ان نتولى معالجة المسائل

= أشرف اجزائه، على حد تعبيرهم. وأيضاً باعتبار ان المباحث الانطولوجية العامة تعد لديهم مقدمة تمهد لبحث الإلهيات (بالمعنى الأخص). (المترجم).

أو ان نحاول ذلك على الاقل."لسنا باحثين في موضوع محدد، بل نحن نمارس البحث حول المسائل"[1].

تتزايد جدوى البحث على مستويات مختلفة، نتيجة لاتجاهه نحو المسألة، ونشير هنا إلى أهم المستويات تلك:

1- ثمة هدف محدد للبحث القائم على المسألة، وهو هدف يمكن تحقيقه وتقييمه. الأمر الذي يجنب الباحث الابتعاد عن متطلبات البحث وضرورياته أو الخوض في أمور لا علاقة لها ببحثه. والهدف في هذا اللون من الأبحاث هو إثبات فرضية البحث أو تكذيبها فقط، بينما تمثل الفرضية آلية يجري استدعاؤها خلال التعامل مع مسألة البحث.

2- يتاح للعقل حين يتعامل مع المسألة، ان يكتسب نضجاً اكبر ودربة إضافية، كما يتوفر للباحث بفضل ذلك قدر اكبر من المشاركة في البحث. ثمة بحث يختاره المرء باعتبار شيوع موضوعه في الأوساط العلمية، أو بناء على توصية من أستاذ أو دعوة من قبل مؤسسة وما شابه، ثم يقوم الباحث بإعداد خطته بعد ذلك. وهنالك بحث آخر يختاره المرء في ضوء حافز داخلي ينتج عن مواجهة المسألة أو المسائل، والتعامل معها على نحو يقوده إلى تناولها بالبحث. وهنالك فرق بين البحثين على مستوى الدافع والمؤهلات الذهنية للباحث ونجاحه في عملية البحث. وغالباً ما يكون البحث الدائر حول المسألة، سبباً لمعظم الإبداعات والاكتشافات والاختراعات ولا سيما تلك الثورات العلمية في تاريخ المعرفة، حيث كان ذلك يحصل على يد باحثين حرضتهم دوافعهم في البحث نحو الإجابة على مسائل قاموا هم بصياغتها.

---

[1] - بوبر، كارل ريموند. حدسها وإبطالها (تخمينات ودحوض). ترجمة احمد آرام. تهران، شركت سهامي انتشار، 1363، ص83.

ان ما يسمى بمشاركة الباحث مع بحثه، يعني توسيع عملية البحث كي تشمل شتى جوانب عقل الباحث وخياله، في الأبحاث الدائرة حول مسألة. وتتجلى لنا هذه الحالة حين نتدبر طريقة صدر المتألهين في التعامل مع مسألة أصالة الوجود. ويمثل الجهد المبذول في معالجة مسألة معينة، أمراً يجعل الباحث يذوب في عملية البحث ويتماهى معها، وبالتالي فإن قدراته ومؤهلات فريقه البحثي ستتضاعف مئات المرات. يقول جون ديوي" ان الميل نحو معالجة المسألة العلمية، يمثل الميل الوحيد في تصوري"[1]. ويتفق مع ديوي في رأيه هذا، أولئك الباحثين الذين تركوا بصماقم على تاريخ الفكر.

3- تنهمك المتابعات الدائرة حول الموضوع، في ممارسة التوصيف والتوضيح خلال معالجتها للموضوع. ولذلك وعلى تقدير ان يكون هذا اللون من الانشطة منتجاً، فإن حصيلته لن تكون سوى تحقيق أهداف تعليمية وجمع للمعلومات على نحو يناسب إعداد الموسوعات ودوائر المعارف. بينما نجد ان البحث الدائر حول المسألة يمثل جهداً في معالجة مسألة معينة، حيث يؤدي على تقدير نجاحه وجدواه، إلى معالجة مسألة جديدة أو بلورة آلية مستحدثة، وعلى أي حال فإن ذلك يولد إبداعاً في تاريخ العلم، والإبداع مرتكز للبرنامج البحثي.

4- ان المسائل تثري العلم وتطوره. لم يكن الموضوع حاضراً ولم يجر استدعاؤه عند نقطة البداية في تاريخ العلم، ولذلك فلا يمكن ان نفترض ان الموضوع هو الذي استدعى مباحث ومسائل تمحورت حوله بوصفها عوارضه الذاتية[2]. بل كانت المسائل تطرح تدريجياً، ثم يتجمع عدد من المسائل على نحو

---

[1] - ديوي. مصدر سابق، ص15.

[2] - العوارض الذاتية مصطلح في المنطق الكلاسيكي، وهنالك تعريفات متعددة للعرض الذاتي اشهرها انه العرض الذي لا يحتاج إلى واسطة في العروض. والمؤلف هنا يشير إلى تعريف موضوع العلم في مدونات المتقدمين حيث يقال ان الموضوع هو ما يبحث في العلم عن عوارضه الذاتية. (المترجم).

متسق تحت عنوان موضوع واحد، فيتكون العلم. حين نتأمل في تطور العلوم وتحولها تاريخياً، نجد ان الموضوع أمر ثانوي تابع للعلم، وأن العلم ليس شيئاً سوى المسائل العلمية. وفي السياق ذاته لن يكون البحث وهو الطاقة الدافعة لتحولات العلم، سوى محاولة للإجابة على المسائل. ان البحث الدائر حول الموضوع يمثل عملية بحث معكوسة.

5- ان عملية البحث انتقال منهجي من الفرضية إلى النظرية، وهو ما يظل متوقفاً على المسألة. ذلك ان الفرضية هي إجابة الباحث على المسألة، فيما يكون المنهج تابعاً للفرضية. وفي ضوء ذلك يؤدي الغموض في المسألة إلى غموض في المنهج والموضوعات. ويتولى الشكل 4-1 إيضاح عملية البحث الدائرة حول المسألة.

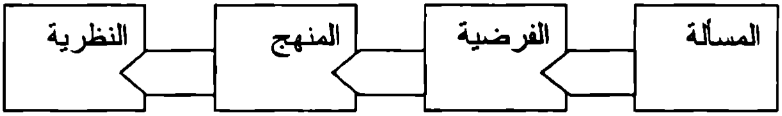

الشكل 4-1: عملية البحث المتمحور حول المسألة.

6- ان تحديد مصادر البحث ونقدها يتوقف على مسألة البحث. ويمكن على أساس المسألة هذه تحديد المصادر المناسبة للبحث وتقييمها. وتتضح بشكل عام عند تناولنا موضوع الوحي، طبيعة المصادر التي يتطلبها البحث على نحو دقيق، بيد ان بحث مسألة الإطار الشخصي والاجتماعي للوحي مثلاً، يدلل على المصادر التي لا يمكن للباحث تجاهلها.

ووفق الاعتبار ذاته نجد بوبر يقول بعد ان يوضح اننا لسنا باحثين في الموضوعات، بل نتناول في أبحاثنا المسائل: ((يمكن ان تتخطى المسألة حدود أي موضوع يطرح للنقاش، وتتجاوز تخوم العلم، حتى تنتقل إلى موضوع أو علم

آخر))[1]. ويعني هذا ان في وسع الباحث وطبقاً لطبيعة مسألته، ان يستثمر أطر مختلف العلوم وأدواتها. لقد تضمن الجدول 4-6، حصيلة لحديثنا هذا.

7- يتوقف منهج البحث وأداوته أيضاً، على طبيعة المسألة في مستوى معارف الدرجة الأولى والثانية.

دور المسألة في البحث	
1	يكون البحث متجها إلى هدف محدد يمكن تحقيقه وتقييمه .
2	تؤدي المسألة إلى منح العقل نضجا أكبر .
3	منتهى البحث إلأى إبداع في معالجة المسألة واستحداث الفرضية وطرح نظرية جديدة أو منهج حديث .
4	إثراء العلم بواسطة المسألة .
5	ان عملية البحث انتقال منهجي من الفرضية إلى النظرية، وهو ما يتوقف على المسألة .
6	ان تحديد مصادر البحث ونقدها يتوقف على مسألة البحث.
7	المنهج .

الجدول 4-6: دور المسألة في تأمين جدوى البحث وعمليته.

[1] - بوبر، مصدر سابق، ص83.

خصائص المسألة

تتزايد أهمية استيعابنا لخصوصيات المسألة بعد التأكيد على أهمية كون البحث متمحوراً حول المسألة وما يلعبه ذلك من دور. أي المسائل يمكنها ان تمثل محوراً يستحق البحث؟ ان مقولة ((حسن السؤال نصف العلم)) تعبر عن توقف جدوى البحث على صياغة مسألة البحث بنحو صحيح وتحليلها على أتم وجه.

لا بد لمسألة البحث ان تتمتع بالمواصفات التالية:

1- **الوضوح والتمايز:** لا بد ان تكون المسألة واضحة على مستوى المفهوم، محددة ومتميزة على مستوى المصداق وبالنسبة إلى سواها من المسائل. ذلك ان أي لون من الغموض في المفهوم أو المصداق، سيؤدي إلى خطأ في عملية البحث. ليسأل المرء نفسه قبل بدء البحث: ما هي مسألتي؟ وليحاول تقديم تعريف واضح للمسألة تلك من خلال التحليل على مستوى المفهوم والقضية (وهذان لونان من التحليل سنتطرق إليهما في الفصول التالية)، وحينئذ يجري تحليل مسألة البحث إلى عدة مسائل محددة وواضحة، عبر تقديم المسائل الأساسية بنحو دقيق. كما ان عليه التدليل على تمايز مسألته عن سواها من خلال المقارنة بالمسائل الأخرى المشابهة أو المشتبهة.

2- **ان تكون صحيحة ذات مضمون معقول:** يمكن من خلال تحليل المفاهيم والقضايا مقاربة معنى المسألة المحدد، كما يمكن التدليل على انها لا تنطوي على معنى معقول فيما لو كانت تحمل تناقضاً داخلياً. ثمة قضايا من قبيل: ((هل يمكن تحليل "الأربعاء" في الحامض الكيميائي؟)) أو ((هل المثلث يوازي اللون الأصفر؟)). وهذه تنطوي على تناقض واضح، غير ان هنالك لوناً آخر من القضايا نواجه صعوبة في الكشف عما ينطوي عليه بعضها (لا جميعها) من تناقض، فيما يتصل مثلاً بمقولات الجبر والاختيار وهدف خلق الكون ونحو ذلك، حيث ظلت

مداراً للبحث قروناً عديدة ولم نكتشف تناقض بعضها سوى اليوم. ليس هنالك خطأ نحوي في قولهم ((ماذا كان الله يصنع قبل الخلق؟)) بيد انه ينطوي على تناقض داخلي على مستوى بنيته الدلالية عند التحليل الدقيق لدلالته، ولذلك فإنه خالٍ عن المعنى.

3- **ان يمكن تناولها بالبحث:** رغم ان العديد من الأسئلة تنطوي على معنى معقول صحيح، غير انها لا يمكن ان تخضع للبحث. ان طرح أسئلة كهذه يجعل البحث عقيماً غير منتج، كما لو تساءل باحث عن التأثير الذي يتركه نوم (س) في ما يعانيه (ص) من اضطرابات نفسية. يتضمن هذا السؤال معنى صحيحاً، غير ان أدوات البحث المتاحة لنا اليوم لا تجعل من الممكن تناول مسألة كهذه. هنالك تباين حقيقي في وجهات النظر فيما يتصل بنطاق ما يمكن بحثه ومقياس ذلك في مسائل الدراسات الدينية، حيث تتفاوت مواقف الاتجاهات البحثية نظير اتجاه التفكيك[1] والاتجاه الفلسفي.

4- **تجنب الشمولية:** نجد ان تقاليدنا التربوية والتعليمية دفعت باحثينا إلى اعتماد طريقة شمولية في البحث. ففي إطار برنامج بحثي ضيق ومحدود يعمدون إلى استدعاء أوسع المسائل نطاقاً وأكثرها تعقيداً، ويعيشون هاجس العثور على كل شيء. كان هنالك طالب بصدد إعداد رسالة تخرج شاملة لحقل الإلهيات بأسره، وبعد مناقشات مطولة استطعت إقناعه بأن يكف عن ذلك ويبحث معرفة الإنسان بالله (وهي واحدة من مئات المسائل في حقل الإلهيات) ونمط هذه المعرفة، وبعد

---

[1] - التفكيك هنا يشير إلى منهج يمكن تلمسه في العديد من جوانب التراث الكلامي عند المسلمين، غير انه يشير تحديداً إلى منهج دعا إليه الشيخ محمد رضا حكيمي فحواه الفصل بين المستويات الدلالية السيميائية، والفلسفية والعرفانية خلال معالجة النص الديني، والتأكيد على اعتماد القراءة الدلالية اللغوية وحسب. وبالتالي فمن الواضح انه لا علاقة له باتجاه جاك دريدا النقدي الذي ظهر إلى جانب عدة اتجاهات أخرى فيما عرف بما بعد البنيوية في فرنسا. (المترجم).

طول تدبر ادرك ان عليه ان يتناول في بحثه عقلانية الإيمان بالله على نحو أكثر عمقاً.

والمثير في الأمر ان بعض الدارسين في الجامعات والمراكز التعليمية يعارضون الأبحاث التي تحاول معالجة مسألة محدودة على نحو لا شمولي، وهذا ناشئ بالتأكيد عن غياب الرؤية المنهجية.

هنالك علاقة عكسية بين منهجي الشمولية والعمق، فكلما كانت المسألة أكثر شمولاً تراجع مستوى العمق في البحث. يتضح لنا عند ملاحظة إحدى رسائل الدكتوراه في حقل الإلهيات، ان سعتها في إطار مقارن بين ثلاث فرق كلامية (الشيعة والمعتزلة والأشاعرة) في قضايا الإلهيات، جعلت منها بحثاً موسعاً بحجم المحيط غير ان عمقها لن يتجاوز بضعة سنتمترات، وعلى نحو يجعلها اقرب إلى ان تكون موسوعة أو دائرة معارف.

5- **ان تتناسب ومؤهلات الباحث:** لا بد ان يكون البحث مسبوقاً بالتعلم والدربة، وهو يتوقف على المؤهلات الشخصية للباحث أو فريقه البحثي. يخوض كثير من الباحثين الشباب في مسائل عدة، لأنهم مغرمون بمسألة معينة ودون ان يدرك الباحث منهم مدى إمكانية تقديمه معالجة مناسبة لها في سقف زمني جرى تحديده، أو يقدر مدى إمكانية توظيفه لأدوات البحث اللازمة. لا بد ان يكون السؤال الذي يدور حوله البحث، مناسباً لمؤهلات فريق البحث.

6- **ان تقع على سلم الأولويات:** اشرنا في حديثنا عن تحديد هدف البحث، إلى ضرورة ان يكون الهدف من الأولويات، إذ ينبغي للباحث ان يستوعب الدوائر التي تتطلب البحث في المجالات العلمية. نكون أحياناً بحاجة إلى بحث في مستوى المبادئ، بينما نحتاج حيناً آخر إلى بحث تطبيقي. المهم تحديد أولوية المسألة المبحوثة مقارنة بسواها من المسائل، ولا شك ان ذلك يقوم على

مقاييس متعددة، ويتباين الأمر بين بحث يجري تنفيذه فردياً وآخر ينفذ من قبل مؤسسةٍ ما وهكذا.

يتولى الجدول 4-7، بلورة حصيلة لحديثنا الآنف.

	خصائص المسألة
1	الوضوح في المفهوم .
2	التحديد في المصداق.
3	أن تكون صحيحة معقولة .
4	من الممكن بحثها .
5	محدودة (تتجنب الشمولية) .
6	تتناسب ومؤهلات الباحث.
7	ضرورية تقع على سلم الاولويات .

الجدول 4-7: خصائص المسألة المبحوثة.

عملية طرح المسألة

ان التأكيد على أهمية صياغة البرنامج البحثي وتأسيسه على محور المسألة، يمثل في الواقع توضيحاً لأمر هو واضح في حد ذاته، وقد أشرنا إليه على اعتبار وضع الأبحاث السائد لدينا ولا سيما فيما يتصل بالرسائل الجامعية في حقل الأبحاث الدينية. ان إدراك أهمية ان تكون المسألة محوراً للبحث، يمثل شرطاً لازماً لجدواه لكنه ليس الشرط الوحيد أو الكافي، حيث ان الخطوة الأكثر تأثيراً في ذلك هي التعرف على عملية البحث المتمحور حول المسألة، أي تحديد السبل

والمعوقات، والإجابة على أسئلة من قبيل: ما هي الخيارات الكفيلة بتجنيب الباحث ما لا ينبغي له فعله؟ ما هي القواعد الاستراتيجية في البحث الدائر حول المسألة؟ كيف يمكن صياغة مسألة البحث وبلورتها؟ ما هي الأخطاء التي تعانيها هذه المستويات من البحث وكيف لنا ان نتجنبها؟

يمكن ان نلاحظ هنا ست خطوات بمثابة ستة أوامر:

1- مواجهة المشكلة

يمثل كل بحث دائر حول المسألة حصيلة لمواجهة بين الباحث ومشكلة محددة. أما الهروب من المشكلة وتخطي المسائل من خلال أساليب متنوعة بدلاً عن معالجتها، فهو عامل أساسي للاتجاه نحو المتابعة الدائرة حول الموضوع. يمكن لفن تحديد المشكلة ان يكون واحداً من المبررات التي تدعم مقولة توماس كون المعروفة ((ان الثورات العلمية تأتي على يد الشباب)).

2- تحويل المشكلة إلى مسألة

ثمة ثلاثة عوامل هي التسرع والتساهل وتجنب مشاق البحث، تؤدي بالمرء بعد مواجهته المشكلة، إلى الإسراع في معالجتها قبل استيعاب طبيعة المسألة وأبعادها. وهذا خطأ منهجي نعبر عنه بالقفز من المشكلة إلى الحل، وهو يشيع اكثر في الأبحاث التطبيقية ويمكن ملاحظة نموذجه البارز في ممارسة الإدارة التنفيذية. ان نموذج خطأ القفز المذكور، يتجلى في حالة مدير تنفيذي يواجه إضراباً عمالياً ثم يهرع إلى العثور على أسلوب لمعالجة ذلك دون ان يتساءل عن المشكلة التي سببت الإضراب.

والسر في ذلك ان ثمة فرقاً بين المشكلة والمسألة، فالجميع يدركون المشكلة سواء كانوا من المتخصصين أم غيرهم، لأن الثغرات والمشاكل تمثل أوضح تجليات الظاهرة وأبسطها، ومن مؤشرات وجود المشكلة ظهور الاضطرابات وغياب

الاستقرار والتوازن إلى جانب الغموض...الخ. غير ان ذوي الخبرة لوحدهم قادرون على رصد المسألة ورؤيتها في مستوى معمق عبر تجاوز المستوى السطحي للموضوع (المشكلة).

ان المشكلة أمر عام غامض غير محدد، ولهذا فإنه لا يمكن إخضاعه للبحث، وعندما نشعر بألم في بعض مواضع البدن فإننا سنواجه مشكلة، غير الها عامة تتحرك في نطاق واسع لتشمل العديد من الاحتمالات، ولذلك فهي غير محددة وتتطلب دراستها ان نتساءل: ما هي المسألة في ذلك تحديداً؟ ان مراجعة الأخصائي في حالات كهذه، تستهدف تحديد طبيعة المسألة وبالتالي دراستها واختبارها وعلاجها.

من المؤكد ان الانتقال من المشكلة إلى المسألة هو خطوة مهمة في وسعنا القيام بها من خلال أدوات منطقية وعبر تصوير المسألة وتناول المشكلة ذاتها بتحليل دقيق. ينبغي ان نعمد إلى مقاربة المسألة وتصويرها على نحو يؤدي إلى وضوحها الكامل وتحديدها وتمييزها وجعلها مما يمكن بحثه. ان الخطوات والأوامر التالية ستلقي ضوءً على أساليب مقاربة المسألة وتحويل المشاكل إلى مسائل.

3- التحليل

ان واحدة من المغالطات التي تتهدد عملية البحث، هي البداية عند مسألة مركبة *Complex question* أو جمع المسائل في مسألة واحدة على حد تعبير علماء المنطق المسلمين. تتكون المسألة الواحدة أحياناً من عدة مسائل تتباين بطبيعتها، رغم الاتساق في بنيتها النحوية والشكلية، وذلك تركيب يؤدي إلى غموضها وتعقيدها، وجعلها عصية على الحل. حين نتساءل حول الهدف من الخلق مثلاً، فإن المسألة هذه تتكون من سؤالين يتصل أحدهما بهدف الفاعل والآخر

بهدف الفعل. وهذا هو الحال مع السؤال بـــ (لِمَ) الذي يتركب من سؤالين:"ما هو السبب "التفسير"؟"، و"ما هو الدليل "التبرير والإثبات"؟".

تقدم لنا تعليقة سليمان دنيا على منطق الإشارات، نموذجاً للتقييمات المشوشة الناشئة عن عدم تحليل المسائل. يقول ابن سينا في حديثه عن النوع الحقيقي والنوع الإضافي: "ومما يسهو فيه المنطقيون، ظنهم ان اسم النوع في الموضعين له دلالة واحدة و(أو) مختلفة بالعموم والخصوص".

ويعتقد سليمان دنيا ان النص أعلاه لا ينسجم مع ما أورده القطب الرازي في شرح الشمسية من ان ابن سينا في الإشارات يرى بأن بين النوع الحقيقي والإضافي نسبة عموم وخصوص. وبعد جهد جهيد لم ينجح دنيا في التخلص من التعارض بين النصين، واكتفى بالقول بغموض نص ابن سينا[1].

ثمة في كلام دنيا مستويين حساسين من الخطأ المنهجي، فهو أولاً لم يراجع كتاب الشفاء، كما لم ينتبه ثانياً إلى ان النسبة بين النوع الحقيقي والنوع الإضافي هي مسألة مركبة من مسألتين في الواقع.

المسألة الأولى: النسبة على مستوى المفهوم والتي يتناولها الشيخ في الإشارات فيجيب على القول بالتباين في المفهوم، ويرفض القول بالوحدة في المفهوم (على نحو اشتراك الأخص والأعم).

المسألة الثانية: النسبة على مستوى المصداق، التي تناولها في كتاب الشفاء، واستدل هناك على اعتقاده بأن بين النوعين نسبة عموم وخصوص.

ان واحداً من أساليب مقاربة المسائل، تحليل المسألة إلى مسائل مجدية كي يتبين على نحو دقيق، أي المسائل هي محور للبحث بين المجموعة المأخوذة بنظر الاعتبار.

---

[1] – ابن سينا. الإشارات والتنبيهات. تصحيح وتعليق سليمان دنيا. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1366هـــ. ص45-48، هامش المصحح.

سنتناول لاحقاً تحليل القضايا، وهو أسلوب مفيد في تحليل السؤال إلى اسئلة مجدية. لقد اشتهر علماء اصول الفقه بين علماء المسلمين، ببراعتهم في تحليل المسائل المركبة، وهم يستخدمون أساليب متعددة يمكن الاستفادة منها في ذلك. كما ان علماء الكلام عرفوا بالدقة والفطنة في هذا المجال، في القرنين الرابع والخامس للهجرة.

4- حالات التركيب

تتوقف البراعة في تحليل السؤال المركب، على استيعاب حالات التركيب، بمعنى الإحاطة بالحالات العامة لذلك. ونستعرض هنا ثلاثة من الحالات الهامة على نحو موجز.

1- **السؤال بـ (لِمَ)**: ان أداة الاستفهام هذه تدل بالاشتراك اللفظي، على التساؤل حول السبب والتساؤل حول الدليل والمبرر. وهذان سؤالان متباينان منطقياً ومفهومياً، ويؤدي عدم التمييز بينهما إلى حصول مغالطة. يتصل السؤال عن السبب، بعالم الواقع وهو يستهدف التفسير ***explanation***. بينما التساؤل حول الدليل يتصل بالذهن وعالم الإثبات وهو يستهدف التبرير ***justification***. كما ان السؤال بـ (لِمَ) بمعنى التبرير يمكن ان يستبطن مسألة منطقية وأخرى نفسية.

2- **تعدد الجهة**: يتصل السؤال أحياناً بجهات متعددة رغم وحدة بنيته الشكلية، ولذلك فهو ينطوي على أسئلة متعددة. وينتج هذا التركيب عند التساؤل حول أمر يتمتع بجهات وأبعاد وجوانب متعددة. يمكن ان يشمل التساؤل حول الهدف، سؤالين يتجه احدهما نحو هدف الفاعل، والآخر إلى هدف الفعل. ويؤدي عدم التمييز بين السؤالين، إلى إخفاق في الإجابة. وكثيراً ما نواجه غموضاً كهذا في بحثنا حول هدف الخلقة.

يمكن ان ينطوي التساؤل حول الصدق والكذب، على سؤالين احدهما أخلاقي والآخر منطقي. إذ من الممكن ان يكون السؤال متجهاً إلى صدق الخبر، كما يمكن ان يتجه إلى صدق المخبر (بالكسر). ان عدم التطابق مع الواقع، يقدم لنا نوعاً من الصدق، كما ان تشويه الحقيقة يقدم نوعاً آخر من الصدق. وهذا هو الحال مع سؤال الحرية، فهنالك (التحرر من ...) وثمة (التحرر في ...). عندما تكون جهة السؤال مضافة، فإن احتمال التركيب يتضاعف.

ويجري تكريس غموض كهذا بسبب عدم التمييز بين جهات المسألة. نلاحظ في الجدل الدائر حول رأي شيخ الإشراق في أصالة الوجود أو اعتباريته، ان البعض يعول على تحليل قدمه الشيخ حول ما يتصل بالموضوع، غير اننا لا نعلم بالضبط ان تحليل شيخ الإشراق اتجه إلى اعتبارية مفهوم الوجود أم الحقيقة الوجودية. ذلك ان قولنا: هل الوجود أصيل؟ يمكن ان ينحل إلى سؤالين باعتبار ان ثمة جهتين مفهومية ومصداقية، وبالتالي فإن له نوعين من الإجابة. ان تعدداً من قبيل تقسيم حالات الموضوع إلى حالة لا بشرط، وأخرى بشرط شيء، وثالثة بشرط لا، من المواطن التي يمكن ان تؤدي إلى تعدد في جهات السؤال.

3- **الإيهام في البنية**: ينشأ التركيب في السؤال عن الغموض بشكل عام، وهذا الغموض إما ان ينشأ عن الإيهام في المفردات، كما أشرنا في الحالتين السابقتين، أو ينشأ عن الإيهام في بنية الجملة. ويسمى هذا النمط من الغموض في المنطق الكلاسيكي بمغالطة الممارات بينما يعبر عنها في المنطق الحديث بالإيهام في البنية *amphibology*. وهذا اللون من الإيهام يؤدي إلى منح الجملة دلالات متعددة ودمج اسئلة متعددة في جملة استفهامية واحدة.

ان تعدد الضمير يمثل واحداً من أسباب هذا الإيهام، ومثال ذلك كلمة ابن الجوزي المعروفة حين سؤل عن خليفة الرسول فأجاب قائلاً:"هو من بنته في بيته". ومن أسباب ذلك أيضاً القضية التمثيلية السالبة في قولهم "هل الإنسان ليس بمجبر

كالحيوان؟". ومن العوامل الأخرى في ذلك تعدد العامل والمعمول النحويين والغموض في متعلقهما، والاستثناء والغموض في تعلق الصفة بالمضاف والمضاف إليه، إلى جانب تعدد التخصيص في الأحكام العامة...الخ.

4- تحديد ما تستبطنه المسألة من إيحاء وتلقين

هذه النقطة تمثل واحداً من أسباب ابتعاد البحث عن الموضوعية والواقعية. تتضمن بعض الأسئلة رؤية خاصة توحي بها للباحث وتلقنه إياها، لا على نحو التصريح، إذ لو كانت تطرح بشكل صريح مباشر لما سلّم بها الباحث، بيد ان اختفاءها في طيات السؤال يستغفله ويدفعه إلى التسليم بها بشكل غير مباشر.

لو تناول الباحث على سبيل المثال عوامل تدهور الحالة الإيمانية في العقود الأخيرة، فإن مسألة البحث توحي للباحث على نحو غير مباشر بأن الإيمان قد تراجع في العقود الأخيرة، بينما يمثل ذلك زعماً يظل بحاجة إلى إثبات.

ان الغفلة عما تستبطنه مسألة كهذه تؤدي إلى إخفاق البحث. وفي أغلب المسائل التي يكون فيها الحكم مردداً بين أمرين على مستوى الموضوع أو المحمول، تستبطن المسألة افتراض التقاطع والتباين بين ذينيك الأمرين. فلو كان محور البحث مسألة تقول:"ما هو هدف الأنبياء: الدين أم الدنيا؟" نجد ان هذه مسألة توحي بالتقاطع بين الدين والدنيا. ورغم ان التقاطع هذا هو محور للسؤال أساساً، غير انه استبطنه وافترضه بمثابة جواب مفروغ عنه.

يمكن في تحديد ما يستبطنه السؤال، ان نقوم بدراسة ما يتأسس عليه من مبادئ ومقدمات ومفروضات ومبادئ تصديقية. وثمة دور بالغ التأثير في تحليل المسألة والإحاطة بما يستبطنه السؤال، يقع على عاتق فطنة الباحث واكتشافه القضايا التي يقوم عليها السؤال. عندما نواجه مسألة فلا بد ان نستفهم حول ما تأسس عليه من قضايا، ونقوم بالتمييز بين القضايا الثابتة وتلك التي لا زالت مثاراً

للنقاش، وبالتالي فإننا سنحدد القضايا الكاذبة وتلك التي لا زالت بحاجة إلى المزيد من البحث.

5- تحديد النمط type

تتنوع الأسئلة على مستوى أنماط المسائل، ويتطلب كل نمط منها منهجاً خاصاً في البحث. فالمسألة الميتافيزيقية مثلاً، لا يمكن بحثها بمنهج تجربي، كما ان منهج البرهان يخفق في معالجة المسائل التجربية. ان حديث المنهج يكون مسبوقاً بتحديد نمط المسائل ***typeology problems***. طالما كانت دراسة الأنماط المتنوعة للمسائل مثاراً لاهتمام اغلب العلماء، وقام العلماء المسلمون في مدونات المنطق وتبعاً لأرسطو، بتقسيم المسائل والموضوعات الرئيسية في علوم البرهان وتبويبها وبحثها. ومن ذلك انهم قسموا المسائل الأساسية إلى ثلاثة أصناف: مسائل (ما) و(هل) و(لم).

أس المطالب ثلاثة عُلم مطلب ما مطلب هل مطلب لِم[1]

كما قسموا كلاً منها إلى قسمين، حيث ان (هل) تنقسم إلى بسيطة ومركبة، و(ما) إلى شارحة وحقيقية و(لِم) إلى ثبوتية وإثباتية. ان هذا التبويب السداسي يمثل في حقيقة الأمر بحثاً في أنماط المسائل. إضافة إلى ان اهتمامهم بذلك التبويب يعبر عن دقتهم في تحديد منهج البحث لكل نمط من المسائل[2]. يكتسب تحديد نمط المسائل أهمية متزايدة في مجال الأبحاث الدينية[3]، لأن هذا اللون من

---

[1] - ملا هادي السبزواري، اللئالئ المنتظمة.

[2] - لاحظ مثلاً: الجوهر النضيد، ص198، حيث يختلف العلامة الحلي مع الخواجة نصير الدين الطوسي فيما يتصل بذلك.

[3] - قام الخواجة نصير الدين الطوسي أولاً في رسالة (الإمامة) بتقسيم موضوعات البحث على مستوى نمط المسائل، إلى خمسة اقسام (ما، هل، كيف، ومن)، ثم أسس بحثه وفق ذلك. راجع: الطوسي، تلخيص المحصل، إعداد: عبد الله نوراني. طهران، 1309، ص425.

الأبحاث يشيع فيه تعدد المنهج *polymithodic*، في ضوء تنوع شديد للمسائل المبحوثة.

يمثل تحديد نمط المسألة واحداً من أساليب مقاربتها وصياغتها، إلى جانب العثور علي منهج مناسب لها. لا بد في تحديدنا لنمط المسألة، من وضعها ضمن مستويات متنوعة من المسائل. ويمكن تقديم العديد من تلك التقسيمات والمستويات، لكننا نكتفي هنا باستعراض ما هو أكثر فائدة في الأبحاث الدينية.

1- تنقسم المسائل من حيث صلتها بنطاق خاص واحتياجها إلى سوى ذلك من المجالات، إلى قسمين، فهي ذات اصل واحد *monoorigen* تارة، وذات اصول متعددة *multipleorigen* تارة اخرى. وتتصل المسألة ذات الأصل الواحد بنطاق خاص، ويمكن تحليلها وتفسيرها من خلال أدوات ذلك النطاق وحسب. بينما نجد ان المسألة ذات الأصول المتعددة تضرب بجذورها في مجالات مختلفة، على نحو لا يتيح لنا معالجتها بالاقتصار على نطاق واحد ودون الاستفادة مما يوجد في سواه من المجالات من أدوات وأساليب.

تتطلب معالجة بعض المسائل ان نستعين بعلوم مختلفة، وقد ذكرنا سابقاً ان ذلك لا يتنافى مع انتماء المسألة تلك إلى نطاق محدد. ان المسألة التي نصفها بأنها متعددة الأصول، هي تلك التي تكون بحاجة إلى ان تبحث من منظور علوم متنوعة، وهي تتصل بحقل معرفي خاص في الوقت ذاته. وسنتحدث حول ذلك على نحو اكثر تفصيلاً، في فصل"الدراسات بين التخصصية".

2- تنقسم المسائل إلى خمسة أقسام من حيث طبيعة دورها:

- سؤال التعريف *definition* أو مسألة التعريف، ويتعدد هذا اللون من المسائل وفقاً لتعدد ما يتوقعه الباحث من التعريف.

- البحث حول دلالة نص معين وقراءته *interpretation*، أو مسألة التأويل.

- السؤال حول الوصف والحكم ***description***، أو مسألة الوصف.

- السؤال حول الأدلة والتبرير ***justification***، أو مسألة الإثبات.

- البحث عن السبب ***explanation***، بمعنى تحديد السبب والعلة في إطار قانون عام، أو مسألة التفسير.

وسيتولى الفصل التالي تسليط الضوء على ذلك بنحو اكبر.

3- تتعدد المسائل كذلك على مستوى جهات الإشارة فيها. فثمة مسائل تشير إلى الواقع، وأخرى تتصل بالقيمة، وهذان نمطان متفاوتان. وهذا التباين مما يؤكده علماء الفلسفة التحليلية بشدة ويعنون به. تتنوع المسائل التي تشير إلى الواقع حسب تنوع مستويات الواقع ذاته، فهنالك مسائل تشير إلى الواقع الحسي التجربي، وأخرى نحو الحقيقة الموضوعية الميتافيزيقية، وثالثة إلى الذهن والمفاهيم، أو عالم اللغة والألفاظ.

لقد حظي هذا المستوى كذلك باهتمام العلماء المسلمين، حتى ان تقسيم العلوم كان يجري وفق أنماط المسائل من حيث كونها متجهة إلى الواقع. ان اهتمام علماء المنطق ذي القسمين منذ القرن السابع فصاعداً، بالقضية الطبيعية كان على أساس اهتمامهم بتنوع أنماط المسائل أيضا. فرغم انهم اعتبروا القضية الطبيعية بمثابة القضية الشخصية على مستوى البنية والأحكام منطقياً، غير ان تمييزهم لها عن القضية الشخصية يتصل بإدراكهم ان القضايا الطبيعية تتعلق بالمعقولات الثانية المنطقية (القضايا الذهنية) وهي تتضمن محمولات من الدرجة الثانية، وبالتالي فهي تتباين مع القضايا الشخصية في منهج البحث.

كما ان تقسيم القضية إلى حقيقية وخارجية وذهنية من قبل علماء المنطق ذي القسمين والذي شاع في القرن السابع، يمكن فهمه على هذا الأساس[1]. ونجد على سبيل المثال ان عدداً من علماء المنطق اعتقدوا بأن حل لغز الجذر الأصم أو المفارقة الكاذبة، يتوقف على تحديد بنيته وما إذا كان قضية خارجية أو حقيقية[2]. وكذلك هو الحال في مذهب بعض علماء أصول الفقه في تحليلهم لنمط المسائل الفقهية وما إذا كانت خارجية أم حقيقية. نلاحظ ان الآخوند الخراساني مثلاً يستعين بكون احكام الشرائع من القضايا الحقيقية، في معالجة شبهة فقدان اليقين السابق في استصحاب الشرائع الماضية.

عمل الباحثون في اللاهوت المعاصر على تقديم مقاربات أكثر دقة للمسائل الإيمانية، فطرحوا أنماطاً جديدة من المسائل. ومن نماذج هذا الاتجاه الجديد ما قام به غابريل مارسيل من تمييز بين المسألة ذات الصلة بالأفكار الأولية، وتلك التي تتصل بالافكار الثانوية، إلى جانب حديث كير كغارد، حول المعرفة الوجودية وتمييزها عن العقلية والتجربية.

6- تحليل البنية المنطقية

لكي نتعرف على المسألة ونتولى تحديدها فإن من المهم للغاية ان نحدد كونها كلية أو جزئية، معدولة أو محصلة، وهل تنتمي إلى ما هو بالذات أم ما هو بالعرض، وأنها فعلية أم ضرورية...الخ. وعلى سبيل المثال فهل تعد مسألة الاختيار مسألة كلية؟ هل يعد التساؤل حول نظام الكون بمثابة القضايا الشخصية.

---

[1] - لمزيد من التفاصيل حول هذين المثالين لاحظ مقدمة كاتب السطور في: ملا صدرا الشيرازي. التنقيح في المنطق. تصحيح غلام رضا ياسي بور. طهران، بنياد حكمت اسلامي صدرا، 1378. ص32-37.

[2] - لاحظ مثلاً: جلال الدين الدواني، نهاية الكلام. تقديم وتصحيح أحد فرامرز قراملكي. مجلة نامه مفيد، شماره 5.

عملية طرح المسألة	
1	مواجهة المشكلة .
2	تحويلها إلى مسألة .
3	تحليل المسألة .
4	تحديد إذا كانت توحي بأمر ما.
5	تحديد نمطها .
6	البنية المنطقية .

الجدول رقم 4-8: عملية طرح المسألة.

الموهبة في اكتشاف المسائل

يمثل الانتباه إلى المسائل والاهتمام بها، الدور الأكثر أهمية في بدء عملية البحث وتنفيذها بنجاح. كيف يمكن ان نتمتع بحاسة فاحصة تكتشف المسائل؟ لماذا نجد ان البعض يكتشف المسائل في تعامله مع الظواهر والنظريات والموضوعات، بينما لا يتمتع آخرون بهذه الموهبة؟ ثمة عوامل متعددة تتدخل في ذلك، ونشير فيما يلي بإيجاز إلى ست حالات بطريقة وظيفية عملية:

1- تحلي الذهن برصيد معقد وغني من النظريات والنماذج والتصورات:

سيتراجع احتمال عثور الباحث على تساؤلات علمية، كلما كان ذهنه بسيطاً لم يسبق له ان تعامل مع النظريات المتنوعة.

وعلى الأساس ذاته يتقوم مبدأ تقدم التعلم والتدريب على البحث. وفي ضوء ذلك فإنه لن يتاح لنا ان نؤسس مع الأشياء آصرة استفهامية تتمحور حول المسائل، فيما لو لم يكن في حوزتنا رصيد علمي واسع وعميق. ولذلك قيل: قل لي ما هي أسئلتك، أحدد مستوى علمك ووعيك.

2- **الحكمة**: تحدثنا في العامل الأول عن دور المعرفة ***knowledge*** في بلورة المسألة، ولكن ثمة دور آخر تلعبه حكمة المرء ***wisdom*** في اكتشاف المسائل. ان العلم يدفع المرء إلى التساؤل حول السبب والكيفية، بينما الحكمة تتجاوز ذلك وتطرح سؤالاً بـــ (هل). والحكمة هي قدرة المرء على التفكير بنحو صحيح وبراعته في ممارسة تفكير منطقي، والعلاقة بين الحكمة والمعرفة هي بمثابة العلاقة بين من يستخدم الأداة والأداة نفسها.

3- **الممارسة والدربة**: ان اكتشاف المسائل يمثل حصيلة لنمط خاص من الرؤية، ويمكن تغيير طريقة المرء واستبدال الرؤية الدائرة حول الموضوع، بتلك القائمة على المسائل، من خلال الممارسة والتمرين.

4- **تجنب السطحية**: نجد ان السطحية الناشئة عن التساهل، هي عامل مؤثر في التوقف عند الموضوع والغفلة عن المسائل. وتتطلب ملاحظة المسائل واكتشافها، تجربة اكثر عمقاً تتجاوز شكل الظاهرة وسطحها. ولهذا فإن من يتمتع بموهبة خلاقة إبداعية، يحاول التوغل نحو مستوى اكثر عمقاً في تعامله مع الظواهر، وهكذا فإن ما يكون عند من يرى ظواهر الأشياء، داعياً إلى الطمأنينة والسكون، يكون بذاته عند المتعمق المدقق، دافعاً للحيرة واكتشاف المشاكل والمسائل.

5- **التربية والتعليم**: غالباً ما لا يتضمن النظام التعليمي في بلادنا، عملية اكتشاف للمسائل. عندما يقتصر نظامنا التعليمي على التعامل مع النظريات والموضوعات ويندر ان يتجه نحو المسائل، فإن نتيجة ذلك هي حرماننا من اكتشاف المسائل وتلمسها. ان الحاسة التي تهتدي إلى المسائل هي حصيلة لتعليم

طريقة التفكير والممارسة الفكرية النقدية، ولذلك فإن الأساتذة الذين يتحلون بذهن يتحسس المسائل ويتلمسها، يقومون بتربية تلامذهم على هذا النحو كذلك.

6- **الرتابة والاقتراب من المسائل أكثر مما ينبغي:** ان المسافة التي تتطلبها رؤية المسألة، ستنعدم نتيجة لاعتياد الموضوعات والألفة الشديدة بالنظريات. ومَثَل شخص كهذا، مَثَل من يعجز عن رؤية الغابة الكثيفة لكثرة الاشجار وكثافتها. ولذلك فإن اكتشاف المسائل وما يؤدي اليه من تحديد للثغرات في العلم، اضافة إلى الثورات والتحولات العلمية، هي أمور تتم على يد الشباب، كما يقول توماس كون.

تعزيز موهبة اكتشاف المسائل	
1	صياغة ذهنية معقدة تملك رصيدا غنيا من النظريات والنماذج والتصورات .
2	تعزيز الحكمة لدى الباحثين .
3	الممارسة والدراية.
4	تجنب السطحية .
5	التعليم .
6	الرتابة والاقتراب من المسألة أكثر مما ينبغي.

الجدول رقم 4-9: عوامل تعزيز موهبة اكتشاف المسائل.

تمرين

لاحظ خطط البحث أدناه بدقة. هل تتمتع ببنية البحث الدائر حول الموضوع؟ لو كانت الإجابة بنعم، فما هي مؤشرات ذلك؟ حاول ان تعيد صياغتها على نحو بحث يتجه نحو المسألة.

الخطة الأولى: الإلهيات عند الشيخ المفيد وابن سينا.

الفصل الأول: مداخل عامة.

الفصل الثاني: مسائل الإلهيات عند الشيخ المفيد.

الفصل الثالث: مسائل الإلهيات عند ابن سينا.

الفصل الرابع: مقارنة إلهيات الشيخ المفيد بإلهيات ابن سينا.

الخطة الثانية: دراسة مقارنة للخلود والمعاد، اعتماداً على آراء صدر المتألهين الشيرازي، وبرايس.

مقدمة: تحديد المفهوم، ضرورة البحث ومنهجه.

الفصل الأول: مداخل عامة. الإيمان بالخلود عبر التاريخ، الموضوعات الفلسفية ذات الصلة بالخلود (بقاء الشخصية ذاتها، النفس والجسد).

الفصل الثاني: تقسيم النظريات، التصورات المقدمة عند المسلمين في موضوع الخلود، التصورات المتأثرة باتجاه أفلاطون - ابن سينا، الخلود في ظل النفس والبدن الجديد، نظرية ملا صدرا.

الفصل الثالث: نظرية جون هيك، نظرية جفري افلن، نظرية برايس.

الفصل الخامس:

التعريف والوصف

مدخل

تقدم في الفصل السابق ان الدمج بين المسائل يمثل واحدة من آفات البحث، إذ ان من خطوات البحث المنهجي الأولى أن نحدد المسألة التي نحن في صدد معالجتها (نمط المسألة)، وأن نعين ما نتناوله بالدقة في هذا السؤال (مضمون المسألة). ذلك ان اختيار ما يناسب البحث من منهج واتجاه وأدوات، سيكون على أساس تصورنا للمضمون ولما تلعبه المسألة من دور.

ان النقطة الأولى في هذا المستوى هي تحديد ما تأخذه المسألة بنظر الاعتبار وما إذا كان أمراً تصورياً أم تصديقياً، أي ان نحدد ما إذا كانت المسألة تتوخى البحث عن مجهول تصوري أو تحاول معالجة مجهول تصديقي. والفضل في تقسيم العلم إلى تصور وتصديق في الثقافة الإسلامية يعود إلى أبي نصر الفارابي(260-339هـ)[1]. وقام ابن سينا عبر ما يتحلى به من عمق نظري في بحوث المنهج، بتأسيس قواعد

---

[1] – الفارابي، عيون المسائل. ص3. لاحظ لمزيد من التفصيل: ولفسن هاري. دو اصطلاح تصور وتصديق در فلسفه اسلامي ومعادلهاي يوناني ولاتيني وعربي آنها (اصطلاحا التصور والتصديق في الفلسفة الاسلامية، ومعادلاتهما في اليونانية واللاتينية والعربية). ترجمة احمد آرام. في: منطق ومباحث الفاظ. إعداد: مهدي محقق وإيزوتسو توشي هيكو. طهران، 1353، ص443-464.

التفكير بناء على تقسيم الفارابي، وعلى أساس "منطق التعريف" و"منطق الحجة والاستدلال". ذلك ان أسلوب البحث حول التصورات يختلف منهجياً عن أسلوب البحث حول التصديقات، وتتطلب ثنائية التفكير في الذهن، لونين من المنهج في استراتيجية الفكر.

وفي ضوء ذلك يمكن تقسيم مسائل البحث إلى قسمين: المسائل التصورية، والمسائل التصديقية. وتتقدم الأسئلة التصورية منهجياً، على اسئلة التصديق، كما تنقسم مسائل التصديق في الأبحاث الدينية بشكل أساسي إلى قسمين: الاستدلال والتبرير ***justification*** والتفسير ***explanation***.

حين نواجه قضية من قبيل "النبي معصوم" فإننا غالباً ما نتساءل: ما هو السر في عصمة النبي؟ وهذا سؤال يتضمن سؤالين في حقيقة الأمر وكما تقدم سابقاً، أي انه ينحل إلى استفهام مفاده: ما هو الدليل على عصمة النبي؟ وآخر مؤداه: ما هو سبب عصمته وما هو السر فيها؟

تناط الإجابة على المسألة الأولى بإدراك ثلاثة أمور: ماهية النبوة، ماهية العصمة ومفهومها، ونطاق العصمة ودائرتها، وهذه ثلاثة أمور تتصل بمستوى التصور. سيكون من غير المجدي أبداً، الجدل حول صدق القضية المذكورة أو بطلانها، دون تقديم تصور كامل يتسم بالوضوح والدقة، حول الأمور الثلاثة المذكورة.

وهكذا هو الحال مع المسألة الثانية، إذ يمكن تفسير عصمة الانبياء فيما لو تمتع مستوى الوصف بوضوح كامل وحسب، وفي ما عدا ذلك يمكن ان نقع في مغالطة (أخذ ما ليس بعلة علة) فنعتمد دليلاً زائفاً بدلاً عن الدليل الحقيقي.

وفي ضوء ذلك فنحن بحاجة إلى محاولة فهم النظريات بدقة قبل الانتقال إلى نقدها والحكم عليها، وأن نسعى إلى تعريف المفاهيم التي تمثل مداخل لزعم معين، قبل البحث عن دليله ومبرره، كما نتجنب تفسير الظواهر قبل وصفها بدقة.

وهكذا يكون لدينا مبدأ يقرر ان عمليتي الوصف والتعريف تسبقان التبرير والتفسير، الأمر الذي يدفع الباحث إلى استيعاب هذين المستويين. ونواجه في مستوى الوصف والتعريف العديد من الأسئلة المنهجية، كما يلي:

1- هل من المفيد والضروري ممارسة تعريف الأشياء، أم انه جهد لا جدوى منه؟

2- ما هو الهدف من التعريف؟ ما هي نتيجة التعريف وحصيلته؟ ما هو المرجوّ من التعريف؟ يعبر هذا السؤال في حقيقة الأمر عن تصور الباحث للتعريف، وهو تصور يتخذ الباحث على أساسه موقفاً محدداً حيال ضرورة التعريف، ويتضمن أساليب وأدوات خاصة.

3- هل تتنوع التعريفات؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي المتغيرات التي تحدد تنوعاً كهذا؟ هل في وسعنا تقديم تعريفات متنوعة لأمر واحد؟

4- ما هي الضوابط المنطقية للتعريف، وما هي حالاته التي يمكن ان يتطرق إليها الخطأ؟ ما هي السبل والمعوقات في مستوى التعريف؟ ما هي إمكانية الخطأ في التعريف أساساً؟

5- ما هو المرجوّ من الوصف وماذا ننتظر منه؟ ما هو الأمر الذي نتوخى اكتشافه في مستوى الوصف؟

6- كيف ينبغي لنا ان نجيب على الأسئلة ذات الصلة بمستوى الوصف؟ وما هي المعوقات والسبل في هذا المستوى؟

يتولى الفصل الحالي تناول الأسئلة المذكورة فيما يتعلق بالتعريف والوصف.

حاول ان ترسم تصورك حول التعريف على وجه دقيق. ما هو التعريف وما هي

المعلومات التي في وسعنا التوصل إليها من خلاله؟ إملأ الجدول 5-1 وقارنه بالجدول 5-3.

ما هو المرجو من التفسير	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

الجدول رقم: 5-1: ما هو المرجوّ من التعريف.

ما هي أساليبك في تعريف الأشياء؟ ما هي الطرق التي غالباً ما تعتمدها في بحثك عن ماهية الشيء. أذكر أساليب التعريف التي تعتمدها مع ذكر مثال لكل منها، في الجدو ل 5-2.

أساليب التعريف		الأمثلة
1	....	....
2	....	....
3	....	....
4	....	....
5	....	....

(الجدول رقم 5-2: أساليب في تعريف الأشياء).

منهج التعريف، مدخل تاريخي

ينتمي البحث عن ماهية التعريف وأنواعه وأساليبه وضوابطه ومواضع الخطأ فيه، إلى مسائل علم المنطق. كان علماء المنطق السابقون يعتقدون بوجود أربعة أقسام للتعريف هي: الحد التام، الحد الناقص، الرسم التام، والرسم الناقص. وقد كانوا يرجعون غير ذلك من التعريفات، إلى واحد من الأقسام المذكورة. فهم يصنفون الحد الكامل مثلاً على الحد التام، ويرجعون الخاصة المركبة إلى الرسم التام، والتعريف بالمثال أو المصداق، إلى الرسم الناقص (بغض النظر عن الخلاف في ذلك التصنيف). و لم يكن هؤلاء يعدون شرح اللفظ، تعريفاً.

كانوا كذلك يعيدون تحديد الاتجاه أو الأسلوب الرئيسي في التعريف، فثمة شرح الاسم (حد ورسم اسمي) والتعريف الحقيقي (حد ورسم حقيقي). وغالباً ما نجد في المصادر المتأخرة الهم يخلطون بين شرح الاسم وشرح اللفظ. كما نلاحظ في مصادر المنطق ذات الاقسام التسعة، الهم يميرون بين التعريف الحقيقي والتعريف وفق المشهور. وكانوا يوردون الحد والرسم الحقيقيين في قسم البرهان، بينما ينقلون الحد والرسم وفق المشهور، إلى قسم الجدل. حاول شيخ الإشراق وتابعه صدر

المتألهين في ذلك، إلى التعامل مع منظومة التعريف التقليدية لدى أرسطو، على نحو نقدي، وحاولا البحث عن خيار جديد في هذا الإطار.

أدرج بعض المناطقة الجدد موضوعات التعريف في كتبهم[1]، بينما بحثها آخرون على نحو مستقل[2].

يتناول المناطقة الجدد موضوع التعريف بأكثر معانيه عموماً (وبما يشمل تعريف المصطلحات، والمفاهيم، والمصاديق). وهم يحددون خمسة أقسام للتعريف، عبر تحديدهم لخمسة أنماط مما يتوقعه المرء من التعريف، والأقسام هي: التعريف الوضعي، التعريف المعجمي، التعريف المحدد (التدقيقي)، التعريف الإقناعي، والتعريف النظري. يمكن كذلك ان نلاحظ اتجاهين رئيسين لديهم في هذا المجال وهما: تقديم تعريف من خلال الإحالة إلى المصداق، والتعريف عبر تحليل المضمون.

لن نقتصر هنا على تقرير آراء القدماء من علماء المنطق، كما لن نتوقف عند مناهج المناطقة الجدد. بعد ان نستعرض اهداف التعريف وغاياته ونتائج كل منهما، سنحاول بطريقة عملية، تناول سبل التعريف ومعوقاته. لاحظنا ان التمييز بين مستويات المعنى والتعريف والمقياس في التميّز، يغيب في المصادر ذات الصلة بالموضوع، وسنتحدث عنه أولاً باعتبار أهميته في منهج التعريف.

---

[1] - كما هو الحال مع كوبي في كتابه أدناه، لاحظ:

Copi, Irving, Introduction to Logic, Macmillan publishing co., New York, 1927.

[2] - كما هو الحال مع روبنسون في المصدر التالي:

Robinson, Richard, Definition, Oxford, 1927.

المعنى والتعريف ومقياس التحديد

نجد ان بعض علماء المنطق الجدد يدخلون في منطق التعريف، الموضوعات ذات الصلة بتعريف اللفظ والمصداق والمفهوم[1]. يرى معظم علماء المنطق المسلمين ان تعريف اللفظ "التعريف اللفظي" لا يدخل في مسائل البرنامج البحثي وموضوعات الأبحاث العلمية. ليس التساؤل حول المعنى اللغوي للبحث، من المسائل العلمية، لأن دلالة اللفظ على المعنى أمر وضعي، ولا شأن للمنطقي ببحث الألفاظ.

ثمة تباين بين التساؤل حول معنى اللفظ، وماهية المفهوم، والتمايز على مستوى المصداق، غير انها مسائل مترابطة في الوقت ذاته وتتصل على التوالي بإضاءة مجالات اللغة والذهن والواقع. يتولى السؤال حول المعنى أو التعريف اللفظي *meaning*، إضاءة منطقة اللغة وتبديد الغموض الناشئ عن الإيهام اللفظي. والتساؤل حول ماهية المفهوم *definition*، يقدم تصوراً واضحاً للمفهوم، ويبدد ما يعانيه الذهن من غموض وتردد حول ذلك، كما ان السؤال حول التمايز على مستوى المصداق *criteria*، يجعل من الممكن تحديد الشيء وتمييزه عما سواه في العالم الخارجي.

يحظى الترابط بين الأسئلة المذكورة، باهتمام اكبر اليوم. فظهور الألفاظ ودلالتها على المعنى لا يمثل أمراً وضعياً اعتبارياً محضاً، بل يقوم الانسان بوضع الالفاظ على أساس تصور خاص وفي ضوء الآصرة المفهومية المحددة التي يقيمها مع

---

[1] - م. ن.

الأشياء. ولذلك فإن هنالك أهمية كبيرة لتحديد مبرر التسمية ووجه وضع اللفظ، في اكتشافنا لما كان يمارسه الواضع من بناء للمفهوم. نلاحظ ان الانجليز يطلقون لفظ *miracle* على الأفعال الخارقة التي يأتي بها الانبياء، بينما يسميها علماء الكلام المسلمون بالمعجزة، ويعبر عنها القرآن بالآية. لكن ذلك ليس مجرد اختلاف لفظي، بل يكمن في هذا الاختلاف الاصطلاحي ثلاثة أنماط من بناء المفهوم، يتجه الأول إلى كون الأفعال تلك مثيرة وباعثة على التعجب، ويلاحظ الثاني جانب الإعجاز فيها، بينما ينطلق الثالث من كونها حاكية ومعبرة ورمزاً. وهذه تصورات ثلاثة لأمر واحد تتجلى على شكل ثلاثة مصطلحات.

ولذلك فإن التعامل مع اختلاف المصطلحات والتدبر في مبررات وضعها ووجه التسمية فيها وجذورها اللغوية، يكتسب أهمية كبيرة في تحديد ما يمتلكه المرء من تصور حول الأشياء. رغم ان مفردة "النبي" مثلاً، هي كلمة واحدة في ظاهر الأمر، لكن البعض يرى انها من "النبأ" فتكون بمعنى المخبر، ويرى آخر انها من "النَبْو" والارتفاع، ويعتقد ثالث انها بمعنى الطريق والسبيل، ويقول رابع انها فعيل من النبأ بمعنى عليم وحكيم. هذه تصورات متنوعة حول أمر واحد انعكست في المصطلحات والألفاظ، ولذلك فإن ثمة أهمية كبيرة في التعامل مع الألفاظ والبحث حول معاني المصطلحات ووجوه تسميتها.

يتولى التعريف اللفظي ***word-thing definition***، تحديد دلالة الألفاظ (لا تحليلها)، وهو يعرف في الثقافة الاسلامية باسم (شرح اللفظ) وله أقسام وقواعد خاصة. يضطر الباحث على سبيل المثال أحياناً إلى وضع اصطلاح جديد، ويأخذ في توضيح (لا تحليل) المعنى الذي تولى بلورته لتسليط الضوء على المفهوم الجديد. ويسمون هذا التعريف اللفظي تعريفاً وضعياً أو تواضعياً ***stipulative de.***

نستخدم اللفظ أحياناً بمفهومه الشائع، وعندئذ نحاول إضاءة المنطقة اللغوية هذه وتحديد دلالة اللفظ، فنأخذ في بيان (لا تحليل) الدلالة الشائعة أو المداليل

السائدة وتحديد ما نقصده منها في إطار ذلك. وهذا هو التعريف التقريري *reportive de.*[1].

سنتحدث تفصيلياً عما يتصل بسؤال التعريف من بين الأسئلة الثلاثة المذكورة (المعنى، التعريف، مقياس التمايز)، غير ان تأكيدنا ذلك لا يعني ان السؤالين الآخرين ليسا على قدر من الأهمية. لا تتوفر لدينا توجيهات عملية مفيدة فيما يتعلق بالتمايز بين المستويات الثلاثة المذكورة، ضمن كلام المناطقة الذين كانوا في صدد تقديم القواعد وتحديد سبل التفكير ومعوقاته في مجال التصور. فلم ينبهوا مثلاً إلى ملاحظة تكتسب أهمية منهجية متزايدة، وتقرر ان بيان ماهية المفهوم (التعريف) في إطار البحث عن التمايز المصداقي، يؤدي إلى تكرار السؤال. فلو سأل أحدهم مثلاً: ما هو مقياس التمييز بين الأخبار الصادقة والكاذبة؟ فإن السؤال سيظل مطروحاً على حاله لو قيل في الإجابة بأن المقياس هو كون الخبر مطابقاً للواقع. ذلك لأن التطابق مع الواقع هو تعريف للصدق لا مقياس للخبر الصادق. حيث يمكن للسائل ان يكرر استفهامه حول مقياس التطابق مع الواقع.

لا يكون هنالك غموض أحياناً على مستوى الذهن بل نتعامل مع مفهوم واضح ومحدد، غير اننا نواجه غموضاً فيما يتعلق بالمصداق ونظل عاجزين عن تحديد مصاديق المفهوم دون ان يتوفر لدينا مقياس للتمييز. نجد مثلاً ان في حوزتنا دلالة واضحة وتصور بديهي حول مفهوم القضية أو الخبر كما يقول الفخر الرازي والخواجة نصير الدين الطوسي في شرحهم لإشارات ابن سينا، لكننا بحاجة إلى مقياس للتمييز بين الإخبار والإنشاء في النصوص. ويرى كل من الفخر الرازي[2]

---

[1] - راجع لمزيد من الاطلاع على شتى ما نرجوه من التعريف اللفظي وأساليبه المتعددة:
Robinson, Richard, definition, Oxford, 1927.

[2] - فخر الدين الرازي. الإنارات في شرح الإشارات. نسخة خطية في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي. تحت رقم: 1847، ص64-65.

والخواجة الطوسي[1] ان قابلية الصدق والكذب هي مقياس للتمييز هذا، بينما غالباً ما يعد ذلك تعريفاً للخبر.

ثمة مستويات من الغموض في المنهج التقليدي لتحديد المصداق. نجد أولاً ان بعض التعريفات هي مقياس في واقع الأمر. ونلاحظ ثانياً في أغلب الحالات انهم يكتفون ببيان التعريف ولا يتحدثون عن مقياس التمييز، حيث يجري تجاهله كما هو الحال مع التعريف اللفظي، إضافة إلى عدم تحليل مبادئه وقواعده. ثمة حاجة ماسة للغاية لمقياس التمييز، في الأبحاث الدينية ولا سيما في أبحاث علم الكلام والفقه والأخلاق. فمن الواضح مثلاً طبيعة الفرق بين الحسد والغبطة على مستوى المفهوم، غير اننا بحاجة إلى مقياس للتمييز بينهما على مستوى المصداق. ان تعريف البديهي والنظري واضح كذلك، بينما يظل التمييز بينهما على مستوى المصداق غير ممكن دون توفر مقياس للتمييز. ينبغي بعد تعريف أي مفهوم أساسي في هذه العلوم، ان يقدم مقياس للتمييز المصداقي كذلك، الأمر الذي يعتبر واحداً من سبل تعزيز الجدوى من هذه العلوم.

التعريف

نريد بالتعريف هنا مفهومه الخاص، الذي يختلف عن شرح اللفظ (تعريف اللفظ) ومقياس التمييز وتحديد المصداق.

قلما نجد باحثاً لا علاقة له بعملية بناء المفاهيم أو مستغنياً عن التدقيق في تعريفها. يختلف علماء المنطق وعلماء المنهج في وجهات نظرهم حول ماهية

---

1 - نصير الدين الطوسي. شرح الإشارات. ج1، ص112.

التعريف ودوره وأقسامه، ويدور خلافهم الرئيسي حول هدف التعريف ودوره. وقليلاً ما جرى اتخاذ مواقف معتدلة في إطار النـــزاع بين الاتجاهات المتطرفة والتصورات المتساهلة في هذا المجال. نلاحظ ان البعض يؤكدون على أهمية التعريف إلى درجة يبدو وكأنه هدف في حد ذاته لا انه وسيط وآلة، وهكذا ينهمك هؤلاء في مناقشة التعريف والجدل حوله وتقريره حتى أنهم لا ينتقلون إلى مستوى التصديقات، وليس ذلك وحسب فهم لا يحصلون كذلك حتى على تصور واضح في إطار ذلك.

وثمة آخرون من المتساهلين يعارضون أي لون من الحرص على تعريف الأشياء، ولا يعدون التساؤل حول ماهية الأشياء من شؤون البحث العلمي، فالتعريفات عندهم شؤون اعتبارية خارجة عن عملية البحث في مستواها التخصصي كما هو الحال مع مباحث الألفاظ. يقول هؤلاء ان الخوض في تعريف الأشياء لا يمثل سوى تحذلق وتسلية غير ذات جدوى.

يقول تشارلز ساندرز بيرس *Ch. S.Pierce*:"لا يمكن ان نتعلم من خلال التعريف أي شيء جديد، ورغم ذلك فإن قناعاتنا المتوافرة تنتظم من خلال تلك العملية، وانتظامها هو عامل أساسي وضروري للاقتصاد العقلاني وأي شيء آخر".

ونلاحظ هذا التطرف والتساهل أيضاً في حديثهم عما يلعبه التعريف من دور، فقد طرحت تصورات متنوعة حول ذلك، وسنقدم تصورنا للتعريف عبر التنويه إلى عدد منها:

1- **التصور الماهوي**: يصف الفلاسفة المشاؤون التعريف بأنه أمر دال على ماهية الأشياء (الحد قول دال على الماهية) بناء على نظرية الكلي الطبيعي. وما يقال في جواب (ما هو؟) يمثل تمام ماهية الشيء. ويستهدف التعريف رسم صورة لماهية الشيء إلى جانب أمور أخرى كتمييز الشيء عن الأغيار، وهي تمثل فوائد ثانوية متضمنة في الهدف الرئيسي.

يقول ابن سينا:"الحد قول دال على ماهية الشيء، ولا شك في انه يكون مشتملاً على مقوماته أجمع... ويجب ان يعلم ان الغرض في التحديد ليس هو التمييز كيف اتفق، ولا أيضاً بشرط ان يكون من الذاتيات من غير زيادة اعتبار آخر، بل ان يتصور به المعنى كما هو"[1].

ان تصور ماهية الشيء بمثابة العدد مائة، وتمايزه عن غيره بمثابة العدد تسعين، فإذا توفرت المائة توفرت التسعون تبعاً لها.

وفي ضوء تصور كهذا لهدف التعريف، ظهر نظام الجنس والفصل لتقديم تعريف حقيقي (الحد التام) كي يجري من خلاله تحليل الأشياء ماهوياً. ووفق هذه النظرية لا يمكن ان نعرّف سوى الماهيات، كما لا يمكن التعريف إلا من خلال أجزاء الماهية لأن "الحد بالماهية وللماهية".

نلاحظ ان علماء المنطق الذين اعتمدوا هذا التصور، لم ينجحوا كثيراً على المستوى العملي في وضع تعريفات ماهوية للمفاهيم التأسيسية الشائعة في علومهم. ان المدونات التي صنفوها في حدود الأشياء من قبيل رسالة الحدود لابن سينا، لا تمثل رصيداً متميزاً في تطبيق نظام منطق التعريف الذي يستند على التصور الماهوي.

إضافة إلى ان المفاهيم الانتزاعية والأسماء غير المحصلة لا يمكن تعريفها عبر نظام الجنس والفصل وقواعد التعريف الماهوي. بينما نجد ان المفاهيم الانتزاعية غير الماهوية أكثر بكثير من المفاهيم الماهوية، حتى على القول بالكلي الطبيعي.

2- **التمييز جمعاً ومنعاً:** يتوخى بعض العلماء المسلمين من خلال التعريف، تقديم تمييز كامل للشيء عن أغياره. فالتعريف من وجهة نظرهم هو ما يميز المعرّف عن غيره على نحو متكامل، يؤدي إلى شمول جميع أفراد المعرّف ومصاديقه، وإقصاء

---

[1] - ابن سينا، الإشارات، ص56.

جميع الأغيار (ان يكون جامعاً ومانعاً). ومن الوضوح بمكان هنا، ان المراد هو التمايز المصداقي العرضي لا الذاتي المفهومي. يؤدي الحد التام في المقاربة السابقة، إلى تحقيق تمايز ماهوي ذاتي، أما الرسم التام والخاصة المركبة فهما أسلوبان يؤديان وفق الزعم هذا، إلى تحقيق تمايز كامل. لكن هذا التصور لم يحقق نجاحاً على المستوى العملي أيضاً، وقد أخفق في تعريف العديد من الأشياء أو ان التعريفات التي قدمها لم تكن مجدية عملياً، ذلك اننا لا نحتاج في اكتشاف الأشياء إلى تمييزها عن كل ما سواها.

3- **التميز عن الأشياء التي تستتبع اشتباهاً به:** ان الإخفاق في تحصيل ماهية الأشياء وتمييزها الكامل عن أغيارها، دفع البعض إلى البحث عن تعريفات تؤدي إلى التمييز النسبي (التمييز في الجملة، لا بالجملة). فهم يأتون بتعريفات لا تستهدف تمييز الشيء عن شتى أغياره، بل يكتفون بتمييزه عن الأشياء التي تشابهه أو تستتبع اشتباهاً به، أي تمييز الشيء عن تلك الأغيار التي يؤدي عدم تمييزه عنها إلى تعويق معرفة الشيء. وقد بادر ابن سينا نفسه عملياً إلى استخدام هذا الأسلوب في تعريف العديد من المفاهيم، من قبيل تعريفه للذاتي المقوّم حيث يصرح هناك ان تعريفه لا يستهدف التمييز الكامل، ولذلك فإنه ليس بجامع ولا مانع، بل هو في صدد تمييز الذاتي المقوّم عن مقوّم الوجود[1].

ويمكن ان يتنوع التعريف في ضوء هذه الرؤية خلافاً للاتجاهين السابقين. ان تمييز (س) عن (ص) يؤدي إلى تعريف (أ)، كما ان تمييز (س) عن (ع) يؤدي إلى تعريف (ب). ويخضع هذا التنوع إلى أهداف برنامج البحث وزوايا ملاحظة الباحث. والتعريف في مفهومه هذا يمثل عملية اعتبارية، كما ان مقياس نقد هذه

[1] - م. ن. ص31.

التعريفات وتقييمها هو وفاؤها بأهداف البحث وقدرتها على القيام بالتمييز المقصود.

4- **الكشف عن علل الشيء وأسبابه:** يرى البعض ان أكثر أساليب التعريف تكاملاً (الحد الكامل) هو ذلك الذي يكشف عن علل الشيء وأسبابه أيضاً. يقول أرسطو في رسالته حول النفس: "لا ينبغي للقول المعرّف ان يحكي ما هو في الواقع وحسب كما هو الحال مع معظم التعريفات، بل لا بد ان يتناول العلة ويكشف عنها".

وهو يقول في مقارنة تعريف كهذا بما يشيع من تعريفات، ذاكراً المثال على ذلك: "ان التعريفات في الواقع تقدم على شكل نتائج وحسب. نتساءل مثلاً: ما هو التربيع؟ [ترى العامة] ان التربيع هو ان يفترض قائم الزاوية متساوي الأضلاع [المربع]، مساوياً لقائم الزاوية المستطيل. غير ان تعريفاً كهذا يمثل تفسيراً للنتيجة وحسب، وعلى العكس من ذلك فإننا حين نقول ان التربيع هو كشف الحد الأوسط [فإن هذا التعريف] يكشف عن علة الشيء المعرّف"[1].

وعلى هذا الاساس كانوا يرون ان الحد الكامل يشتمل على بيان العلل الأربع (الصورية، والمادية، والفاعلية، والغائية) وقد استخدموه في العديد من حالات بناء المفاهيم. وفي هذا التصور للتعريف يكتسب كل من التعريف والتفسير اجزاءً مماثلة، لأن علل الشيء هي أجزاء للتعريف وعناصر للتفسير في آنٍ واحد. ثمة قاعدة تقرر "ان الحد والبرهان قد يتشاركان" وهي تتجه إلى الملاحظة السابقة ذاتها. ويتوزع الحد من هذه الزاوية على ثلاثة أقسام: الحد الكامل، الحد بوصفه مبدأً للبرهان، والحد بوصفه نتيجة للبرهان[2].

---

[1] - أرسطو. درباره نفس (حول النفس). ترجمة وتعليق: علي مراد داوودي. تهران، انتشارات حكمت. 1366. ص84-85.

[2] - م. ن. ص159-160.

5- **التحليل المفهومي**: تمثل نظرية التحليل المفهومي *conceptual analysis*، الاتجاه الاكثر جدوى في التعريف. وفي هذا الاتجاه يتوخى التعريف وحسب تحليل الأجزاء المفهومية للمعرّف. وهذا أسلوب أوسع نطاقاً من الأساليب مارة الذكر، ويمكن القول بأن هذا يمثل التصور المعتمد من قبل أغلب علماء المنطق وعلماء المنهج الجدد. والتعريف المفهومي شبيه بالتعريف الحقيقي يتولى كشف المفاهيم البنائية والأجزاء المفهومية للمعرّف وتحليلها، دون مواصفاته وخصائصه الخارجية. لكنه وعلى العكس من التعريف الماهوي، لا يستند بالضرورة إلى نظرية الكلي الطبيعي، وليس في صدد حكاية ماهية الشيء وتحليله ماهوياً.

ويعبر العلماء المسلمون عن هذا النمط من التعريف بـ "شرح الاسم"، وقد حاولوا في تسميته ان يميزوه عن شرح اللفظ (التعريف اللفظي) والتعريف الحقيقي (الماهوي). لكن بعض العلماء ارتبكوا في تحليل شرح الاسم و لم يميزوه عن شرح اللفظ، ويبدو ان عدم التمييز هذا يعود إلى ما لاحظوه عند ابن سينا في كتاب النجاة[1]، والحكيم السبزواري تبعاً له في كتاب غرر الفرائد، عندما تحدثا عن عدم إمكان تعريف (الوجود) حيث قالا بأن التعريفات المقدمة للوجود هي بمثابة شرح الاسم، وكما يقول الحكيم السبزواري "معرف الوجود شرح الاسم" ويريد بشرح الاسم "مطالب (ما) الشارحة، وهو ما يسمونه في الفارسية "جواب السؤال الأول""[2]. ان جواب السؤال الأول هو شرح الاسم، بينما نلاحظ ان الوجود لا يتقبل تعريفاً حقيقياً ولا إسمياً، لأنه بسيط وهو أعم المفاهيم.

---

[1] - ابن سينا، النجاة من الغرق في بحر الضلالات. تحرير وتقديم محمد نقي دانش پژوه. طهران، انتشارات دانشگاه طهران، 1364، ص496.

[2] - ملا هادي السبزواري، شرح غرر الفرائد أو شرح منظومة الحكمة. إعداد مهدي محقق وأيزوتسو توشي هيكو. طهران، 1360، ص 4.

لا بد من القول بأن مرادهم بهذا التعبير كما هو مؤكد، التعريف اللفظي (شرح اللفظ)، أما تعبيراتهم تلك فهي من سهو القلم على حد تعبير بعض المعاصرين[1]. لم ينتبه البعض إلى هذا الخطأ أو السهو و لم يميزوا بين شرح الاسم وشرح اللفظ. كما نلاحظ ان عدداً من المناطقة الجدد جعلوا التعريف الذي يعتمد التحليل المفهومي من أقسام التعريف اللفظي بوصفه تعريفاً مفهومياً *intentional de.*، وقد انتقل هذا الخطأ إلى الكتب الفارسية[2].

يبدو ان معنى اللفظ يمثل محوراً للمعالجة في كل من التعريف اللفظي والتحليل المفهومي، غير ان الفرق الأساسي بينهما يتمثل في ان التعريف اللفظي يتكفل بالكشف عن معنى الكلمة (سواء على مستوى التأسيس "التعريف الوضعي" أو على نحو التقرير). بينما يتولى التحليل المفهومي تحليل معنى الكلمة، فالتعريف اللفظي يتولى إضاءة الجانب اللغوي، بينما التعريف من خلال التحليل المفهومي يتكفل إضاءة الجانب الذهني. ان الأول هو تحديد للفظ، والثاني تحديد للمفهوم، فحين نتساءل: ما هو الحدوث؟ يأتينا الجواب: انه الظهور. وهذا تعريف لفظي، ولكن لو قيل في الجواب: ان الحدوث هو مسبوقية الوجود بالعدم، فإن هذا يمثل في حقيقة الأمر تحليلاً للمفهوم. لقد تحدث المولى عبد الله الزنوزي (ت1257) بوضوح حول الفرق بين شرح الاسم والتعريفين الآخرين (شرح اللفظ والتعريف الحقيقي) وجعل من ذلك مدخلاً منهجياً لكتابه[3].

---

[1] - مهدي حائري يزدي. كاوشهاي عقل نظري (محاولات العقل النظري). تهران، أمير كبير، 1361، ص42.

[2] - لاحظ: سيد علي اصغر خندان. منطق كاربردي (المنطق الوظيفي). تهران، سمت، 1379. ص74.

[3] - المولى عبد الله الزنوزي. الأنوار الجلية. تعليق وتصحيح وتقديم: سيد جلال الدين اشتياني. تهران، 1354. ص11-12.

كان أمثال نصير الدين الطوسي ومن تبعهم من غالبية المناطقة، يعتقدون ان الفرق بين شرح الاسم والحد الحقيقي مجرد فارق اعتباري، وذلك على خلفية إيمانهم بنظرية الكلي الطبيعي واعتمادهم النظرية التي تقرر ان دور التعريف يتمثل بالتعبير عن ماهية الشيء. يرى هؤلاء ان الحد هو شرح للاسم قبل العلم بوجود المعرّف، وهو نفسه سيكون تعريفاً حقيقياً بعد العلم بوجود المعرّف[1]. فالحيوان الناطق مثلاً هو شرح لاسم الانسان قبل علمنا بوجود حقيقة انسانية. وهو نفسه سيتحول إلى تعريف حقيقي بعد العلم بوجودها.

ولكن حتى لو افترضنا صحة ذلك فإن كلامهم لا يتسق إلا مع المفاهيم الماهوية. ينبغي ان نقول في تحديد الفارق بين التعريفين الحقيقي والاسمي، ان الأول يكون في نطاق المفاهيم الماهوية، بينما يتصل الثاني بالمفاهيم الانتزاعية، إذ لا يمكن تعريف المفاهيم الانتزاعية إلا من خلال التحليل المفهومي لأنها لا تتقبل التحليل الماهوي، الأمر الذي يعني ان التحليل المفهومي وشرح الاسم لا يواجهان ما يعانيه التعريف الحقيقي (التحليل الماهوي) من إخفاقات. فيمكن لنا ان نتولى تحليل العناصر والاجزاء المفهومية وإضاءة المفهوم في مقاربتنا لمختلف المفاهيم.

لن نضطر إلى مقاربة طبيعة الشيء وماهيته في أسلوب التعريف بالتحليل المفهومي، بل يمكن بلورة مفهوم يشمل مصاديق المعرّف بنحو من الأنحاء، ويتمتع بالوضوح والتمايز مفهومياً. ان شمول المفهوم للمصاديق تلك لن يعني بالضرورة اشتراك المصاديق في الكلي الطبيعي، بل يمكن ان نتولى تحليلها عبر نماذج أخرى من قبيل التماثل في العائلة *family resemblance* الذي طرحه فتجنشتاين. وهذا أسلوب هو الأكثر استخداماً اليوم في مجال الدراسات الدينية. حيث يحاول جون

---

[1] - خواجة نصير الدين الطوسي. شرح الاشارات. ج1، ص70.

هيك مثلاً ان يعرّف الدين من خلال الاستعانة بنظرية التماثل في العائلة التي طرحها فتجنشتاين[1]. يتولى الجدول 5-3، إيجاز حديثنا حول ما نتوقعه من التعريف.

	المرجو من التعريف	التعريف المناسب
1	تحديد ماهية الشيء بالكامل .	الحد التام
2	التحديد الكامل جمعا ومنعا.	الرسم التام .
3	التمييز عن النظائر و الأشباه.	الرسم.
4	كشف علل الشيء	الحد الكامل .
5	تحليل المفهوم .	شرح الاسم .

الجدول رقم 5-3: تنوع التعريفات على مستوى الهدف.

قواعد استراتيجية في التعريف

لا بد ان يكون الهدف واضحاً في التعريف، وأن يجري تحديد طريق للوصول إلى الهدف المذكور، ولكن ينبغي إلى جانب ذلك ان يجري تمييز سبل التعريف عن معوقاته، وهو ما يحتاج إلى قواعد تلعب دوراً استراتيجياً ومنهجياً في ذلك، ونشير إلى عدد منها فيما يلي.

1- **تجنب البحث عن تعريف للمفاهيم التي يتعذر تعريفها**: ليس الأمر كما لو أن في وسعنا تعريف شتى المفاهيم. ان برهان التسلسل كما يقرر أتباع الأسسية، يثبت وجود مفاهيم لا يمكن تعريفها، وهي مفاهيم تلعب دوراً في تعريف الأشياء الأخرى. يقول فريغه[2]: "يمكن ان نثمن عمل المرء طالما نجح في

[1] – جون هيك. فلسفه دين، مصدر سابق، ص2.

[2] – غوتلوب فريغه: رياضي ومنطقي وفيلسوف ألماني 1848-1925. ساهم في تجديد المنطق وتأسيس المنطق الرياضي الحديث، وترك أثره على راسل وفتجنشتين وكارناب. (المترجم).

مقاربة دلالة لكلمةٍ ما، لكن علينا ان لا ننسى انه ليس في وسعنا تعريف جميع الأشياء".

ان محاولة تعريف المفاهيم التي لا يمكن تعريفها *indefinable*، سيظل جهداً لا طائل منه. يتطلب استخدام هذه القاعدة، استيعاباً دقيقاً للمفاهيم التي لا يمكن تعريفها، على أساس مقاييس موضوعية. ثمة تصور بأن المفاهيم التي تتقبل التعريف هي المفاهيم الماهوية، بينما المفاهيم التي لا يمكن تعريفها هي المفاهيم غير الماهوية[1]، غير ان هذا الوهم يدفع إلى ارتكاب الأخطاء على المستوى المنهجي، فلدينا مفاهيم ماهوية غير انه لا يمكن تعريفها بسبب بساطتها وعدم تركيبها، كما توجد مفاهيم انتزاعية مركبة وغير بسيطة وبالتالي فإنها مما يمكن تعريفه.

ان واحداً من مقاييس عدم إمكانية التعريف هو سعة المفهوم، أي كونه أعم من المفاهيم الأخرى وعدم دخوله تحت مظلة أي مفهوم آخر، الأمر الذي يجعل من المتعذر تعريفه، كما هو الحال مع مفاهيم كالوجود والشيء والعدم والوحدة. وكذلك فيما يتصل بالمفاهيم البسيطة التي لم تتكون من اجزاء. لقد ركز المناطقة بنحو أكبر على مقياس بساطة المفهوم في هذا الإطار. وحاصل الأمر كما يعبر فتجنشتين، انه لا ينبغي ان نقدم تعريفاً للشيء الذي لا يمكن تعريفه.

2- **تجنب التعاريف المؤدية إلى الدور**: يمثل التعريف الدوري في حقيقة الأمر، تكراراً للسؤال حول الماهية، لا جواباً حياله. ومن نماذج ذلك تعريف الشيء بنفسه، كما لو قلنا في تعريف الحركة انها خروج الشيء من حالة السكون والرتابة. ومن نماذجه الأخرى تعريف الشيء بأمر يتوقف تعريفه على الشيء ذاته، أي (تعريف الشيء بما لا يعرف إلا به). كما لو قيل في تعريف الحركة: انها خروج

[1] - لاحظ: خندان، المنطق التطبيقي، مصدر سابق، ص90.

تدريجي من القوة إلى الفعل. حيث يمكن ان نسأله حينئذ: ما هو الخروج التدريجي؟ ليس في وسعنا تحليل مفهوم الخروج التدريجي إلا عبر الاستعانة بمفهوم الحركة.

لا بد ان نعلم بأن ثمة مفهومين يتوقف تصور كل منهما على الآخر، بمعنى انه يجري تصورهما معاً، فلو تصورنا أحدهما فلا بد ان نتصور الآخر معه، وهذا هو حال المفاهيم الإضافية والمفهومين المتضايفين. وليس التعريف في هذه الحالات دورياً، بل يكون مما يوهم وقوع الدور. ان الدور في التعريف هو "تعريف الشيء بما لا يعرف إلا به" أما الحالات المذكورة فهي من "تعريف الشيء بما لا يعرف إلا معه"، وهنالك بون شاسع بين المعية والسببية.

3- **تجنب التعريف بالمفاهيم المبهمة:** يتكفل التعريف إضاءة المنطقة الذهنية، بينما تقوم التعريفات المبهمة بنقض هذا الغرض. وهنالك حالتان لغموض التعريف، إذ ينجم الغموض في التعريف احياناً عن استخدامنا لمفهوم غامض، بينما ينجم حيناً آخر عن استخدامنا لمفهوم اكثر خفاءً من المعرَّف أو مساوياً له في الغموض. يعد ديكارت رائداً في توظيف المفاهيم الواضحة والمحددة في التعريفات. ان التعريف بمفهوم غامض هو تعريف على مستوى الشكل، غير انه لا يقدم في حقيقة الأمر جواباً على سؤال الماهية.

4- **تجنب استخدام المفاهيم غير المحصلة في تعريف المفاهيم المحصلة:** يعود تقسيم المفاهيم إلى محصلة وغير محصلة، إلى أرسطو[1]. لا يمكن ان نعرّف المفاهيم المحصلة من قبيل الانسان، بمفاهيم غير محصلة وقيود سلبية نافية. ذلك ان تعريفاً كهذا يؤدي إلى الدور أو زيادة الحد على المحدود. وقالوا ان الاستعانة بالمفاهيم غير المحصلة في تعريف مفهوم محصل، ممكن عند الاضطرار وفيما لو لم يتوفر تعريف آخر.

---

[1] - أرسطو. الأرغانون. ترجمة: م. ش. أديب سلطاني. طهران، مؤسسة انتشارات نكاه. 1378، ص70.

5- **تجنب استخدام المفاهيم النسبية في تعريف المفاهيم المطلقة:** تنقسم المفاهيم إلى قسمين، فبعضها إضافي نسبي كمفهوم المساوي والموازي والمستقيم والذاتي والعرضي...الخ. وبعضها مطلق غير نسبي كالانسان والشجرة...الخ. ويعتقد علماء المنطق المتقدمين انه لا ينبغي تعريف المفاهيم غير الإضافية بالمفاهيم الإضافية أو النسبية. وعلى هذا الأساس انتقد ابن سينا أمثال ابن هريز على تعريفهم الحد بأنه قول موجز دال على ماهية الشيء. إذ لا يجوز استخدام مفهوم (الموجز) وهو مفهوم نسبي إضافي، في تعريف مفهوم (الحد) وهو مفهوم مطلق غير نسبي.

6- **تجنب مغالطة الكنه والوجه:** كثيراً ما يجري الاكتفاء في وصف الشيء، بتسليط الضوء على بُعد من أبعاده. وفي هذه الحالات لا ينبغي ان نتوهم ان ماهية الشيء هي ذلك البعد ذاته. ويسمى ذلك بمغالطة اعتماد وجه من وجوه الشيء، بدلاً عن كنهه وماهيته، الأمر الذي بات اليوم مثاراً للجدل على نحو خطير، فيما يعرف بمغالطة الرد أو الاختزال *reductionism*. وسنتناول ذلك بالتفصيل في فصل مخصص للاتجاه البيتخصصي.

7- **عدم توظيف الاستدلال في تعريف الأشياء:** لا يتبلور الحد من خلال البرهان ولا الاستقراء، إذ ان بناء المفاهيم ومقاربتها يتباين جوهرياً مع البرهنة والاحتجاج. ان البرهان والاستقراء أسلوبان للتدليل على الزعم، غير انهما لا يجديان في بناء التعريف وتقييمه. وتقوم هذه القاعدة على أساس ان الحد تحليل ماهوي أو مفهومي ينطوي على مقومات ماهوية أو مفهومية، و"المقوم لا يُطلب".

قواعد استراتيجية في التعريف .	
تجنب البحث عن تعريفات المفاهيم غير القابلة للتعريف .	1
تجنب التعريف المستلزم للدور .	2
تجنب التعريف بالأخفض أو الغامض.	3
عدم استخدام المفاهيم غير المحصلة في تعريف المحصلة .	4
تجنب استخدام النسبي في تعريف المطلق.	5
تفادي مغالطة الكنه والوجه.	6
عدم اللجوء إلى الاستدلال في تعريف الأشياء .	7

الجدول رقم: 5-4: قواعد استراتيجية في التعريف.

الوصف

المستوى الثاني في البحث هو التساؤل حول احكام الشيء وخواصه وآثاره وأبعاده ومستوياته. ولا نتساءل في هذا المستوى حول الماهية ومقاربة المفهوم، بل يتصل السؤال هنا بما يقترن بالأشياء ويرافقها، وهذا ما يشكّل معظم مسائل العلوم.

ثمة تباين واسع في عملية الوصف كما مارسها القدماء، وكما هي عليه عند علماء العصر الحديث. حيث ينحصر العلم عند القدماء بالمعرفة البرهانية، وبالتالي فإن مسائل البحث المتجهة نحو الوصف، ستنحصر في التساؤل حول

العوارض الذاتية للموضوع، الأمر الذي خلق مشاكل منهجية عديدة لعلوم البرهان وغيرها. فنلاحظ من جهة ان تقديم تعريف للخواص الذاتية ومقياس لتحديدها، لم يكن أمراً خالياً عن الصعوبة والتعقيد، ومن جهة أخرى فإن الخواص الذاتية في ضوء التعريف الكلاسيكي، هي التي يدخل موضوع المسألة في تعريفها. بينما نجد في العديد من مسائل العلوم البرهانية، ان الموضوع لا يدخل في تعريف المحمول.

لجأ علماء المنطق في محاولة للتخلص من المشكلة هذه، إلى توسيع تعريفهم للخواص الذاتية فعرفوا المحمول الذاتي بأنه:"ما يؤخذ في حده موضوعه، أو ما يقوّم موضوعه، أو معروضه، أو معروض جنسه"[1].

ويؤدي تحديدهم المذكور إلى إقصاء العديد من موضوعات العلوم، عن البحث العلمي. وعلى سبيل المثال فإن توظيف هذا النموذج قد خلق مشاكل عديدة في علوم الكلام والفقه والأصول والجغرافيا والتاريخ، على نحو أدى تدريجياً إلى بلورة مفهوم جديد لمسائل العلم يفترض انها تتناول بيان أحكام الموضوع وعوارضه.

ان ما نسميه اليوم بمستوى الوصف ***description*** كان عند المناطقة المسلمين يتصل بمطلب ((هل المركبة)) وهم يدخلون فيه السؤال بـــ "أي شيء" أيضاً. غير ان نطاق الوصف اليوم اوسع من ذلك بكثير. عندما نتساءل: ما هو الدين؟ فإننا نتحرك في مستوى التعريف، غير اننا سننتقل إلى مستوى الوصف حين نتساءل حول العلاقة بين الإيمان والصحة النفسية أو نتساءل حول معطيات الإيمان وآثاره.

وللوصف ادواته ومقاييسه الخاصة، ويجري تعريف انماط الوصف على أساس تنوع أدواته، فهنالك الوصف التجربي والتحليلي والتاريخي

---

[1] - الطوسي، شرح الإشارات، ج1، ص60.

والظاهراتي...الخ. فالحديث حول عصمة الأنبياء مثلاً يتجه في واقع الأمر إلى مستوى الوصف، ويمكن ان تجري معالجته بواسطة أدوات تاريخية أو تحليلية أو دينية جوانية، وقد استخدم علماء الكلام المنهج التحليلي في معالجة هذا الموضوع.

والمقصود بالوصف التحليلي في مقابل الوصف التجربي، طريقة في الوصف لا تستعين بالأدوات التجربية، بل تعمل على تحديد خواص لوزام الشيء، من خلال تحليل منطقي. وليست هذه الخواص أحكاماً انضمامية داخلة في الموضوع، بل هي تحليلية انتــزاعية استنتاجية (خارجٌ محمولٌ من صميم الموضوع). وذلك من قبيل وصف الانسان بأنه من الممكنات. كان المتقدمون يعدون المحمول الخارج، في مقابل المحمول المقوّم للموضوع والذي يستخدم في التعريف، بينما تستخدم المحمولات الخارجة في مستوى الوصف.

ونظراً لتعدد أبعاد الظواهر الدينية وتعقيدها، فإن عملية الوصف لا يمكن ان تنجح في الأبحاث الدينية في إطار التحديد الحصري المنهجي المذكور. وسنتناول ذلك في بحثنا للدراسات البينخصصية. ان الظواهر الدينية تتقبل أنماطاً متعددة من الوصف، وبالتالي فإن من الممكن ان يؤدي ذلك إلى حصول تعارض في مستويات الوصف، أي ان وصفاً دينياً جوانياً لظاهرةٍ ما، سيتعارض في الظاهر مع الوصف التحليلي أو التجربي أو التاريخي. ولا بد للباحث ان يستوعب هذا اللون من التعارض، ويمتلك أدوات مناسبة لمعالجته.

ونكتفي هنا بهذا القدر من الحديث حول الوصف، على اعتبار اننا سنتحدث تفصيلياً حول الوصف التجربي والظاهراتي والتاريخي ضمن الفصول القادمة.

الفصل السادس:

التبرير والتفسير

مدخل

ثمة خمس مسائل ومستويات رئيسة للبحث في الدراسات الدينية هي: التعريف، والوصف، والتفسير الشرعي، والتبرير (الاستدلال)، والتفسير (بمعنى التعليل)[1]. وقد تناولنا في الفصل السابق المستويين الأول والثاني، كما سنتحدث عن التفسير الشرعي في الفصل القادم، بينما سنخصص الفصل الحالي لكل من التبرير والتفسير.

1- يمثل الدين في القراءة التقليدية، رسالة الله تعالى لبني البشر والتي يجري إبلاغها من خلال الأنبياء (ع). ويمكن لمتلقي الوحي ان يطرح تساؤلين في تعامله مع خطاب كهذا: ما المراد بذلك؟ ما السبب في ذلك؟

---

[1] - أضطر إلى وضع قيد (الشرعي) أمام التفسير الذي جاء ثالثاً في الترتيب، تمييزاً له عن التفسير بمعنى التعليل والكشف والذي جاء خامساً في الترتيب، والأول يعادل *exegesis* في الانجليزية، بينما يعادل الثاني *explanation*. وربما كان من المناسب التعبير عن الثاني بلفظ آخر لتمييز أوضح كما لو قلنا التعليل أو الاستبانة أو (التبيين) والأخير مستخدم في الفارسية، غير ان شيوع التفسير كمعادل للكلمة الانجليزية *explanation* وباعتبارها مصطلحاً علمياً حديثاً، ألزمنا باعتمادها هنا على ما هو متداول، كما ان التمييز بين الاستخدامين سهل يجري عادة في ضوء قرائن السياق. (المترجم).

ان السؤال الثاني في حقيقة الأمر بحث عن سبب الخطاب. ان خطاباً يقمع عقول المتلقين، لن يحصل على استجابة إيجابية منهم، ولذلك نجد الخواجة الطوسي في كتابه (قواعد العقائد) يقرر ان عدم مخالفة الخطاب لظاهر العقل يمثل واحداً من المقاييس التي نحتكم إليها في التمييز بين النبي ومن يدعي النبوة[1].

وإنما يقتنع متلقي الوحي بأن الخطاب مقبول من العقل، حين يكون في نفسه بديهياً لا يحتاج إلى دليل، أو يتمتع بأدلة تدعمه وتثبته. ان الوحي نفسه قد عد مطالبة المتلقي بدليل وبرهان، أمراً طبيعياً، حتى انه بادر في حالات متنوعة إلى تقديم دليل على رسالته السماوية. عندما يتحدث عن وحدانية الإله مثلاً، فإنه يستعين بقياس استثنائي من خلال رفع التالي في القضية الشرطية "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"[2]، يبرهن فيه على دعواه[3]. وهكذا هو الحال مع حديثه عن صدق القرآن وأنه لم يأت من عند غير الله.

نلاحظ ان المؤمنين من جهة، يأخذون بطرح أسئلة طبيعية حول صدق تعاليم الدين ويبحثون عن أدلة ذلك، بوصفهم متلقين له. كما الهم من جهة أخرى ملزمون بإعداد أدلتهم لمواجهة المشككين والنقاد من غير المؤمنين.

ما هو منهج إقامة الدليل؟ هل ينحصر تبرير زعمٍ ما في المنهج ألبرهاني، أم ان ثمة مناهج متنوعة في ذلك؟ ما هي السبل المتاحة في هذا المستوى وما هي الخيارات العقيمة؟

---

[1] نصير الدين الطوسي، قواعد العقائد. في: تلخيص المحصل، ص452. قال هناك: ((وتعرف نبوته بثلاثة أشياء، أولها ان لا يقرر ما يخالف ظاهر العقل...)).

[2] – سورة الانبياء، 22.

[3] – لمزيد من التفصيل راجع: أحد فرامرز قراملكي، برهان التمانع. مجلة دانشنامة جهان اسلام. ج3، ص296-299.

حين نواجه زعماً محدداً، فما هي الأسباب التي تدعونا إلى تقبله؟ وما هي الظروف التي تحول دون تقبلنا له؟ أجاب بعض الدارسين على هذه الأسئلة بما يلي حين طرحت عليهم في إحدى الورش التعليمية:

1- نتقبل الخطاب المنطقي.

2- الخطاب الذي يأخذ طريقه إلى القلب، حتى لو لم يتمتع بطابع منطقي.

3- ان يتطابق الزعم مع الواقع.

4- ان يكون الخطاب مستوفياً المواصفات اللازمة.

5- ان يتطابق الخطاب مع العقل.

6- ان يكون الخطاب قادراً على الإقناع في مستوى عقلي أو حسي.

تمثل هذه الأسئلة بأجمعها، تكراراً للسؤال ذاته، لأن السؤال يستفهم قائلاً: ما هي الظروف والأسباب التي تدفعنا إلى تقبل زعم معين؟ والمقصود بذلك الاستفهام حول الأسباب والظروف التي تجعل ذلك الزعم منطقياً يأخذ طريقه إلى القلب ويتطابق مع الواقع ويكون مستوفياً للمواصفات اللازمة ويتطابق مع العقل. حاول ان تدون بدقة في الجدول 6-1، مبرراتك في تقبل زعم معين، دون ان تكرر التساؤل المذكور.

مواصفات الزعم المقبول	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

الجدول رقم 6-1: مواصفات الزعم المقبول.

نجد أحياناً ان الإجابة المقدمة لا تمثل مبرراً حقيقياً، بل هي ليست سوى مبرر ظني زائف. كيف لنا ان نميز بين هذين النمطين من الإجابات؟ ما هي الحالات التي يقدم فيها الدليل الزائف بدلاً عن الدليل الحقيقي؟

2- يمثل الدين في القراءة الجديدة، حقيقة هامة مؤثرة في الحياة الفردية والاجتماعية، وهو يشمل مجموعة من الظواهر المتنوعة. نعمد إلى تفسير الظاهرة في سبيل فهمها، كي نستوعبها في ظل عدد من المبررات والعوامل. وعلى هذا الأساس فإن الأبحاث الدينية الجديدة تمثل دراسة تستهدف تفسير الظواهر الدينية، وهي من هذه الزاوية شبيهة بشتى العلوم التجربية والحديثة. غير انها تتميز عن هذه العلوم في كونها تدور حول موضوع اكثر تعقيداً يمكن لأي لون من التساهل فيما يتصل بمعالجته، ان يؤدي إلى تفسيرات زائفة اختزالية. ونظراً لكون مسائل البحث الديني مسائل متعددة الأصول، فإنها تظل مفتوحة على احتمالات تفسيرية متعددة، ويظل هذا التنوع في التفسير بحاجة إلى تفسير في حد ذاته أيضاً.

لا ينبغي للمدخل هذا ان يوهم القارئ بأن الأبحاث الدينية التقليدية لم تكن تحفل بموضوع التفسير، وأن هذا اللون من الأبحاث خاص بالدراسات الدينية الحديثة. ان كلاً من النمطين التقليدي والجديد من الأبحاث الدينية، يشتمل على مستويات من التفسير والتبرير والوصف والتعريف، وإنما يكون الفرق بينهما في المستوى وطبيعة الاتجاه.

ما هو المقياس في انتقاء التفسيرات المختلفة وتقييمها وكيف لنا ان نحدد صلاحية تفسير معين في مجال الأبحاث الدينية؟ ما هي طبيعة عملية تفسير الظواهر الدسية أساساً، وما هي السبل والمعوقات والمنــزلقات في ذلك الإطار؟ كيف يمكن لنا تجنب الوقوع في مغالطة الخلط بين الدليل والسبب؟ ما هي حقيقة التباين بين التبرير والتفسير؟

التبرير

يمتاز البحث المنهجي العلمي عن الدراسات المبعثرة، في ان البحث يستهدف الوصول إلى العلم *knowledge*، لا انه يتوخى أي شكل اتفق من القناعات *believe*. فالعلم على حد تعبير أفلاطون قناعة صادقة جرى تبريرها *true justified believe*. وقد عبر علماء المنطق المسلمون عن ذلك بالتصديق العلمي[1] وعرّفوه بأنه"قول جازم مطابق ثابت"[2]. ان القناعة في أي لون من الاعتقاد هي قول جازم، غير ان العلم هو القناعة المبررة المطابقة للواقع. ونجد ان بعض الباحثين لا يستخدمون وصف التبرير، ويلجؤون بدلاً عنه إلى وصف المعلل أو ما يتمتع بعلة *reason*[3].

ان ما نرجوه في الأبحاث الدينية هو تكوين قناعة مبررة ثابتة، ولكن كيف

---

[1] - ابن سينا، الإشارات. ص23.

[2] - الطوسي، شرح الإشارات. ج1، ص13.

[3] - لاحظ:

Kenny Anthonny. What is Faith? Essays in The Philosophy of Religion, Oxford University Press, 1992, p. 19-25.

يتم تبرير قناعة ما؟ يخاطب الوحي بني الإنسان ويطالبهم باستجابة إيمانية. والإيمان في مفهومه الشائع، تصديق يقيني بما يقوله الوحي، واليقين كذلك قناعة مبررة واعتقاد قائم على الدليل. كيف لنا الحصول على قناعات موثقة ومبررة؟

لقد أثار هذا السؤال جدلاً متنوع الأبعاد على المستوى المعرفي، وكان الاتجاه السفسطائي يرى ان هذا سؤال لا إجابة له، الأمر الذي اعتمدوه في رفضهم لإمكانية حصول العلم. أما أرسطو فقد طرح رؤية تعرف اليوم بالأسسية الكلاسيكية *classic foundationalism*، وقد بات ذلك بمثابة مبدأ منهجي لعلوم البرهان عند العلماء المسلمين بقراءاتهم المختلفة التي فسرت رؤية أرسطو. ظهرت كذلك اتجاهات أخرى في مقابل ذلك من قبيل الاتساقية *coherentism* والنصوصية أو السياقية *contextualism*، وقام أمثال أنطوني كيني بإعادة بناء اتجاه أرسطو وطرح الأسسية الجديدة.

ما يهمنا في الفصل الحالي هو الاتجاه المنهجي، دون المستوى المعرفي.

نتساءل هنا: لو قيل في وصف شيء: ان (أ) هو (ب)، سنتساءل: لماذا؟ والمقصود بهذا السؤال الاستفهام حول الدليل الذي يبرر تلك القضية ويعبر عن (ثبوتها). لا بد لأي إجابة تقدم حيال هذا السؤال ان تتكون من مقدمتين على أقل تقدير. فيقال مثلاً: لأن (أ) هو (ج)، و(ج) هو (ب). ويمكن ان نتساءل بلماذا حول هاتين المقدمتين كذلك، ويتواصل ذلك ويتسلسل.

كان الاتجاه السفسطائي يقول ان الانسان غير قادر في عمره القصير وقدراته المحدودة، ان يجيب على كل الأسئلة. وهذا ما يعرف اليوم بالتشكيك في التبرير أو *justification skepticism*. لا يخفى على القارئ ان التبرير والعقلانية يمثلان وجهين لعملة واحدة، ويمكن ان نرسم شك السفسطائيين على النحو التالي: "يتكون العلم في إطار سلسلة معرفية، وهي سلسلة لا نهاية لها، كما ان مسار الاستدلالات يتواصل إلى ما لا نهاية. إذن فمن المستحيل ان يتاح العلم للإنسان".

قام أرسطو في التحليلات الثانية (البرهان) بنقد الرؤية السفسطائية، وطرح نظرية تقرر ان سلسلة المعارف محدودة وهي تنتهي عند علم لا يحتاج إلى إثبات، وبذلك تجري معالجة مشكلة التسلسل المعرفي ***epistemic regress problem***، على نحوٍ ما[1].تقوم معالجة أرسطو على تقسيم محدد للعلم، فالعلم وهو القول الثابت المطابق، إما ان يكون ثابتاً في نفسه (مبرر ذاتياً) أو ***self justified***، أو ان يكون ثابتاً بغيره. والثابت بغيره يؤول في نهاية المطاف إلى الثابت بنفسه، وهذا تقسيم جرى تناوله ونقده في سائر مدونات المنطق في الفترة الاسلامية.

لا بد للاتجاه الأرسطي لكي يدافع عن رؤيته، ان يتولى الإجابة على أسئلة متعددة.

أولاً: ما هي مصاديق العلم الثابت بنفسه (البديهي) وحالاته وأنماطه؟

ثانياً: كيف ينتج العلم الثابت بغيره (النظري المكتسب) من العلم الثابت بنفسه؟

يقرر التفسير المتداول لإجابة السؤال الأول ان العلم البديهي على ستة أقسام: الأوليات، الحسيات، المجربات، الحدسيات، المتواترات، والفطريات. يعمد البعض إلى إرجاع المجربات والحدسيات والمتواترات إلى المحسوسات ودمجها فيها، فيكون ثمة قسمان: بديهة حسية ***evident to the sense***، والأوليات ***self-evident***.

نجد لدى كل من الفخر الرازي والخواجة الطوسي تدقيقاً يستحق الملاحظة، فهما يعتقدان ان الأوليات هي التي تمثل وحسب، القضايا الأساسية أو البديهية[2]. يرى الخواجة الطوسي ان مقياس البداهة يتمثل في ان يكون الحكم في

---

[1] – أرسطو. أرغانون. مصدر سابق، ص428-429.

[2] – فخر الدين الرازي، الملخص، نسخة خطية محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي تحت رقم 856، ص62-64. نصير الدين الطوسي، منطق التجريد، في: العلامة الحلي، الجوهر النضيد. ص119-201.

القضية ناتجاً عن مجرد تصور الموضوع والمحمول[1]، لذلك فإن البديهي هو الأولي. ان نظرية الطوسي التي تتمتع منهجياً بدقة عالية، تطرح السؤال التالي:

هل تكون هذه القضايا تحليلة أم تركيبية؟ وعلى تقدير ان تكون تركيبية فلماذا يؤدي مجرد تصور الموضوع والمحمول، إلى حصول الحكم؟ وعلى تقدير ان تكون تحليلية فإنه لا يمكن ان نستنتج من القضايا التحليلية علماً بالواقع، لأن استنتاج قول تركيبي من مقدمات تحليلية محضة، هو أمر محال.

نتساءل ثانية: ما هو الأسلوب الذي يتيح لنا ان نستنتج قضية مكتسبة (ثابتة بالغير) من القضية الأساسية (البديهة بالمعنى الأعم أو بمعنى القضية الأولية)؟ ويجاب على هذا السؤال في المنطق الأرسطي، عبر حصر المنهج في القياس، فرغم ان الاستقراء والتمثيل يجري تناولهما عند أرسطو، غير انهما يُجردان من قيمتهما المنطقية. لذلك فإن القياس يمثل الطريقة الوحيدة للانتقال من القضايا الأساسية إلى التصديقات الجديدة. ان هذا التصور لا يستوعب كل قدرات الذهن في سياق الاستنتاج، الأمر الذي يقصي وفق التصور الأرسطي، الكثير من المعطيات اليقينية في الذهن البشري، من نطاق العلم بمعنى الاعتقاد الثابت المطابق للواقع.

لقد ولّدت هذه الإجابة، مشاكل منهجية كثيرة في نظرية المعرفة الأرسطية، ومن بين أولئك الذين اهتموا بذلك، نلاحظ ان فتجنشتين قد أخضع هذه الإشكاليات إلى الدرس والنقد، حتى ظهرت في ضوء ملاحظاته تلك اتجاهات أخرى، من قبيل الاتجاه الاتساقي والنصوصي أو السياقي والأسسية الجديدة.

ومن بين النظريات المذكورة، نجد ان الأسسية الجديدة تضاعف من إمكانية طرح مناهج منوعة في البحث، ولا سيما في ضوء القراءة التي قدمها أنطوني كيي، ولذلك فإننا نحاول هنا ان نوجز الاتجاه الذي بلوره كيني في هذا السياق.

---

[1] – الطوسي، شرح الإشارات، مصدر سابق، ص51.

يتناول كيني الأسسية الكلاسيكية من منظور الدحض الذاتي ***self-refuting*** وكون الشيء ناقضاً لنفسه، ذلك ان الخطاب المبرر الذي يتمتع بالعقلانية، إما ان يكون بديهياً للحس أو بديهياً بالذات، أو مما يمكن استنتاجه من هذين المستويين عبر عملية الاستدلال. بينما نلاحظ ان هذه الرؤية نفسها وهذا التقسيم ذاته، لا يدخلان في أي من الأقسام الثلاثة تلك.

اضافة إلى ان في وسعنا العثور على قناعات كثيرة نتعامل معها بطريقة مبررة، غير الها لا تدخل تحت أي من الأقسام الثلاثة. ان معظم الأمثلة التي يستعرضها كيني هي نماذج تناولها فتجنشتين. من المفيد التنبيه إلى ان واحداً من اهم دوافع هذا الجدل والأسباب التي دفعت إلى محاولة تعديل الأسسية الكلاسيكية وإعادة بنائه أو تقديم رؤى بديلة له، يتمثل في معالجة مشكلة منهجية في الأبحاث التي تتصل بعلم الأخلاق، وهو هاجس لا زال يتملك العلماء منذ جون ستيوارت ميل حتى فتجنشتين. يقدم كيني في رؤيته للأسسية، لونين من المعالجة:

التعديل الأول: تعديل قائمة القضايا البديهية الأساسية أو غير المكتسبة ***basic***، وتعميمها. وهو يعتقد ان في وسعنا ان نضيف إلى البديهي على مستوى الحس، البديهي على مستوى الذاكرة أو القوة الحافظة، كما نضيف قضايا الأساس ***fundamental*** إلى القضايا البديهية بالذات ***self-evident***، والتي تشمل القبليات الرياضية والمنطقية فقط. ان هذه القضايا ليست مكتسبة ولم يتم استنتاجها من قضايا أخرى، كما ان معظم الناس يستخدموها بوصفها مبدأً للعديد من قناعاهم، وهي ثالثاً ليست من القبليات الرياضية أو المنطقية. ان كيني يطرح كذلك القضايا التي يمكن الدفاع عنها، ويعدها قسماً من القضايا الأساسية. وهذه القضايا ***defensible***، هي تلك التي يمكن الدفاع عنها من خلال إحدى الطرق الثلاثة التالية: الاستدلال ***argument***، والبحث أو الاستعلام ***inquiry*** الأعم من البحث في المستوى الأول أو الثاني، والعمل الناجح ***successful performance***.

يعتقد كيني في ضوء ذلك ان نظرية التبرير تكتسب جدوى أكبر من جهة، كما ان ذلك يؤدي الى معالجة مشكلة التناقض الذاتي من جهة أخرى، لأن النظرية هذه لا تخرج عن القضايا المبررة، باعتبارها من القضايا التي يمكن الدفاع عنها.

التعديل الثاني: ويتصل بعملية تكوين القضايا غير الأساسية عبر توظيف القضايا الأساسية. تنحصر هذه العملية في ظل الأسسية الكلاسيكية، في الاستنتاج القائم على القياس، غير ان كيني يعتقد ان في وسعنا اللجوء إلى طريقتين لتكوين القضايا غير الأساسية، أحداهما الاستنتاج ***inference*** الأعم من القياس أو الاستقراء، والأخرى هي البينة والشهادة ***testimony***[1] .

مبررات قبول الزعم

ذكرنا سابقاً ان التساؤل حول الأسباب التي تدفعنا إلى الأخذ بزعمٍ ما، يمثل في الواقع تساؤلاً حول المقياس الذي يحدد عقلانية ذلك الزعم ويكشف عن كونه مبرراً. جرى تقديم تصورين قائمين على نظرية الأسسية في الإجابة على هذا التساؤل. لقد حظيت الأسسية الكلاسيكية الأرسطية عند العلماء المسلمين بقراءتين (التصور المشهور ونظرية المدققين)، مما تكفل الجدول 6-2، بإيضاحه.

ت	شروط التدبير	اقسام البديهي في التصور الشائع	اقسام البديهي عند الفخر الرازي والخوجة الطوسي
1	البداهة	الاوليات، المجربات، المحسوسات، المتواترات، الحدسيات، الفطريات.	الأوليات .
2	الاستنتاج من البديهيات عبر الاستدلال .		

الجدول رقم 6-2: المقياس في تبرير القضية عند الاتجاه الأرسطي

---

1 - لاحظ: *What is Faith, p.25.*

طرح صدر المتألهين في هذا الإطار رؤية خاصة، من المفيد مقارنتها بالرؤية الكلاسيكية والآراء الجديدة المطروحة في فلسفة الدين. يقسم صدر المتألهين التصديق إلى أربعة أقسام: البديهي أو الفطري على حد تعبيره، والحدسي، والموهوب أو المكتسب من خلال إشراق القوة القدسية على حد تعبيره، والنظري أو المكتسب من الفطري والحدسي بواسطة الفكر[1]. (الجدول 6-3).

شروط التبرير	
1	الفطري البديهي.
2	الحدسي.
3	الموهوب (الإشراق من قوة قدسية)
4	نظري(مستنتج عبر الاستدلال، من الفطري والحدسي .)

الجدول رقم 6-3: مقياس تبرير القضية عند صدر المتألهين.والرؤية الأخرى هي التي طرحتها الأسسية الجديدة، التي استعرضناها تفصيلاً كما طرحها أنطوني كيني، ولخصناه في الجدول 6-4.

شروط تبرير القضية	
1	البداهة عند الحس.
2	البداهة عند القوة الحافظة .
3	البديهي ذاتيا بما يشمل من القبليات الرياضية والمنطقية والقضايا الأساسية
4	إمكانية الدفاع عن القضية بواسطة الاستدلال والبحث والعمل الناجح .
5	الاستنتاج من البديهيات والأساسيات عبر القياس،والاستقراء، والشهادة أو البنية .

الجدول رقم 6-4: مقياس تبرير القضية عند أنطوني كيني.

[1] - ملا صدرا الشيرازي. التنقيح في المنطق، ص6.

يمكن القول بأن المقياس في تبرير قضية ما، عند الاتجاه الوظيفي، يتمثل بمجموعة مما ينبغي وما لا ينبغي. سنتقبل القضايا البديهية أو المستنتجة من البديهية، غير ان مفهوم البداهة والاستنتاج هنا يكتسب طابعاً حقيقياً لا زائفاً، فكثيراً ما نتناول أمراً باطلاً ونعده بديهياً (الموهومات)، أو نتعامل مع مغالطة ونخالها استنتاجاً منطقياً. ولذلك فإننا نضيف إلى القائمة السابقة مقاييس لبطلان القضايا، كما لو انطوت القضية على تناقض، أو الها استلزمت التناقض أو استتبعت المحال المؤكد. ان استناد القضية إلى مقدمات باطلة يؤدي كذلك إلى التردد في تقييمها. (الجدول 6-5).

شروط التبرير	
شروط الاثبات .	شروط الدحض والتشكيك .
البديهي بأقسامه الثلاثة .	التناقض الذاتي .
إمكانية الدفاع .	استلزام التناقض أو أي محال آخر.
مستنتج عن البديهي عبر الاستدلال .	أن يقوم على مباديء ومقدمات باطلة

الجدول رقم 6-5: شروط الإثبات والتكذيب في تقبل النظريات.

قواعد استراتيجية في عملية التبرير

ثمة قواعد استراتيجية وتقنيات عملية للتبرير، بمعزل عن المبادئ المعرفية لذلك، إلى جانب وجود أخطاء ومنـــزلقات تتهدد العملية هذه. ومن المهم في بحث المنهج، ملاحظة هذه القواعد وتلك الأخطاء.

1- **مبدأ تقدم الفهم على النقد:** من الضروري ان نتساءل حول مضمون القضايا ومفادها من زاويتين، قبل التصديق بها. فنحن لن نحتاج من جهة إلى

التصديق بالزعم أو القضية فيما لو كانت فاقدة للدلالة أو المعنى المحصل الواضح. وقد استخدم الخواجة الطوسي هذا المبدأ بوصفه مقياساً في نقد تفسير الأشاعرة للكلام الإلهي، وهو يقول في نقد نظرية الكلام النفساني: ولا محصل لهذه الدعوى. ونلاحظ من جهة أخرى ان المعنى المحدد للنظرية يتطلب منهجاً خاصاً في تبريرها، فإثبات النبوة أو المعاد فلسفياً على سبيل المثال، يتطلب فهماً فلسفياً لذلك. لن يكون نقد النظرية مجدياً إذا لم يكن مسبوقاً باستيعاب كامل لها. ان استعراض النظرية على نحو مشوه خاطئ، يجعل من السهل دحضها وتكذيبها، ولكن ما هي جدوى تكذيب كهذا؟ قام البعض بتأسيس مبدأ آخر فيما يتصل بالعلاقة بين تبلور معنى للقضية والتصديق بها أو تبريرها، ولكن على نحو معكوس. يعتقد أمثال آير من أتباع الوضعية، ان عدم توفر طريق تجربي لإثبات زعم معين، يعني ان ذلك الزعم قضية جوفاء لا تنطوي على معنى، ويرى أمثال فلو *A. Flew*، ان عدم توفر طريق لتكذيب زعمٍ ما تجريباً، سيعني ان الزعم هذا مجرد عن المعنى.

يقول آير *A. J. Ayer*، 1910-1989:"نعتقد ان النص سيحمل معنى حقيقياً بالنسبة إلى شخص محدد، حين يدرك الشخص هذا كيف يمكن ان يتناول بالبحث القضية التي تضمنها النص، أي ان يدرك الظروف التي تدفعنا إلى تقبل القضية تلك بوصفها قضية صادقة، أو رفضها بوصفها قضية كاذبة"[1].

2- **تحديد القضية التي تنطوي على دحض ذاتي**: يمكن من خلال تحليل القضايا الذي سنتعرض اليه في الفصل القادم، ان نتساءل فيما يتصل بالقضية التي نواجهها، حول عدم الاتساق الداخلي أو الدحض الذاتي ***self-refuting***. يمكن ان تكون القضية متناقضة رغم اتساقها الشكلي، كما يمكن ان تنطوي على الدحض

---

[1] - لاحظ:

Ayer, A. J. Language, Truth, and Logic, New York: Pover Booles, 1952. p.35.

الذاتي رغم تناقضها الشكلي. ويقع على عاتق الباحث ان يكشف التناقض في الحالة الأولى، ويعالج المفارقة في الحالة الثانية، من خلال مهارته المنطقية.

ذكر المنطق الكلاسيكي ضوابط وشروطاً للتمييز بين التناقض وإيهام التناقض أو المفارقة. لا بد في القضيتين المتناقضتين ان يكون كل منهما ناقضاً للآخر على مستوى سور القضية (الكلي أو الجزئي) وعلى مستوى كيفها (السلب والإيجاب) وعلى مستوى الجهة (الضرورة والدوام والفعلية والإمكان) على نحو دقيق. وذلك لأن"نقيض كل شيء رفعه". ولا بد أيضاً ان تتحد القضيتان في عشرة أمور هي: وحدات الموضوع، والمحمول، والشرط، والإضافة، والزمان، والمكان، والقوة والفعل، والجزء والكل. هذا ما كان مطروحاً حتى القرن العاشر الهجري، حتى جاء أمثال صدر المتألهين وأضافوا وحدة الحمل في القرن الحادي عشر، كما يؤكد كاتب السطور على وحدة اللغة.

3- **التبرير المنطوي على دور**: يمكن ان يجري تبرير قضية ما، على نحو يستلزم الدور في سياق معرفي. والنموذج البارز لذلك هو الحالة التي يذكرها علماء المنطق في القياس الدوري وقياس العكس. يقال ان الإمكان هو مناط الاحتياج إلى العلة، فلو قلنا في تبرير ذلك: ان الشيء يحتاج إلى العلة حدوثاً وبقاءً، ثم قلنا في الاستدلال على الحاجة هذه حدوثاً وبقاءً: ان مناط الاحتياج إلى العلة هو الإمكان، فإننا في هذه الحالة سنقع في دور معرفي صريح (توقف الشيء على نفسه). يمكن ان نحدد ما إذا كان التبرير متضمناً للدور بطريقة سهلة، وهي ان نقوم بتحويل مجموعة الأدلة المقدمة، إلى قياس مضمر حيث سيكون برهان السلسلة الدورية على الشكل التالي: ان الانسان مختار، لأنه مسؤول. والإنسان مسؤول، لأنه مختار. ان أوضح أنواع هذا الدور هو المصادرة على المطلوب، وهو الاستدلال الذي يكون فيه كل من المطلوب إثباته والنتيجة، بمثابة واحد من مقوّمات الفرض.

4- **الجانب الشكلي للدليل**: يتقوم الاستدلال بمرتكزين هما، المقدمات وشكل تأليفهما أو نمط ترتيبهما. وتحدثنا في النقطة السابقة عن مقدمات الدليل ومواصفاقما المطلوبة، ولا بد للدليل ان يتمتع بشكل صحيح أيضاً، حيث ينبغي ان تجري ملاحقة شروط الأشكال الاستدلالية في مصادر علم المنطق. تمثل مغالطات وضع التالي ورفع المقدم، نماذج للاستدلالات التي لم تراع فيها شروط الصورة أو الشكل. وقد ذكر المنطق الكلاسيكي تلك الأدلة التي لم تستوف شروط الشكل تحت عنوان"مغالطة سوء التأليف". وغالباً ما تختفي الحالات تلك في أسلوب التعبير الدارج العادي، حيث يتسم بالاختصار وكثيراً ما يذكر الأدلة على نحو مضمر مستبطن ومنفصل. وهكذا يتحتم على عملية النقد ان تعيد بناء الأدلة تلك وتحويلها إلى شكل مصرح متصل لكي تحدد بناءها المنطقي، وتتولى نقدها بعد ذلك.

5- **نقد المبادئ**: لا بد في تناولنا لقضية ما وملاحظتنا لتبريرها، ان نتولى نقد مقدماقما ومبادئها كذلك. ان كثيراً من القناعات التي تبدو مبررة، تقوم في الحقيقة على مبادئ ومقدمات غير مبررة أو لم تدعمها الأدلة، على نحو لا يمكن معه تقبل تلك القضايا إلا على أساس التساهل والسطحية. وسنتحدث عن ذلك في الفصل القادم.

6- **تحليل اللوازم**: يمثل التساؤل حول ما يلزم من القضية وفيما يتصل بتواليها المنطقي، واحداً من أساليب نقد القضايا. يمكن ان لا تكون القضية متناقضة، غير ان التحليل المنطقي يكشف عن كونها تؤدي إلى تناقض أو تستلزم قضية كاذبة. ان كل قضية تؤدي إلى أمر كاذب، فهي كاذبة أيضاً، على أساس قاعدة نقض التالي.

7- **البحث عن الأدلة البديلة**: ان أقيسة الممانعة والمعارضة في المنطق الكلاسيكي، هي أسلوبان لنقد تبرير القضايا. فقياس المعارضة يثبت نقيض القضية

المزعومة، بينما يتولى قياس الممانعة تكذيب أقوى مقدمات القياس الذي جرى تأليفه بهدف تبرير القضية المدعاة. ان قياسي الممانعة والمعارضة يمثلان في الواقع أدلة بديلة تنافس الدليل الذي يستهدف تبرير القضية المزعومة.

8- نقد الدليل لا يعني نقد المدعى: يحاول البعض التدليل على كذب النظرية، من خلال دحض الدليل الذي يدعمها، الأمر الذي يمثل نموذجاً لأخطاء عملية التبرير. ان نقد الدليل أو دحضه يعبر وحسب عن ثغرة يعانيها هذا الدليل المحدد، وأن النظرية ستبقى دون دليل يدعمها فيما لو لم يتوفر دليل آخر عليها، ومن المؤكد ان غياب الدليل الذي يدعم مقولةً ما، لا يعني بطلان تلك المقولة.

9- التمييز بين نقد الدافع ونقد النظرية: يلعب هذا المبدأ دوراً هاماً في موضوعية تقييم النظريات. ثمة تأكيد على هذا المبدأ ورد في نصوص متعددة من السنّة، أوصت بأن ينظر الناقد إلى ما قيل لا إلى شخص القائل. لا يعني ذلك القول بعدم أهمية نقد الدوافع، بل المقصود به انه لا يمكن ان نستنتج نقداً للنظرية ونتيجة الدافع، من نقدنا للدافع ذاته[1].

10- الأدلة الكافية: لا بد ان تجري عملية التبرير من خلال أدلة كافية، فلو استخدمنا في العملية هذه أمراً لا يمثل دليلاً، أو كان دليلاً أعم من المدعى، أو أخص منه، فإن التبرير يتحول إلى مغالطة "أخذ ما ليس بعلة، علة" أي المغالطة التي توهم بوجود دليل، لكنه لا يشكل دليلاً في واقع الأمر. حين نستخدم العصمة بمفهومها الشيعي، في وصف الأنبياء، فلا بد ان تكون الأدلة مناسبة لذلك، فلو أخذنا الأدلة التي يقيمها المذهب السني على العصمة، واستخدمناها في التدليل على نظرية العصمة بمفهومها الشيعي، فمن الممكن اننا سنرتكب بذلك مغالطة "أخذ ما ليس بعلة، علة".

---

1 - راجع لمزيد من التفصيل: عبد الكريم سروش، دگماتيسم نقابدار يا ايدئولوژى شيطاني (دوغماتية مقنّعة أم آيديولوجيا شيطانية). تهران، انتشارات ياران، 1361.

قواعد استراتيجية	
تقدم الفهم على النقد.	1
البحث عن تناقض ذاتي في القضية .	2
تحري دور واقع في تبرير القضية .	3
ملاحظة توافر المواصفات الصورية في الدليل.	4
نقد المباديء.	5
تحليل اللوازم .	6
تحري الادلة البديلة (قياسي المعارضة والممانعة).	7
نقد الدليل لايعني نقد الزعم .	8
التمييز بين الدافع ونتيجته.	9
ملاحظة مدى كفاية الادلة .	10

الجدول رقم 6-6: قواعد استراتيجية في عملية التبرير.

مغالطة "أخذ ما ليس بعلة، علة"

ان كون الأدلة كافية في عملية التبرير، يمثل المسألة المنهجية الأكثر أهمية في سياق الاستدلال. ونجد في المنطق الكلاسيكي ان مغالطة "أخذ ما ليس بعلة، علة" قد ذكرت فيما يتصل بذلك. غير ان المقررات الدراسية والتعليمية تظل عاجزة عن تعزيز قدرة الطالب على التعامل مع هذه الأخطاء، لأن المقررات تلك تكتفي بعريف المغالطة وذكر مثال بسيط بنحو أو آخر وحسب، ولا تقدم إجابة كافية حيال السؤال المهم التالي:"ما هي الحالات التي نواجه فيها هذه المغالطة بشكل عام، والتي تؤدي بنا إلى ان نعتقد بوجود دليلٍ ما، بينما هو لا يمثل دليلاً في حقيقة

الأمر؟". ولذلك نشير إلى عدد من تلك الحالات كما يلي:

1- **عدم تكرر الحد الأوسط:** لا بد ان يتكرر الحد الأوسط على نحو دقيق في القياس الاقتراني، وثمة أمثلة شائعة لعدم تكرره من قبيل "ان العنب حلو، وشيرين زوجة خسرو"[1]. غير ان أمثلة كهذه تخفي تعقيد المسألة وأهميتها. هنالك عوامل متعددة تؤدي إلى الوهم بتكرر الحد الأوسط، ومن تلك الحالات يمكن ان نذكر، الاشتراك اللفظي، ومغالطة الاسم والمسمى، والخلط بين المفهوم والمصداق، ومغالطة الجزء والكل، والخلط بين ما بالقوة وما بالفعل، وخلط الحيثيات (لا بشرط، بشرط لا، بشرط شيء) اضافة إلى الخلط بين ما بالذات وما بالقوة[2].

2- **ان لا يكون الحد الأصغر واحداً في الكبرى والصغرى:** لو أردنا الاستدلال على ان "مريم لن تنصرف من المكان الكذائي"، فقلنا: "ان مريم، اسم علم أعجمي، والعلم الأعجمي لا ينصرف"[3]، فسنلاحظ ان الحد الأصغر (مريم) الوارد في الصغرى، لم يتكرر بعينه في النتيجة، ولذلك فإن الاستدلال على النتيجة بأن (مريم) علم أعجمي، يمثل توهماً لدليلية ما هو ليس بدليل في الحقيقة.

قام أحد الفلاسفة بعملية الاستدلال التالية لإثبات مقولة معينة: تتضمن المنظومة الاقتصادية الماركسية قضية تطرح بوصفها توجيهاً فلسفياً وهي تقرر: ان

---

[1] - لا يتضح المغزى من هذا المثال في عملية التعريب لأن المشترك اللفظي المتكرر في مقدمتي القياس فارسي، وهو كلمة (شيرين) التي تعني ما طعمه حلو، كما ان شيرين في المقدمة الثانية هو اسم علم لزوجة خسرو. وفي وسع القارئ ان يجد الكثير من الأمثلة العربية على هذه المغالطة كما لو قلنا، ان في الجبل عيناً، وكل ما فيه عين فهو مبصر، ويبدو ان ذلك ينتج ان الجبل يبصر! لكن نلاحظ ان الحد الأوسط (وهو كلمة عين في المقدمة الأولى) لم يتكرر لأنه بمعنى نبع الماء، والعين في الثانية هي عضو من بدن الإنسان، وهكذا. (المترجم).

[2] - لاحظ لمزيد من التفصيل: أحد فرامرز قراملكي. منطق. طهران، دانشگاه پيام نور، 1374، ج2، ص49.

[3] - أي "ممنوع من الصرف". (المترجم).

الله أفيون الشعوب. وهذه القضية تعني على مستوى محتواها ومادها، ان تأثير الله في المجتمعات الانسانية هو بمثابة تأثير الأفيون في المرء. لكن لدينا مبدأ الفرعية الذي يقرر "ان ثبوت شيء لشيء، هو فرع ثبوت المثبت له"، الأمر الذي يعني ان الضرورة المنطقية تتطلب وفق ذلك الاعتراف بوجود الله، على اعتبار ان الله هو "المثبت له" أو المسند إليه، في القضية التركيبية الأولى[1].

لكن هذا الاستدلال إنما يكون صحيحاً، على تقدير ان يكون المقصود بالله في القضية الأولى، هو عين ما يراد به في النتيجة. بينما نجد ان الماركسيين يريدون بالله في القضية الأولى حالة الإيمان بالله، بينما تعني كلمة الله في النتيجة الذات الإلهية الموجودة، وهكذا فإن الحد الأصغر لم يتكرر في الصغرى والنتيجة وقد وقع هذا الاستدلال في مغالطة "أخذ ما ليس بعلة، علة".

نلمح مثالاً آخر على ذلك في كلام الفخر الرازي، حيث يحاول الرد على نظرية الفلاسفة فيما يتصل بقولهم "الحق ماهيته إنيته" ويقيم أدلة على موقفه المعارض. يقول: "ان وجود الله معلوم، وماهيته غير معلومة، والمعلوم مغاير لغير المعلوم، إذن فوجود الله غير ماهيته". لكن دليله هذا ناقص كما أوضح الطوسي، لأن المراد بوجود الله في الصغرى، هو مفهوم الوجود (وإلا لكذبت الصغرى) بينما المراد منه في النتيجة هو حقيقة وجود الله، وهكذا فإن الدليل لا صلة له بالدعوى[2].

يوضح المثالان المذكوران، أبعاد الإيهام في هذه الحالات التي تؤدي إلى توهم دليلية ما ليس بدليل في الحقيقة.

3- عدم وحدة الحد الأكبر في الكبرى والنتيجة: وهذه مغالطة شبيهة بالحالة الثانية، ففي المثال الأول المذكور هناك، كانت كلمة (تنصرف) هي الحد

---

[1] - مهدي حائري يزدي. متافيزيك (الميتافيزيقيا). إعداد عبد الله نصري. طهران، نهضت زنان مسلمان، 1360، ص13 و14. بتلخيص وتصرف.

[2] - الطوسي، شرح الإشارات، مصدر سابق. ج3، ص36.

الأكبر الذي لم يستخدم بمعنى واحد في الكبرى والنتيجة. وقد ذكرنا في الفصل السابق دليلاً أورده القاضي عضد الدين الإيجي، لدحض ذاتية الحسن والقبح، و لم يتكرر فيه الحد الأكبر في الكبرى والنتيجة على وجه الدقة، الأمر الذي يجعله من "أخذ ما ليس بعلة، علة".

- الحسن والقبح متغيران.
- والذاتي لا يتغير.
- إذن فالحسن والقبح ليسا بذاتيين.

4- استنتاج حمل شائع أو قضية مركبة، من مقدمة أو مقدمات تحليلية أو مأخوذة بالحمل الأولي المحض: ويمكن تسمية هذه الحالة بالاستخدام الخاطئ للتعريف، ذلك ان التعريفات في مغالطة كهذه، تستخدم بوصفها مقدمات يجري توظيفها مباشرة في تكوين نتائج تصديقية وذات صلة بالواقع. لكننا نعلم ان التصور لا ينتج سوى التصور، كما ان التصديق لا ينتج سوى التصديق (كذلك فإن القمح والشعير لا ينتجان سوى قمح وشعير).

5- استنتاج إدراكات اعتبارية، من مقدمات حقيقية محضة: تمثل هذه الحالة مسألة أثير حولها الخلاف عند فلاسفة الأخلاق[1]. فرغم ان الإدراكات الحقيقية هي مصدر الإدراكات الاعتبارية على المستوى النفسي السيكولوجي، غير انها تظل عاجزة على المستوى المنطقي، عن تبرير الإدراكات الاعتبارية ودعمها بالدليل. يقول العلامة الطباطبائي:"وحيث ان هذه الإدراكات [الاعتبارية] ناشئة

---

[1] - لاحظ لمزيد من التفصيل:

Sellars w. & Hospers J. (ed.),Readings in Ethical Theory, Englewood Cliffs, New Jersey, 1960.

عن عوامل انفعالية، فليست ثمة علاقة استنتاجية تربطها بالإدراكات والعلوم الحقيقية"[1].

يقول الشيخ مطهري موضحاً كلام العلامة الطباطبائي:"ليس في وسعنا الاستعانة بدليل يتكون من الحقائق (البرهان)، لإثبات فرضية اعتبارية، كما لا نستطيع الاستعانة بدليل يتكون من مقدمات اعتبارية، في التدليل على إحدى الحقائق... ومن هنا يتضح ان عدم التمييز والفصل بين الاعتبارات والحقائق، يمثل على المستوى المنطقي، خطراً وضرراً استثنائياً"[2].

6- استنتاج تصديقات علمية من مقدمات مظنونة أو مسلّمة أو وضعية أو اعتبارية أو شعرية: من المنتظر في البحث العلمي، ان نحصل على تصديقات علمية أو يقينية تتكون من ثلاثة عناصر، هي التصديق والثبات والتطابق مع الواقع. ان النتيجة تتبع أخس المقدمات وأدناها، فيما يتصل بشكل الدليل أو مادته، وبالتالي فإن وجود مقدمة أدنى من مستوى اليقين في عملية الاستدلال، يعني ان لا يمكن ان تكون النتيجة يقينية. الأمر الذي يعبر عن عدم إمكان اللجوء في برنامج البحث، إلى الشعر والخيال والمسلّمات والخطابيات، لإثبات فرضية علمية، وهذا واحد من الأبعاد التي تتمايز عملية البحث عن البرامج التعليمية أو الدعائية التي تستعين بشتى ألوان القضايا بهدف تقريب الفكرة إلى الأذهان وجعلها تنفذ إلى قلب المتلقي.

---

[1] - محمد حسين طباطبائي. اصول فلسفه وروش رئاليسم (مبادئ الفلسفة والمنهج الواقعي). إعداد هادي خسروشاهي، قم، مركز بررسيهاى اسلامى، 1397هـ. ص96.

[2] - مرتضى مطهري. مجموعه آثار (الأعمال الكاملة). ج6. تهران، انتشارات صدرا، 1371، ص400 و401.

وفي ضوء ذلك نجد ان الحكيم السبزواري يستعرض ما أقيم من أدلة على الاشتراك المعنوي لمفهوم الوجود، ثم يستخدم الإيطاء[1]، ويصرح ان ذلك ليس بمثابة دليل، بل هو مجرد عاضد مؤيد للأدلة، يقول في منظومته:

مما به أُيِّد الادعاء أنْ جعله قافية إيطاء

وتمثل الأدلة القائمة على أساس لغوي، واحدة من الحالات الهامة لإنتاج تصديق علمي من مقدمات اعتبارية[2].

7- استنتاج قضية وجودية من مقدمات كلية بالكامل: يمارس المناطقة الجدد تحليل بنية المفهوم في القضايا الجزئية (ولذلك يعبرون عن هذا بالتحليل الوجودي)، وهؤلاء يختلفون في هذا الإطار عن أتباع المنطق الكلاسيكي. يعتقد المنطق الكلاسيكي ان العلاقة بين القضيتين الكلية والجزئية هي على غرار العلاقة بين العدد مائة والعدد تسعين"وحيث تتوفر المائة يتوفر التسعون". ولذلك فإنهم يؤسسون قواعد استنتاجية من قبيل التداخل والعكس المستوي في الموجبة الكلية، وعكس النقيض في السالبة الكلية، والشكل الثالث من القياس. غير ان القضية الوجودية في المنطق الحديث، تمتلك مضموناً أكثر من كلي. ان القضية الكلية تمثل حكماً بالتقارن الحتمي بين العقدين[3]، بينما تعبر القضية الجزئية حكماً بوجود أمر هو إطار يتحقق فيه تقارن (فعلي آني) على سبيل الاتفاق، بين العقدين. وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن تكوين قضية وجودية من مقدمات كلية محضة.

8- كون الدليل أعم أو أخص من الدعوى: لا بد للدليل ان يتناسب مع الدعوى، فالنظرية الشيعية مثلاً تؤمن بنطاق واسع للعصمة وترى الها ثابتة للأنبياء

---

[1] - الإيطاء من المواطأة وهي الموافقة، وهو في علم العروض، اتفاق القافيتين. (المترجم).

[2] - لمزيد من التفصيل حول الأدلة القائمة على أساس لغوي لاحظ: ضياء موحد، برهانهاى زبان بنياد (البراهين القائمة على أساس لغوي). مجلة زبان شناسي، سال أول، شماره دوم، ص13-19.

[3] - أي عقد الوضع وعقد الحمل، بتعبير المناطقة. (المترجم).

قبل البعثة وبعدها، وقبل البلوغ وبعده، وهي عصمة من كل الذنوب والخطايا، ويقول مولوي في الاستدلال عليها:

ان من يتلقى الوحي عن الله

لا يتفوه إلا بالحق والصواب[1].

لكن هذا الدليل لا يمكنه ان يثبت نظرية كتلك، لأنه أخص من الدعوى ولا يبرر إلا العصمة بعد بعثة النبي.

لو أراد أحدهم ان يدلل على ان النظرية الفلانية تنتمي إلى علم الكلام، فلا يكفيه في ذلك القول بأنها نظرية تتصل بالبحث الديني، لأن هذا في حقيقة الأمر دليل أعم من الدعوى، لأن انتماءها إلى البحث الديني يعني حقلاً أوسع من علم الكلام ويشمل مختلف مستويات البحث الديني.

9- دحض الدعوى من خلال دحض الدليل: ان واحداً من أساليب نقد الخطاب، يتمثل في نقد أدلته من حيث كونها متكاملة ومستوفية لشروط الشكل الاستدلالي وفيما يتعلق بصحة المقدمات. لكن نقد الأدلة لا يعني سوى تحديد ما تعانيه من ثغرات وما يكتنفها من نقص في دليليتها، ولا يمكن لنقد الدليل ان يقدم لنا أكثر من ذلك. ليس في وسعنا من خلال نقد الدليل، ان نثبت بطلان الدعوى التي استندت عليه، إذ لا تلازم بين الأمرين منطقياً. ان دحض الدليل لا يعبر إلا عن وجود خلل في هذا الدليل المحدد، ولو لم يقدم صاحب النظرية دليلاً آخر فإن نظريته ستظل دون دليل، ومن المؤكد ان عدم توفر الدليل لا يعني البطلان.

تطرق المنطق الكلاسيكي في فصل مستقل، إلى هذا الموضوع وقالوا هناك أن كذب مقدمات القياس لا يعني كذب النتيجة، إلا في الشكل الأول من القياس الاقتراني في النوع الأول والثاني منه، حين تكون الكبرى كاذبة كلياً، وبالعكس أي

---

[1] - مثنوي، دفتر أول، ص225.

حين تكون الصغرى كاذبة كلياً في النوعين الأول والثالث من الشكل الرابع في القياس الاقتراني[1].

10- إثبات قضية حقيقية عبر مقدمات خارجية محضة: ان الكلية في القضايا الخارجية هي على نحو لا يتيح لعملية الاستدلال ان توظف مقدمات خارجية، للتوصل إلى نتيجة حقيقية. ذلك ان نطاق الحكاية في الأحكام الخارجية محدود أولاً، بينما من المفترض ان الأحكام في نتيجة الاستدلال تشتمل على المصاديق المحققة والمقدرة، وبالتالي فإن دليلاً كهذا سيكون تعميماً غير مبرر. ونلاحظ ثانياً ان تقارن الحدود في العقدين ضمن القضية الخارجية، هو تقارن اتفاقي (بأسلوب العطف) بينما هو في القضية الخارجية تقارن لزومي (شرطي). وثالثاً ان استنتاج قضية حقيقية من مقدمات خارجية محضة، يمثل في الواقع استقراءً ناقصاً غير مبرر.

11- استنتاج قضية خارجية من مقدمات ذهنية: يمكن ان نعبر عن هذه المغالطة بانها خلط بين أحكام الذهن وأحكام الخارج، وهي شائعة للغاية. يحصل أحياناً ان نستنتج من تعريف أو تقسيم ذهني تجريدي محض، ان ثمة تعريفاً أو تقسيماً كهذا في العالم الخارجي والواقع الموضوعي. حاول البعض ان يضموا إلى القضايا الذهنية، مبدأ الفرعية، كي يتوصلوا من خلال ذلك إلى إثبات ان موضوع القضية الذهنية متحقق في الخارج. وتنشأ هذه المغالطة في سياق مبدأ الفرعية الذي يقرر "ان ثبوت شيء لشيء، هو فرع ثبوت المثبت له"، لكن الإطار أو الظرف الذي يوجد فيه المثبت له (الشيء الآخر) يتبع بطبيعة الحال الظرف الذي تتحقق فيه النسبة أو الإسناد بين الشيئين. ان النسبة أو الإسناد الذهني التجريدي يتجه إلى

---

[1] - العلامة الحسن بن المطهر الحلي. الجوهر النضيد، مصدر سابق، ص180.

الموضوع الذهني، لا مصداق الموضوع الخارجي. وهكذا فإنه لا يمكن ان نستنتج من القضايا الذهنية المحضة، قضايا خارجية، ناهيك عن القضايا الحقيقية طبعاً.

12- استنتاج قضايا ضرورية ودائمية من مقدمات فعلية صرفة: هذه المغالطة شبيهة بالحالة التي استعرضناها في النقطة العاشرة، وقد أسس البعض قاعدة تقرر "ان النتيجة من حيث جهة القضية، تتبع أخس المقدمتين" لتجنب المغالطة هذه. لكن ابن سينا يعترض على ذلك في كتاب الإشارات، من خلال ذكر أمثلة نقضية.

حالات (أخذ ما ليس بعلة علة)	
1	عدم تكرر الحد الأوسط.
2	عدم تكرار الأصغر في الصغرى والنتيجة .
3	عدم تكرار الأكبر في الكبرى والنتيجة .
4	استنتاج حمل شائع أو قضية مركبة، من مقدمة تحليلية أو مأخوذة بالحمل الأولي المحض.
5	استنتاج إدراكات إعتبارية من مقدمات حقيقية محضة .
6	استنتاج تصديق علمي من مقدمات ظنية أو مسلمة أو وضعية أو اعتبارية أو شعرية .
7	استنتاج قضية وجودية من مقدمات كلية بالكامل .
8	كون الدليل أعم أو أخص من الدعوى .
9	دحض الدعوى من خلال دحض الدليل.
10	إثبات قضية حقيقية عبر مقدمات خارجية محضة .
11	اسساج قضية خارجية مس مقدمات ذهنية .
12	استنتاج قضايا ضرورية ودائمية من مقدمات فعلية صرفة .

الجدول رقم 6-7: حالات أخذ ما ليس بعلة، علة.

التفسير

يمثل مستوى التفسير *explanation*، المسألة الأكثر أهمية في الاتجاهات الحديثة للبحث الديني، وتعتمد الأبحاث العلمية على مدى نجاحها في عملية التفسير. ان بحثي التعريف والوصف هما في حقيقة الأمر مقدمة للتوصل إلى التفسير، كما ان التبرير يمثل كذلك آلية للتحقق من صدق التفسير.

ذكرنا سابقاً ان السؤال بـــ (لِم) مركب من سؤالين هما، سؤال حول الدليل يجاب عليه من خلال عملية التبرير، وسؤال عن السبب يجاب عليه عبر عملية التفسير. وإذا كانت الإجابة عن التساؤل حول السبب، تطرح في ظل قانون كلي وأصل عام، فإنها تدعى تفسيراً. وهكذا فإن التفسير يكشف عن أسباب الشيء وعوامله، شريطة ان يعتمد هذا الكشف على قانون عام. والمقصود بالسبب أو العلة هنا ما هو أعم من العلة الفاعلية *cause*، وهو يشمل العلل الأخرى كالغائية. ويمكن القول عبر المصطلحات السائدة في المنطق الكلاسيكي، ان التفسير يأخذ شكل قياس الضمير الذي تحذف فيه كبرى الدليل، وتتوقف صحة التفسير في الواقع، على صدق الكبرى.

حين يجري التساؤل حول السبب في سقوط حضارة الرومان، ويجاب على ذلك مثلاً بالإشارة إلى الفساد الداخلي الناشئ عن الطابع المركزي للسلطة، فإن ذلك يمثل تفسيراً لسقوط حضارة الرومان، شريطة ان نلاحظ قانون الترابط بين الفساد الناشئ عن الطابع المركزي للسلطة، وسقوط الحضارات، ويكون في وسعنا القول بأنه قانون مبرر.

يعتقد العديد من العلماء وفلاسفة العلم، ان تقديم التفسير وصياغته هو الدور الأكثر أهمية في البحث العلمي. ويمكن مقارنة الفروع المختلفة للبحث الديني

من هذه الزاوية، فالمقارنة بين اتجاه الفلاسفة في مسائل المبدأ والمعاد مثلاً، ومسألة العصمة في اتجاهات المتكلمين، تعكس ان هاجس التفسير هو الذي يهيمن على الفلاسفة، بينما ينـــزع المتكلمون نحو التبرير والاستدلال.

وحيث ان التفسير يستند إلى قانون عام، فإن عملية التفسير توصف بأنها تنتمي إلى ذلك العلم الذي حصلنا منه على القانون، فثمة تفسير سيكولوجي، وآخر اجتماعي، وثالث كلامي...، وهكذا فيما يتعلق بمنهج التفسير، فهناك التفسير التجربي والأسطوري والميتافيزيقي...

ان المهم في عملية التفسير هو قابليتها على التنوع، إذ يمكن تقديم تفسيرات متنوعة لظاهرة واحدة. ويمكن ان نطرح سؤالين مهمين حيال هذا التنوع، يتصل الأول بإمكانية التوفيق بين التفسيرات المتعددة والمنهج في ذلك: هل يمكن التوفيق بين التفسيرات المتنوعة؟ وإذا كان الأمر ممكناً، فما هي المناهج التي في وسعنا استخدامها في ذلك؟ أما السؤال الثاني المهم للغاية، فيتصل بتعدد التفسيرات: على أي أساس تتنوع التعليلات؟ كيف يمكن ان نفسر هذا التنوع وما هو التنوع الذي سبقه وأدى إليه؟ ويمكن للإجابة التي نقدمها حيال السؤال الأول، ان تضيء لنا السؤال الثاني كذلك.

لا بد ان تكون التفسيرات المتعددة لظاهرة أو فكرة واحدة، مترتبة على نحو طولي عمودي، أو عرضي أفقي. ومثال الأول التفسيرات الأسطورية والميتافيزيقية والتجربية لحقيقة واحدة، وكل من هذه التفسيرات لا يمثل منافساً للآخر ولا يعني اعتراضاً عليه يؤدي إلى تضعيفه، كما ان هذا النمط من التعدد ينشأ عن مستويات مختلفة للحقيقة. ان التعامل على نحو فلسفي مع الأشياء يقدم لنا تفسيراً فلسفياً، من قبيل تفسيرنا للحاجة إلى العلة، من خلال مفهوم الإمكان. اضافة إلى ان التعامل التجربي مع الظواهر يقدم لنا تفسيراً تجربياً.

كما ان التفسيرات التي تتجه نحو مستوى واحد من قبيل التفسيرات التجربية، لا تعني بالضرورة ان كلاً منها منافس للآخر يتقاطع معه. يمكن ان نفسر ظاهرة كالانتحار، على أساس فلسفي، كما يمكن ان نقدم لها تفسيراً اجتماعياً. وهذا التعدد ناشئ عن وجود أصول متعددة في المسألة التي نتولى تفسيرها. وتكون العديد من المسائل قابلة لتفسيرات تجربية متعددة، باعتبار ما تنطوي عليه من أبعاد متعددة وفي ضوء صلتها بمجالات متنوعة.

ربما كان تعدد التفسير ناشئاً عن الاستعانة بعوامل متعددة أحياناً، ولكن يمكن التوفيق بين التفسيرات المتعددة في الوقت ذاته. ومثال ذلك تفسير ظاهرة تفسيراً غائياً وتعليلاً عليّاً سببياً، حيث ان كلاً من نمطي التفسير هذين لا يمثل بديلاً للآخر. ويؤدي تجاهل هذه الحقيقة، إلى حصول أخطاء منهجية كثيرة في تفسير الظواهر، ولا سيما الظواهر الاجتماعية والنفسية.

تتطلب الظواهر الدينية قدراً عالياً من الدقة، وتجنباً لمنهج الحصر، وذلك في ضوء تعدد أبعادها وأصولها. ان تفسير التجربة الدينية على أساس نفسي، لا يتنافى مع التفسيرات الميتافيزيقية، كما لا يعني اتخاذ موقف بالحكم على حقانية التجربة هذه أو عدمها. فتفسير التجربة الدينية لا يستلزم منطقياً، قداسة هوية التجربة هذه، إلا إذا استخدم التفسير التجربي على نحو خاطئ.

جرى تعريف التفسير بمفهومه العلمي وبلورته، في العلوم الطبيعية أولاً، ثم انتقل إلى العلوم الاجتماعية بمثابة مسألة علمية. طرح الاتجاه الوضعي وحدة النموذج التفسيري، غير ان العديد من الباحثين أكدوا على الثنائية البنيوية في التفسير ضمن العلوم الطبيعية والاجتماعية. كما طرحت هذه المسألة فيما يتصل بالدراسات الدينية، على نحو أكثر صعوبة وتعقيداً.

هل من اللازم ان يكون تفسير الظواهر الدينية بواسطة قانون شامل *covering* يعبر عن شرط ضروري فيها، أم انه يمكن للتفسير هذا ان يجري في ظل فرضيات عامة لا تتجه إلى الشرط الضروري؟.

تكمن المشكلة هذه في ان الظواهر الدينية تنحصر في حالات خاصة جداً، كما انها تنطوي ثانياً على أبعاد متعددة ومستويات مختلفة، على نحو يجعل من الصعب إقحامها في إطار القوانين العامة عبر الأدوات التجريبية، وهي ثالثاً تحظى بتنوع شديد على مستوى التقييم الأمر الذي يجعل من الصعب اعتماد نموذج تفسيري واحد لشتى الدراسات الدينية.

قواعد استراتيجية في عملية التفسير

1- البحث عن تعليلات متنوعة: يلعب الاهتمام بتعدد التفسيرات المتصلة بأمر واحد، دوراً مؤثراً في تجنب الاختزال المنهجي. نلاحظ أولاً ان التفسيرات المتعددة على نحو بدائل، يمكنها ان تكشف عن ثغرات التفسير الخفية، ولذلك فإنه ينبغي للباحث الدقيق ان يعمد إلى البحث عن التفسيرات المنافسة، قبل ان يتحرى أدلة وشواهد تدعم فرضيته، على حد تعبير باسكال. ونجد ثانياً ان التوفيق بين التفسيرات المتعددة يتطلب العثور على نموذج تفسيري، حتى لا يقودنا شعار "الجمع مهما أمكن أولى من الترك"، إلى الحيرة والتلفيق الهجين.

وسنتحدث عن هذه النماذج في الفصل المخصص للدراسات البيتخصصية.

وفي ضوء ذلك فإن الجزم بواحد من التفسيرات والغفلة عن ما سواه أو تجاهله أو إنكاره، يمثل واحداً من الأخطاء الرئيسة في سياق التفسير. حين نقدم نظرية في تفسيرنا لأمرٍ ما، فعلينا ان نتساءل: هل يمكن يا ترى ان نتولى تفسير ذلك على نحو آخر وعبر نظرية أخرى؟ ولو. كان الأمر كذلك فما هي العلاقة بين النظرية المعتمدة و التفسيرات الأخرى؟.

2- **قابلية التفسير للنقد والتقييم:** ان الحرص على إمكانية نقد التفسير وتقييمه، يتيح للباحث ان يتجنب التعميمات ويتفادى طرح نظريات تخفق في التفسير، من قبيل تلك التفسيرات التي تكون بمثابة مفتاح يناسب شتى الأقفال غير انه لا يفتح أياً منها. نلاحظ ان الاستعانة بالقضايا التي تبدو في ظاهرها تفسيراً، بينما هي ليست كذلك في واقع الأمر، يمثل واحداً من أساليب تجاوز المسألة بدلاً عن معالجتها. ولذلك يمكن ان نتساءل فيما يتصل بعملية التفسير: ما هو المنهج الذي يتيح لنا اختبار مدى نجاح النظرية المطروحة، في عملية التفسير؟.

لنفترض ان أحدهم استعان بنظرية قداسة المرأة، في تفسيره لظاهرة الحجاب. لا بد ان يتضح أولاً نمط هذا التفسير، هل هو تفسير غائي أم علّي سببي مثلاً؟ حينئذ يجري تحري التفسيرات الأخرى من قبيل نظرية العفة، ونتساءل في خطوة أخرى: كيف لنا ان نمارس نقد هذه النظرية؟ ومن المفيد في الإجابة عن هذا السؤال، مقارنة ذلك بالتفسيرات الأخرى. ان نظرية العفة في تفسير الحجاب على سبيل المثال، يمكن دحضها تجريبياً ودراستها عبر المناهج المتداولة في علمي الاجتماع والنفس، غير ان نظرية قداسة المرأة ليست على هذا النحو، فكيف تكون قابلة للتقييم؟.

3- **تجنب النظريات القائمة على افتراض عوامل خفية:** يمثل تفسير الأحداث التاريخية الكبرى، بمؤامرة تنفذها عناصر خفية، مصداقاً للرؤية الساذجة والسطحية في عملية التفسير. وهذا الخطأ الذي يشيع في بعض مجالات البحث الديني بنحو أكبر، يمثل في حد ذاته واحداً من حالات تجاوز المسألة وتخطيها بدلاً عن معالجتها، والباحث الذي يمارس هذا اللون من السطحية في التفسير، لم يقدم في الواقع تفسيراً للظاهرة التي قام بتناولها. يقع على عاتق الباحث ان يكشف عن العوامل الخفية ويظهرها، وإلا فإن جهده البحثي سيمنى بالفشل.

4- **الاهتمام بالهدف العلمي في التفسير**: تلعب هذه النقطة دوراً في تجنيب الباحث اعتماد تفسيرات صحيحة لكنها غير مجدية. يمكن أحياناً ان نقدم تفسيرات مختلفة لظاهرة واحدة، لكن واحداً منها وحسب هو الذي يؤدي الهدف المطلوب في علم محدد. يمكن مثلاً ان نفسر نجاح الباحثين الذين تركوا بصماتهم على تاريخ الفكر، من خلال عوامل متنوعة. غير ان التفسيرات النفسية مثلاً لا تكون مفيدة كثيراً لو أردنا ان تناول ذلك من منظور منهجي، بل لا بد في هذا الإطار ان نتولى تفسير نجاح الباحث على أساس العامل المنهجي.

5- **تجنب الوهم بسببية أمر متقدم**: نلاحظ أحياناً في تفسيرنا لظاهرة ما وبحثنا عن سببها، ان ثمة أحداثاً سبقت تكون الظاهرة. وحيث ان المعلول يظهر بعد العلة والسبب، فإننا نقع في خطأ إيهام الانعكاس بسبب التعامل الساذج مع الظاهرة في الغالب، ونعد الظاهرة معلولة ونتيجة للحدث الذي سبقها، وبالتالي فإننا نستعين بالسابق هذا في عملية التفسير. وتعاني التفسيرات السائدة لدى عامة الناس، هذا اللون من الخطأ *post hoc ergo propter hoc* ويؤدي ذلك إلى إشاعة الخرافة بينهم.

6- **تجنب الوهم بسببية أمر مقارن**: تؤدي الرؤية التسطيحية الساذجة كما هو الأمر مع الحالة السابقة، إلى حصول هذا الخطأ *com hoc ergo propter hoc*، وقد لجأ المنطق الكلاسيكي إلى قاعدة "الاتفاقي" لتجنب ذلك. يعتقد هذا الاتجاه ان التقارن بين أمرين لا يعني بالضرورة وجود علاقة سببية بينهما، لكن هذا التقارن إذا كان دائمياً أكثرياً، فيمكن القول بأن بينهما علاقة سببية. لقد تعرضت هذه القاعدة إلى نقد شديد لدى الفلاسفة الجدد، وحتى على فرض انها احتفظت بقيمتها فإنها لا تعني عند هؤلاء سوى ان ثمة علاقة سببية بين (أ) و(ب)، فهي لا تحدد أيهما العلة وأيهما المعلول كما لا تحدد كونهما معلولين لعلة واحدة مثل (جـ). وبالطبع فإنها لا يمكن ان نتولى تفسير (ب) إلا حين يكون معلوماً ان (أ) علة (ب).

7- **تجنب الوهم بسببية الدليل**: العلة أو السبب بالمفهوم العام، هو الذي يتيح تفسير الظاهرة، والمراد به الواسطة في الثبوت والوجود أو العلة الثبوتية. أما الدليل الذي نستخدمه في تبرير صدق الدعوى، فهو سبب أو علة إثباتية، والدليل يشمل نطاقاً واسعاً فهو يتضمن العلل والمعلولات وآثار الشيء ومعلولاته الأخرى. ومن الممكن ان تكون كل الأشياء هذه دليلاً على نحو أو آخر، غير انها تظل عاجزة عن تفسير الظاهرة. ان توهم سببية الدليل من ابرز مصاديق الخلط بين أحكام الذهن والخارج.

قواعد استراتيجية في التفسير	
1	البحث عن تفسيرات متنوعة .
2	قابلية التفسير للنقد والتقييم.
3	تجنب النظريات القائمة على عوامل خفية .
4	الاهتمام بالهدف العلمي في التفسير .
5	تجنب الوهم بسببية أمر متقدم .
6	تجنب الوهم بسببية أمر مقارن .
7	تجنب الوهم بسببية الدليل .

الجدول رقم 6-8: قواعد استراتيجية في التفسير.

تمرين

اختر نطاقاً خاصاً من الدراسات الدينية، حسب الحقول البحثية، وقارن بين الاتجاهين التقليدي والحديث، على مستوى الاهتمام بالتعريف والوصف والتبرير والتفسير. ما هو الفرق مثلاً، بين اللاهوت التقليدي واللاهوت الحديث، والمؤرخين التقليديين والمؤرخين الجدد..الخ، فيما يتصل بالتأكيد على أحد المستويات الأربعة المذكورة؟.

الفصل السابع:

المناهج والاتجاهات

مدخل

يعد الحديث عن اتجاهات البحث ومناهجه وأهميتها النقدية، من أهم الموضوعات المنهجية. نترقب من بحوث المنهج ان تحدد أساليب البحث وأدواته وطرائقه ومناهجه وأن تتولى تقييمها. وقبل الخوض في موضوع الفصل الحالي، نجد من المهم الإشارة إلى ملاحظة لغوية. ان مفردتي ***approach*** و***method*** خاضعتان نوعاً ما، إلى قاعدة "إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا"[1]، أي الهما يستخدمان بوصفهما كلمتين مترادفتين، كما يستخدمان أيضاً بوصفهما كلمتين متباينتين يقع كل منهما قسيماً للآخر. وحين تستخدم الكلمتان على نحو منفصل عن بعضهما، فإنهما في الغالب تدلان على معنى واحد، ويشملان بعضهما، أما حين يجري

---

1 - يشيع استخدام هذه القاعدة في الفقه، حين يراد التمييز بين مصطلحي الفقير والمسكين في بحث مصارف الزكاة مثلاً، فيقال انهما "إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا". فحين نستخدم الفقير والمسكين في نص واحد سيدل كل منهما على معنى خاص ولنفترض ان المسكين سيدل حينئذ على من هو أكثر فقراً من الفقير، أما حين يستخدم كل منهما لوحده فسيكونان مترادفين. ولعل المؤلف قد أوضح المقصود بالقاعدة في النص أعلاه. (المترجم).

استخدامهما معاً في النص فإن كلاً منهما يحمل مفهوماً خاصاً ويقع قسيماً للآخر. ولذلك فإن المقصود ببحث المنهج تحديد المناهج والاتجاهات.

ونريد بمفهوم الاتجاه أسلوباً للاقتراب من المسألة وطريقاً لإيضاح النظرية والعثور على الفرضيات، بينما نقصد بالمنهج أداة في نقد الفرضية المتبلورة وتقييمها.

وفي ضوء ذلك فإن الاتجاه يتصل بسياق الملاحظة والاكتشاف ***context of discovery***، بينما يتصل المنهج بسياق الحكم والتقييم ***context of justification***. ورغم التحدي المؤثر والجدي الذي قام به فايرابيند[1] (1924-1994) في نقده للتمييز بين هذين المفهومين، غير ان في وسعنا القول بأهمية التمييز هذا منهجياً. ومن الأبعاد الأساسية التي يتميز بها الاتجاه عن المنهج، ان اتجاه العلماء أو طريقتهم في الاقتراب من محور البحث، أمر يخضع لأذواقهم وعقلياتهم وتصوراتهم، أي انه أمر مفتوح حر ***open*** وفق التعبير الدارج، ولا يمكن الاعتراض عليه بقاعدة "من أين لك هذا؟". غير ان المنهج يمثل أداة تقييم عامة ***public***، لأن سياق الحكم لا بد ان يكون على نحو يتيح للجميع ان يمارسوا عملية التقييم. من المهم جداً في سياق الحكم ان نتساءل: "من أين لك هذا؟".

تمثل التساؤلات الأساسية في هذا الفصل، بحثاً عاماً يتصل بأقسام مناهج البحث واتجاهاته، في مجال الأبحاث الدينية. ما هي المناهج والاتجاهات التي يمكن الاستعانة بها في الأبحاث الدينية، وبماذا تمتاز عن تلك التي تتداول في شتى حقول المعرفة الأخرى؟ هل تتباين المناهج والاتجاهات في الحقول المختلفة، تبايناً في أنماطها، أم انه تباين يتصل بالحالات المختلفة وما يتطلبه كل منها؟ هل ثمة منهج واحد في الدراسات الدينية، أم ان لكل من مسائلها منهجه الخاص، أو انه يمكن

---

[1] - لاحظ:

Paul Feyerabend, Against method, London, 1988.

الاستعانة بمناهج متعددة في معالجة مسألة واحدة؟ ما هي التبعات التي تؤدي إليها عملية الخلط بين المناهج والأدوات؟ كيف يمكن ان نقوم بترتيب الاتجاهات والمناهج وتحديد مستوياتها؟

من اجل إشراك القارئ في الفصل الحالي، يرجى إعداد قائمة بالمناهج والاتجاهات التي يعتقد انها مفيدة في الأبحاث الدينية، ثم مقارنة ذلك بموضوع "تنوع المناهج والاتجاهات" وترتيب المناهج التي جمعت في القائمة الأولى حسب مستوياتها، وتدوين ذلك في الجدول 7-1، ومقارنته بالشكل 7-2.

المناهج والاتجاهات في البحث الديني	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

الجدول رقم 7-1: الترتيب الذي تتصوره لمناهج البحث الديني واتجاهاته.

تنوع المناهج والاتجاهات

تمتلك الأبحاث الدينية مناهج متنوعة للغاية، وذلك لسعة دائرة الموضوع ونطاق الإشكاليات وتعقيد المسائل. نلاحظ ان المفسرين مثلاً، يستخدمون مناهج متنوعة في فهم النص القرآني، فيتجهون إلى التفسير بالمأثور تارة، ويلجؤون إلى التفسير اللغوي الأدبي تارة أخرى، كما يستخدمون ثالثة مناهج تحليل بنية النص. يستعين إيزوتسو في تحليل المفاهيم الدينية في القرآن، بعلم السيمانطيقيا ومناهجه[1]، بينما يأخذ آخرون باتجاه الهرمنيوطيقا.

ويتجه علماء الكلام المسلمون أحياناً إلى استخدام منهج البرهان في بعض مسائل الكلام، كما يستعينون حيناً آخر بمنهج الجدل، بينما يعمدون إلى الأدوات والمبررات التاريخية في بعض المسائل ثالثة، إلى جانب انهم يستخدمون في بعض الحالات النادرة بالطبع، المناهج الدينية الجوّانية.

أسس الفقهاء علم أصول الفقه لبلورة مناهجهم وأدواتهم، وهم يستخدمون أدوات متنوعة في استنباط الأحكام الشرعية، بداية من الأدوات

---

[1] - إيزوتسو توشي هيكو. خدا وإنسان در قرآن (الله والانسان في القرآن). ترجمة احمد آرام. ص1-10.

الدلالية السيمانطيقية، وصولاً إلى قواعد منطق الضرورات أو الواجبات *deontic logic*. وقد واجه علماء الأخلاق صعوبة في هذا الإطار، لأنهم كانوا من جهة ورثة الحكمة العملية الأرسطية والتي تمتلك أدوات ومناهج خاصة، كما انهم يتعاملون من جهة أخرى مع تعاليم الوحي الأخلاقية والتي يتطلب توظيفها مناهج مغايرة.

وفي ضوء ذلك فإن ثمة تنوعاً شديداً في الأبحاث الدينية المتداولة في التراث والثقافة الإسلاميين. ان الأبحاث الدينية وعلى العكس من الأبحاث الفلسفية مثلاً، تتسم بتعدد في المنهج *polymethodic*. ونجد ان التعدد في المنهج يلقي ضوءً على أهمية وجود خطة بحث وبرنامج دقيق في استخدام المناهج، وعلى تقدير غياب خطة كهذه فإن تعدد المناهج يؤدي إلى اختلاطها.

كما عملت الأبحاث الدينية الجديدة على توسيع نطاق التنوع المنهجي على نحو كبير مقارنة بالماضي، وقد شاعت اليوم الأبحاث الدينية التجربية ودخلت إلى مجالات البحث اتحادات وجمعيات علمية متخصصة في دراسة الدين تجربياً، وراحت تستخدم أدوات ومناهج مختبرية في فهم الظواهر الدينية واكتشافها (الوصف والتفسير).

يؤكد الباحثون في فلسفة الدين على الاتجاه التحليلي- المنطقي، ويستخدمون أدوات تحليل المفاهيم والتحليل اللغوي...الخ، في قراءة الظواهر الدينية. ويعتقد البعض ان ظاهريات الدين (فينومينولوجيا الدين) هي الطريق الوحيد لقراءة الظواهر الدينية. ويعتقد آخرون ان الدراسة التاريخية أسلوب مفيد في قراءة الدين، ونجد ان البعض يؤكدون على المعرفة الوجودية والعاطفة والشعور فيما يتصل بمعرفة الله، وعلى نحو المنهج الحصري، كما يرى اتجاه آخر ان الدراسات المقارنة تمثل خياراً مفيداً. أخذت بعض الأوساط البحثية المتخصصة في الشأن الديني خلال العقود الأخيرة، في التأكيد على الدراسات البيتخصصية في

البحث الديني، ويرون ان في ذلك ترميماً وتعديلاً لثغرات المنهج في الأبحاث الكلاسيكية.

ان تنوع المناهج والاتجاهات يستدعي مسائل عديدة: ما هو المقياس في انتقاء منهج محدد من بين المناهج المتنوعة؟ على أي أساس وفي ضوء أي مستويات متنوعة، يقوم تنوع المناهج؟ ما هي العلاقات التي تربط بين المناهج المتنوعة؟ وكيف يمكن لنا تبويبها وترتيب مستوياتها؟ ما هي الخطة التي تتيح لنا استثمار أكثر المناهج جدوى؟

ترتيب المناهج

ثمة تقسيمات متعددة لشتى المناهج والاتجاهات في مجال الأبحاث الدينية، ويمكن تقسيمها ثلاثياً على أساس هدف علمي (منهجي): فثمة مناهج واتجاهات دينية جوّانية، وأخرى برّانية، وثالثة توفيقية مختلطة. وهنالك تعريف لكل من هذه الأقسام وأقساماً فرعية تستتبعها. يتولى الجدول 7-2، تحديد قائمة بالمناهج المتعددة في هذه الاتجاهات الثلاثة. سنتحدث عن بعض المناهج هذه في الفصل الحالي، بينما نؤجل الحديث في سواها إلى الفصول القادمة.

الاتجاهات الدينية الجوانية				الاتجاهات البرانية	الاتجاهات التوفيقية
مستوى الأدوات والمنهج		مستوى النموذج			
(المأثور بالمعنى الأعم) القرآن بالقرآن، القرآن بالروايات (المأثور بالمعنى الأخص)	الأدبي غير المأثور، الرمزي، العلمي، الفلسفي، ألعرفاني .	السيمنطيقا	الهرمنيوطيقا	تجريبي تحليلي تاريخي ظاهراتي وجودي	مقارن بيتخصصي

الجدول 7-2: ترتيب المناهج والاتجاهات في الأبحاث الدينية.

الاتجاهات الدينية الجوّانية

إيضاح لغوي:

ثمة غموض وقصور في المصطلحات نلاحظه في التقسيمات القائمة على أساس التمييز بين الجوّاني والبرّاني، الأمر الذي يمنحها طابعاً إشكالياً موهماً. يكون

الدين مقياساً أحياناً في إطلاق وصف البرّاني والجوّاني، وحينئذ ستعني المعرفة الجوّانية تلك المستوحاة من الدين أو التعاليم الدينية، بينما ستدل المعرفة البرّانية، على تلك التي جرى استيحاؤها من غير الدين وتعاليمه. ان الاتجاه السلفي أو التفكيكي[1] مثلاً، يعتقد ان الفلسفة والعرفان المتداولين في الثقافة الإسلامية، يمثلان معرفة برّانية، على تقدير أنهما ينتميان إلى المعرفة. وذلك لأنه"ما من وجه جامع بين العلوم البشرية والعلوم الإلهية الجديدة، على شتى المستويات"[2].

غير ان تفسير الجوّاني والبرّاني على نحو مطلق كهذا، واجه النقد والاعتراض، لأن"الفكرة الدينية يجري استنتاجها من العقل لوحده تارة، ومن النقل بمفرده تارة أخرى، ومنهما معاً مرة ثالثة... ومن هنا يتضح ان الفصل بين "الجوّاني" و"البرّاني" ينشأ عن تشويه الحقيقة الدينية"[3].

وحصيلة الاعتراض ان هذا التحديد هو على غرار ثنائية العقل والشرع أو العقل والدين، ولذلك فهو يتضمن القول بالتنافي بين معطيات العقل وتعاليم الدين، بينما يمثل هذا التحديد في واقع الأمر، إقصاءً للعقل من المجال الديني، بينما العقل جزء من الدين، لأن المعرفة الدينية تتكون من قسمين، فهنالك المعرفة العقلية الدينية والمعرفة النقلية الدينية. وعلى هذا الأساس جرى تقسيم مصادر استنباط أحكام الشريعة وتعاليم الدين إلى مصادر نقلية (الوحي، والكتاب[4]، والإجماع) ومصادر

---

[1] - نبهنا في هامش سابق إلى ان مصطلح التفكيك هنا خاص باتجاه بحثي تكوّن في إطار الفكر الإسلامي، ولا علاقة له بمدرسة الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا والتي يشير معادلها العربي، إلى المصطلح الانجليزي *deconstruction*. (المترجم).

[2] - ميرزا مهدي اصفهاني. أبواب الهدى. مركز اسناد آستان قدس رضوي، شماره 12412، ص6.

[3] - عبد الله جوادي آملي. تسنيم. قم، مركز نشر اسراء، 1378، ج1، ص190-194.

[4] - هكذا في النص الأصلي، ويبدو انه سهو من المؤلف، لأن الكتاب هو الوحي طبعاً، فلا بد ان يكون المقصود هو (السنة) والنصوص النبوية أو ما هو في حكمها. (المترجم).

عقلية. وهكذا نجد ان تقسيم المعرفة إلى جوّانية وبرّانية يعبر في الواقع عن لون من الاختزالية والحصرية.

ونحن لا نستخدم مصطلح الجوّاني في عنوان مناهج البحث الديني، بالمعنى المذكور، ونقصد بالتمييز بين الجواني والبراني، ما يعرف بالسمعي وغير السمعي الذي بنى عليه بعض المتكلمين مصنفاتهم في علم الكلام[1]. ويمثل مصطلح الجوّاني هنا إيجازاً لتعبير "ما هو داخل في النصوص الدينية" أي الوحي والسنة.

لسنا هنا في صدد تحليل العلاقة بين الدين والنصوص الدينية، بل هي من المسائل الكلامية الحديثة التي يتطلب تناولها تأسيس عدد من القضايا من قبيل ما نرجوه من الدين، وتصور الحد الأدنى والحد الأقصى فيما يتصل بكمال الدين، ونحو ذلك.

نقصد بالبحث الديني الجواني، المناهج والاتجاهات التي تتولى عبر الرجوع إلى النص الديني (الوحي: الكتاب، والسنة) تحليل ذلك النص وبناء مفاهيمه وممارسة تبريره وتفسيره. وفي ضوء ذلك لا يكون الموضوع أو المسألة أو شخص الباحث، مقياساً في تحديد البحث الجواني، بل المعيار في ذلك زاوية الملاحظة. فالمنهج الجواني هو ذلك الذي ينظر في شتى المسائل (سواء كانت دينية أم طبيعية...الخ) من خلال الرجوع إلى النص الديني واستناداً عليه، (سواء كان الباحث مؤمناً أم لا).

البحث الجواني: المناهج والأدوات

تتنوع الدراسات الجوانية على مستوى الأدوات والمنهج والأسس. وقد أثير جدل واسع حول هدا التنوع فيما يتصل بقسم من هذه الدراسات أعني الدراسات

[1] - لاحظ: التفتازاني، شرح المقاصد. بيروت، عالم الكتب، 1409هـ، ج5، ص5.

القرآنية والتفسيرية، الأمر الذي نجده على نحو أقل فيما يتعلق بالأدوات والأساليب المستخدمة في التعامل مع نصوص الحديث أو فقه الحديث.

التفسير، التأويل

يتمثل النموذج الأول للتنوع في التمييز بين التفسير والتأويل بوصفهما اتجاهين في الدراسات الدينية، وثمة خلاف شديد بين وجهات النظر التي حاولت التمييز بين هذين الاتجاهين، وهو أمر يعود إلى التصور الذي يطرحه كل من الباحثين حول التفسير والتأويل[1]. يرى البعض انهما مترادفان يدلان على معنى واحد، وغالباً ما يقال ان التفسير أعم من التأويل، بينما يرى آخرون ان التأويل هو الأعم[2].

لكن الرأي الشائع يقرر ان ثمة تبايناً بين التفسير والتأويل، وقد ذكر أصحاب هذا الرأي صوراً متعددة للتباين. ونظراً لأهمية الأدلة التي أقامها هؤلاء على التباين، فإننا نلقي عليها ضوءً في الجدول 7-3، وتتجه معظم الآراء إلى التمييز بينهما على أساس التمييز بين الباطن والظاهر.

[1] - لمزيد من التفصيل لاحظ: محمد كاظم شاكر. معناشناسي وروش شناسي تأويل در سه حوزه روايي، باطني، و اصولي (التأويل: الدلالة والمنهج، في علم الحديث والاتجاه الباطني وأصول الفقه). قم، دفتر تبليغات اسلامي حوزه علمية قم، 1376، ص23-40. وكذلك: محمود رجبي (إشراف)، روش شناسي تفسير قرآن (مناهج التفسير). تهران، سمت، 1379. ص32 فما بعد. وكذلك: عباس علي عميد زنجاني. مباني وروشهاي تفسير قرآن (مناهج التفسير ومبادئه). تهران، سازمان جاب وانتشارات وزارت فرهنك وارشاد اسلامي، 1366، ص70.

[2] - م. ن.

	وجه التباين		صاحب النظرية
	التفسير	التأويل	
1	القطع بمراد الله	ترجيح أحد المعاني على غيره دون جزم .	الماتريدي
2	تحديد الدلالة الوضعية اللفظية(الحقيقة/ المجاز) ومقاربة مبرر للقصد.	بيان باطن اللفظ والاخبار عن حقيقة القصد .	أبو طالب الثعالبي
3	ما ينحصر في السماع.	الاستنتاج	ابو نصر القشيري
4	المنوط بالنقل الصحيح	المنوط بالفهم الصحيح	ابن الخازن
5	الشكل العلمي للكلام.	الحقيقة الخارجية للكلام	الثعلبي
6	مضمون مفاهيم الألفاظ ومصاديقها الخارجية .	حقيقة القرآن المتعالية باللوح المحفوظ .	العلامة الطباطبائي
7	فهم ظاهر القرآن	فهم باطن القرآن	مؤلفي كتاب "مناهج تفسير القرآن".

الجدول رقم 7-3: اتجاهات في التمييز بين التفسير والتأويل

التفسير، التحميل

ثمة تمييز آخر بين التفسير والتحميل، ويرى العلامة الطباطبائي في هذا السياق، ان التفاسير الحديثية والكلامية والفلسفية والصوفية والعلمية والتجربية، لا تمثل في الواقع سوى عملية تحميل لا تفسير. حيث ينظر المفسر في عملية التحميل هذه، إلى آيات القرآن، من خلال قناعاته العلمية المسبقة، فيحمّلها على النص القرآني، أي انه يمنح النص معنى يطابق قناعاته العلمية، الأمر الذي يشكل مطباً خطيراً[1]. ان المقياس المنهجي للفصل بين التفسير والتحميل، هي ان يقوم المفسر بوضع شتى نظرياته وفرضياته، بين قوسين على حد تعبير الظاهراتيين، ويتحرر منها بالكامل.

التفسير ترتيبي وموضوعي

يشيع بين البعض تقسيم التفسير إلى ترتيبي وموضوعي، وهو مصطلح يستخدمه شلتوت[2]، كما يسميه الشهيد الصدر بالتفسير التجزيئي والتفسير الموضوعي[3]، ونجد ان مؤلف كتاب (مناهج التفاسير الموضوعية) قد تناول بالدراسة والنقد، المبادئ النظرية والمرتكزات المعرفية للتقسيم هذا[4].

---

[1] - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن. قم، منشورات جامعة المدرسين، ج1، ص2-8.

[2] - محمود شلتوت. من هدى القرآن. القاهرة، دار الكتب للطباعة والنشر. ص322 و323.

[3] - محمد باقر الصدر. المدرسة القرآنية. بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ب. ت. ص8-12.

[4] - سيد هدايت جليلي. روش شناسي تفاسير موضوعي قرآن (مناهج التفاسير الموضوعية). طهران، انتشارات كوير، 1372.

التفسير بالمأثور بالمعنى الأعم، وبغير المأثور

يمكن تقسيم الدراسات الجوانية إلى نقلية وغير نقلية وفق ما يستخدم فيها من أدوات. وهو تقسيم يقوم على تقسيم كلاسيكي يقول ان ثمة تفسيراً للقرآن بالقرآن، وبالروايات (المأثور)، وتفسيراً علمياً وفلسفياً وعرفانياً ورمزياً وأدبياً...الخ. يمكن تقسيم الأنماط المذكورة إلى قسمين، أولهما تفسير القرآن بالقرآن وبالروايات، وهذا في الواقع بحث جواني أدواته نصوص الوحي. والقسم الثاني هو التفسير بأدوات من خارج نطاق الوحي. يعتقد البعض ان القسم الأول هو تفسير بالمأثور بالمعنى الأعم، وقد جعلوا ذلك في قبال التفسير بالدراية أو بالعقل[1].

يمكن ان نتحدث كذلك عن فضاءات وبيئات تفسيرية متنوعة، وفي وسعنا الإشارة إلى بيئتين وإطارين متباينين في الدراسات الجوانية، في تصور منهجي يقوم على أساس تحليل البارادايم أو النموذج. ويتضمن كل من البيئتين أو الإطارين المذكورين، أدوات وأساليب مختلفة، فهنالك الإطار السيمنطيقي الدلالي، والإطار الهرمنيوطيقي. وفي استعراضنا لهذين الإطارين سنتطرق إلى الاتجاه التلفيقي المطروح في سياق تفاعل هذين النمطين وطبيعة الجدل القائم بينهما.

السيمنطيقا

لا نستخدم مصطلح السيمنطيقا *semantics* هنا بوصفه مذهباً أو نظرية، بل المقصود بذلك في الفصل الحالي، الاتجاه المتداول عند كثير من المفسرين التقليدي منهم أو الحديث، وعلى أنحاء مختلفة. لقد حظي هذا الاتجاه في القرن الأخير باهتمام أكبر، وقد تطور حتى بات نظرية مدونة في قراءة النص، بفضل

---

[1] - جوادي آملي. تسنيم، مصدر سابق، ج1، ص58.

توظيف علم الدلالة الحديث. وفي ضوء ذلك فإن اتجاه السيمنطيقا يهيمن على تراث الدراسات الجوانية بنحو أو آخر.

يتأسس هذا الاتجاه في قراءة النص الديني، على نظرية دلالية هامة عرفت وشاعت في أصول الفقه بنظرية الدلالة التصديقية في قبال نظرية الدلالة التصورية. وتحظى هذه النظرية اليوم بأنصار من فلاسفة الغرب نظير غريس. ان المعنى في ضوء الدلالة التصديقية، يظل منوطاً بقصد المتكلم، فيما يسعى المتلقي إلى تصيد ذلك القصد. وحين تتجرد العبارة عن قصد المتكلم، تكون جوفاء دون مضمون ولا تقبل الصدق أو الكذب. ولعل ذلك هو الذي دفع ابن سينا إلى إدخال تعديل على التعريف الكلاسيكي

للقضية الخبرية التي تتقبل الصدق والكذب، يقول في تعريف التركيب الخبري:"هو الذي يقال لقائله انه صادق فيما قاله أو كاذب" ويمكن تفسير نص ابن سينا بأشكال أخرى كذلك[1].

لا بد في ضوء الدلالة التصديقية، العثور على قصدية المتكلم لتحديد دلالة النص، غير ان الطريق إلى تحديد القصد هو نصوص المتكلم ذاتها، الأمر الذي يوحي بحصول دور ومفارقة!

هنالك طريقان رئيسيان لمعالجة المفارقة أو الدور هذا هما:

- الفردانية المنهجية *methodological individualism*.
- والكلية المنهجية *methodological holism*.

وفي الخيار الأول نجد ان شتى القرائن المقالية والمقامية وقواعد اللغة والنحو، تمثل أدوات تتيح لنا تحليل بنية العبارة، وبالتالي العثور على قصد المتكلم. ويقوم على هذا التصور بنحو أو آخر، مجمل التفسيرات الأدبية وتلك التي تهتم بأسباب النـــزول

---

[1] - ابن سينا، الإشارات، مصدر سابق، ص63.

وظروفه. غير ان هذا المنهج ليس عملياً جداً في معالجة لغة الرمز من قبيل النصوص الشعرية لحافظ الشيرازي، وكذلك في قراءة المتشابه من آي القرآن.

وفي الخيار الثاني، نجد أنفسنا أمام كلٍّ متوحد، لا عبارة مفردة. ونأخذ في قراءة العبارة من خلال ذلك الكل. ويتأسس على هذا التصور، ما نجده لدى العديد من المفسرين التقليديين من اهتمام بسياق النص وتناسب السور والآيات في التفسير المأثور.

ثمة اليوم محاولات للعثور على ذلك الكلّ وفق نموذج معين، وهو الرؤية الكونية للمتكلم. ان الرؤية الكونية التي يحملها حافظ الشيرازي تعبر عن مقاصده من نصوصه الشعرية، وفي ضوء الرؤية الكونية للعلامة الطباطبائي، لن نفسر تعبير "محبة المعشوق" بالعشق الأرضي الناسوتي، وهو تعبير ورد في البيت الشعري التالي:

أقول،

ما قد رددته مراراً

كان ديني

محبة المعشوق[1].

والسؤال المطروح فيما يتصل بالنصوص الدينية، هو: كيف لنا تحديد الرؤية الكونية للمتكلم؟ ان مقاربة إطار دلالة النص تستهدف تحقيق ذلك. ويمكن من خلال مقاربة إطار الدلالات القرآنية، ان نبلور الرؤية الكونية في القرآن على شكل منظومة كلية وشبكة مترابطة[2].

---

[1] - هذه ترجمة حرفية للبيت الشعري الفارسي التالي:

همي گويم وگفته ام بارها　　　بود كيش من مهر دلدارها.

(المترجم).

[2] - كنموذج على استخدام هذا المنهج في قراءة النص القرآني، لاحظ: إيزوتسو، مصدر سابق.

تجري محاولات اليوم لبلورة الدلالات المذكورة عبر أساليب كمية، ويعد تحديد الدلالات كمياً، أسلوباً في تحليل مفردات النص عبر أساليب إحصائية، من قبيل إحصاء المصطلحات، وتصنيفها حسب أقسام متنوعة (الاسم، والصفة، والفعل،...الخ)، وتحديد الكلمات المركزية والمدخلية، وتحديد العلاقة المفهومية بين المصطلحات على نحو دقيق عبر الحساب الرياضي وتحليل نمط النص وسياقه بواسطة قرائنه الداخلية والخارجية، وبالتالي بلورة شبكة من التصورات ومقارنة المفردة التي تجري دراستها، من حيث موقعها فيس شبكة المفاهيم هذه، والشبكات الأخرى ذات الصلة بالأمر.

يمتلك الوحي (الكتاب والسنة) في ظل الاتجاه السيمنطيقي، رؤية كونية حية تتسق بالكامل مع مشروع وتدابير معينة. ومما يلعب دوراً مؤثراً في تحديد المعنى، العثور على موقع المفاهيم في تلك الرؤية، والانتباه إلى انتقال المصطلحات من استخدام آخر إلى تلك الرؤية الكونية أو انتقال المعنى من مستوى أساسي إلى آخر نسبي، إلى جانب الاهتمام بتباين المفاهيم في حقول دلالية متباينة، ولا سيما فيما يتصل بالرؤية الكونية في القرآن، وتلك المتداولة بين عرب الجاهلية بشأن المفردات العربية، إضافة إلى الرؤى الكونية الأخرى فيما يتعلق بالمفردات الدخيلة.

ثمة ما يعد قاعدة في الإطار السيمنطيقي، وهو تأثر المتلقي والالتزام بالحياد في تلقي الخطاب، ومحاولة تحديد قصد المتكلم بعيداً عن تأثيرات عقلية المتلقي. وفي إطار كهذا يعد ذلك ممكناً ومناسباً وضرورياً أيضاً[1].

---

[1] - لتفصيل الحديث حول السيمنطيقا وتطورها التاريخي لاحظ:

- *Kalish Ronald, "Semantics", The Encyclopedia of Philosophy, Paul Edwards Ed. In chief, London, 1967, p. 348-358.*
- *Kretzman, Norman, "History of Semantics", Ibid, p. 358-406.*

الهرمنيوطيقا

تعود كلمة هرمنيوطيقا *hermeneutics* إلى جذر يوناني حيث اشتقت من فعل *hermenuein* بمعنى التفسير، وغالباً ما يفهم منها الدلالة على العلم الذي يتضمن قواعد التفسير ومبادئه. غير اننا نقصد بها ما يعادل المصطلح المتداول أي اتجاه خاص في التفسير في مقابل السيمنطيقا. يستخدم البعض كلمة التأويل كمعادل للهرمنيوطيقا، الأمر الذي يدلل على التمييز بين الاتجاهين الهرمنيوطيقي والسيمنطيقي.

ليس بالضرورة ان نعد المعنى في الإطار الهرمنيوطيقي، خاضعاً لقصد المتكلم، بل يمثل المعنى حقاً يصل إلى المتلقي والمهم هو فهم المتلقي ذاته.

كان سقراط يعتقد انه لا يمكن الاكتفاء بالكلمات والجمل في فهم رسالات الآلهة، بل يمكن من خلال الحوار والجدل العثور على آلية لفهم باطن النصوص. يمكن ان نقوم بتأويل الذات والآخر عبر الديالكتيك.

حين نتعامل مع عمل فني نشعر بوجود إيحاءات متعددة بتعدد الأشخاص. لماذا لا تكون شتى هذه الإيحاءات نابعة عن العمل الفني ذاته أساساً؟ وعلى تقدير ذلك فإننا نواجه لوناً من الثورة الكوبرنيكية فيصبح المتلقي محوراً في هذا الإطار ويحتل هو موقع المتكلم. ان المعنى سيكون شيئاً قابلاً للاصطياد وفي متناول اليد، لا أنه أمر قصده المتكلم.

كيف للمتلقي ان يفهم النص؟ لماذا يكون في وسع أحدهم الإحاطة بالنص بينما لا يتيسر ذلك للآخر؟ لماذا يتاح لأحدهم إرساء علاقة وفتح قناة اتصال مع العمل الفني، بينما لا يتاح ذلك للآخر؟ لقد استجمع المتلقي مجموعة من الأسس المعرفية وأخرى تتصل بالإثارة وتتعلق بعقله ومزاجه، حضارياً وثقافياً، على نحو

مندمج. ينطوي المتلقي على أسرار متنوعة وحاجات متعددة ويتجه نحو الخطاب وفي جعبته آلاف الاحتياجات.

رغم ان النص حصيلة لعقلية المؤلف، غير انه يكتسب معنى خاصاً بمجرد ان يصبح في متناول يد القارئ. يمكن ان نلاحظ أربعة عناصر في كل نص هي، ثبات المعنى، واستقلاله عن قصد المؤلف الفكري، وتمثيله لدلالات خفية، ووجود نطاق عام للتلقي[1].

تتأسس قناة الاتصال بين المتلقي والنص، في ضوء الحاجات القائمة، وكلما لاحظنا حاجات حقيقية في النص، فإننا سنقيم معه آصرة أوثق وستتسع دائرة التلقي التي تتاح للنص. ان النص في حقيقة الأمر يقوم بتفسير المتلقي بمعنى من المعاني، وهو يكشف له عن ذاته ويتحدث عن حاجاته وأسراره. وكلما اكتشفنا ذواتنا في النص، كلما ازدادت الآصرة المفهومية التي أقمناها معه. والمقصود بالثورة الكوبرنيكية هي تبادل المواقع هذا والذي يحصل بين المفسِر (بالكسر) والمفسَر (بالفتح). فالنص هو مفسِر (بالكسر) يقوم بتظهير المتلقي ومقاربته.

تكفل كتاب (هرمنيوتيك كتاب وسنت=هرمنيوطيقا القرآن والسنة)[2] استعراض الإطار الهرمنيوطيقي في التعامل مع النصوص الدينية، الأمر الذي يستند على أسس متعددة ومستويات كثيرة من الغموض، لكن المهم بالنسبة لنا في الفصل الحالي، هو عدم توافر الأدوات التي يتطلبها استخدام ذلك المنهج. وبكلمة أخرى فإن الاتجاه الهرمنيوطيقي وعلى العكس من السيمنطيقا، لم يبلور حتى الآن أدوات دقيقة وأساليب منتظمة.

---

[1] - لاحظ:

Ricoeur, Paul,Hermeneutics and The Human Science, Cambridge University Press, 1982, p. 210.

[2] - مجتهد شبستري. هرمنيوتيك كتاب وسنت. طهران، طرح نو. لاحظ كذلك: محمد رضا ريخته گران. منطق ومبحث علم هرمنيوتيك. طهران، نشر كنگره، بهار 1378.

المنهج التفاعلي

يمكن ان نذهب أبعد من ثنائية قصد المتكلم وحصة المتلقي التي تؤطر اهتمامنا في هذه الدائرة، حين نعالج تساؤلاً أساسياً يستفهم حول مناطات الدلالة وما يتوقف عليه المعنى. ويكون الخروج عن هذين الفرضين بطرح تصور ثالث يلاحظ التفاعل بين المتكلم والمتلقي، والقول بأن المعنى حصيلة لتفاعل كهذا. لكن ذلك التفاعل بين الدورين سيظل غير قابل للتوظيف المنهجي طالما لم يتوفر له نموذج محدد وفرضية تتولى رسمه.

وفي ذلك النموذج لا يجري رفض قصد المتكلم فيما يتصل بمعنى النص، بيد ان طريق اكتشافه سيكون لوناً من الآصرة بين المتكلم والمخاطب، تلك الآصرة التي لا تنحصر في قواعد اللغة بالضرورة. وعلى هذا الأساس لن يكون النص مفسراً (بالكسر) ولا مفسراً (بالفتح)، بل هو الاثنين معاً، أي تفاعلاً بين النص والمتلقي. ثمة أمر يقصده المتكلم الحكيم من نصه، وهنالك فهم يستله المتلقي من الخطاب ذي المستويات المتعددة، ويجتمع هذان في عملية تفاعلية متبادلة على نحو يجعل من الفهم العميق نتيجة لجدل كهذا، فيما يصبح كل تفسير منطلقاً نحو تفسير آخر.

نطاق الدراسات الجوانية

هل يمكن لأي بحث يتصل بمجال الدراسات الدينية، ان يستثمر الاتجاه الجواني؟ هل من المبرر الرجوع إلى النص الديني في الإجابة على شتى مسائل البحث، أم ان الدراسة الجوانية لا تمثل سوى واحد من اتجاهات البحث الديني ولا تمتلك سوى نطاق وظيفي محدود؟ ما هو المقياس في رسم الحدود تلك؟

من الواضح ان التساؤل حول نطاق الأبحاث الدينية الجوانية، ووفق المفهوم المستخدم هنا، يختلف عن التساؤل حول نطاق الدين والمقياس في وصف الأشياء بأنها دينية.

يكون البحث الجواني أمراً غير ممكن أحياناً، حيث ان استخدامه يؤدي إلى إقحام عملية البحث في الدور والمفارقة، ويهدد جدواه وفائدته. فالمتكلمون ذوو الاتجاه العقلي مثلاً، يرون انه لا يمكن ان نثبت صدق قول النبي، من خلال الرجوع إلى النص الديني، لأن ذلك يؤدي إلى الدور. وهؤلاء يعتقدون ان إثبات صدق التعاليم الدينية في النصوص الدينية، قد جرى أيضاً عبر استخدام الاتجاه البراني، أي ان القرآن كان يحرص على تجنب الوقوع في الدور كذلك، وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[1]، حيث لجأ القرآن في تدليله على ان الله هو مصدر الوحي، إلى أساليب برانية (تحليلية). ان عدم الاتساق هو بمثابة معيار لاكتشاف الخطأ في المقياس البراني.

ثمة حالات متنوعة في النطاق الذي يتيسر فيه البحث الجواني. فهذا النمط من البحث يكون أحياناً بلا منافس، أي ان معالجة مسألة البحث تجري من خلال الرجوع إلى النص الديني وحسب، حيث تكون الأساليب البرانية غير مجدية في الإجابة عليها، ويدخل في هذا العديد من الموضوعات التي طرحها المتكلمون في باب السمعيات. وبالطبع فقد اختلف علماء الكلام في تحديد الموضوعات السمعية المحضة، على نحو أساسي. فتتمتع هذه الأبحاث لدى الأشاعرة بدائرة أوسع مما حدده متكلمو المعتزلة، كما انها تتحرك في نطاق واسع للغاية عند الاتجاه الإخباري وأهل الحديث والسلفيين إلى جانب الاتجاه التفكيكي. وتدخل في هذه المسائل، آلية تقييم الأعمال في اليوم الآخر، وما يقصده الله بالثواب والعقاب، والحكمة في

---

[1] - النساء، 82.

الأوامر والنواهي الإلهية، والإمامة الخاصة في النظرية الشيعية، ووصف الجنة ومنشأ النبوة ونحو ذلك.

كثيراً ما توجد أبحاث أخرى تمثل تحدياً للأبحاث الجوانية، حيث يمكن معالجة مسألة واحدة نظير عصمة الأنبياء برانياً، من خلال المناهج التاريخية، وأدوات التحليل (على النحو المتداول عند أهل الكلام)، وأدوات الفلاسفة المنطقية، وحتى عبر أدوات البحث السيكولوجي. ويمكن ان يؤدي التحدي هذا إلى تعارض شكلي بين الاتجاهات، الأمر الذي واجهه المتكلمون في موضوع العصمة[1]. ومن النماذج الاخرى لذلك إشكالية العلم والدين وإشكالية العقل والدين في علم الكلام الجديد والكلاسيكي، حيث نلمح في إطارهما تعارضاً شكلياً بين البحث الجواني والبراني. ويمكن للتعارض المذكور ان يكون مفيداً من منظور منهجي، حيث يفتح للباحث آفاقاً جديدة، شريطة ان يتوفر لديه مخطط بحثي ومنهج ملائم للتعامل مع الاتجاهات التي تبدو متعارضة.

يتصل تحديد نطاق الأبحاث الجوانية، بعدة أمور:

1- نمط المسألة.

2- ما يترقبه الباحث من الدين والوحي.

3- تصوره حول حقانية تعاليم الدين.

قواعد استراتيجية في البحث الجواني

يمثل التعامل الساذج المتساهل في الرجوع إلى النص الديني، أهم المطبات في هذا الإطار. يتطلب اعتماد الاتجاه الجواني خبرة علمية، وذلك لأن ثمة قواعد وضوابط تحدد قراءة النص، ويؤدي التغافل عنها إلى الخطأ وتقديم فهم مشوه

---

[1] - لاحظ فيما يتصل بذلك: الفاضل المقداد السيوري، اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية، تصحيح محمد علي قاضي طباطبائي. تبريز، 1396هـ، ص172-210.

للنص. وقد كان علماء أصول الفقه رواداً في بلورة تلك القواعد، غير ان الاهتمام يتجه اليوم في الغالب نحو تأسيس منطق لفهم النص الديني ومبادئ التفسير وعلم الحديث. ولذلك نلاحظ ان ذلك يحظى باهتمام في مقدمات كتب التفسير، وليس ذلك وحسب بل خصصت له أعمال مستقلة[1]. لسنا هنا في صدد استعراض ما جاء في الأعمال ذات الصلة حول تلك القواعد في مستوى تخصصي، بل نكتفي بطرح عدد من النقاط المهمة العامة.

1- **الدور**: ان الوقوع في فخ الدور يمثل المعوق الأول في الاتجاه الجواني، وثمة حالات متعددة لذلك. سنواجه الدور في تلك الحالات التي يتوقف فيها إثبات حقانية واحدة من تعاليم الدين، على ذلك النموذج نفسه (على نحو مباشر أو غير مباشر). ولا مناص من التمييز بين الدور والدور الزائف (توهم حصول الدور).

ومن أساليب تجنب الدور الزائف، التمييز بين الرجوع إلى النص الديني للاستيضاح، والرجوع إليه للاستدلال، فربما كان الرجوع إلى النص الديني مستلزماً للدور على تقدير ان يكون هدف الإثبات والتصديق والاستدلال على مسألة معينة. بينما لا يستلزم الدور في إطار المسألة ذاتها، لو كان رجوعاً بقصد الفهم وتكوين تصور معمق.

لا يمكن ان نثبت صدق قول النبي مثلاً، عبر الاستعانة بالنص الديني، فلا يمكن على سبيل المثال ان نقول ان كلام الله حق، لأن الوحي يقول ان كلام الله حق. غير ان الدراسة الجوانية من خلال مراجعة النص الديني تتيح لنا تحديد معنى عصمة الأنبياء والمفهوم المعمق لصدق كلام الله.

---

[1] - لاحظ: الطوفي، سليمان بن صرصرى. الإكسير في علم التفسير. مصر، مكتبة الآداب، 1397هـ. وكذلك: مساعد بن سليمان الطيار. فصول في أصول التفسير. الرياض، دار النشر الدولي، 1413هـ. وكذلك: محمود رجبي (إشراف). روش شناسي تفسير قرآن، مصدر سابق.

ومن الأساليب الأخرى في تجنب الدور الزائف، التمييز بين الدور والآصرة المتبادلة، فثمة علاقة متبادلة تتأسس أحياناً بين شيئين، ونتوهم بأن هنالك اتحاداً جرى بينهما، بينما الأمر لا يعدو ان يكون علاقة متبادلة بين الشيئين. ان مراجعة النصوص الدينية تؤدي إلى تعميق فهمنا لكلام الله، الأمر الذي يمنح البحث الجواني عمقاً أكبر.

2- **الحصر المنهجي**: يتمثل المطب الآخر في الدراسات الجوانية، بالوقوع في فخ الدوغماتية الجزمية والتأكيد الحصري على اتجاه واحد. حين يمكن القيام ببحث تجربي في مسألة معينة، فإن ذلك لا يعني انه لا ينبغي القيام بدراسة جوانية للمسألة ذاتها، كما لا يعني انه لا يمكن القيام بدراسة كهذه، والعكس صحيح بمعنى ان إمكانية اعتماد الاتجاه الجواني لا تؤدي إلى إقصاء الدراسات البرانية، لأن إثبات الشيء لا يعني نفياً لما سواه.

ان الأسلوب الذي يتجنب الوقوع في فخ الحصرية المنهجية، يمثل اتجاه "الجمع مهما امكن، أولى من الترك"، ويتطلب تحقيق الجدوى من ذلك، توفر مخطط ونموذج بحثي. ثمة أساليب متنوعة للتعدد المنهجي، وهو ما سنتناوله في الفصل الخاص بالدراسات بين التخصصية.

3- **الغفلة عن أولوية اتجاه ما**: ينبغي للباحث ان يهتم بتنوع الاتجاهات ويتجنب الارتهان بفخ الحصر المنهجي، لكن عليه كذلك ان يستوعب أولوية البحث الجواني في بعض المسائل. نلاحظ في كثير من الموضوعات ان الأمر يتطلب اعتماد الاتجاه الجواني بوصفه أفضل الخيارات مقارنة بغيره، إلى درجة ان تجاهل ذلك يؤدي إلى حرمان الباحث من استيعاب جانب مهم من الحقائق الدينية، ويدفعه نحو بناءات مفهومية تقوم على اتجاه الاختزال والتحويلية التي تمثل واحدة من أخطر منـــزلقات البحث.

طرح فلاسفة اليونان مثلاً فيما يتصل بالصفات الإلهية، بناءات مفهومية متعددة. وفي نقد ما بلوره هؤلاء وفهمه كذلك، ثمة أهمية كبيرة للتصورات الدينية في الإلهيات بالمعنى الأخص، والتي تمثل حصيلة لمعالجة المسألة هذه عبر البحث الجواني. لا بد للباحث في المجال الديني، ان يدرك ما يكتسبه الاتجاه الجواني من أهمية وأولوية، كي يتجنب في محاولته استيعاب حقيقة القناعات والظواهر الدينية وإدراك صدقها، الوقوع في النظرة الأحادية أو تشويه الحقيقة تلك. ان قولهم "أهل البيت أدرى بما في البيت" يشير إلى أولوية البحث الجواني في العديد من الموضوعات والمسائل.

4- الاتجاه الحصري فيما يتصل بالمسائل: لا يقتصر استخدام الاتجاه الجواني في الإجابة على الأسئلة ومعالجتها، بل هو مفيد كذلك في اعتماد شتى المناهج والأساليب. ان مبادئ التبشير بالدين وأساليبه، وأنماط تناول القضايا الدينية وأساليب تحليل الحقيقة الدينية، ليست مسائل عادية يمكن ان يتجاهلها النص الديني. ونلاحظ من خلال البحث التاريخي، ان الفلاسفة والمتكلمين قد ابتعدوا تدريجياً في تحليلهم لمسائل المبدأ والمعاد، عن لغة القرآن وأساليبه. ونجد مثلاً ان مفهوم "الميثاق" القرآني يحظى بتطوير كبير في عملية بناء المفاهيم التي يمارسها الفلاسفة، إلى درجة ان"جوهره الأساسي يضيع ويتبدد في التدقيقات الميتافيزيقية المفرطة، وتتلاشى صلته بالنص القرآني شيئاً فشيئاً"[1].

اتجاهات البحث البراني

يتضمن الاتجاه البراني بشكله البحثي غير المعتمد على الرجوع إلى النص الديني، مناهج متنوعة منها، الدراسات التاريخية، والمقارنة، والأبحاث الاجتماعية

[1] - بول نويا. تفسير قرآني وزبان عرفاني (التفسير القرآني ولغة العرفان). ترجمة اسماعيل سعادت. طهران، مركز نشر دانشگاهي. 1373. ص47.

والنفسية، والاتجاه الظاهراتي، والمناهج البرهانية – المنطقية، إلى جانب الاتجاهات الوجودية، حيث تمثل هذه نماذج للاتجاه البراني في الأبحاث الدينية. وقد شاع البحث البراني بين الباحثين في موازاة الاتجاهات الجوانية. كما ان الخلاف القائم على اتجاه الحصر المنهجي، حول قيمة التحليل الفلسفي في موضوع المعاد وغيره من المسائل الدينية، يمثل نتيجة لشيوع الأبحاث الدينية البرانية.

لم تحظ الدراسات البرانية في البحث الديني الكلاسيكي بتنوع كبير، وكانت مناهج الفلسفة البرهانية والاتجاهات التاريخية، الأدوات البرانية الرئيسة عند المتقدمين، غير ان الأدوات هذه تنوعت اليوم على نحو بالغ.

ان الخطوة الأولى في التعامل مع الاتجاهات البرانية، هي تبويبها وتصنيفها. يمكن القول دون ان نزعم وجود حصر عقلي للأقسام، ان اتجاهات البحث البراني العامة تتوزع على أربعة أقسام رئيسية هي: المناهج التجربية، والاتجاه التاريخي، والمناهج التحليلية – المنطقية، والاتجاه الظاهراتي والاتجاهات الوجودية. وسنتناول المناهج التجربية والتاريخية والظاهراتية، على نحو مستقل في الفصول القادمة.

الاتجاه التحليلي - المنطقي

نطلق وصف الاتجاه التحليلي على تلك الدراسة التي تستخدم أدوات المنطق والمنهج التحليلي في الأبحاث الدينية، ونعده في قبال الدراسات التجربية واللاحقة والحسية، وهذا اتجاه عريق في الدراسات الدينية. لقد حظي البرهان بمكانة متميزة عند الفلاسفة وشاع بينهم بيت شعري بات شعاراً لديهم، يقول:"نحن أبناء الدليل، كيفما مال نميل"، الأمر الذي يتطلب منهم ان يتجهوا في تحليل القضايا العقدية أيضاً، إلى بناء المفاهيم الفلسفية وأدوات التحليل المنطقي. ليس المقصود من التحليل هنا المعنى المتداول في مقابل التركيب، بل المراد منه منهج يتوفر وحسب على تحليل المبادئ والبنى واللوازم المنطقية في النظريات، ويؤدي إلى

تكوين المعرفة من خلال التحليل المنطقي، دون الملاحظة الحسية والتجربة الموضوعية.

يبدأ ابن سينا في كتاب الإشارات، كما ذكر الفخر الرازي، بالإلهيات الأولى والتحليل الذي لا يقوم على معطيات التجربة في الطبيعيات[1]. وقد اتجه علماء الكلام تدريجياً، نحو تأسيس علم الكلام العقلي، وحذوا حذو الفلاسفة في توظيف أدوات المنطق. استخدم متكلمو الشيعة والمعتزلة، الأساليب العقلية في التحليل الكلامي كما راح الأشاعرة يقتربون من الكلام الفلسفي شيئاً فشيئاً.

اشتهر الغزالي بنقد الفلاسفة مؤكداً على أولوية البحث الجواني وكان يحاول بلورة أنطولوجيا إسلامية وأخلاق قرآنية، ورغم ذلك فإنه ادرك أهمية المنطق في الدراسات الدينية. فقد صنف ثلاثة أعمال في المنطق ذي القسمين وهي، محك النظر، ومعيار العلم، والقسطاس، كما دوّن مقدمات منطقية لكتابيه: مقاصد الفلاسفة، والمستصفى في علم الأصول. نجد كذلك ان الفخر الرازي راح يواصل طريق الغزالي في نقد الفلاسفة، غير انه يعد من أهم علماء المنطق في القرن السادس الهجري وأكثرهم تأثيراً. صنف في المنطق موسوعته الهامة (المنطق الكبير) و(الملخص) الذي كتبه على غرار الإشارات في المنطق ذي القسمين.

ثمة وجهات نظر متعددة حول الجفوة التي تعامل بها كل من الغزالي والفخر الرازي، مع الفلسفة، واقتران ذلك باهتمامهم بالمنطق. فثمة تفسير منهجي للأمر، حيث قالوا: كان الغزالي والفخر الرازي في مواجهة الإسماعيلية الذين راحوا يبشرون بأفكارهم الشيعية من خلال اعتماد أقوال المعصوم بوصفها حجة واضحة وبرهاناً قاطعاً، ويمكن اعتبار منهجهم هذا لوناً من الدراسات الجوانية. بيمما لم يتوفر للغزالي والفخر الرازي خيار كهذا، فاهتموا بالحجة المنطقبة.

---

[1] – فخر الدين الرازي. الإنارات في شرح الإشارات. مصدر سابق، ص3.

لا يعني هذا التفسير ان ثمة تقابلاً وتقاطعاً حقيقياً، بين الحجتين (قول المعصوم، والدليل المنطقي) ولذلك فإن علماء الشيعة احتفوا بالفكر المنطقي والاتجاه العقلي في الأبحاث الدينية. وعلى أي حال فقد شاعت مناهج التحليل المنطقي عند أهل الإلهيات والكلام، واكتسبت تدريجياً قواعد ومناهج متعددة.

شهدت الدراسات التحليلية في الغرب كذلك، شيوعاً وتطوراً متعرجاً، وثمة تباين جذري بين أدوات التحليل التي كانت متداولة في الفكر الكلاسيكي عند لاهوتيي القرون الوسطى، وما اعتمده ديكارت بمثابة منهج لتوظيف العقل في الإلهيات. كما هو الحال مع التباين الجذري بين منهج ديكارت في التحليل، وما يعتمده اتجاه الفلسفة التحليلية المعاصرة ولا سيما مع فتجنشتين. ان دراسة مناهج التحليل المتداولة في الإلهيات والبحث الديني والحديث عن تطورها التاريخي، بحاجة إلى فصل مستقل.

تحليل المفاهيم

يمكن تقسيم مناهج التحليل رغم تنوعها إلى قسمين: تحليل المفهوم، وتحليل القضية. وهذا التصنيف الذي يشمل التحليل المنطقي والتحليل اللغوي، يقوم على أساس موضوع التحليل، فهو إما ان يكون تصوراً في صياغة مفهومية، أو تصديقاً نعبر عنه من خلال القضية.

يستهدف تحليل المفهوم تحديد دلالته والتخلص مما يحفها من غموض، وكما يقول ديكارت فإن"الخطأ لا يتطرق إلى تصوراتنا، إلا في تلك التي يحفها الغموض والإبهام"[1] ويحاول ديكارت اللجوء إلى الوضوح وتمايز المفهوم للتخلص من الغموض هذا، أي السعي إلى تصور المفهوم بحيث نتولى وصف المفهوم بكل ما

[1] - رينيه ديكارت. گفتار در روش به كار بردن عقل (قول في منهج استخدام العقل). ترجمة محمد علي فروغي. طهران، انتشارات بيام، 1355، ص47.

يمت إليه بصلة ذاتية، ونسلب عنه كل ما سواها. يتطلب هذا المنهج ان نحلل المفاهيم إلى عناصرها عبر سؤال ذهبي حول ما يعنيه المفهوم، ثم نحلل المفاهيم التي يتكون منها المفهوم الرئيسي بواسطة السؤال ذاته، حتى ننتهي إلى مفهوم واضح ومتميز. وسيؤدي وجود أي لون من الغموض في بعض الأجزاء المفهومية تلك، إلى غموض ذاتي، وقد تحدثنا في الموضوعات ذات الصلة بالتعريف وموضوعات المنهج، حول القواعد الاستراتيجية ذات العلاقة بتحليل المفاهيم.

يمثل تحديد بنية المفهوم أسلوباً مفيداً آخر في تحليل المفاهيم، فلا بد ان نلاحظ عندما نتعامل مع أحد المفاهيم، هل هو مفهوم مرجعي إشاري ***referential***، أم وصفي ***descriptive***؟ ونقصد بالمفهوم المرجعي ذلك الذي يستخدم لمجرد الإشارة إلى الشيء ***object*** كعنوان يحيل إليه ويدل عليه، نظير الاسم الخاص (العلم) أو اللفظ بوصفه عنواناً مشيراً دالاً كما يعبر الأصوليون.

أما المفهوم الوصفي فهو مفهوم مشترك يحكي ماهية الشيء أو حالته أو وصفه. ولا بد ان نتساءل حول المفهوم المشترك: هل يتضمن هذا المفهوم وصفاً أم نسبة وإسناداً؟ ولو كان يتضمن الوصف فهل يتولى وصف الشيء ***object***، أم وصف المفهوم (المعقول الثاني الفلسفي)، أم وصف الألفاظ (أي يتصل بما وراء اللغة)؟ أما لو كان يتضمن نسبة وإسناداً، فهل هي نسبة متقارنة لازمة، أم متعدية... وهذا الأسلوب في تحليل المفهوم يمثل في حقيقة الأمر أسلوباً في التعريف من خلال القسمة، حيث يمكن التوصل إلى تحليل المفهوم عبر تحديد نمطه في سلسلة المفاهيم وأقسامها.

تحليل القضايا

رغم أهمية هذا اللون من التحليل، غير انه تعرض إلى التجاهل نسبياً، ويبدو ان ثمة فرقاً من هذه الزاوية بين الفكر المتداول في ثقافتنا وثقافة غرب المعمورة. فالعلماء لدينا يتمحورون حول التصورات بنحو أو آخر، وهم يؤكدون على تحليل المفاهيم أكثر من تحليل القضايا. ان المفاهيم والتصورات هي نواة الفكر في ثقافتنا، حتى ان تحليل القضايا يجري من خلال المفاهيم. وثمة تصور للموضوع وتصور للمحمول وتصور للنسبة بينهما، كما ان مسائل العلم (قضاياه) هي أعراض ذاتية لموضوعه، والعوارض الذاتية تتقوم ببنية مفهومية تصورية.

لكن تحليل القضايا يحظى باهتمام واسع في الغرب، فالقضية تمثل نواة الفكر، ومقولات كانط — سواء كانت صحيحية أم خاطئة - هي حصيلة تحليله للقضايا. يقول برترند راسل: "ينبغي لشتى الفلسفات الهامة، ان تبدأ من تحليل القضايا، وهذه حقيقة ربما كانت أوضح من ان تحتاج إلى دليل يدعمها"[1].

كما ان أهم المسائل المعرفية تعود إلى علم القضايا، وثمة أهمية كبيرة للتمييز بين العلم بالقضايا *propositional knowledge*، والعلم بالأشياء *objectiual knowledge.*، فموضوع الأول هو القضايا والتصديقات، بينما يكون موضوع الثاني هو المفاهيم والتصورات. ان تعريف أفلاطون للعلم والذي يصفه ابن سينا بأنه هو التصديق العلمي، يمثل في حقيقة الأمر علماً بالقضايا (القول الجازم المطابق الثابت).

يهدف تحليل القضايا إلى تحديد معنى عبارةٍ ما، ولكن كيف نتوصل إلى

---

[1] - لاحظ:

Russell, B., Philosophy of Libniz, London, George Allen and Anwin L_TD Musum Street, 1958, p. 8.

مفاد العبارة؟ من المؤكد ان مضمون العبارة لا يمثل مجرد حصيلة للمفاهيم والتصورات التي تكونت منها، خلافاً للاتجاه الذي يؤكد على محورية التصور. بل نجد ان البنية الشكلية في النص الذي تنتمي اليه العبارة، إلى جانب نمط لغة العبارة تلك، يمثلان عوامل مؤثرة في معناها. فثمة معنى لعبارة واحدة تنتمي إلى نصٍ ما، بنما تكتسب العبارة ذاتها معنى آخر حين تنتقل إلى نص آخر، ويتغير صدقها في إطار اللغة العلمية، عنه في إطار اللغة العرفية مثلاً.

1- تحليل البنية المنطقية

تمتلك القضايا بنية منطقية إضافة إلى بنيتها النحوية، ويختفي البناء المنطقي ويتوارى خلف البنية النحوية في حالات مختلفة وبسبب ما تتطلبه اللغة الاعتيادية. هنالك عبارة تتسم بأنها قضية إخبارية على مستوى بنيتها، غير انها عبارة إنشائية على المستوى المنطقي. يكمن إبداع (آستين) في واقع الأمر، في انه كشف عن بنية الأفعال الخطابية وأزال ستار البناء النحوي في القضايا.

يمكن التوصل إلى البناء المنطقي في العبارات، من خلال التقسيم. هل تمثل القضية الكذائية، نسبة بين مفهومين (أي شيئاً ومفهوماً، أو شيئاً ونسبة)، أم انها نسبة بين قضيتين؟ هل هي قضية حملية أم شرطية؟ وعلى تقدير الأول فهل يمكن تحليل القضية إلى عقديها (مسوّرة) أم انها لا تقبل تحليلاً كهذا وهي مجتزأة (شخصية)؟ وعلى تقدير الأول، فهل الحكم في القضية كلي أم لا (جزئي وجودي)؟ وعلى تقدير الثاني، فهل تتضمن محمولاً من الدرجة الأولى أم الثانية (قضية طبيعية)؟ وعلى أي حال فهل تتضمن القضية محمولاً ذا حالة واحدة، أم متعدد الحالات؟ تتطلب الإجابة على هذه الأسئلة، دراسة للمنطق (الأرسطي

والجديد) وممارسة ومهارة منطقية[1]. ويمكن من خلال ذلك العثور على موقع القضية في التقسيم التالي، وتحديد بنيتها المنطقية:

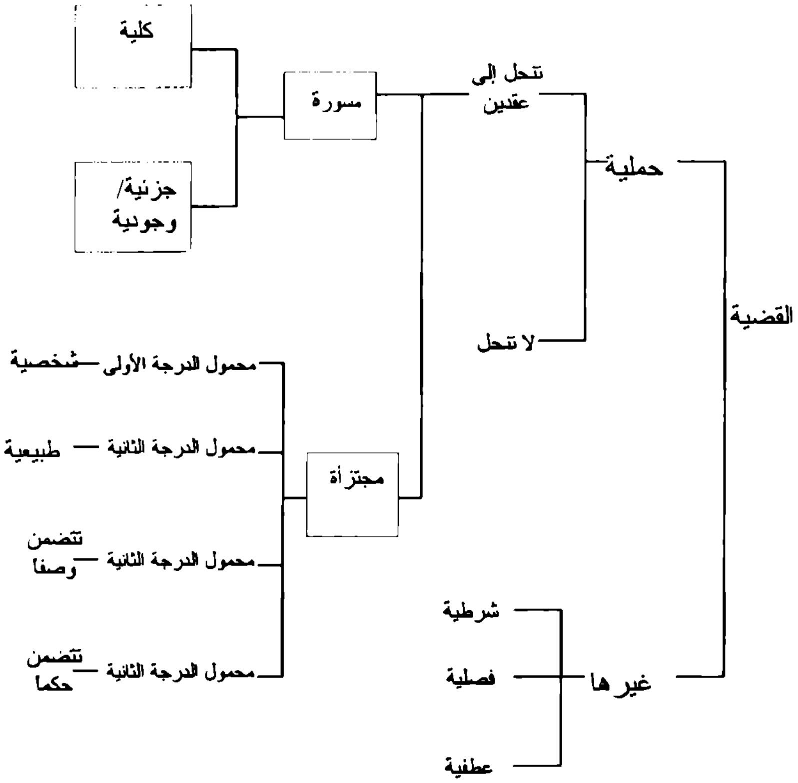

الشكل رقم 6-1: تقسيم القضايا حسب البناء المنطقي.

[1] - لمزيد من التفصيل حول تحليل القضايا لاحظ: أحد فرامرز قراملكي، تحليل قضايا، پايان نامه تحصيلات دكتري (تحليل القضايا، رسالة دكتوراه). إشراف د. ضياء موحد. دانشكده إلهيات دانشگاه تهران، 1373.

2- تحليل البنية اللغوية

تتوقف بنية المضمون على أمرين هما، البنية المنطقية، والبنية اللغوية. ويمكن من خلال تحديد لغة القضية، التوصل إلى مضمونها. والمنهج في هذا السياق هو المنهج ذاته الذي اتبعناه في تحديد البنية المنطقية، أي التعريف بأسلوب التقسيم. هل تنطوي القضية على مضمون معرفي أم لا، على مستوى التنوع اللغوي الأفقي (العرضي)؟ وعلى تقدير الأول، فهل هو وصف أم تفسير؟ ولو لم يكن مضموناً معرفياً، فهل يمثل توصية قيمية أم لا؟ ومن جهة أخرى، ما هي لغة القضية على مستوى التنوع اللغوي العمودي (الطولي) سواء كانت معرفية أم لا؟ وهل هي لغة عرفية، أم دقيقة علمية (تجربية أو فلسفية)، أم لغة كشف وشهود، أم انها لغة رمزية، أم لغة أسطورية؟

الفصل الثامن:

الدراسات التاريخية

مدخل

لا يمكن للأبحاث الدينية ان تستغني عن الأدوات والمناهج التاريخية، ولا يمكن ان يجري الاستغناء عن الدراسة التاريخية سواء في علم الكلام الكلاسيكي أو الكلام واللاهوت المعاصر. لقد اكتسبت الدراسات التاريخية اليوم، أهمية بالغة في حقل البحث الديني، إلى درجة انها باتت تشكل فرعاً خاصاً من فروع البحث الديني، كما أفرزت اتجاهات ومناهج متنوعة في البحث الديني التاريخي.

ونلاحظ ان الأبحاث الدينية المتداولة لدينا تزعم استخدام الأدوات والاتجاهات التاريخية، كما نعثر على نماذج كثيرة من عمليات التقييم والنقد التي تستند إلى الوثائق التاريخية، وذلك من قبيل موضوعات تتصل بالتجربة الدينية (في اتجاهها التاريخي)، وتاريخ الإلهيات، والدراسة التاريخية للإيمان عند العرفاء، ودراسة الفرق الكلامية تاريخياً...الخ. لكن هنالك غموض واسع لا يزال يحف هذا السياق، رغم ان الكثيرين يزعمون توظيف الأساليب التاريخية وبالرغم من شيوع عنوان (الدارسة التاريخية) على نطاق واسع في البحث الديني. ثمة غموض في تعريف الدراسة التاريخية، و لم يجر تحديد مستويات الحاجة لهذا النمط من الدراسات، إلى

جانب غموض في المناهج العملية للبحث التاريخي، وعدم تحديد القواعد العامة فيها...الخ.

يستفهم التساؤل الأول في هذا الإطار، حول ماهية الدراسة التاريخية، فما هو المقصود بشكل عام، من القراءة التاريخية لظاهرة ما؟ ماذا نترقب من المعالجات التاريخية؟ ما هو مفهوم الدراسة التاريخية وما هي طبيعتها *meaning and nature*؟

دوّن تصورك حول الدراسة التاريخية في الجدول 8-1، ثم قارن ذلك بالجدول 8-4:

ما هو البحث التاريخي :

....

....

....

....

....

....

....

....

الجدول 8-1: تصورك حول الدراسة التاريخية.

يتصل السؤال الآخر بالنطاق الذي يجري فيه استخدام الدراسة التاريخية في حقل البحث الديني. لا يمكن القول بأن من المناسب اللجوء إلى البحث التاريخي في أي موضوع كان، وعلى هذا الأساس فما هي مستويات الحاجة في البحث الديني، للدراسة التاريخية، وما هي أبعاد الحاجة إلى القراءة التاريخية؟ دوّن تصورك فيما يتعلق بالحالات التي يحتاج فيها البحث الديني، إلى الأدوات التاريخية، في الجدول 8-2، ثم قارن ذلك بالموضوعات التالية.

موارد الحاجة لأدوات والمناهج التاريخية في البحث الديني .	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....
6	....
7	....

الجدول 8-2: الحالات التي يحتاج فيها البحث الديني، إلى الأدوات التاريخية.

ويتجه السؤال الثالث إلى الاستفهام حول الأداء العملي *process* للبحث التاريخي، وليس هذا السؤال في صدد التخلص من غموض على مستوى الذهن، وخلافاً للسؤال الأول، بل هو عامل في مضاعفة الجدوى العملية.

لو أدركنا ماهية البحث التاريخي والحالات التي تمس فيها الحاجة إليه، فإن ذلك لا يعني اننا اكتسبنا تأهيلاً لممارسة هذا اللون من الأبحاث.

ينبغي ان ندرك خلال استخدام المنهج هذا، كيف تبدأ القراءة التاريخية للظواهر الدينية أو النظريات التي يطرحها البحث الديني، وما هي المراحل التي يمر بها ذلك والآلية المستخدمة فيه.

ما هي الخيارات والمعوقات التي نواجهها في هذه العملية، وكيف لنا ان نقوم بتوجيه الأبحاث التاريخية بمثابة مشروع بحثي؟

دوّن رؤيتك في الجدول 8-3، وقارن ذلك مع الجدول 8-5.

خطوات البحث التاريخي .	
....	1
....	2
....	3
....	4
....	5
....	6

الجدول رقم 8 -3 : تصورك للجانب العملي في البحث

طبيعة البحث التاريخي

ثمة تصورات متباينة للغاية حول طبيعة المعرفة التاريخية، طرحتها فلسفة العلم والباحثون في منهج الدراسات التاريخية. ان المقاربات المتنوعة للدراسة التاريخية التي تتناول ظاهرة أو نظريةً ما، تنشأ عن مستويات شتى للغموض، فنلاحظ من جهة ان دراسة تاريخ ظاهرةٍ ما تعد معرفة وقراءة تاريخية لتلك الظاهرة، ويكمن الغموض في هذه النقطة بالذات، فهل يعني استيعابنا التاريخي لأمرٍ ما، قراءة لماضيه وتاريخه والأشياء التي شكلت أرضية لظهوره، أم ان المعرفة التاريخية أمر آخر غير ذلك؟

ثمة من جهة ثانية مستوى آخر للغموض، فيمكن القول بأن المعرفة التاريخية لظاهرةٍ ما، تتولى تجريدها عن حاجز الزمن وتحاول التعرف عليها كما هي وكما كانت تظهر لمن عاصرها، وذلك من خلال جهد علمي ينتقل من الحاضر إلى الماضي ويلغي المسافة الزمنية القائمة. فهل يستهدف البحث التاريخي تحقيق ذلك، أم ان عنصر الزمن يلعب دوراً مؤثراً في استيعاب الحدث التاريخي؟ هل يتجه الباحث في عملية القراءة، نحو الماضي أم الحاضر؟ هل يقع على عاتق المؤرخ إلغاء

الحاجز الزمني، أم يتوجب عليه بلورة المرآة الزمنية وجانب الحكاية والتعبير في عنصر الزمن؟

هنالك مستوى ثالث من الغموض في دور البحث التاريخي. هل نترقب ان يقوم البحث التاريخي بدور ينتهي عند وصف الظاهرة، أم انه دور يتواصل حتى يقدم لنا تفسيراً لها كذلك؟ هل تستهدف الدراسة التاريخية ممارسة الوصف أم التفسير؟ هل تحاول مقاربة كيفية الظاهرة أم عللها؟ يرى أمثال شبنغلر (1880-1936) ان التاريخ بمثابة شكلانية (مورفولوجيا) مقارنة، بينما يترقب أغلب الفلاسفة ان تتولى الدراسة التاريخية دوراً تفسيرياً.

وثمة مستوىً رابعاً للغموض أثار جدلاً متعدد الأبعاد في فلسفة التاريخ، وهو يتصل بالعلاقة بين البحث التاريخي والبحث التجربي المتداول في علوم الطبيعة. وجرى في هذا السياق طرح نظريتين تتبنى إحداهما وحدة المنهج وتؤكد الأخرى على تغايره. جرى التأكيد على الوحدة الأساسية للبحث، وذلك من قبل الفلاسفة الوضعيين الذين كانوا في أبحاثهم المنهجية، في صدد إرساء الأسس النظرية لنموذج"الفيزياء الاجتماعية" الجديدة، من أمثال أوغست كونت (1798-1857) في دروس الفلسفة الوضعية، وجون ستيوارت مِل، في (مذهب المنطق)، كما اعترض هؤلاء على انتقال مناهج العلوم الطبيعية إلى حقل العلوم الاجتماعية الآخذ في التطور، بما في ذلك الحقل التاريخي. وبالمقابل نلاحظ ان فلاسفة مهمين نظير فلهلم ديلثي[1] وهينرش ريكرت، راحوا يؤكدون على التمييز المنهجي بين البحث التاريخي والبحث في علوم الطبيعة.

---

[1] - فيلسوف الماني 1833-1911، يعد أهم رائد بعد نيتشه في فلسفة الحياة، كما ان غادامر 1900-2002 رائد الهرمنيوطيقا أفاد في أعماله كثيراً من مفاهيم ديلثي ومقولاته إضافة إلى إسهامات كل من هوسرل وهيدغر. (المترجم).

ان اتجاه التمييز بين البحث التاريخي وعلوم الطبيعة، يستتبع معطيات واسعة في سياقي الوصف والتفسير، ذلك لأننا نواجه بدلاً عن بحث منهجي واحد، لونين متباينين من البحث المنهجي العلمي، الأمر الذي ينبغي تحديده[1].

سنستعرض ما يمكن ان يختلط بالمعرفة التاريخية، ونقوم بفرزه عن البحث التاريخي، كي نحاول انتقاء التعريف الذي نعتمده للبحث التاريخي، من بين المفاهيم المتعددة المطروحة فيما يتصل به.

أولاً: لا نقصد بالمعرفة التاريخية، دراسة تاريخ حدث أو فكرة ما. حين نقول انه ينبغي دراسة تاريخ المسألة الكذائية، فغالباً ما يكون المقصود بذلك دراسة تاريخها. من المؤكد ان دراسة تاريخ الظاهرة والأرضية التي مهدت تكوينها والأطر التي تكونت فيها، تلعب دوراً مفيداً للغاية وضرورياً. غير ان ذلك ليس هو المقصود بالبحث التاريخي. ان البحث التاريخي في المفهوم الذي نتناوله هنا، ليس اكتشافاً للمستقبل من خلال الماضي.

ثانياً: لا نقصد بالمعرفة التاريخية، حركة من الحاضر نحو الماضي، وإلغاء حاجز الزمن والعودة إلى لحظة ولادة الظاهرة، بل المقصود هو اكتشاف الماضي في ظل الحاضر. وتتضمن المعرفة بمفهومها المنهجي، كلاً من سياقي الوصف والتفسير، وهي بحاجة إلى مناهج خاصة. تتطلب هذه النقطة بحثاً موسعاً وتقديماً موجزاً يتولى تحليل الحدث التاريخي.

---

[1] - لاحظ:

Weingartner, Rudolph h., "Historical Explanation", Encyclopedia of Philosophy, P. Edwards (ed.). voL 4,p. 6-11.

لاحظ ترجمة هذه المقالة في: بول ادوارد. فلسفه تاريخ. ترجمة بهزاد سالكي، تهران، پژوهشگاه علوم انساني، 1375. ص33-50.

تصوران للحدث التاريخي

يتقدم تعريف الأمر التاريخي، على إعداد إجابة حيال السؤال الذي يستفهم حول ماهية المعرفة التاريخية. ونقصد بالأمر التاريخي كلما امتلك هوية تاريخية، سواء كان حدثاً موضوعياً أو أمراً من قبيل الفكر والمعرفة. حينما ظهرت موضوعات تاريخ القرآن تساءل بعض المفسرين والمتخصصين في البحث القرآني: هل كان القرآن أمراً تاريخياً كي نتناول تاريخه؟ وهذا تساؤل مهم على الصعيد المنهجي، بمعزل عن الإجابات التي قدمت حياله.

لو عرفنا المعرفة التاريخية بأسلوب شرح اللفظ، وقلنا انها معرفة بالأمر التاريخي، فإننا لن نستغني حينئذ عن تحليل الأمر أو الشيء التاريخي. ولو شئنا ان نبلور مقياساً موضوعياً مستقلاً للحدث التاريخي، فإن هذه العبارة لن تنطوي على مفارقة أو تستلزم الدور.

يمثل الحدث التاريخي في التصور المتداول ضمن الفكر الكلاسيكي، أمراً طرأ في الزمن الماضي. ان غموض هذا التعريف وعموميته هي أوضح من ان تكون بحاجة إلى التنويه إليها. حاول البعض تخطي هذه الثغرة بإضافة قيد نظير "الحدث البشري" أو "الحدث المهم" وغير ذلك، بيد ان هذا لا يغير من الأمر شيئاً.

وبكلمة أخرى فإن هذا التعريف يمثل من الزاوية المنطقية، تعريفاً بواسطة شيء أعم، في ضوء المعطيات التي قدمناها خلال الفصل المخصص للتعريف. ليس كل ما طرأ خلال الماضي، حادثة تاريخية، وذلك ما يقال كذلك بشأن الأحداث البشرية التي وقعت في الماضي. ولو حاولنا تخطي هذه الثغرة عبر إضافة قيد "المهم" فإن ذلك يكسب التعريف غموضاً، لأن مفهوم "المهم" لا يمتلك مفاداً دقيقاً موضوعياً يمكن تقييمه. ما هو المقياس في تحديد كون الشيء مهماً؟.

ان الزمن الماضي يمثل المفهوم الأكثر أساسية في هذا التصور للشيء التاريخي. والزمن بمثابة جدار يقف حاجزاً بين الحدث والباحث الذي يكون في صدد معالجته. فالحدث وقع في الزمن الماضي وتصرم، ونواجه الآن فاصلاً يحجزنا عنه وهو الزمن. يقول فولتير ساخراً: ان التاريخ لون من نبش القبور. وهذه الكلمة تتأسس على المفهوم المذكور للحدث التاريخي، وهو مفهوم يرى في الزمن مقبرة لأحداث التاريخ. وعلى هذا المفهوم للحدث التاريخي، يستند تصور كثير من أولئك الذين يرون ان البحث التاريخي لا يتحلى بالأهمية. لكن ثمة تصور آخر يتباين جوهرياً مع ما ذكر، فالشيء التاريخي في ضوء الفهم الآخر، يمثل ظاهرة اكتسبت تواصلاً وخلوداً في مجرى الزمن. تنقسم الأحداث سواء كانت أفكاراً أو ظواهر، إلى نوعين: فهي إما ان تتحرك في إطار الزمن وتتواصل فتخلد، أو تظل حبيسة زمنها فتدفن فيه وتنتهي. والقسم الأول هو الحدث التاريخي.

يمثل الزمان في هذا التصور كذلك، مفهوماً أساسياً، غير انه يعد هنا بمثابة إكسير الخلود بالنسبة للحدث، الذي يكتسب تاريخيته بفضل ذلك الإكسير. ويتقوم الأمر التاريخي بامتلاك الحدث وجوداً تاريخياً، بمعنى الحركة في الزمن.

تصوران للمعرفة التاريخية

ثمة مفهومان للمعرفة التاريخية، يتأسس كل منهما في ضوء واحد من التصورين المطروحين حيال الحدث التاريخي. فالشيء التاريخي في ضوء المفهوم الأول، هو أمر احتجز خلف أسوار الماضي، بينما يحاول المؤرخ إزالة الحاجز الزمني هذا عبر أدوات ومناهج معينة، والاقتراب من الحادثة التاريخية كي يراها كما هي. وكلما كان الاقتراب المذكور أكثر، كان معبراً على نحو واقعي أكبر، ومستتبعاً لمعرفة تاريخية أدق.

وفي ظل هذا المفهوم للبحث التاريخي، يكون دور المؤرخ بمثابة ممارسة تسجيلية للأحداث، لا تنتقل مكانياً بيد أنها تتخطى المسافة الزمنية، وتعتمد أدوات حديثة في تحليل ونقد أمر تراه من وراء الحاجز الزمني. وعلى أي حال فإن المعرفة التاريخية تعني هنا فهم الماضي ودراسة الزمن المنصرم.

قد جرى مثلاً تعريف البحث التاريخي في بعض كتب مناهج البحث بأنه بحث "يتضمن دراسة أحداث الماضي وشرحها واستيعابها، والهدف من البحث التاريخي هو التوصل إلى تلك النتائج ذات العلاقة بأسباب الاحداث الماضية وتأثيراتها أو مساراتها، الأمر الذي يمكن ان يساهم في إضاءة الأحداث الحالية والتنبؤ بالأحداث المقبلة"[1].

وفي ضوء التصور الثاني للشيء التاريخي، يمكن اعتماد اتجاه علمي فيما يتصل بالدراسات التاريخية. والمعرفة التاريخية في هذا الاتجاه، ليست جهداً يستهدف إلغاء الحاجز الزمني، وليس ذلك فحسب، بل هي على العكس من ذلك، فهي محاولة لرؤية الأمر التاريخي في مرآة الزمن. ان حركة المؤرخ تتجه نحو نقطة معاكسة تماماً لتلك التي يتجه نحوها في ضوء التصور الأول. وعلى أساس هذا المفهوم للمعرفة التاريخية، فإننا نواجه في واقع الأمر، لوناً من الثورة الكوبرنيكية، تتحول فيها الحركة نحو الماضي، إلى انتقال في المستقبل. فالدراسة التاريخية هي اكتشاف لحدث أو فكرة تاريخية في تواصلها التاريخي وفي ظل آثارها ونتائجها والتحديات التي واجهتها ونظائرها...، وبحث عن معطياتها وتواليها، بدلاً عن ملاحقة تاريخها وأسبابها.

تضمن الاستيعاب التاريخي في هذا التصور، كلاً من سياق الوصف والتفسير، لأن المراد بالاستيعاب والمعرفة فهماً علمياً للظاهرة في إطار الزمن،

---

[1] - غلامرضا خاكي. روش تحقيق در مديريت (منهج البحث في الإدارة). طهران، مركز انتشارات علمي دانشگاه آزاد اسلامي، 1379، ص103.

ويتوفر في الفهم العلمي كل من عنصري الوصف والتفسير. تتولى الدراسة التاريخية مقاربة طبيعة الظاهرة التاريخية وأسبابها في ظل احداث المستقبل، فدراسة حركة الحسين مثلاً تعني وصف هوية هذا الحدث العظيم وأبعادها، وتعليلها على أساس مرآة الزمن وفي ظل أحداث المستقبل.

وعلى أساس هذا التعريف للبحث التاريخي، لا تكون أكثر الدراسات اقتراباً من الحدث التاريخي، هي الدراسة الأعمق والأدق بالضرورة، بل كلما تصرم الزمن وأتيح للحدث مجال أوسع للحركة في المستقبل، توفرت لنا إمكانية أكبر للاستيعاب. ان المسافة الزمنية تتيح إمكانية لقراءة أعمق وملاحظة لأبعاد متوارية في الموضوع التاريخي.

ينقل جلال آل أحمد عن أستاذه في تاريخ الحضارة، عباس إقبال، قوله: "لا يمكن تقييم أي حدث حتى يمر عليه مائة عام، إذ لا يتاح ذلك لأي شخص أو أي كتاب أو مدوّنة".

يضيف آل أحمد:"لعله (إقبال) كان على حق في ذلك، وهو المتخصص في التاريخ"[1].

وفي ضوء ذلك فإن القراءة التاريخية هي على غرار التفسير، لا نهاية لها إذ لا يمكن تدوين تاريخ نهائي. نريد بالدراسة التاريخية في الفصل هذا، استيعاب الماضي في إطار نتائجه الحاضرة، وبقدر ما تمتد المسافة الزمنية بين المؤرخ والحدث، تزداد القراءة التاريخية عمقاً. كان التصور الأول يفترض ان استيعاباً تاريخياً لظاهرة ما، يمثل أمراً أدنى في الأهمية العلمية من استيعابها الذي كان متاحاً في عصرها ولحظتها الزمنية، بينما يقرر التصور الثاني ان المعرفة التاريخية تتجلى بعمق أكبر قياساً بالمعرفة المتاحة في لحظة الظاهرة تلك وزمنها.

---

1 - جلال آل أحمد. سركه نقد يا حلواى تاريخ (مرارة النقد، أم حلاوة التاريخ). ارزيابي شتابزده (تقييم متسرع). تهران، انتشارات فردوسي، ص11.

يتولى الجدول 8-4، استعراض مفهومين للمعرفة التاريخية، والأساس الذي يتباينان في ضوئه.

المعرفة التاريخية	الأمر التاريخي	مفهوم الزمان	الاتجاه	ت
إلغاء حاجز الزمن الاقتراب من الحدث لقراءته.	أمر طرأ في الماضي.	حاجز وحجاب	اتجاه العامة.	1
قراءة الماضي في ظل المستقبل .	حدث يتحرك في مجرى الزمان	مرآة حاكية .	الاتجاه العلمي.	2

الجدول رقم 8-4: اتجاهان متباينان في تعريف التاريخي والمعرفة التاريخية.

أهمية البحث التاريخي

ان أهمية اعتماد الاتجاه التاريخي في فهم الظواهر والتعاليم، يعد اليوم أمراً بديهياً، و لم يكن الأمر يحظى بأهمية كهذه في الفكر الكلاسيكي.

أدرك الفلاسفة بعد تأملات هيغل التاريخية، أهمية الفكر الفلسفي في ظل الاتجاه التاريخي، وقد استتبع تداول البحث التاريخي في الدائرة الأوسع، ظهور نقد لجدوى هذا النوع من الأبحاث وفائدته. دوّن نيتشه مقاله الشهير للغاية"حول فوائد

التاريخ للحياة ومضاره"، وقد نشره عام 1847 في القسم الثاني من كتابه"تأملات في غير أوانها"، كما نجده في كتاب "إنساني، إنساني جداً" عام 1878، يتناغم مع العديد من مفكري عصره، فيأخذ في نقد غياب الاتجاه التاريخي لدى الفلاسفة، يقول:" ان غياب الحس التاريخي يمثل ثغرة متوارثة عند جميع الفلاسفة... فالكثير منهم يبادرون تلقائياً إلى تقبل الإنسان بوصفه منتمياً إلى الدين الكذائي أو الاتجاه السياسي الفلاني حتى، وينظرون إليه من هذه الزاوية... متجاهلين كل ما ينطوي عليه ذلك الكيان الذي اكتسب الآن شكله الحالي، وهكذا فإن ما نحن بحاجة إليه بعد الآن، هو الفكر الفلسفي من منظور تاريخي يقترن بالفضيلة والتواضع"[1].

ان التاريخ في مفهومه الحديث ومن خلال الاتجاه العلمي، لا يعمل على زيادة استيعابنا للظواهر وحسب، بل يؤدي إلى مضاعفة الفهم والتعقل، ويرمي نيتشه بحديثه عن الحس الباطن، التأكيد على الثاني.

سيكون التاريخ المعلّم الأفضل حين نريد به اكتشاف الماضي في ظل المستقبل، فالتدبر في مرآة الزمن يجعل من استيعاب الأحداث أكثر عمقاً وأيسر تأدية.

---

[1] - لاحظ الترجمة الفارسية للنص في: إسترن. نيتشه. ترجمة عزت الله فولادوند. تهران، طرح نو، 1373، ص82.

جوانب الحاجة إلى البحث التاريخي في الدراسات الدينية

ثمة آصرة متعددة الأبعاد تربط البحث الديني، بعلم التاريخ وبحوث المنهج فيه وفلسفة التاريخ، وفقاً لما يلي:

1- ورد في النصوص الدينية ترغيب برؤية الماضي في ظل المستقبل، وفي قوله تعالى﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[1] دعوة إلى التدبر في أحوال السابقين والنظر في عاقبتهم، الأمر الذي يمثل في حقيقة الأمر، رؤية لمستقبل الماضي أو اكتشافاً للماضي من خلال المستقبل. وتحذر التعاليم الدينية من التوقف عند راهن الأمور وتجاهل عواقبها ونتائجها القادمة، والدعوة إلى وعي تاريخي كهذا، تدفع المرء إلى محاولة العثور على أدوات ومناهج للتوصل إلى ذلك الوعي، وهكذا فإن الحاجة إلى أدوات البحث التاريخي، تقود الباحث في الحقل الديني، نحو فلسفة التاريخ وأبحاث المنهج التاريخي.

2- يمكن التوصل إلى وصف وتفسير لكثير من المسائل في حقل الأبحاث الدينية، من خلال الاستعانة بعلم التاريخ وأدواته والمعطيات التاريخية، الأمر الذي تنحصر معالجته أحياناً في المنهج التاريخي. اضطر المتكلمون في محاولتهم إثبات النبوة الخاصة والمعجزة والإمامة الخاصة، إلى الاسعانة بالمعالجات التاريخيه، ونجد اليوم كذلك وبعد مرور 14 قرناً تضمنت الكثير من الأحداث طيلة هذه الفترة التي لا

---

[1] - الانعام، 11. النحل، 36. النمل، 39.

تعتبر محدودة للغاية، ان حقيقة نظرية الإمامة الشيعية، يمكن فهمها من خلال المعرفة التاريخية على نحو أفضل.

3- يعتمد المتكلمون اتجاهات غير تاريخية في مسائل نظير عصمة الأنبياء ووحدة التجربة الإيمانية ودور الأنبياء في المستوى الاجتماعي-التاريخي...الخ، بيد ان في وسع البحث التاريخي ان يمثل تحدياً لهم في هذا المجال، ويتطلب الخوض في هذا التحدي خبرة في الأدوات والمناهج التاريخية. وعلى سبيل المثال فليس في وسع علماء الكلام والإلهيات فيما يتصل بموضوع فطرية عقيدة التوحيد، ان يتجاهلوا ذلك التحدي الذي طرحه ديفيد هيوم حين أصدر كتابه"التاريخ الطبيعي للدين" ولا ينبغي لهم ان يتجاهلوا ذلك.

4- ثمة وجود تاريخي للدين، ومن الواضح جداً ان هذه الكلمة لا تعني تجريد الدين عن قداسته وسماويته أو تقليص هاتين السمتين، لأننا لا نزعم ان هوية الدين تاريخية محضة. اقترن ظهور الدين بظهور البشرية وواكبها وهو من البنى التحتية الهامة لحضارة الإنسان، كما انه يحظى بتواصل تاريخي يفوق تواصل أي ظاهرة أخرى، وقد أفرز في حركته المتواصلة هذه العديد من الأشكال والصور والنتائج والمعطيات والآثار. لا يمكن بلورة الهوية التاريخية هذه من خلال الظاهراتية ولا الاتجاه الوجودي، وهكذا فيما يتصل بالاتجاهات الاجتماعية والنفسية. ان الدراسة التاريخية للدين تعد من أهم مناهج البحث الديني، ويمكن من خلال ذلك التوصل إلى حقيقة الدين وحقانيته وصدقه كذلك.

5- لدى التعاليم الدينية ما تقوله بشأن كليانية التاريخ الإنساني والمشيئة الإلهية التي توجه مسارات تاريخية خاصة. ان العاقبة لأولئك الأتقياء، وغاية التاريخ تتجه إلى ما هو أبعد من ذلك. القدر الواقع قضاء إلهي، وتتجه مشيئة الإله نحو التقوى والفلاح والنصر الحق.

تعد هذه التعاليم اليوم، بمثابة نظرية في فلسفة التاريخ النظرية، تتحدى نظريات الاتجاهين المادي والعلماني.

ويدلل استيعابنا لأبعاد حاجة البحث الديني إلى الدراسات التاريخية، على أهمية استيعاب سبل ذلك ومعوقاته. نتولى أولاً في استعراض الأساليب التاريخية، بتناول عملية البحث التاريخي، ثم نذكر بحالات الخلل والأخطاء التي ترتكب في المعرفة التاريخية.

عملية البحث التاريخي

1- سياق الوصف

يمر البحث التاريخي كما هو الحال مع أي برنامج بحثي منهجي آخر، بمرحلتين: الوصف، والتفسير. نتعرف في مرحلة الوصف على كيفية تطور الأمر التاريخي، بينما نتولى في مستوى التفسير، إيضاح أسباب ذلك التحول والتطور. وتمثل المصادر والوثائق والمعلومات، أدوات رئيسة في عملية الوصف. يمكن ان تكون المصادر والوثائق من الدرجة الأولى، من قبيل روايات الشهود العيان، كما يمكن ان تكون ثانوية من الدرجة الثانية. ان التوصل إلى مصادر الدرجة الأولى يواجه صعوبة أكبر، بيد ان الدقة التاريخية تتطلب منا ان لا نتوانى في محاولة العثور عليها.

تدخل الوثائق والمصادر بوصفها معلومات في عملية البحث التاريخي، حين تخضع لنقد وتقييم دقيقين. وثمة فارق بين البيانات التاريخية والمعلومات التاريخية كما ذكرنا ذلك سابقاً، حيث نقوم في البحث التاريخي، بتحويل البيانات إلى معلومات أولاً، وعملية التحويل هذه هي نقد للوثائق التاريخية.

غالباً ما يجري استخدام نمطين من النقد هنا، فثمة نقد داخلي وآخر خارجي. يتولى النقد الخارجي تقييم صحة المعلومات ودقتها، بينما يعمل النقد الداخلي على تحديد أهلية المعلومات ومدى كونها مناسبة للبحث. والمقياس في التقييم الأخير هذا هو الموضوعية *objectivity*، والتجرد عن المواقف والرؤى الشخصية. وهذه مسألة لا تزال إمكانية تحقيقها مثاراً للجدل في فلسفة التاريخ.

كانوا في الماضي يؤكدون على مقياسين رئيسين في هذا السياق: ثقة المخبر، والتواتر في النقل. لقد تناول ابن خلدون هذين المقياسين وأخضعهما لنقد جيد، ورأى ان معالجة المعلومات وتقييمها يتطلب خبرة الباحث في علوم نظير علم الأعراق (إثنولوجيا) والجغرافيا...الخ. قام ديفيد هيوم بعد ذلك بإحياء اعتراضات ابن خلدون، أما اليوم فقد ظهرت أدوات دقيقة ومناهج وتقنيات أكثر جدوى، الأمر الذي أحدث تحولاً في النقد التاريخي.

ما هي مسائل سياق الوصف الرئيسة في البحث التاريخي؟ ان تمحور البحث حول المسألة يتطلب تحديد المسائل الخاصة بهذا المستوى، وتتولى الدراسة التاريخية في السياق هذا، تناول كيفية الأمر التاريخي كما بينا ذلك على نحو الإجمال آنفاً، ولكن ما هي المسائل التي يتضمنها ذلك البحث؟

يواجه الباحث في هذا السياق ثلاثة أسئلة أساسية، أولها يستفهم حول كيفية ظهور الأمر التاريخي وتكوينه. من الذي قام بخلق هذه الظاهرة أو الفكرة التاريخية، وأين، وكيف، وفي ظل أية ظروف وضمن أي إطار؟ ما هو الشكل الذي اكتسبته في لحظة تكوينها الأولى؟ من هو النبي الذي جاء بالدين الإسلامي مثلاً، ومن أي قبيلة كان، وفي أي زمن وخلال أي قرن وضمن أي ظروف كان ذلك؟

ويمكن ان يتناول سياق الوصف، شتى الأمور التي تتصل بظهور الأمر التاريخي ومنشئه على نحو من الأنحاء. ثمة الأبعاد النفسية والشخصية، والأحوال الاجتماعية، والمكانة التاريخية، والظرف السياسي والثقافي والاقتصادي للحظة

الظهور، وكل هذا يمثل أشياء لا يمكن تجاهلها. من المفيد في هذا المستوى من البحث، استيعاب تاريخ الحدث، ويمكن بشيء من التساهل، ان نسمي هذا القسم من البحث التاريخي، بدراسة البدايات وظروف التكوين.

يفتتح السؤال الثاني مرحلة أخرى من الوصف التاريخي، وهو يستفهم حول تطور الأمر التاريخي وكيفية ذلك. كيف طرأت التحولات على الحدث التاريخي؟ ما هي الأشكال التي اكتسبها؟ وما هي المعطيات والنتائج التي استتبعها؟ ما هي الأطر التي جرى تكريسه فيها؟ وما هي المستويات التي تحرك فيها والاتجاهات التي انتظمت حركته تلك؟ ما هي التصورات ووجهات النظر التي طرحت حوله؟ يمكن ان نسمي هذا المستوى من الوصف بدراسة مسار الحدث، وهو ما يشمل مرحلة ما بعد ظهور الحدث وتكوينه، حتى اللحظة التي تسبق المرحلة المعاصرة (وفقاً لزمن الباحث).

يستفهم السؤال الثالث حول الوضع الراهن للحدث أو النقطة التي انتهى إليها. ما هي النقطة التي بلغها مسار ذلك الحدث التاريخي في نهاية الأمر مطلقاً أو نسبياً؟ ما هو الشكل النهائي له وما هو آخر تحول طرأ عليه؟ ويدخل في هذا التساؤل أيضاً، التنبؤ بالحدث وأشكاله المستقبلية، الأمر الذي يؤكد البعض على أهميته في البحث التاريخي. ان تحديد موقع الحدث ومكانته ضمن راهن الإطار الذي ينتمي إليه الحدث، يمثل المرحلة الأهم في سؤال المستوى الثالث من سياق الوصف.

ويتجه مسار البحث التاريخي في كل من المراحل الثلاثة المذكورة، نحو اكتشاف الماضي في ظل المستقبل، ويتحرك البحث من الحدث نحو المستقبل. غير ان المستقبل هذا لا يجري تناوله أبداً بنحو منفصل عن ماضي الحدث، بل يتمثل موضوع الدراسة بالحدث والآصرة التي تربطه بالمستقبل. وبكلمة أخرى فإن

الهدف الأساسي من الوصف التاريخي هو الكشف عن تلك العلاقات وتحديد طبيعتها.

2- سياق التفسير

يمثل تفسير الأحداث التي تكون موضوعاً للبحث، واحداً من الأشياء التي نترقب من الدراسة التاريخية ان تتكفل بها. لماذا وقعت معركة عاشوراء عام 61 للهجرة؟ كيف تكونت فرقة الخوارج؟ ما هو السر في تطور نظرية العصمة على هذا النحو؟ ما سبب تبلور مسألة الإيمان والعمل الصالح، في أولى مراحل الفكر الإسلامي؟ لماذا طرأ كل هذا التحول في مسألة تفسير الإيمان؟

ذكرنا سابقاً ان للتفسير بنيته المحددة، ولا بد من وجود قانون عام شامل في بنية كهذه. ما هو نمط القوانين التي يستخدمها المؤرخون في تفسير الأمر التاريخي؟ نتساءل أساساً: هل ثمة قوانين عامة في متناول يد المؤرخ، بمفهوم العموم المتاح في العلوم التجريبية؟ هل من الضروري ان تكون التفسيرات التاريخية سببية (تفسيرات قائمة على تحديد العلة السببية الفاعلية) أم ان في وسعها اللجوء إلى العلة الغائية كذلك؟ يمثل تحديد ماهية التفسير التاريخي وهويته، موضوعاً هاماً اليوم.

ان ماهية التفسير التاريخي وبنيته بهذا المعنى الخاص، أمر لا يزال يمثل واحداً من الموضوعات الجديدة نسبياً. حيث لم تكن مسائل منهجية كهذه حتى القرن التاسع عشر، تبحث في المرحلة الأولى. غير ان عدداً قليلاً من الباحثين في المرحلة التي تلت عصر التنوير، راحوا يتصورون من خلال أسلوب خاص، ان ثمة إشكالية محددة فيما يتصل بالتفسير التاريخي، أي ما يتصل بتفسير الأحداث التي يتدخل فيها العامل الإنساني. كان الكثير من الباحثين في القرن الثامن عشر، يعتقدون ان الوقت قد حان لتفسير المسائل بنوع من الفيزياء العامة، وساد اعتقاد بأن مناهج نيوتن يمكن ان تعمم على كل مناحي الطبيعة. وفي النصف الثاني من القرن التاسع

عشر، تحولت فلسفة العلم والتحليل الفلسفي لمناهج التاريخ، إلى تخصصات علمية مستقلة، وطرح للمرة الأولى، موضوع التعليل التاريخي منطقياً[1].

قلّما يُنتظر اليوم، العثور على القانون الشامل الذي يتولى اكتشاف الشرط الضروري للأحداث، ولذلك فقد ظهرت بدائل لنظرية القانون الشامل، من أقربها نظرية تقرر ان الفرضيات العامة الشاملة تلك، لا تعد شرطاً ضرورياً. والنظرية الأخرى هي نموذج الشرط الكافي التي طرحها أمثال جون غوج، والنظرية الثالثة هي نموذج الشرط الضروري.ما هي المسائل الأساسية في سياق التفسير؟ نواجه في سياق التفسير التاريخي كذلك، ثلاث مسائل رئيسة، تتجه كل منها إلى واحدة من المسائل الرئيسة في سياق الوصف، وهي تتضمن العديد من المسائل.

1- ما هو السر في ولادة الحدث التاريخي ضمن تلك اللحظة المحددة، وعلى يد الشخص الكذائي، وفي إطار ظروف كتلك؟.

2- لماذا طرأ تحول تاريخي كهذا؟ ما هو سبب اتجاه الحدث التاريخي نحو مسار كهذا، ولماذا لم يتخذ شكلاً تطورياً آخر؟.

3- لماذا انتهى الحدث التاريخي إلى نتيجة كذه، واتخذ شكله الحالي وموقعه الراهن؟.

من الواضح جداً ان التساؤل بلماذا في المسائل هذه، هو استفهام عن السبب والعلة، لا الدليل. وعلى هذا الأساس، فإن عملية البحث التاريخي تقطع ست مراحل: تتصل ثلاث منها بسياق الوصف، وتنتمي الثلاثة الأخرى إلى سياق التفسير، مما هو مبين في الجدول أدناه.

---

[1] - لاحظ:

Weingartner, Ibid.

عملية البحث التاريخي		
1	الوصف	كيفية ظهور الأمر التاريخي .
2		كيفية تطوره وتحوله وتكامله .
3		كيفية اكتسابه الشكل النهائي .
4	التفسير	سبب الظهور في ضوء النقطة .
5		سبب التطور والتحول في ضوء النقطة الثانية
6		سبب الشكل النهائي في ضوء النقطة الثالثة .

الجدول رقم 8-5: ست مراحل لعملية البحث التاريخي.

أخطاء البحث التاريخي

رغم فوائد البحث التاريخي ودوره المؤثر في قراءة ظاهرةٍ أو نظريةٍ ما، بيد انه يؤدي إلى تبعات عديدة، ويلعب تحديدها دوراً في تفادي التورط فيها. ثمة تبعات وأخطاء لا يمكن التخلص منها بمعنى من المعاني، وهي تعد من الأخطاء التي لا مناص منها في بحوث كهذه. ان الخيار المتاح هنا، هو تحديد هذا اللون من الأخطاء، بهدف رسم حدود البحث التاريخي على أساسها.

لكن في وسعنا معالجة بعض الأخطاء من خلال أساليب منطقية.

1- الغفلة الناشئة عن الانتقائية: لا سبيل إلى تجنب عملية الانتقاء في جميع الأبحاث المتداولة سواء في العلوم الطبيعية أو الاجتماعية[1]. حيث يشترط في البحث العلمي، انتقاء المعلومات في سياق الوصف، وانتقاء الفرضيات التفسيرية، وانتقاء زاوية الموضوع ومسألة البحث قبل ذلك.

ويعني الانتقاء أخذ أمر أو جانب، وتجاهل أمور وأشياء أخرى، مما يستتبع آثاراً متعددة في البحث يؤدي عدم استيعابها إلى ظهور أخطاء واسعة النطاق في حالات شتى. ثمة نتيجة مباشرة للانتقاء لا يمكن تفاديها، هي الغفلة عن الأبعاد المتنوعة للشيء والرؤية الأحادية، أما نتيجته غير المباشرة فهي تعزيز ميل المرء نحو الحصرية المنهجية.

لكن هنالك ضرراً أكبر يلحق بالبحث التاريخي نتيجة للانتقائية في هذا اللون من الأبحاث، وذلك بسبب تعقيد الموضوع وغموضه. ينبغي للباحث ان يدرك ان من الممكن ممارسة الوصف على هذا النحو أيضاً، ويتجنب الدوغماتية والتورط في الحصر المنهجي. لا نعني بكلامنا هذا نسبية المعرفة، بل نريد بذلك أهمية التواضع العلمي والتعددية المنهجية، التي تنبه إلى إمكانية وجود نمط آخر من الوصف، وتتجه إلى ما وراء المعرفة المتبلورة، نحو معرفة جديدة أكثر عمقاً.

2- تحويل الظاهرة إلى كائن تاريخي محض: ذكرنا ان موضوع البحث التاريخي يتمثل في أمر اكتسب وجوداً تاريخياً، وهكذا فإن الباحث في هذا الإطار يتناول موضوعاته من حيث وجودها التاريخي. ان الظاهرة أو الفكرة التي يدرسها المؤرخ، هي أمر تاريخي، غير ان ملاحظة الجانب التاريخي في موضوع البحث يمكن ان توحي للباحث وتوهمه بأن الموضوع هذا ليس سوى وجود تاريخي. يشيع هذا اللون من التصور الزائف، ويؤدي عدم ملاحظة الجوانب الأخرى إلى إقصائها

---

[1] - لاحظ: عبد الكريم سروش. علم چيست؟ فلسفه چيست؟ (ما هو العلم؟ ما هي الفلسفة؟). طهران، صراط، 1371. ص36-40.

وتجاهلها. والاختزالية في التاريخ، هي رؤية تفترض ان الظاهرة التي نتناولها في البحث التاريخي، لا تمتلك هوية سوى كونها أمراً تاريخياً.

ان الاختزالية التاريخية على حد تعبير كالينغوود، هي حصيلة للنموذج الزمني للفكر، والذي شاع في القرن التاسع عشر، وجعل من المنظور التاريخي عوينات ألبسها للأنثروبولوجيا والميتافيزيقا وفهم الطبيعة. والاختزالية التي نشأت عن الاتجاه التاريخي في المعرفة، تتسم بخطورة أكبر ولا سيما في الأبحاث الدينية، ذلك لأنها تعني ان الدين والظواهر الدينية لا تمتلك سوى هوية تاريخية، الأمر الذي يعني بدوره إنكار قدسية الدين التي تمثل جوهراً له، وهو ما يحرم الباحث من القراءة الواقعية.

4- الدمج بين الدافع والنتيجة: يمكن القول بإيجاز ان البحث التاريخي هو دراسة الأسباب والنتائج في تواصل حيوي وسلسلة دالّة. ونجد ان مفهومي الدافع ونتيجة الدافع، يمثلان في موضوعنا هذا مصطلحين أبلغ من مفهومي العلة والمعلول أو السبب والمسبب على التوالي. تعمد الحكومة مثلاً إلى افتعال حدث أو إشاعة فكرة، استناداً إلى هدف سيء أو نبيل. وتستتبع هذه الظاهرة أو الفكرة سلسلة من اللوازم والنتائج على مر التاريخ، فثمة سلسلة من الدوافع ونتائجها. تمثل دراسة الدوافع إطاراً لاكتشاف نتائجها، كما ان فهم النتائج هذه يمثل طريقاً للتوصل إلى فهم أعمق للدوافع.

لكن ثمة أخطاراً تنطوي عليها هذه الدراسة، من أهمها عدم التمييز بين الدافع ونتيجته، حيث يمكن ان يقوم الباحث بتعميم أحكام الدافع وخصائص السبب، إلى نتيجة الدافع والمسبب (بالفتح) أو بالعكس. ان اكتشاف الدافع في ظل نتائجه وفهم المسبب في ضوء السبب، لا يعني عدم التمييز بين أحكام وخصائص هذين العنصرين. ففي الحالة الأولى نتعامل مع أسلوب في البحث التاريخي، أما

الحالة الثانية فهي من المزالق والأفخاخ. ان هذا اللون من الخلط والدمج يمثل نموذجاً للمغالطة التي تقرر "ان "س" نتيجة "ص"، إذن "س" هو "ص" ذاته".

والمشكلة الرئيسة في هذا الخطأ هو تعارضه مع البحث التاريخي، فهذا اللون من الأبحاث يمثل رؤية تكاملية متجددة، بينما حالة الخطأ المذكورة هي إلغاء للتطور ومنظور سكوني يرى الظاهرة في حال توقف وجمود. ان تعميم أحكام الدافع ونتيجته من أحدهما إلى الآخر، يمثل على نحو الدقة، نفياً لتطور الظاهرة من الحالة السابقة إلى الحالة التالية. يرى بعض الأساتذة تلامذتهم السابقين، على النحو الذي كانوا عليه أيام الدراسة، كما ان بعض الآباء لا يستوعبون تطور أبنائهم بسبب نظرتهم السكونية، ولذلك فإن الأولاد يظلون عند الآباء أطفالاً صغاراً، رغم انهم يتقدمون في السن ويكبرون.

ليس من السهل معالجة هذا الخطأ، لكن الانتباه إلى كونه خطأً يمثل خطوة هامة مع انها غير كافية. نجد ان العديد من أولئك الذين تحدثوا عن عدم التمييز بين الدافع والنتيجة، بمستوى خبير صائب، قد وقعوا دون قصد ودون ان يشعروا بذلك، في الخطأ ذاته. ولهذا فإن الإحاطة بهذا الخطأ وعقد العزم على تفاديها أو علاجها، لا يعني النجاح في ذلك بالضرورة. يتطلب الأمر مناهج علاجية تؤدي إلى تغيير الرؤية المذكورة.

4- الدمج بين الحكم والقيمة: يذعن أغلب المؤرخين ان الأحكام القيمية ذات دخل في البحث التاريخي في سياقي الوصف والتفسير. فالمؤرخ على حد تعبير كارل بيكر *K. Becker*، لا يمكنه تجاهل المقاييس الشخصية، وهذا ما يصدق على شتى الحقول البحثية، لكنه يكتسب في الحقل التاريخي أهمية أكبر. إذا كانت الأحكام القيمية للمؤرخ كما يقول دراي *Dray*، لوناً ينبع من طبيعته كباحث، فإن من غير المنطقي بالنسبة له ان يحاول ان يصبح مرآة حيادية. ويبدو بكلمة أخرى ان حضور شخص الباحث في الدراسة التاريخية بكل ما يتملكه من عواطف

وإثارات ورؤى، يمثل أمراً داخلاً في صميم طبعه ولا يمكن تجنبه، غير ان ذلك بعينه يعد أمراً عادياً في حقول البحث الأخرى.

ليس في وسع البحث التاريخي ان يتفادى إحالة الغايات والأهداف، إلى الفاعل الإنساني، وتقديم تعليلات غائية. ورغم ان ذلك لا يستلزم منطقياً ان يقوم المؤرخ بتقييم لمواقف كهذه، غير ان هذه التبعات أو النقلات بتعبير أدق، تتم بسهولة وعلى شكل تورط في المتاهات.

ان قيمية الأحكام تحول دون اتسام انتقائنا للمعلومات، بالموضوعية، وتؤثر سلباً على سياقي الوصف والتفسير. ان المؤرخ في البحث التاريخي، إنسان يتقوم بعناصر شخصيته وانفعالاته وعواطفه، كما ان موضوع البحث هو مواقف إنسانية تنشأ عن الانفعالات والعواطف، وتحفز الانفعال والعاطفة. "الغضب والشهوة يصيبان المرء بالحَوَل".

ثمة العديد من العلماء من ذوي الميول الوضعية، يطالبون بالموضوعية والحياد في البحث التاريخي، ويتصورون ان في وسع المؤرخ تجنب الأحكام القيمية، غير ان معالجاتهم لظواهر عصرية لا تاريخية، لا تخلو من الحكم القيمي. لو خرج تلميذ عن دائرة الأتباع التي يهيمن عليها الأستاذ وتمرد، فإن ذلك يكفي لكي تصبح أحكام الأستاذ في طيف قيمي يقترن بعدم التمييز بين الدافع والنتيجة. من المؤسف ان تاريخ العلم يزخر بنماذج من انحيازات فرويد ويونغ وبوبر ولاكاتوش وأمثالهم.

لا تطرأ الأخطاء الأربعة المذكورة كلاً على حدة وبنحو مستقل، بل غالباً ما تدخل في شبكة من العلاقات التي تعزز ذلك. ان الغفلة الناتجة عن الانتقائية، ستتبع أحكاماً قيمية، توقع الباحث في فخ عدم التمييز بين الدافع والنتيجة، وهما معاً يعززان الاختزالية التي تؤدي بدورها إلى تكريس حالة الانتقاء.

تمرين

1- اختر واحداً من الكتب التالية، حسب اهتماماتك البحثية، وقم بدارسة تاريخية اتجاه المؤلف على مستوى منهج البحث التاريخي.

- فضل الله الزنجاني. تاريخ علم الكلام في الإسلام. إيران، مشهد، بنياد بژوهشهاي اسلامي آستان قدس رضوي، 1417هـ.

- ابو الفضل مير محمدي. بحوث في تاريخ القرآن وعلومه. بيروت، دار التعارف للمطبوعات، 1400هـ.

- *Resher, Nicholas, The Development of Arabic Logic, University of Pittsburgh Press, 1964.*

2- ورد النص التالي في كتاب نيتشه (شفق الآلهة) عام 1888، حول مذهب افلاطون. ما هو التصور الذي يقدمه نيتشه للاتجاه التاريخي في التحليل التالي؟

أ: ان عالم الحقائق متاح للحكيم الورع التقي، بمعنى انه يعيش في ذلك العالم، وهو يمثل ذلك العالم بذاته، أو انه متوحد معه. (وهذا أقدم تعبير ذكي وبسيط ومقنع نسبياً، عن "المثال"[1]، ولتفسير قضية "انني – أي افلاطون - عين الحقيقة").

ب: بات عالم الحقائق متاحاً الآن، لكن هذا هو ما وُعِد به الحكيم الورع النقي "أي المذنب التائب". تطور المثال: أصبح أكثر دقة وأشد خداعاً وجذابية، غير انه بات غير متاح: أصبح مؤنثاً، وأصبح مسيحياً.

جـ: لم يعد عالم الحقائق متاحاً يمكن إثباته أو يمكن إطلاق الوعود به، غير ان مجرد فكرته تقدم المواساة وتخلق الواجبات والأوامر "هذا في أساسه يمثل

---

1 - أي واحد المثل الافلاطونية. (المترجم).

انعكاساً لتلك الشمس المتواصلة ذاتها، فصارى ما هنالك انها تُرى هذه المرة من وراء ضباب الشك: بات المثال الآن رفيعاً، باهت اللون شمالياً كينغسبيرغياً[1]، أصبح مسقط رأس كانط".

د: ألم يعد عالم الحقائق متاحاً لنا؟ لم يتح على أي حال، ولذلك فهو غير معروف، وهكذا فهو لا يواسي ولا يمنح التقوى ولا يخلق الواجبات. ما هو الواجب الذي يمكن للشيء المجهول ان يدفعنا إليه؟ (مع الذئب ونعاج الفجر، يكون أول خمول للعقل، والصيحة الأولى لديك الوضعية).

هـــ: بات عالم الحقائق الآن، فكرة لا تصلح لشيء، حتى انها لا توفر لنا أساساً للواجبات. فكرة زائدة لا جدوى منها، ولهذا فهي باطلة جرى دحضها. دعنا نتخلص منها! (نهار مشرق، صباح مبكر، عودة العقل السليم والمحيّا الوضّاء السعيد، ضجيج شيطاني لشتى الأرواح المتحررة).

و: تجاوزنا عالم الحقائق، فما هو العالم الذي بقي على حاله؟ هل هو عالم الأشكال والظواهر؟ لا أبداً، فقد تخلصنا من عالم الأشكال مع عالم الحقائق! (منتصف النهار، لحظة تبلغ فيها الظلال أدنى حدودها، نهاية لأفظع الأخطاء، مستوى لذروة الإنسانية، يبدأ الخطاب الأوقح)[2].

---

[1] - نسبة إلى مدينة كينغسبيرغ، وهي مسقط رأس كانط. (المترجم).

[2] - لاحظ الترجمة الفارسية في: استرن. نينشه. ص84-89.

الفصل التاسع:

الدراسات المقارنة

مدخل

يمثل البحث المقارن، عنواناً متداولاً مقبولاً يحظى باهتمام الباحثين في العديد من المجالات. تذكر كلمة (المقارن) أحياناً لوصف عنوان أو منهج لمشروع بحثي، نظير العناوين التالية:"محاربة الفساد الإداري في البلدان المتقدمة والنامية: دراسة مقارنة"، "الإلهيات عند المفيد وابن سينا: دراسة مقارنة"، "الإنسان عند المتكلمين: اتجاه مقارن"... كما تأخذ بعض البرامج التعليمية بعين الاعتبار مقرراً دراسياً مستقلاً للاتجاه المقارن، فهنالك الفلسفة المقارنة، والفقه المقارن، والإدارة المقارنة، وعلم الكلام المقارن...

أما في بلادنا فإن العلماء المعاصرين يتعاملون بطرق مختلفة مع الأسلوب المقارن، فالبعض يعده تعبيراً أجوف وجهداً لا طائل منه، وآخر يرى انه ينحصر في نطاق محدود أي فيما يتصل بالأشياء التي يمكن قياسها بغيرها، لا انه أمر غير مجدٍ. بيد ان هؤلاء غفلوا عما ينطوي عليه كلامهم هذا من حشو واستدراك، لأن قياس الأشياء بغيرها هو المقصود بالمقارنة. ونلاحظ اتجاهاً ثالثاً يسرف في استخدام مصطلح المقارنة على نحو سخي للغاية في عناوين الأبحاث، فهم يتصورون ان البحث المقارن يصدق على كل حالة نضع فيها أمراً في جوار أمر آخر أو إلى

جانبه. ان حجم الغموض في مفهوم البحث المقارن وآليته، يبلغ مستوى أعلى مما ذكر بنحو الإجمال. ويجري وصف العديد من رسائل الدراسات العليا، بأنها دراسات مقارنة، غير انها لا تتضمن أي لون من البحث المقارن المنهجي.

وهذه الحيرة نتيجة للغموض في ماهية الدراسات المقارنة وآلياتها بالدرجة الأولى، ويتمثل الغموض الأول في شيوع مقاربات مخفقة للبحث المقارن. جرى توجيه السؤال التالي مرات عديدة إلى أولئك الذين يعارضون الدراسات المقارنة: ما هو مفهومكم للبحث المقارن؟ طُلب من الأساتذة والدارسين في فروع المنطق المقارن والفلسفة المقارنة وعلم الإدارة المقارن، ان يستعرضوا مفهومهم لعناوين هذه الفروع العلمية، وكانت الإجابات تعبر عن غموض شديد في المفهوم. وهو غموض لا بد من تبديده كي يمكن الإيمان بجدوى هذا النمط من الأبحاث ويجري الاهتمام به.

دوّن تصورك حول البحث المقارن بوضوح وتحديد، فما هو المعنى الذي يتداعى إلى ذهنك حين تسمع المصطلح هذا؟ كيف لك ان تمارس تحليل مفهوم "البحث المقارن"؟ سجل ذلك في الجدول أدناه وقارنه بالجدول 9-5.

طبيعة البحث المقارن :
....
....
....
....
....
....
....
....

الجدول رقم 9-1: تصورك حول البحث المقارن.

يتمثل الغموض الآخر في الموضوع، بعدم تحديد نطاق المقارنة، الأمر الذي ينتج عن غياب مقياس دقيق لتحديد إمكانية البحث المقارن. كيف يمكن ان نحدد

إمكانية المقارنة بين (س) و(ص)؟ ما هو تصورك حول المقياس في إمكانية المقارنة *comparability*؟ ما هو الشيء الذي يمكن مقارنته بشيء آخر، بينما لا يمكن مقارنته بشيء ثالث؟

ان الإجابة على هذا التساؤل، هو شرط في تحديد ما إذا كان استخدامنا للبحث المقارن، صحيحاً أم لا. متى يكون البحث المقارن سلوكاً لطريق خاطئ؟ سجل في الجدول التالي، المقياس أو المقاييس التي تختار في ضوئها، موضوع المقارنة. ثم قارن ذلك بالجدول رقم 9-7.

المقياس في المقارنة :
....
....
....
....
....
....
....

الجدول رقم 9-2: المقياس في تحديد نطاق المقارنة.

يتصل ثالث مستويات الغموض بعملية البحث المقارن. فالتعريف وفق الفصل الخامس الذي مر، ليس مجدياً في المستوى العملي رغم أهميته الشديدة في إضاءة الصورة على المستوى النظري. وهكذا يتطلب التوظيف العملي للبحث المقارن، تحديد خطواته العملية إلى جانب تعريفه وتحديد نطاقه. وبعد ان نعرف ما هي الدراسة المقارنة، فلا بد ان يتضح كيف يبدأ البحث المقارن. ما هي المراحل التي يمر بها؟ ما هي أساليبه ومناهجه؟

لنفترض اننا نتناول بالبحث حقوق الطفل، فما هي المراحل التي ينبغي ان

يمر بها بحثنا؟ سجل ذلك في الجدول 9-3، ثم قارن بموضوع خطوات الدراسة المقارنة ضمن الفصل الحالي، الجدول 9-6.

عملية البحث المقارن	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

الجدول رقم 9-3: خطوات البحث المقارن

ان واحدة من المزالق في البحث المقارن، تتمثل بحالات التشابه والتفاوت الشكليين، حيث يُخدع العديد من الباحثين بظواهر الأشياء، ولا يميزون بين ظواهر متباينة جذرياً، بينما يعتقدون بتباين ظواهر هي متشابهة في حقيقة الأمر، وهؤلاء لا يتوصلون في أبحاثهم إلى شيء سوى أفكار ملفقة من هنا وهناك. نتساءل: كيف لنا تجنب هذا النـــزوع نحو الأشكال والظواهر؟ كيف لنا ان نتجاوز الشبه أو التباين الشكلي، لنتوغل في الشبه أو التباين الحقيقي؟

دون تصورك في الجدول 9-4، وقارنه في الجدول 9-7.

أساليب تجنب جوانب المقارنة الشكلية	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....
6	....

الجدول 9-4: ما هو تصورك حول الأساليب التي تتيح لنا تجنب الوقوع في فخ الشبه أو التباين الشكليين؟

ماهية البحث المقارن

ثمة مقاربات عديدة للبحث المقارن *comparative study*. وندرس فيما يلي نماذج من الإجابات التي قدمها عدد من طلبة الدكتوراه حين طرح عليهم سؤالاً حول ماهية الدراسة المقارنة.

- الدراسات المقارنة هي دراسة الأشياء عبر قياسها على بعضها.
- دراسة جوانب الاشتراك بين ظاهرتين أو رؤيتين.
- دراسة حالات الاختلاف بين أمرين.
- منهج لاكتشاف الظواهر عبر المقارنة بينها.
- ان نتخذ نظريةً ما، أساساً للبحث ونتولى دراسة مدى تطابق النظريات الأخرى معها.

راح المتخصصون في علم الإدارة، يؤكدون على الإدارة المقارنة نظراً لأهمية البحث المقارن. يعتقد راغونات ان الإدارة المقارنة تعني في مفهومها، الإدارة بين ثقافات متعددة[1]. وقد عدّوا الإدارة المقارنة دراسة لمهنة الإدارة في شتى الثقافات

[1] - راغونات. مديريت تطبيقي (الإدارة المقارنة). ترجمة عباس منوريان. طهران، دانشگاه آزاد اسلامي، 1377.

والبلدان، تستهدف تحديد القواعد المتداولة ومدى الاختلاف في هذا النطاق بين الثقافات[1].

ان مفهوم "لدراسة القائمة على القياس بين الأشياء"هو الأكثر مركزية فيما يتصل بماهية البحث المقارن، ويطرح في بداية الموضوع هذا. لم نجد معظم الذين عرّفوا البحث المقارن، بداً من الاستعانة بهذا المفهوم في التعريف. بيد ان هنالك بضعة ملاحظات فيما يتعلق بذلك يمكن ان ندقق النظر فيها.

أولاً: ان تعريف البحث المقارن بأنه" دراسة تقوم على القياس بين الأشياء" هو في حقيقة الأمر تعريف لفظي "شرح اللفظ"، وهو من تفسير الدلالة *meaning*.

ثانياً: لو لم يتضح بالكامل ما نقصده بالدراسة القائمة على القياس بين الأشياء، فإن التعريف هذا سيقع في الدور، لأن القياس المذكور يعني المقارنة، والمقارنة تعني القياس بالمعنى المفترض.

ثالثاً: ان استخدام تعبير"الدراسة التي تقوم على القياس بين الأشياء" محفوف بالغموض نسبياً، وذلك لأنه ليس من الواضح ان الدراسة تلك هدف للبحث أم أداة ومنهج له! هل هي موضوع أم مسألة؟ يتصور البعض ان القياس المذكور، نتيجة للبحث المقارن وأن رسالة هذا النمط من الأبحاث هي اكتشاف جوانب الشبه والتباين، بينما المقارنة ليست سوى اتجاه في تحقيق الهدف البحثي وأداة لذلك. نتساءل الآن: ما هو هدف البحث؟ وبكلمة أخرى فإن البحث المقارن وصف لمنهج البحث لتحقيق هدف معين. ان هدف الدراسة التي تقوم على القياس بين الأشياء، ليس سوى الفهم والاكتشاف كما هو الحال مع أي اتجاه بحثي آخر. والمراد من الفهم والمعرفة هنا ما يعادل كلمة ***knowledge*** التي تحدثنا عنها في

---

[1] - هيشر ساورد. درك رنج: فرهنك مديريت (التعرف إلى الأزمة: ثقافة الإدارة). ترجمة محمد صائبي. تهران، مركز أموزش مديريت دولتي، 1371. ج1، ص132.

السابق. وموضوع المعرفة هذه إما ان يكون ظاهرة أو فكرة أو أمراً واحداً أو منظومة.

نستنتج في ضوء ما مر، المفاهيم الأساسية للبحث المقارن كما يلي:

1- فهم ظاهرةٍ أو فكرةٍ ما، وهو هدف البحث المقارن: الدراسة المقارنة أسلوب للتوصل إلى فهم متعدد الأبعاد، وهكذا ينبغي اعتماد ذلك بمثابة مفهوم أساسي في تعريف البحث المقارن.

2- فهم حالات التباين والاشتراك وتفسيرها: وهذا هو الركن الثاني في التعريف. ليست المقارنة سوى وصف حالات التباين والاشتراك وتفسيرها في الأشياء التي تناولناها بالمقارنة.

ويمثل الركن الثاني هذا، تفسيراً لمفهوم المقارنة وهو أسلوب في التوصل إلى الركن الأول في حقيقة الأمر. وعلى هذا الأساس يمكن تحليل مفهوم البحث المقارن (الجدول 9-5).

البحث المقارن قراءة ظاهرة أو فكرة في إطار مقارن (فهم مستويات الاشتراك والتباين، وتفسيرها) .

الجدول رقم 9-5: تعريف البحث المقارن.

دور البحث المقارن

ثمة مكاسب متعددة يحققها البحث المقارن، وتمثل المقارنة بين أمور عدة في البرامج التعليمية واحداً من أساليب اكتساب المهارة البحثية والدربة على الاستنتاج السريع والدقيق. بينما يلعب المنهج المقارن في البحث دوراً في منح الباحث رؤية على مستوى المنظومة المعرفية، وبصيرة نافذة شمولية.

ان الاتجاه المباشر في فهم الأشياء، يحرم المرء رؤية أبعادها المختلفة، ويجعله سطحياً. لنفترض ان مديراً لا يرى على الدوام سوى نفسه والمؤسسة التي يتولى إدارتها. ولكن ما مدى واقعية تصوره حول نفسه ونجاحاته ومشاكله ومستقبل مؤسسته؟ بينما نفترض مديراً آخر يرى نفسه في ضوء رؤيته لغيره من الكوادر الإدارية، فهذا يمارس تقييم إدارته بالمقارنة مع الدوائر المنافسة والمشابهة. ترى أي التصورين أكثر عمقاً وشمولية؟ من المؤكد ان تصور المدير الثاني يمثل موقفاً استراتيجياً أعمق.

نجد ان البحث المقارن يقود المرء بعيداً عن الحصر المنهجي، ويتيح له استيعاب الجوانب الخفية في موضوع البحث، ويجعله أقدر على تحديد المسائل وملاحظة الثغرات. ويمكن العثور على الدور المؤثر للبحث المقارن، في مطالعتنا للنص القرآني، فالقرآن يستخدم أسلوب المقارنة بين الأشخاص بهدف إيجاد تحول في الرؤية وبلورة بصيرة نافذة، الأمر الذي نجده في قوله تعالى ضمن استفهام دالّ (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). ومن النماذج الأخرى لهذا الأسلوب الذي يربي الرؤية الثاقبة، مقارنة القرآن بين أهل الإيمان والعمل الصالح،

والمفسدين في الأرض، والتدليل على التباين بين المتقين والفجار، مما جاء في الآية 28 من سورة (صاد).

ان اعتماد الاتجاه المقارن في البحث، يعكس السر في أننا نتوصل إلى أسئلة متباينة في حقل معرفي واحد، ويفسر وجود تصورات متنوعة في إطار معالجة سؤال واحد. ونجد ان التأمل في مستويات التباين وجوانب الاشتراك في الأشياء والأفكار إلى جانب محاولة تفسير ذلك، يكشف الأبعاد الخفية في الأشياء تلك.

تحديد نطاق المقارنة

يدور الخلاف حول إمكانية المقارنة وعدم إمكانها، ثم ينتقل إلى الحديث عن جدوى البحث المقارن على تقدير إمكانه. وإنما يمكن معالجة الخلاف هذا، حين تتضح دائرة المقارنة ونطاقها علاوة على تبديد ما يحف التعريف من غموض. يمكن على أساس تصور لنطاق المقارنة، القول بأنها جهد لا جدوى منه، بينما في وسعنا على أساس تصور آخر لذلك النطاق، ان نبرر إمكانها وجدواها معاً. نتساءل هنا حول نمط البحث الذي تتبدى فيه جدوى أدوات المقارنة.

تبدأ كل الأبحاث بتعريف مسائلها وتحديد الأسئلة الرئيسة، ولا بد للباحث الذي يعتمد اتجاهاً مقارناً، ان يحدد مسائل بحثه على وجه الدقة، ثم يحدد نطاق المقارنة حين نمارس بحثاً في الإلهيات المقارنة مثلاً. فلا بد ان نحدد المنظومة الكلامية أو الإلهية أو الفلسفية التي ستكون موضوعاً للمقارنة. هل ستتمثل دائرة المقارنة بالمنظومات والمدارس، أم العلماء والمنظرين؟

ان تحديد نطاق المقارنة، لا يعين إطار البحث وحسب، بل يدلل على إمكانية الدراسة المقارنة وجدواها. وكثيراً ما يكون النطاق الذي يختاره الباحث، غير متوفر على ما يتيح المقارنة من مواصفات.

ثمة عوامل متعددة تلعب دوراً في تحديد نطاق المقارنة، نظير المؤهلات الشخصية، وإمكانيات البحث، والقابلية على المقارنة...الخ. ونتولى دراسة العامل الأخير في هذا الإطار.

ما هي الأشياء التي تتقبل المقارنة، وما هي تلك التي لا تقبل المقارنة؟ هنالك اتجاهان في هذا السياق يأخذ أحدهما بالإفراط، وينحدر الآخر إلى التفريط. يرى آخرون ان المقارنة ممكنة بين جميع الأشياء، بينما يضع آخرون، شروطاً كثيرة لإمكانية المقارنة.

يرى الاتجاه الأول انه ما من شيئين يكونان متباينين بالكامل ***all-other*** بالمعنى الدقيق للتباين، وحتى على تقدير وجود نموذج كهذا، فإنه مما لا يمكن فهمه أو اكتشافه. ولذلك فمن الممكن ان نتساءل عن مساحات الشبه والتفاوت بين أي شيئين نأخذهما بعين الاعتبار. أما الاتجاه الآخر فيضع شروطاً عديدة لإمكانية المقارنة، كالتطابق في ما يتأسس عليه الشيئان من نظام ومبادئ، ووحدة النمط أو الحد الأدنى من التناسب.

وفي حقيقة الأمر فإننا لو قصدنا بالبحث المقارن"تحديد مساحات التباين والتطابق بين الأفكار"، لزم من ذلك ان يكون من الممكن مقارنة أفكار تقوم على نظام وأساس مختلف، الأمر الذي يعني اننا بحاجة إلى مقياس آخر في ذلك.

ان السر في إمكانية المقارنة بين فكرتين، يتمثل في وجود نقطة اشتراك وتناسب في بعض الجوانب، كالمسألة التي تدور حولها الفكرة أو الرؤية، والأساس الذي تقوم عليه، وما تستتبع من لوازم، واتجاه الفرضية، أو النظرية أو الحقل المعرفي...الخ. وهذا مقياس يميل إلى وضع الحد الأدنى، ولذلك فإن التباين الكبير بين

الشيئين لا ينفي إمكانية المقارنة بينهما، وليس ذلك وحسب بل ان تبايناً كهذا يضاعف من جدوى المقارنة. ان المقارنة بين ابن سينا وغابريل مارسيل في حقل الإلهيات المقارن، تنطوي على جدوى أكبر من تلك التي تقدمها المقارنة بين ابن سينا والمير داماد. ان مارسيل لاهوتي وفيلسوف وجودي في الإلهيات، وهو يختلف بشكل كبير في الرؤية والأسس والمسائل والنظريات، عن ابن سينا شيخ فلاسفة المشّاء، والتباين الكبير هذا يؤدي في حد ذاته، إلى تحقيق مقاربة أكبر لقضية معرفة الله، ويمنح رؤية الباحث عمقاً أكبر، وذلك من خلال طرح أسئلة نظير:"لماذا نجد ان مارسيل لم يواجه المسألة الكذائية التي واجهها ابن سينا، وبالعكس؟" أو"لماذا لم يطرح ابن سينا نظرية المعرفة الشعورية؟".

ان المسألة التي يدور حولها البحث، تمثل العنصر الأهم في عملية تقييم إمكانية المقارنة. يمكن ان نقارن بين ابن سينا وليبنتز في مسائل الإلهيات، لكن ذلك غير متاح لنا في ما يتصل بمعرفة الذات. ويمكن ان نأخذ في البحث المقارن مسألة الفساد الإداري على سبيل المثال، كي ندرسها مقارنين بين السويد وسويسرا، أو سنغافورة وتايوان وكوريا الجنوبية. كما لا يمكن في مسألة السوق ان نقارن بين البلدان، بل من الضروري ان تتجه المقارنة إلى مؤسسات السوق وعلى وجه الخصوص، تلك التي تتصل بمجال صناعي واحد.

وعلى هذا الأساس فإن مقياس المقارنة يتبلور من خلال ملاحظة الهدف من البحث المقارن. لو كان الهدف هو تحديد التطابق بين نظريتين والكشف عن المساحات المشتركة، فإن مقياس المقارنة سيتمثل بعدم وجود تباين جذري بين النظريتين. أما لو كان هدف البحث كما قلنا سابقاً، استيعاباً أعمق المسألة والظاهرة، فإن غياب التباين الكبير أو عدم وجود شبه شديد لن يكون مقياساً للقول بعدم إمكانية المقارنة، بل ذلك ما يتمثل بوجود لون من التناسب يساعد على فهم المسألة.

عملية البحث المقارن

يعد استيعاب طبيعة البحث المقارن، شرطاً ضرورياً في نجاح مشروع البحث، لا الشرط الوحيد الكافي في ذلك. حيث ان استيعاب ماهية البحث المقارن يضيء الموضوع نظرياً على مستوى الذهن، غير انه لا يوفر لنا طريقاً واضحاً نسلكه ونصبح في غنى عن هموم آليات البحث هذا وخطواته.

لا بد بعد استيعاب ماهية المقارنة، ان ندرك الطريق الذي تقطعه الدراسة المقارنة. من أي نقطة تبدأ وما هي المراحل التي تمر من خلالها؟ ما هي السبل والمزالق؟ ان البحث المقارن عملية تبدأ من تعريف المسألة وتمر عبر أربع مراحل جرى تحديدها في الجدول 9-6.

عملية البحث المقارن	
1	تعريف المسألة .
2	تحديد نطاق المقارنة .
3	تتبع الحد الأقصى من مستويات الاشتراك والتباين حتى الشكلية منها.
4	الانتقال من المستويات الشكلية إلى الحقيقية فيما يتصل بالاشتراك والتباين.
5	تفسير حالات التباين والاشتراك .

الجدول رقم 9 -6 :عملية البحث المقارن

تحدثنا في الفصل الرابع عن أسلوب تعريف المسألة، والانتقال من الموضوع إلى المسائل، كما استعرضنا آنفاً ما يتصل بتحديد نطاق المقارنة. وسنلاحق المراحل الأخرى بإيجاز فيما يلي:

نتولى في المرحلة الثالثة دراسة الأشياء التي نعتزم المقارنة بينها، على وجه الدقة، ونعد قائمة بشتى ألوان الاشتراك والتباين سواء كانت حالات أو مستويات ثانوية أو جوانب شكلية. لا ينبغي ان تفوتنا أي حالة من الاشتراك أو التباين، ولا ينبغي ان نتناول ما هو موجود فقط بل من المهم ملاحظة ما هو غير موجود كذلك. وحين نقارن بين تصورات مفكرين اثنين أو اتجاهين، ينبغي ان نستوعب مستويات الاشتراك والاختلاف بين الآراء والأسس واللوازم والنطاقات المعرفية والامتداد التاريخي، إضافة إلى الفرضية واللغة والمنهج. وكلما قمنا بإثراء القائمة التي تحصي جوانب الشبه والتباين، تضاعف مستوى النجاح الذي يحققه البحث.

ان الاتجاه الذي يسعى إلى استيعاب الحد الأقصى من مستويات الاشتراك والتباين، يدفع الباحث إلى ملاحظة الأشياء الثانوية والحالات الخاصة والمستويات الشكلية. كما تتضاعف إمكانية ملاحظة جوانب الاشتراك والتباين، بفضل أدوات نظير تحليل بنية النص، ومناهج الدلالة الكمية، والبحث التاريخي.

ومن الأخطاء الشائعة في البحث المقارن، الاكتفاء بهذه المرحلة من المشروع والتوقف عندها، لكن إعداد قائمة بمساحات الاشتراك والاختلاف بين الأمرين ليس كافياً، وليس هذا وحسب بل ان الاكتفاء به يجرد البحث من الجدوى ولن يوفر لنا سوى تصورات ملفقة ودمج بين الأسس، وذلك لأن جوانب التباين والشبه الشكلية هي أمور خادعة فكثيراً ما انطوى الشبه الشكلي على تباين حقيقي، وتضمن التباين الشكلي تشابهاً حقيقياً.

راح البعض يقارنون بين الحركة الذاتية التي طرحها هيغل، والحركة الجوهرية عند صدر المتألهين، وتصوروا انهما أمر واحد على أساس التشابه في

اللفظ، فلاحظوا فكرة صدر المتألهين التي تقول"لولا التضاد لما صح الكون والفساد" وقالوا بسذاجة انها لا تختلف عن فكرة النقائض الجدلية الديالكتيكية عند هيغل. ورغم ان كلاً من الشيخ المفيد وابن سينا يؤمن بأن الإرادة الإلهية لون من المجاز، غير ان ثمة فرقاً هاماً بين رؤيتيهما. وذلك لأن الشيخ المفيد يرى ان الإرادة الإلهية تعني الإيجاد والفعل، بينما يرجعها ابن سينا إلى صفة العلم.

هنالك عوامل متعددة تؤدي إلى توقف الباحث عند المقارنة الشكلية، من قبيل التسرع والسطحية وتجنب مشاق البحث ونحو ذلك من العوامل النفسية، إلى جانب الوقوع في فخ اللغة وعدم توفر وثائق البحث وإمكانياته وكون الباحث يعيش هاجس فرضية محددة. تؤدي وحدة اللغة في حالات كثيرة، إلى حصول أخطاء في التقييم، فالحركة الذاتية والحركة الجوهرية لا يتمايزان على المستوى اللغوي واللفظي، بينما نجد ان مصطلح "الجوهر" عند سبينوزا و"واجب الوجود" عند ابن سينا يتباينان على مستوى المفهوم، لكنهما أمر واحد إلى حد كبير، وفي الوقت ذاته فإن مصطلح الجوهر عند كل منهما يتباين مع الآخر رغم تشابههما على مستوى اللفظ والمفهوم.

ان الغفلة عن التغاير بين جوهر النظرية وشكلها، وعدم الإحاطة بالعناصر الذاتية والعرضية في الشيء، هو أمر يتسبب في تأثير التباين العرضي على الاشتراك الذاتي، أو تأثير التشابه الشكلي على التباين الجوهري. من الممكن ان نتأمل في برامج الأبحاث التي حاول أصحابها التوغل فيما وراء التباين الشكلي، واكتشاف مستويات الاشتراك الحقيقي، أو عملوا على تجاوز الشبه الشكلي ليكشفوا حالة من التباين الخفي، وهو أمر مفيد إضافة إلى كونه معبّراً عن مدى الصعوبة والتعقيد في عملية الانتقال من الحالات الشكلية إلى المستويات الحقيقية.

يحاول جيلسون في كتابه الذي ترجم إلى الفارسية تحت عنوان (نقد الفكر الفلسفي في الغرب)، ان يقوم بمتابعة وحدة التجربة الفلسفية في الغرب، رغم

مستويات التباين الكثيرة بين الفكر الفلسفي في القرون الوسطى، والفلسفة الحديثة. ورغم ان سعيه الدائب لتناول الإلهيات الفلسفية بأسلوب مقارن في كتاب (الله في الفلسفة)، هو جهد يثير الإعجاب، لكنه يتضمن العديد من المشاكل المنهجية والثغرات، وفقاً لما سيأتي.

يحاول ستيس في "العرفان والفلسفة" العثور على وحدة التجربة العرفانية عند بني البشر كافة، ورغم ان ستيس يستبعد في دراساته المقارنة ومن خلال مناهج متعددة، الكثير من مستويات التباين العرضية والطارئة كي يتوصل إلى جوهر التجارب العرفانية، فإن رولف هود يسعى إلى إخضاع فرضية ستيس للدراسة التجربية وأدوات المختبر، ليمارس تقييمها في ضوء ذلك.

والعامل الآخر في التوقف عند المقارنة الشكلية، هو تحول فرضية البحث إلى هاجس عند الباحث، الأمر الذي ينوه إليه أتباع الاتجاه الظاهراتي بنحو أكبر. ان باحثاً يخوض في دراسة مقارنة للأديان، من خلال فرضية تقرر وحدة التجارب الدينية جوهرياً، سيكون أقدر على رؤية مستويات الشبه والاشتراك، منه على ملاحظة مساحات التباين، مما يحصل دون وعي.

صاحب الحاجة أعمى

لا يرى سوى حاجته

ان الميل نحو التوفيق والتلفيق وتجاهل حالات التباين، يعد كذلك بمثابة دافع نفسي يؤدي إلى التوقف عند الشكل أو اللجوء إلى تأويل التباين دون مبرر، في البحث المقارن. يعمد الحكيم السبزواري على أساس ان "الجمع مهما أمكن، أولى من الطرح"، إلى النظرية المنسوبة إلى المتألهين على حد تعبير جلال الدين الدواني- والتي تقرر وحدة الوجود وتعدد الموجود، فيجعل منها أساساً لنظرية المتكلمين القائلين بالحصة، والتي تتباين بالكامل مع ما تقرره سابقتها.

كأن من ذوق التأله اقتنص   من قال ما كان له سوى الحصص[1]

يدرك السبزواري ان هاتين النظريتين متباينتين من الأساس، ويوضح السبب الذي دعاه إلى المقارنة بينهما على النحو المذكور قائلاً:"ولّما كان هذا [نظرية المتكلمين] بظاهره باطلاً، أردنا تأويله بإرجاعه إلى الأول [أي النظرية المنسوبة إلى ذوق التأله]"[2].

وهو يشير إلى منهجه في التأويل، مما يمثل ملاحظة مفيدة، ويبدو السبزواري في أسلوبه هذا متأثراً بصدر المتألهين. ان ميل الفارابي إلى القول بوحدة الفكر الفلسفي عند أفلاطون وأرسطو، يمثل الدافع الأساسي لتدوينه كتاب"الجمع بين رأيي الحكيمين"، الأمر الذي جعل بحثه المقارن يعاني ثغرات عديدة، في ما يتصل بالتأويل، والوثائق.

يمثل عدم توفر الوثائق والأدوات التي يتطلبها البحث المقارن، واحداً من العوامل التي تؤدي إلى التوقف عند المقارنة الشكلية. ولهذا نؤكد على أهمية تحديد نطاق المقارنة على أساس المؤهلات الشخصية وما يتوافر من أدوات البحث. لقد نُسب كتاب أفلوطين "أثولوجيا" إلى أرسطو، كما تصوروا ان فرفوريوس الصوري "من أهالي صور" تلميذ لأرسطو، وهذان النموذجان من العوامل التي أدت إلى وجود العديد من المشاكل المنهجية في كثير من الأبحاث المقارنة في الفلسفة الإسلامية.

---

[1] - الحكيم السبزواري، غرر الفرائد، ص38.

[2] - شرح غرر الفرائد، ص57.

حالات الاشتراك والتباين الحقيقيين

نجد ان المرحلة الأهم والأكثر تعقيداً في البحث المقارن، تتمثل بالانتقال من مساحات الاشتراك والتباين الشكلية، إلى مستويات الاتفاق والاختلاف الحقيقية، وتجاوز الحالات الثانوية نحو النطاقات الكلية العامة. وتتطلب هذه المرحلة أدوات ومناهج مناسبة، فكيف يمكن تجاوز الشكل والتوصل إلى الجوهر الحقيقي؟

تقرر الإجابة الإجمالية انه ينبغي الانتقال من الاتجاه المباشر في البحث المقارن والذي يتولى ملاحظة الشكل والوعاء، إلى المضمون والمحتوى.

كيف يمكن ان ننتقل إلى ما وراء اللفظ والجسم، نحو المعنى والروح؟ كيف لنا في البحث المقارن، ان نتوصل إلى المستويات العميقة من الأفكار؟ هنالك أدوات ومناهج متعددة في ذلك، ونتحدث فيما يلي باختصار عن سبعة أساليب:

من المقارنة الشكلية إلى جوانب الخلاف والوفاق: مناهج النقلة

1- السؤال الرئيسي والثغرات المعرفية

ليست النظرية حصيلة لتسلية يقضي فيها العلماء أوقاتهم، بل هي نتيجة لجهد متواصل يبذله الباحث بهدف تجاوز ثغرة علمية. يتمثل واحد من أساليب استيعاب جوانب الشبه والتباين الخفية، بالتساؤل حول ما تجري ملاحظته وعلاجه من ثغرات علمية، في تلك النظريات التي تمثل موضوعاً للبحث المقارن. وليس المقصود بتحديد التساؤل الرئيسي في النظرية، ان نقوم بتحويلها من بنية خبرية إلى صيغة استفهام، وعلى سبيل المثال فإن السؤال الرئيسي في نظرية طاليس التي تقرر

"ان الماء هو مصدر الكون" لا يتمثل في عبارة "ما هو مصدر الكون؟" أو "ما هو أصله؟" وذلك لأن البحث عن التساؤل الأساسي يعني محاولة العثور على شيء أدى إلى ظهور التساؤل أعلاه (ما هو مصدر الكون) وإجابته.

من المفيد إيضاح المثال ذاته. يرى أرسطو في ما بعد الطبيعة، ان طاليس يمثل بداية الفلسفة[1]. وكما قلنا مراراً، فإن أي نظرية تحاول الحديث عن الإبداع والتدليل على ريادة فكرة معينة، لا بد ان تقوم على أساس بحث مقارن. يطرح أرسطو تصوره هذا حول مكانة طاليس، في ضوء مقارنته له بنظرائه وسابقيه. ما هو التباين الحقيقي بين فكر طاليس، والفكر الأسطوري الذي سبقه؟ ان النظرية التي ينسبها له أرسطو لا تتباين كما يبدو للوهلة الأولى، مع الفكر الأسطوري "الماء هو الأصل".

وكما يصرح أرسطو في الموضوع ذاته، فإن هذه الفكرة كانت متداولة قبل طاليس، فثمة ملاحم حول الخلق والتكوين تقول ان الكون انبثق من الماء، وهي تشكل نمطاً من الفكر الأسطوري. ورد مثلاً في ملحمة التكوين البابلية المعروفة باسم إنوما إليش *Enumaeelish*: "في أيام الخلق الأولى، لم يكن ثمة سوى الماء".

وفي ضوء ذلك نتساءل: ما هو مبرر أرسطو للقول بإبداع طاليس وريادته؟ لا يتحدث أرسطو عن اتجاهه ومنهجه ولا يقيم دليلاً على زعمه، لكن واحداً من المناهج المحتملة هو الاستفهام حول التساؤل الرئيسي الذي طرحه طاليس، وهو ليس تساؤلاً حول المادة الأولية لصناعة الكون، بل ان التساؤل هذا والإجابة التي قدمها طاليس حياله، يتجهان كلاهما نحو خلل يحاول طالس معالجته، وهو خلل لم يكتشفه الفكر الأسطوري.

---

1 - أرسطو، متافيزيك (الميتافيزيقيا= ما بعد الطبيعة). ترجمة شرف الدين خراساني، طهران، نشر گفتار، 1366، ص12.

ينبغي للعثور على تساؤل طاليس الرئيسي، ان نتساءل حول الدافع الذي جعل طاليس يحاول العثور على أصل الكون. لماذا طرح تساؤلاً يكون "الماء" إجابة له؟ يمكن اكتشاف الخلل الذي دفع طاليس إلى طرح تساؤله هذا، عبر استلهام ما يقوله هيغل في "تاريخ الفلسفة". كان طاليس وعلى العكس من سابقيه، يتجاوز التعدد والتنوع الملاحظ في الطبيعة، وقبل ان يتساءل عن العلة الفاعلية، كان يستفهم حول الوحدة في ذلك: هل تؤول هذه الكثرة إلى وحدة؟ هل ثمة ثبات وراء هذا التغير؟ هذا هو تساؤل طاليس الرئيسي الذي تبدأ عنده الفلسفة، رغم ان الإجابة التي يقدمها طاليس حياله، تظل أسطورية.

ان الاستفهام حول الأسئلة الأساسية، يتيح للباحث تجنب المقارنات الجزافية غير المبررة. عند مقارنة القضايا التحليلية والتركيبية، بالحمل الأولي والشائع، يمكن ان نستفهم أولاً: كان ثمة لدى هيوم وكانط، سؤال رئيسي أدى إلى هذا التقسيم، فهل كان التساؤل ذاته مطروحاً لدى علماء المنطق المسلمين؟ تكتسب هذه المسألة أهمية فائقة ولا سيما في البحث الديني المقارن. نتساءل بشأن المسائل الرئيسية في المنظومات اللاهوتية في علم الكلام، فهل هي متشابهة متطابقة؟ لقد واجه الباحثون في اللاهوت المسيحي الجديد، ثغرات وإشكاليات محددة، فهل كان علماء الكلام المسلمون يواجهون المشاكل ذاتها؟

لم تحظ هذه النقطة باهتمام كافٍ ولم تستوعب، الأمر الذي أدى بما يعرف اليوم بعلم الكلام الجديد، إلى ان يمثل في الغالب عملية انتقاء عشوائي تلفيقي بين أفكار فلسفة الدين واللاهوت المسيحي الجديد، والفكر الكلامي الإسلامي، على نحو لم ينجح في رسم الحدود والملامح التي تشكل البنية المعرفية للكلام الجديد.

2- التاريخ والإطار المعرفي

نجد ان النظريات والأفكار شبيهة بالعلم، فهي تتكون على نحو تدريجي وتتحرك في بداية الأمر ضمن فضاء أو إطار معرفي. وتؤدي الأفكار والمسائل والأبحاث المتنوعة بمرور الوقت، إلى ظهور النظريات التي يمكن تكوين فهم أعمق حولها في ظل دراسة تلك الإثارات والأفكار التي سبقتها. في وسعنا ان نفهم بارمينيدس على نحو أفضل في ظل فهمنا لأتباع هراقليطس، كما ان إدراكنا لتقدم أفكار الفخر الرازي زمنياً على الرؤية الكلامية لنصير الدين الطوسي، تتيح لنا ان نفهم تباين منظومتيهما في علم الكلام. لن يتاح لنا استيعاب الحكمة المتعالية لصدر المتألهين الشيرازي واكتشاف شتى أبعادها بالكامل، طالما اننا لم نكتشف بعد مخطوطات العصر الشيرازي في تاريخ الفلسفة الإسلامية و لم نتعرف على الأفكار الفلسفية التي طرحتها المدرستين الجلالية والصدرية.

من المؤكد ان استيعاب أفكار الغزالي وابن سينا والعطار، تمنح فهمنا لأفكار جلال الدين الرومي (مولوي)، عمقاً أكبر، كما ان مقارنتها بعرفان ابن عربي، يجعل فهمنا هذا أكثر دقة. وعند مقارنة نظرية التسامح عند العرفاء، والتعددية في الأفكار الدينية الجديدة، تكون ملاحظة الأطر التي تكاملت فيها تلك النظريات، واحداً من أساليب المقارنة المتاحة لنا.

وفي ضوء ذلك فإن المقارنة بين شيئين تتطلب المقارنة بين تاريخهما والأطر المعرفية التي تكونت فيها النظريات تلك. ان استيعاب تاريخ الأشياء، يمثل واحداً من الأساليب التي تتيح لنا تجاوز المقارنة المباشرة والذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك، غير ان قصر اهتمامنا على ذلك يؤدي إلى أخطاء متعددة، من قبيل الاتجاه الاختزالية، والمغالطة التي تقرر "ان هذا ناتج عن ذاك، فهو ليس سوى ذاك".

3- المبادئ

تتأسس كل قضية، على عدد من المبادئ والقضايا والمفاهيم الأساسية، ويمثل التدبر في كل من المبادئ التصورية والتصديقية للنظرية، أسلوباً لفهم أعمق لها. تكون تلك الأسس أحياناً واضحة صريحة، كما هو الحال مع الكثير من الأسس المعرفية ومبادئ الرؤية الكونية العامة في علم الكلام، والتي يجري ذكرها في قسم الأمور العامة من علم الكلام. بينما لا تكون المبادئ واضحة مصرحاً بها حيناً آخر، ويمكن تحديدها من خلال النظر المنهجي، كما هو الحال مع المبادئ الأنثروبولوجية والمعرفية في علم الفقه. لا يمكن ان نتجاهل في البحث المقارن، ملاحظة المبادئ ومقارنة الأسس التي تقوم عليها النظريات.

يجد الباحث في المنطق المقارن، تشابهاً بين تحليل القضية في منطق المحمولات عند علماء المنطق الحديث، والتصور الذي طرحه علماء المنطق المسلمون في انحلال القضية إلى عقديها. لكن ينبغي قبل تقييم القول بالتشابه هذا، ان نلاحظ وجود مبادئ ميتافيزيقية ونظرية المقولات الأرسطية ونظرية الكلي الطبيعي، مما قامت عليه نظرية علماء المنطق المسلمين في تحليل القضية إلى عقديها. كما نلاحظ مبادئ المنطق الحديث، كي نقارن بين المبدئين والأساسين، بهدف الحول دون خداع قد ينطوي عليه التشابه الشكلي، ولرؤية تباين خفي ربما توارى داخل الشبه الظاهري.

نلاحظ في مثال آخر في علم الكلام المقارن، مسألة التكليف الإلهي والعلاقة التي تقوم بالتكليف، بين الله والإنسان. ونجد ان ثمة شبهاً شديداً يبعث على الحيرة، بين ما طرحه المعتزلة والشيعة حول تلك المسألة ونظرية كيركغارد 1813-1855، فيما يتصل بالأفق الوجودي للحياة الأخلاقية – الدينية. ويتطلب الموقف المنهجي بحثاً عن مبادئ كل من النظريتين تصورياً وتصديقياً، ودراستها بهدف الكشف عن جوانب النظريات وأبعادها، كي تتضح مستويات حقيقية

للاشتراك والتباين بشكل أكبر. لن يعني الاختلاف في المبادئ، تبايناً بين النظريات بالضرورة، بيد انه إطار استيعاب أفضل لمستويات الاشتراك والتباين بين النظريات.

4- الأدلة، الاتجاهات والمناهج

صحيح ان سياقي التعريف والوصف، يختلفان منطقياً عن سياق التبرير (الفصل السابع من الكتاب)، وأن التصور يولّد تصوراً كما ان التصديق ينتج تصديقاً، غير ان ثمة تجانساً بين الأدلة في سياق التبرير والتقييم، على نحو يكون دليل المرء معبّراً عن تصوره حول المدعى الذي يتبناه. ان الاشتراك بين الحد والبرهان في الأجزاء، لا يكون في حالات (الحد الكامل) فقط "الحد والبرهان قد يتشاركان"، وإنما نجد من زاوية منطقية، انه لا يسعنا ان نأتي بأي دليل كان لندعم به أي زعم كان، حيث لا بد للدليل ان يتناسب مع الزعم. لا يمكن للدليل ان يكون أعم من الزعم أو أخص منه أو مبايناً له، وإلا فإننا سنواجه مغالطة "أخذ ما ليس بعلة علة". وفي ضوء ذلك فإن أدلة المرء تعبر عن تصوره حول زعمه. ولهذا نجد ان تنوع الأدلة التي أقيمت على وجود الله، تعكس تنوعاً في التصورات المتبلورة حيال ذلك.

ان المقارنة بين أدلة كل من الشيخ المفيد وابن سينا، تمثل أسلوباً في المقارنة بين رؤية الأول الكلامية، وتصور الثاني الفلسفي، فيما يتصل بالقدرة الإلهية. ويعكس اختلاف أدلة كل منهما، تبايناً في المفاهيم التي يقدمانها حول القدرة الإلهية. ويمثل الاهتمام بالأدلة وعلاقتها بما يقدمه العلماء من تصور حول المسألة، اتجاهاً اكتشافياً في البحث المقارن والدراسات الفقهية والكلامية على وجه خاص. وعلى هذا الأساس يمكن في المقارنة بين فكرتين، ان نتحاور مع أولئك الذين قاموا بطرحهما، لنقول لكل منهم: اكشف لنا عن دليلك، نحدد لك ما تعنيه فكرتك.

وإلى جانب الأدلة، ثمة اتجاهات البحث ومناهجه في النظريتين، مما يمثل سياقاً مثمراً في الدلالة على المستوى الحقيقي للشبه والتباين. ذلك لأن اعتماد اتجاه معين واختيار منهج خاص، هو أمر يجري على أساس تصور الباحث للموضوع وأبعاده. ان المقارنة بين المناهج يقدم لنا إطار فهم أعمق للنظريات.

5- اللوازم، المعطيات والنتائج

ثمة لوازم ومعطيات تستتبعها تلك الأشياء التي يجري تناولها في البحث، سواء كانت ظواهر أو أفكاراً، ونلاحظ ان كل نظرية هي بمثابة شجرة لها ثمارها الخاصة. ان واحداً من الأساليب المؤثرة في قراءة الأشياء، هو التدبر في لوازمها وآثارها. نجد ان قاعدة "تُعرف الأشياء بأثمارها" تمثل مبدأً مهماً في الجانب المنهجي من التعريف والوصف.

يكتسب هذا المبدأ أهمية كبيرة أيضاً في البحث المقارن، فالمقارنة بين آثار الأشياء وخصائصها تمنح البحث المقارن عمقاً أكبر. ومن خلال ملاحظة ما تستتبعه الفكرتان المقارنتان، من لوزام على المستوى المنطقي وآثار في الإطار المعرفي، ونتائج من الزاوية الموضوعية، يمكن ان نبلور فهماً أعمق لمساحات الاشتراك والتباين بين الفكرتين. ويتضح التباين الجذري بين الحركة الذاتية عند هيغل، والحركة الجوهرية لدى صدر المتألهين، حين ندرس اللوازم المنطقية والمعرفية لكل منهما. ومن جوانب المقارنة بين الإلهيات الفلسفية والعرفانية، القيام بدراسة نتائج كل من هاتين المنظومتين. تحدثنا في فصل سابق عن أهمية لوازم الشيء وآثاره وتبعاته، بالنسبة إلى تحليل أعمق له.

6- البدائل، النظائر والنقائض

يشيع في تراثنا الفكري أسلوب فهم الأشياء من خلال أضدادها، حتى ان ذلك قد جرت صياغته على شكل قاعدة "تعرف الأشياء بأضدادها، بل بأغيارها".

وتعبر هذه القاعدة عن جانب مهم في الدراسة المقارنة. حين يتعذر الفهم المباشر لموضوعٍ ما، يمكن ان نجد سبيلاً آخر للمعرفة من خلال فهم ضده أو منافسه وبديله أو مثيله.

ويمارس المتألهون في ضوء القاعدة ذاتها، تحليل مسألة العلم بالله، ويبرهنون على انه "لا تدركه الأبصار"[1].

تتضمن قاعدة فهم الأشياء بأضدادها ونقائضها، دلالتين أولاهما: الحث على البحث المقارن، أي ان الفهم المباشر للشيء حين يتعذر، فيمكن بنحو عام ان تكون مقارنته بأضداده ومثيلاته ونقائضه، أسلوباً مؤثراً. والدلالة الأخرى تتصل بتعميق البحث المقارن. حين تعتزم القيام بدراسة مقارنة لنظريتين، حاول ان تتولى إعداد قائمة لكل منهما، تحصي فيها نقائضها ومثيلاتها وبدائلها، ثم تجري المقارنة بين قائمتي الأشياء المماثلة، ودراسة قائمتي البدائل. ان مماثلات النظرية وبدائلها، تمنح فهمنا لها عمقاً أكبر، وتتيح من خلال ذلك استيعاباً أكبر للنظريتين المقارنتين.

حين نقارن بين وحدة الوجود عند سبينوزا، ونظرية وحدة الوجود عند محيي الدين ابن عربي، فإن أحد أساليب المقارنة يتمثل بالتساؤل حول بدائل كل منهما. ما هي الرؤى التي جاءت نظرية سبينوزا لمعارضتها، وما هي النظريات التي واجهتها رؤية ابن عربي؟ يستخدم صدر المتألهين في موضوع وحدة الوجود، تعبيرات من قبيل "رأي جهَلة الصوفية"، وهو في حقيقة الأمر يحاول من خلال ذلك تنبيه القارئ أولاً إلى الفارق بين نظرية وحدة الوجود، ونظرية الجهَلة من المتصوفة. كما يحثه ثانياً على استيعاب نظريته في إطار مقارن ببعض النظريات التي تتعارض مع النظرية التي طرحها.

---

[1] - الغزالي، إحياء العلوم، ج4، ص230.

7- البارادايم والمنظومة الفكرية

ليس الشيئان اللذان نتولى المقارنة بينهما، حالتين منفردتين تنفصلان عن المجموعة. أن الإنسان كائن تأخذ أفكاره موقعاً خاصاً بها من منظومة تكتسب في ظلها مضمونها وتبريرها. ونلاحظ أساساً ان الكليّانية والفردانية يمثلان رؤيتين واتجاهين في فهم الظواهر. يكتشف البعض الشجرة من خلال أغصانها وأوراقها، كما يعرّفون المؤسسة المصرفية وغيرها من خلال العناصر التي تتكون منها "الفردانية في المنهج". بينما يعمد آخرون إلى تعريف الأغصان والأوراق من خلال الشجرة، ويقومون بتعريف عناصر المؤسسة عبر المجموعة "الجماعانية في المنهج".

ونجد دون مزاعم تتسم بالحصر المنهجي، وبحذر شديد من الانزلاق في فخ الإفراط أو ورطة التفريط، ان من الممكن توظيف الاتجاهات المؤثرة في المعرفة، بهدف امتلاك فهم كليّاني يتحرك على مستوى المنظومة العامة، وهذه قاعدة تلعب دوراً هاماً في الاستيعاب المقارن كذلك.

يحصل الخطأ نتيجة لمقارنة الأفكار والأشياء، على نحو فردي منعزل دون ملاحظة المجموعة ذات العلاقة بهما، الأمر الذي يؤدي إلى الشكلية. ومن نماذج الشكلية هذه، اننا نتصور ان مفهوم العقل يستخدم في شتى المنظومات الكلامية والفلسفية، بمعنى واحد أو على نحو متشابه. تكتسب قضية "ان الله عالم" مفهوماً خاصاً عند المدرسة المشائية، بينما تحمل دلالة أخرى عند متكلمين من أمثال الشيخ المفيد والسيد المرتضى. ستتكشف الأبعاد الخفية في النظريات المقارنة، عند ملاحظة النماذج أو أشكال البارادايم المختلفة، أو الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك عبر ملاحظة المنظومات المعرفية التي تنتمي إليها تلك النظريات.

نريد بالبارادايم هنا على نحو متساهل، المنظومات المتداخلة المهيمنة على فكرةٍ ما، من قبيل بارادايم أو نموذج الفكر التقليدي السائد، أو بارادايم الاتجاه

الفكري السائد، أو نموذج النطاق الذي ينتمي إليه البحث، وبالتالي الرؤية العامة التي تهيمن على أفكار المرء. تتكون النظريات في إطار نماذج وأشكال من البارادايم كهذه، وتتطور لتكتسب معناها في ظل شتى تلك الأطر.

بناءً على ما مر، يمكن من خلال سبعة أساليب، تتبع مستويات الشبه والتباين الشكليين، وجوانب الاشتراك والاختلاف الحقيقيين، مما تضمنه الجدول التالي.

أساليب الانتقال من المستويات الشكلية للاشتراك والتباين إلى المساحات الحقيقية للخلاف والوفاق .	
1	الاسئلة الرئيسية والثغرات المعرفية .
2	الامتداد التاريخي والنطاق المعرفي.
3	الأسس والمباديء التصورية والتصديقية .
4	الادلة، الاتجاهات، المناهج .
5	اللوازم، الآثار، النتائج .
6	البدائل، النظائر، الأضداد .
7	النماذج، المنظومات الفكرية .

الجدول 9-7: أساليب تحديد المستويات الحقيقية للاشتراك والتباين.

8- تفسير حالات الاشتراك والتباين

تكتمل الدراسة المقارنة من خلال تفسير حالات الخلاف والوفاق، وفي حقيقة الأمر فإن وصف الحالات تلك يمثل مقدمة للبحث عن أسبابها. ينبغي للبحث المقارن ان يتوصل إلى عوامل الاشتراك والتباين (لا مبرراتهما). وتستخدم

مبررات التباين والاشتراك في عملية الانتقال من المستوى الشكلي للوفاق والخلاف، نحو المستوى الحقيقي. ولكن بعد ان نتجاوز هذه المرحلة لا بد ان نتولى تفسير تلك المستويات في ظل قانون عام. وهذه المرحلة هي أصعب خطوات البحث المقارن وأكثرها تعقيداً. يحاول الباحث وفقاً للعلوم التي يتعامل معها، وعبر توظيف القوانين المعرفية والتاريخية وغيرها، ان يقدم فرضية تفسيرية والتوصل إلى إثباتها من خلال خوض الجدل مع التفسيرات الأخرى.

تقدم في الفصل السادس، ان التفسير لا بد ان يجري في ضوء قواعد وقوانين عامة، وتتيح لنا التفسيرات التجربية في هذا الإطار إمكانية التقدير والتنبؤ. وعلى هذا الأساس فإن البحث المقارن يتطلب لونين من معالجة المعلومات، وبلورة لفرضيتين. (الشكل 9-1).

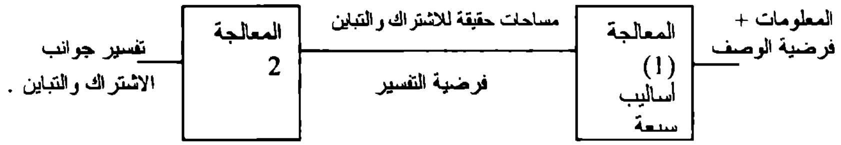

الشكل 9-1: خطوات الوصف والتفسير في البحث المقارن.

إيجاز لما مر

هنالك اتجاهان رئيسيان في تحديد ماهية البحث المقارن وأهدافه ومناهجه وخطواته، فثمة اتجاه العامة والاتجاه العلمي. ويمثل البحث المقارن هدفاً في ضوء اتجاه العامة، وهو يقتصر على تحديد مستويات الخلاف تضاف إليها مستويات التشابه بناءً على رأي آخر، وهذه دراسة تقتصر على الوصف وتنتهي عند استقصاء حالات التشابه أو الاختلاف. أما في الاتجاه العلمي فإن البحث المقارن يمثل أداة ومنهجاً يستهدف استيعاباً أعمق للظاهرة أو النظرية، وهو يمارس عملية التفسير إضافة إلى سياق الوصف، وتتمثل الخطوة الأكثر أهمية في إطاره، بالانتقال من حالات الشبه والخلاف الشكليين، نحو مساحات الاشتراك والتباين الحقيقيين، وتفسير ذلك. وهو ما يتطلب سبع أدوات رئيسة كحد أدنى. يتضمن الجدول التالي حصيلة لذلك.

الاتجاه التعريف	التعريف	الهدف	العملية	المنهج	النتيجة
اتجاه العامة	تطابق الأفكار المقارنة.	اكتشاف التشابه .	الوصف	تتبع جوانب الاشتراك الشكلية	تلفيق الأفكار
	قياس الأشياء	تحديد الاختلاف	الوصف	تتبع جوانب الالتباس الشكلية	التمييز الزائف
اتجاه علمي	فهم الظواهر أو الأفكار في ظل المقارنة .	فهم أعمق للظاهرة أو الفكرة .	الوصف والتفسير	تتبع المساحات الحقيقية للخلاف والوفاق وتفسيرها	التوصل إلى فهم أعمق

الجدول 9-8: اتجاهان في تحديد طبيعة البحث المقارن.

الفصل العاشر:

ظاهريات الدين

مدخل

شاعت ظاهريات الدين[1] *Phenomenology of Religion* على نطاق واسع في القرون الأخيرة، وقد أكد علمـــاء كبار على أهمية اعتماد الاتجاه الظاهراتي في البحث الديني. ثمة العديد من الباحثين في حقل الدراسات الدينية الجديدة، لعبوا دوراً مؤثراً في تكوين ظاهريات الدين، ومنهم ك. ب. تيليه *C. P. Tiele* 1830-1902، ب. د. ساوسه *P. D. Saussaye* 1848-1920 والذي يعد مؤسساً لظاهريات الدين[2]، رودلف أوتو *R. Otto* 1869-1937، و. ب. كريستيانس *W. B. Kristensen* 1867-1953، و رافائيل بيتاتزوني *R. Pettazzoni*

---

1 - في تعريبي لهذا الفصل، ترددت كثيراً في استخدام مصطلح الظاهريات المتداول في الأعمال الفلسفية العربية منذ بضعة عقود، لأن النص الفلسفي العربي المعاصر كثيراً ما يؤثر على ذلك استخدام اللفظ الانجليزي (الفينومينولوجيا)، حتى ان البعض لا يكاد يتذكر كلمة الظاهريات، بينما هو يألف كلمة (فنومنولوجيا). غير انني حسمت الأمر أخيراً باللجوء إلى الخيار الأول خاصة وأن الكلمة العربية لست بالشاذة وإن كانت أضيق دائرة في الاستعمال، وقد اخترت أكثر المعادلات العربية شيوعاً، لأن البعض يستخدم كلمات نظير الظاهرات، أو الظاهرية...الخ كمعادل للفينومينولوجيا، مما هو ملاحظ في العديد من الأعمال الفلسفية. (المترجم).

2 - لاحظ: *Allen Douglas, "Phenomenology of Religion", The Encyclopedia of Religion: editor in chief, New York, 1987, Vol.11, p. 272.*

1959-1883، فردريك هيلر *F. Heiler* 1892-1967، جوكو بليكر *C. J. Bleeker* 1898-1983، إضافة إلى ميرشيو إلياد *M. Eliade* 1907-1986.

ويمكن ان نذكر من علماء اللاهوت أمثال شلايرماخر *F. Shleiermacker* 1768-1834، بول تيليش، إلى جانب إدوارد فارلي *E. Farrley*، حيث اعتمد هؤلاء في اللاهوت، اتجاه الظاهريات بنحوٍ ما.

أدى تداول ظاهريات الدين إلى تبلور عدة مفاهيم لها، ويحاول دوغلاس آلان، التمييز بين أربعة فئات من الباحثين الذين استخدموا المصطلح هذا. الفئة الأولى هي التي استخدمت ظاهريات الدين بمعنى غامض واسع وبأسلوب غير نقدي. وفي هذا الاستخدام تكون ظاهريات الدين موازية في المعنى للأبحاث الدينية. وتستخدمه الفئة الثانية بمعنى البحث المقارن وترتيب مواقع شتى ألوان الظواهر الدينية. أما الفئة الثالثة فهي تقصد بظاهريات الدين، نطاقاً خاصاً من البحث الديني. وتطرح الفئة الرابعة ظاهريات الدين من منظور الظاهريات الفلسفية[1].

وفي ضوء ذلك فإن هنالك غموضاً يكتنف مفهوم ظاهريات الدين، نظراً لوجود استخدامات متنوعة. ولهذا الغموض جوانب أخرى تنشأ عن العناصر التي يتكون منها. نتساءل: ما هي الظاهريات أساساً؟ ما هو المعنى الأساسي في كلمة الظاهريات، على حد تعبير علماء السيمانطيقا، وما هو مفهومه الإضافي النسبي حين يستخدم في الدراسات الدينية فيقال: ظاهريات الدين؟

ان الغموض في المعنى الأساسي لكلمة"الظاهريات" هو إلى حد كبير، نتيجة

---

[1] - تضمن الهامش المتقدم، المعطيات التي تخص النص الانجليزي لمقال دوغلاس آلان. وقد ترجمها إلى الفارسية بهاء الدين خرمشاهي، ونشرت في المصدرين التاليين:

- دين پژوهي (الدراسات الدينية)، دفتر أول، ترجمة بهاء الدين خرمشاهي. طهران، مؤسسه مطالعات وتحقيقات فرهنگي. 1372. ص199-237.

- فرهنگ (الثقافة)، ويژه پديدارشناسي (1)، كتاب يازدهم، پاييز، 1371. ص33-67.

للغموض في الاستخدامات المتنوعة والذوقية لكلمة "الظاهرة". وعلى هذا الأساس، ولهذا فإننا نستفهم حول معنى الظاهرة *Phenomena* ذاته. ما هو المقصود بالظاهريات؟ دوّن تصورك حول الظاهرة والظاهريات في الجدول التالي، وقارنه بالجدول رقم 10-2.

	طبيعة الظاهرة الدينية	مفهوم الظاهريات وماهيتها
1	....	....
2	....	....
3	....	....
4	....	....
5	....	....

الجدول رقم 10-1: تصورك حول الظاهرة والظاهريات.

بعد التساؤل حول مفهوم ظاهريات الدين وماهيتها، يمكننا ان نتساءل حول خطوات البحث في ظاهريات الدين، فهل يمكن اعتماد الظاهريات بمثابة اتجاه بحثي؟ هل يمكن توظيف منطق الظاهريات في عملية البحث؟ وعلى تقدير الإجابة بنعم، فما هي الخطوات والبرنامج البحثي الذي يتقوم بالظاهريات في المجال الديني؟ ما هي آليات ذلك، والمعوقات التي تعترضه؟

ما هي طبيعة الدور الذي تلعبه الظاهريات في الدراسات الدينية؟ هل هي اتجاه أم منهج؟ هل تمثل نطاقاً وفرعاً معرفياً أم مبدأً فلسفياً نظرياً؟ ولو شئنا استخدام طريقة التشبيه، فهل تماثل وظيفة الظاهريات في البحث الديني، دورها في

البحث الاجتماعي؟ هل في وسعنا تدوين ظاهريات الدين، كما بادر ألفرد شوتز *Alfred Schutz* إلى تدوين ظاهريات العالم الاجتماعي *the phenomenology of the social world*[1]؟ هل من الممكن والمجدي اعتماد اتجاه الظاهريات، في الدراسات الدينية؟

لم يرحب عدد من الباحثين باتجاه كهذا، بل وجد بعضهم ان اتجاه الظاهراتيين ليس بالمفيد، كما ان الفينومينولوجيين (الظاهراتيين) الذين أناخوا ركابهم في هذا المنـــزل منذ فترة، تحدثوا بما "لا يسمن ولا يغني من جوع" فحصيلة عملهم في نهاية المطاف لم تكن سوى فرضيات تتصل بسياق الاكتشاف *context of discovery*، وتظل تتطلب الانتقال إلى سياق التقييم والتبرير *context of justification* حيث تأتي أدوات التجربة لتدعم تلك الفرضيات أو تدحضها[2].

يقول شوتز الذي نوهنا إلى كتابه"ظاهريات العالَم الاجتماعي":"يعد المتخصص في الظاهريات في بعض الأوساط، قارئاً للفأل أو ميتافيزيقياً أو أنطولوجياً بمفهومهما السيء المنطوي على الإهانة، وبقول عام فإنهم يتصورونه مشاغباً يرفض ويزدري شتى الحقائق التجربية والمناهج العلمية التي تبلورت بهدف رصد وتفسير الحقائق التجربية"[3].

---

[1] - راجع: پريچهر ابراهيمي، پديدارشناسي (الظاهريات). طهران، نشر دبير، 1368، ص126-168.

[2] - عبد الكريم سروش، بسط تجربة نبوي (تحول التجربة النبوية). طهران، مؤسسه فرهنگي صراط، ١٣٧٨، ص٣٩

[3] - لاحظ:

Schutz. A. "Some Leading Concepts of Phenomenology", Collected Papers, I., p.99

راجع الترجمة الفارسية لهذا الكتاب في: شوتز، ((چند مفهوم اصلي پديدارشناسى)) (بضعة مفاهيم رئيسة في الظاهريات). ترجمة يوسف ابا ذرى، مجلة فرهنگ، 1371، ص11-32.

وعلى أي حال فإننا نتساءل: هل من المجدي استخدام الظاهريات في التحليل والوصف العلميين، أم الها انبثقت عن لون من الإشراق والإيحاء غير المبرر والإلهام الميتافيزيقي؟.

وعلى العكس من الدراسات التاريخية أو المقارنة، فإن ظاهريات الدين غير متداولة بين الإيرانيين في حقل الأبحاث الدينية.

نجد فيما يتصل بالجهود الغربية ان هنري كوربان حاول ان يقدم قراءة ظاهراتية للتشيع مستلهماً أفكار هوسرل، وهو يرى ان مصطلح كشف المحجوب في التراث العرفاني ومصطلح التأويل الوارد في القرآن، يدلان على الظاهريات ذاها[1].

مارست أنا ماري شميل، جهودها الاستشراقية في الإسلاميات، معتمدة اتجاه الظاهريات كذلك[2].

ويعتمد محمد علي أمير معزي الأسلوب ذاته في دراسته حول الإمامية[3].

نلاحظ ان الجهود التي استعرضت الظاهريات في اللغة الفارسية، تظل متواضعة نسبياً[1]، كما ان الفصل الحالي لا يستوعب حديثاً موسعاً حولها،

---

[1] - هنري كوربان، فلسفه ايراني وفلسفه تطبيقي (الفلسفة الإيرانية والفلسفة المقارنة). ترجمة جواد طباطبائي. قمران، انتشارات توس، 1369. ص21 و22.

[2] - أنا ماري شميل، تبيين آيات خداوند: نگاهي پديدارشناسانه به اسلام (تفسير آيات الله: رؤية ظاهراتية للإسلام). ترجمة عبد الرحيم كواهي. دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1376.

[3] - لاحظ الترجمة الأنجليزية لكتابه (عن الفرنسية) في:

Amir-Moezzi, Mohammad Ali, the Divine Guide in Early Shi'ism, translated by: David Streigt, New York, 1991.

لاحظ مراجعة سريعة لهذا الكتاب في: علي موحديان عطار، "معرفي كتاب رهنماى الوهي در تشيع نخستين، ثمره كاربست روش پديدارشناسى در پژوهش در باب امامية نخستين" (قراءة في كتاب التوجيهات الإلهية في التشيع الأول. حصيلة لتوظيف منهج الظاهريات في الدراسات التي تناولت الإمامية الأولى). هفت آسمان، شماره 9 و10، 1380. ص329-345.

ونستهدف هنا مجرد تحديد الأرضية التي ولدت فيها الظاهريات، والقيم والدلالات التي تنطوي عليها في حقل البحث الديني.

---

[1] - نذكر فيما يلي أهم المصادر حول الظاهريات في اللغة الفارسية، إضافة إلى المراجع التي ذكرناها في الهوامش السابقة:

- روجيه ورينو وآخرون، پديدارشناسي و فلسفه هاى هست بودن (الظاهريات والفلسفات الوجودية). جمع وترجمة يحيى مهدوي. تهران، خوارزمي، 1372.

- ضياء موحد (إعداد)، پديدارشناسي (الظاهريات) (1)، فرهنگ، كتاب يازدهم، پاييز 1371.

- دارتغ آندريه، پديدارشناسي چيست؟ (ما هي الظاهريات؟)، ترجمة محمود نوالى، تهران، سمت، 1373.

- نفس الكاتب، پديدارشناسي (الظاهريات) (2)، فرهنگ، كتاب هجدهم، تابستان 1375.

موريس مرلوبونتي، در ستايش فلسفه (ثناء على الفلسفة)، ترجمة ستاره هومن، تهران، نشر مركز، 1375.

- ديفيد بل، انديشه هاى هوسرل (أفكار هوسرل)، ترجمه فريدون فاطمي، تهران، نشر مركز، 1376.

- ميرشو إلياد، پديدارشناسي (الظاهريات)، ترجمة بهزاد سالكي، تهران، 1380.

ما هي الظاهريات؟

كما ان استيعاب ماهية البحث التاريخي منوط بفهم حدث تاريخي محدد، فإن استيعاب طبيعة الظاهريات كذلك يتوقف على استيعاب دقيق لمفهوم الظاهرة. ان دراسة التطور التاريخي لمفردتي الظاهرة والظاهريات، يعكس ان ثمة مفاهيم متعددة طرحت لهاتين المفردتين بشكل موازٍ، حيث راح كلٌ يرى انه هو الممثل للظاهريات على أساس ما يتصوره حول ماهيتها.

يقدم شميت عرضاً واضحاً للتطور المترابط لهذين المفهومين مما ننقله هنا بتصرف يسير، حيث يقول اننا ندين بالمفهوم الأول الذي طرح فيما يتصل بالظاهريات، للفيلسوف الألماني الذي عاصر كانط، يوهانس هنريش لامبرت، فقد ذكر الظاهريات بمثابة واحد من العلوم، في كتابه (الأرغانون الجديد) الصادر عام 1764. وحيث انه كان يقصد بالظاهرة الخصائص المتوهمة في الإدراك البشري، فقد عرّف علم الظاهريات بكونه نظريه التوهم.

تقدم كانط خطوة أخرى وأطلق تعبير الظاهرة على الأشياء كما تبدو أو تظهر لنا، مقابل الشيء في حد ذاته أو النومين *Noumena*. وعلى أساس نظرية

كانت فإن النومين لا يمكن ان يُدرك من قبل الإنسان ولذلك فإن مختلف الإدراكات البشرية هي من الظاهريات.

غير ان هيغل رفض الحصر الكانطي وقدم مفهوماً جديداً للظاهريات، حيث دلل في ظاهريات الروح على الكيفية التي تنتقل بها الروح في مراحل تطورها، من المعرفة الظاهراتية بالذات، إلى المعرفة النومينية أو كما هو الشيء في حد ذاته. وتكون الظاهريات بهذا المفهوم، علماً يتيح لنا الوعي بالروح كما هي في حد ذاتها. ثم اكتسبت مفردة الظاهرة في القرن التاسع عشر، مفهوماً أوسع نطاقاً، حيث أصبحت تعني كل حقيقة أو كل ما يعد حقيقة موضوعية. وتستند الظاهريات بوصفها مصطلحاً في الفلسفة المعاصرة، على هذا المفهوم للظاهرة، أي البحث الوصفي المحض في دائرة موضوع محدد. قدم بيرس *C. S. Peirce* عام 1902 معنى أوسع دائرة للظاهريات، على نحو يجعلها تشمل البحث في أي شيء سواء كان حقيقياً أم ذهنياً أم موهوماً أم رؤيا...الخ. ولكن ومنذ ان استخدم هوسرل **1859-1938**، هذا المصطلح فإن الظاهريات راحت تطلق على أسلوب في التفلسف يعتمد منهج الظاهريات[1].

مثلت ظاهريات هوسرل بداية لنهضة في الفلسفة، وقد تضمن الجدول أدناه العرض الذي قدمه شميت لتطور مصطلحي الظاهر والظاهريات.

---

[1] - لاحظ:

T. Schmit Richard, "Phenomenology", Encyclopedia of Philosophy, Paul Edward (ed.) Vol 6, p.135-136.

لاحظ الترجمة الفارسية لهذه المقالة في: ريتشارد شميت، سر آغاز پديدارشناسي (بداية الظاهريات). ترجمة شهرام بازوكي، فرهنگ، 1375، ص9-26.

	تعريف الظاهر	تعريف الظاهريات	الفيلسوف
1	خصائص موهومة في الادراك البشري .	نظرية التوهم .	لامبرت
2	الاشياء كما تظهر لنا مقابل الأشياء في حد ذاتها	شتى ألوان المعرفة.	كانط
3	الشيء كما يبدو لنا والشيء في حد ذاته .	إدراك الروح تلقائيا كما هي عليه	هيغل
4	الحقيقة	بحث وصفي محض يتصل بموضوع محدد .	الفلسفة المعاصرة
5	حقيقة الاشياء التي تكون موضوعا للإدراك المباشر.	الفكر الفلسفي من خلال الحس المباشر .	هوسرل

الجدول 10-2: التطور التاريخ المتوازي للظاهرة والظاهريات.

سنحاول وفقاً للأسلوب الذي درجنا عليه في هذا الكتاب، مقاربة مفهوم الظاهريات في الدراسات الدينية الذي نأخذه بعين الاعتبار، من خلال تمييزه عن الأشباه والنظائر.

ينبغي أولاً التمييز بين الظاهريات *phenomenology* والظاهرية أو أصالة الظاهر *phenomenalism*، والتي تكتسب فيها الأوصاف الحسية الظاهرية طابعاً أصيلاً وتختزل الشيء في أوصافه المحسوسة الظاهرة. وحسب التوضيح اللاحق

سنرى ان الظاهريات تأخذ في نقد شتى أنماط الاختزالية ورفضها، بما فيها اختزال الأشياء والإنسان في صفاقما الحسية. ان مصطلح الظاهرة يوهم بأن الظاهريات تعني النـــزعة الظاهرية.

ولا بد من التمييز ثانياً بين الظاهريات المنهجية والظاهريات الفلسفية. فالمفهوم الأول معنى عام سابق للثاني، والآخر معنى خاص جديد، فالظاهريات الفلسفية تمثل فلسفة في حقيقة الأمر، بينما الظاهريات المنهجية اتجاه عام يمكن استخدامه في الفلسفة وغيرها من قبيل علم النفس والاجتماع والإلهيات. ليست الظاهريات بمثابة مجموعة من الآراء والتعاليم أو نظام معرفي خاص، بل هي منهج محض في حالته المثلى كما يقول شميت[1]. وبتعبير أكثر دقة فإننا نعد الظاهريات في وضعها الأمثل المفيد، مجرد اتجاه. وقد تحدثنا عن الفرق بين الاتجاه والمنهج في الفصل الرابع.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الظاهريات بمفهومها المستخدم في الفصل الحالي، تمثل بحثاً وصفياً محضاً يتعلق بموضوع محدد، يمارس الوصف من خلال إحساس مباشر *direct awareness*. ويرى هنري كوربان ان الظاهريات هي كشف عن أمر خفي غير ظاهر واستخلاصه من أمر ظاهر[2]. ويكون دور الباحث في الظاهريات طبقاً لتعبير كوربان، تجاوز الظواهر والتوصل إلى البواطن.

	الظاهريات المنهجية	صاحب التعريف
1	بحث وصفي محض يتصل بموضوع محدد قائم على الحس المباشر	شميت
2	اكتشاف أمر خفي واستنتاجه من الظواهر	هنري كوربان

الجدول 10-3: تعريف الظاهريات المنهجية.

[1] – المصدر السابق، ص 25 من الترجمة الفارسية.

[2] – هنري كوربان، فلسفه ايرانى وفلسفه تطبيقي، مصدر سابق، ص21.

ثمة غموض يحف مفهوم الإحساس المباشر في التعريف المذكور، وقد حاول الظاهراتيون عرض خطوات محددة له، وتوضيح ما يقصدونه بالإحساس المباشر. ان التأويل المتعالي وظاهريات هوسرل، هما نقطة البداية في الخطوات المذكورة[1].

الظاهريات: نطاق الجدوى

توجد وجهات نظر متعددة حول نطاق استخدام الظاهريات. فمن جهة ثمة زعم حصري يقوم على أساس ان الظاهريات تمثل الطريق الوحيد لاكتشاف حقائق الأشياء. ونلاحظ من جهة أخرى زعماً آخر يرى ان الظاهريات لا تغني ولا تسمن من جوع، ويعبر كلا الموقفين عن تصورات متطرفة في الجانبين فيما يتصل بتحديد نطاق استخدام الظاهريات.

ذلك اننا سنقع في فخ الحصرية التي تؤدي إلى وقوع الأخطاء، سواء قلنا بأن الظاهريات اتجاه صحيح على الإطلاق ومفيد دائماً، أو زعمنا الها غير مفيدة أبداً. ويتطلب الموقف المعتدل القول بأن الظاهريات اتجاه "وليست علماً أو منهجاً" يتصل بسياق الوصف، لا التفسير والتعليل المجدي.

والظاهريات هي على غرار أسلوب الإشراق في الفلسفة والشهود والكشف في العرفان، اتجاه يعتمده الباحث لفهم الظواهر، وهو اتجاه يمكن ان

[1] - قدم شميت، عرضاً موجزاً وواضحاً للغاية حول التأويل المتعالي وظاهريات هوسرل. لاحظ الترجمة الفارسية لمقاله في: ريتشارد شميت، تأويل پديدارشناسي (تأويل الظاهريات). ترجمة ضياء موحد، فرهنگ، 1375، ص27-37.

يكون شخصياً لا يمكن تقييمه في دائرة عامة، كما انه اتجاه يتحرك في سياق الاكتشاف لا التقييم والتبرير.

لا تتولى الظاهريات تفسير الأشياء، بل تتصل بممارسة وصفها، وتزعم الظاهريات ان ممارسة الوصف بأسلوب غير ظاهراتي، تقوم على مغالطة"أخذ الظاهر بدلاً عن الكنه" الأمر الذي لا يقدم سوى وصف ناقص أحادي للأحداث. ويعود إلى هذه النقطة بالذات، السر في إقبال كثير من الباحثين في الدراسات الدينية، على اتجاه الظاهريات. ان سياق التفسير يستند على سياق الوصف، ولذلك فإن أي ثغرة في الوصف ستؤدي إلى إخفاق التفسير.

ليست الظاهريات فرعاً محدداً على غرار علم النفس أو الاجتماع...الخ، بل هي اتجاه وصفي يكون من المفيد توظيفه في نطاقات متعددة، ويتمثل دور الاتجاه هذا في اكتشاف الجوانب غير المكشوفة في الظواهر ولا سيما تلك التي تنطوي على أبعاد متعددة.

أزمة فكرية

ستتحدد الدلالة التي تنطوي عليها الظاهريات والجدوى المترقبة منها، في ضوء استيعاب الإطار الذي ولدت فيه الظاهريات. أخذ الظاهراتيون في دراسة الحالة الفكرية المأزومة، فتجربة هيوم وجزمية فرويد تمثلان نموذجاً بارزاً على الحالة الفكرية المزرية في مجال الأبحاث، مما لا بد من اكتشاف أسبابه وعوامله.

وعلى هذا الأساس ففي وسعنا ان نعد الظاهريات برنامجاً وقائياً وعلاجياً لمشاريع الأبحاث، التي تمر بأزمة عاصفة. والوصف الأكثر بساطة لهذه الحالة هو انها تشهد غياباً للدقة يدفع الفكر إلى الاختزالية *Reductionism*.

ينبغي في نقد الظاهريات ورسم حدود جدواها، ان نتساءل: هل نجحت الظاهريات في وصف الأزمة؟ هل كانت موفقة في تقديم آليات الوقاية والعلاج؟ هل يوجد اتجاه بديل لها في هذا الإطار؟ ان الحديث عن الاختزالية يساهم في الإجابة عن هذه الأسئلة.

الاختزالية

أفرز مذهب هيوم في التجربة، فكرة تقرر ان المعرفة تقوم بالكامل على ما نستنتجه من التجربة الحسية، وليس هنالك مضمون آخر لها. وهذه الفكرة تؤدي إلى الشك وإنكار المعرفة. استخدم هيوم في إثباته للرؤية هذه، استدلالاً مزدوجاً يعرف بالمزدوج الهيومي، الأمر الذي لم يوقظ كانط من سبات الوثوقية الجزمية وحسب، بل أشعل نار الشك وأزمة المعرفة في شتى المجالات. يرى هيوم ان القضايا التي تحكي الواقع لا بد ان تقوم على التجربة الحسية، وهكذا فإن القضايا التي تحكي الواقع لا يمكن ان تكون صادقة على نحو سابق للتجربة.

تكبد كانط مشاق كثيرة في سبيل إنقاذ العلم من المزدوج الهيومي، فأنقذ الرياضيات والهندسة بفضل المنظور المتعالي، كما حرر الفيزياء من خلال المقولات والتحليلات المتعالية. استخدم كانط في هذا السياق أدوات تمثلت بالقضايا التركيبية القبلية، وعدت الميتافيزيقا لوناً من المحال لعدم تضمنها قضايا كهذه.

نجد ان كثيراً من الوضعيين والفلاسفة الإبستمولوجيين، يناقشون القول بوجود أحكام تركيبية قبلية وينكرون ذلك، كما يدعمون النظرية التي تحصر القضايا الحاكية عن الواقع، في دائرة الأحكام التجربية[1]. أدت هذه الحصرية إلى رفض الإلهيات والميتافيزيقا من جهة، وتحويل الرياضيات والمنطق وحتى الأخلاق، إلى علوم تجربية.

كانت تجربية هيوم في حد ذاتها اتجاهاً حصرياً غير مبرر، ومثلت بداية لنماذج أخرى من الحصرية غير المبررة في فهم الظواهر. يمكن ان نسمي فكراً حصرياً كهذا على حد تعبير أفلف رايناخ، بـــ "فلسفة، أنْ لا وجود لشيء سوى..." والتي أسماها أتباع الظاهريات باتجاه الرد والاختزالية ***reductionism*** من حيث نتيجتها، ونسميها نحن بالحصرية المنهجية ***methodological exclusionism***، من حيث العملية الفكرية. ثمة عوامل أخرى متعددة كالدوغماتية الوثوقية، تدخلت في تكوين هذا الأب (الاتجاه الحصري) وذلك الإبن (الاختزالية).

شاعت الاختزالية في القرنين التاسع عشر والعشرين وألقت بظلالها المؤثرة على تصور الإنسان لذاته وللطبيعة والمجتمع والدين والوجود. يمكن توضيح مفهوم الاختزالية عبر التدبر في بعض نماذجه كما يلي:

- ليست قوانين المنطق سوى قوانين نفسية.
- ليست قوانين الأخلاق سوى تجليات لأخلاق مجتمع معين.
- ليست أحكام الجمال سوى تجليات للذوق الشخصي.

---

[1] - لاحظ لمزيد من التفصيل حول المسار التاريخي لتقسيم كانط للقضايا: احمدى، انواع قضايا وتحليل آنها از حيث توجيه وإثبات... (أنواع القضايا وتحليلها على مستوى التبرير والإثبات...)، رسالة دكتوراه، إشراف ضياء موحد وأحد فرامرز قراملكي. تهران، دانشكده الهيات ومعارف اسلامي. 1379.

- ليس الشعور والوعي أمراً سوى مجموعة من المضامين الحسية والعاطفية والانفعالية.

- ليس الدين سوى الأخلاق.
- ليس الإنسان إلا ماكنة بالغة التعقيد.
- ليست التجربة الدينية سوى تغييرات عصبية تحصل داخل الدماغ.
- ليست الأشياء سوى أوصافها الحسية.
- ليس الدين سوى آيديولوجيا.
- ليس الإنسان سوى لا وعيٍ فردي.

أخذ الظاهراتيون يدرسون بحرص، تلك العوامل التي أدت إلى ظهور عاهة الاختزالية، ولم يكن امتعاضهم حيال القضايا المذكورة، ناشئاً عن كونها قضايا كاذبة، بل تجاوزوا النقاش في الحالات والنماذج وانتقلوا إلى تحليل عام لآلية تفكير الإنسان ضمن الاتجاه الاختزالي. وقد تناولوا في جهودهم تلك، كلاً من مظاهر الاختزالية وملامحها، وأسبابها وعواملها.

أدرك هؤلاء ان الاختزالية في كل الحالات بشكل عام، نتجت عن ان الباحث لا يحاول فهم ماهية الموضوع واستيعاب حقيقته، بل يستلهم قبليات وفروضاً مسبقة تمنعه عن رؤية حقيقة الموضوع. وترسخ تلك الفروض المسبقة في ذهن الباحث إلى درجة تجعله لا يرى في وصفه للظاهرة، حاجة إلى ملاحظتها على نحو مباشر ومحاولة التوصل إلى ماهيتها، بل يظن ان الظاهرة المبحوثة لا بد ان تكون كما يتصور هو وفق قواعده المسبقة، فلا يعود يرى ما هو كائن، بل لا يبصر الشيء إلا على الشكل الذي يريده هو.

تؤدي الفروض المسبقة إلى خلق منظور محدد، يدفع الباحث في سياق الوصف إلى رؤية الشيء بنحو أدنى بكثير من حالته الطبيعية، ولذلك يحصل الاختلاف في وصف أمر واحد.

أحصى شميت حالات عديدة للاختزالية، واستعرض تحليل الظاهراتيين لذلك وتحديدهم للتبعات التي تؤدي إليها كل من تلك الحالات. فاختزال المنطق وتحويله إلى سيكولوجيا، لا يمثل نتيجة لدراسة طبيعة القوانين المنطقية على نحو عام، بل ذلك ما ينشأ عن فروض مسبقة أكثر عموماً، لم تخضع هي إلى الدرس والمعالجة وعدّت بديهية محضة. كما ان اختزال الأشياء في أوصافها الحسية "النـــزوع إلى الظاهر" لا تنتج عن التدقيق في ماهية الأشياء تلك، وإنما هي حصيلة لنظريات هيوم النفسية حول مناشئ دلالات المفاهيم والألفاظ. كما ان الاتجاه الذري النفسي أو تحويل الشعور إلى مجموعة عناصر من الحسيات والعواطف والانفعالات، لا يمثل نتيجة للتدبر الدقيق في مجموعة الظواهر التي نسميها بالشعور، بل هي إفراز لمفروضات أكثر عموماً حول الكون، وهكذا فيما يتصل بالعلموية أو الغلو العلمي[1].

أدرك اتجاه الظاهريات على نحو ممتاز، عملية تكوّن الاختزالية وظهورها، كما انتبه إلى نقطة مهمة هي ان الاختزالية تحولت إلى مركبة عمياء لو لم تجر معالجتها فإن حالتها ستتفاقم وتلقي بتبعاتها على كل المجالات الفكرية.

تنشأ الاختزالية نتيجة لميل الباحث في ظل دوافع مختلفة، إلى فرضية عامة "ماكرو ثيوري" غير خاضعة للتجربة، ينسج منها قالباً ليؤطر به شتى الأمور التي يتناولها، وبدلاً عن ان يرى الأشياء كما هي عليه "الظاهرة في حد ذاتها" فإنه ينظر إلى الأشياء في شكلها الذي تكتسبه داخل ذلك القالب. ولذلك نجد حين نلاحظ قضية اختزالية على نحو دقيق، انها لا تتولى وصف ما هو كائن، بل تأخذ بدلاً عن ذلك، في تمني ما ينبغي ان يكون عليه الشيء. فقوانين المنطق على سبيل المثال ينبغي ان تتحول، في ضوء التصور الهيومي المزدوج، إلى قوانين تجريبية من نمط القوانين السيكولوجية.

---

[1] - لاحظ فرهنگ ، مصدر سابق، ص14-22.

النقطة الخطأ في هذا الإطار، هي ان الفرضيات العامة تؤدي إلى تقديم وصف غير موضوعي للظاهرة، فيعثر الباحث بفضل الوصف الاختزالي، على مؤيد يدعم فرضيته ويمنحه وثوقاً أشد بها وغير ذلك.

بعد ان حدد الظاهراتيون أسباب الاختزالية، قدموا توصيات وقائية وعلاجية لذلك، وحصيلة توصياتهم هي الدعوة إلى تجنب التنظير والتجرد عن الميل نحو النظريات، واعتماد التشكيك الفلسفي ووضع شتى التصورات والفرضيات، بين قوسين، إلى جانب الاهتمام بالمضمون الداخلي والحذر من الارتهان بالشكل، وتغيير الرؤية...الخ.

مناهج الظاهريات في البحث الديني

حاول العديد من الباحثين في الحقل الديني، ان يستعينوا بأساليب الظاهريات، والسر في إقبالهم على هذا هو إدراكهم لأخطار الاختزالية في البحث الديني. ان الدين ظاهرة بالغة التعقيد متعددة الأبعاد، وتؤدي الاختزالية إلى تشويهها على مستويات عدة. ونجد ان البحث التاريخي للدين إلى جانب البحث النفسي والاجتماعي، هي أساليب تقدم لنا فهماً ناقصاً ومشوهاً للظواهر الدينية. وفي نطاق كهذا تقدم الظاهريات شعارات جذابة في سياق البحث عن باطن الأديان وكنهها. ان امتلاك مستوى باطني يمثل واحداً من مقومات الأديان والظواهر الدينية، كما ان التهرب من النـــزعة الشكلية الظاهرية، هو مطلب للباحثين في المجال الديني كافة.

قام الباحثون في الحقل الديني بتطوير الظاهريات، وأبدعوا أساليب متعددة، وقد حاول كريسنسن في ظل معارضته للاتجاهات الاختزالية عند الوضعيين، ان يوفق بين علم التاريخ، واستشعار الظواهر بهدف استيعاب الدلالة الباطنية لقيم الدين في مختلف النصوص. كما استطاع أوتو من خلال التركيز على الأمر المقدس، ان يدون بُنية لظاهريات التجربة الدينية العامة. وكان ليو يحاول تأسيس منهج تجربي للتوصل إلى الكشف والشهود والمعرفة المباشرة، ولذلك فقد زاوج بين الظاهريات والبحث التاريخي للديانات. إضافة إلى هيلر الذي كان يحاول العثور على ظاهريات الدين في إطار تفاهم يستشعر التجربة والظواهر الدينية، ويقترن باحترام حيالها.

وفي هذا الإطار قام جوكو بليكر بإدخال تطوير كبير على ظاهريات الدين، حيث طرح ثلاثة أنماط منها. فثمة ظاهريات الدين الوصفية، وظاهريات الدين فيما يتصل بتحديد الأنواع، وظاهريات الدين بالمعنى الأخص أو الباحثة عن المستوى الذاتي. وهو يرى ان ظاهريات الدين اتجاه نقدي يعبر عن وصف دقيق للظواهر الدينية على نحو يقترن باستشعارها وتفهمها لها. وبكلمة أخرى فإن الباحث في الظاهريات يتولى تنظيم الأشياء التاريخية، كي يتوصل إلى دلالاتها الدينية. وفي ضوء ذلك فإنه يتحرك في ثلاثة أبعاد للظاهرة الدينية هي، البعد "النظري" و"اللوغوس" و"الانتلخيا"[1].

---

[1] - اللوغوس *logos* هو الكلمة أو القول أو القانون الكلي ويستخدم عند أفلاطون بمعنى مستودع الصور العليا، لكن المصطلح اكتسب دلالة دينية بالدرجة الأولى ولا سيما حين استخدم في النص الديني المسيحي فصار يدل على الكلمة الإلهية أو الكون أحياناً. أما الانتلخيا ***entelechy*** فهي تتحدر من مفردة يونانية تمثل واحداً من مصطلحات أرسطو، وقد ترجمها العرب بالكمال، ويستخدمها أرسطو أحياناً بمعنى الصورة التي تقابل المادة، وقد استخدمها ليبنتز في العصر الحديث بمعنى الجواهر البسيطة أو المونادات المخلوقة لأن فيها نوعاً من الكمال، واستخدمت في القرن =

فالجانب النظري للظواهر يكشف عن ماهية الأشياء وأهميتها وهو يقوم على أساس تجربي، كما انه يؤدي إلى استيعاب مضمون الظاهرة الدينية. ويتوغل لوغوس الظواهر في بنية الأشكال المختلفة للحياة الدينية، بينما تتموضع انتلخيا الظواهر وتتجلى في المسار التطوري التكاملي الملاحظ للجانب الديني من حياة الإنسان[1].

واجهت ظاهريات الدين اعتراضات كثيرة، من أهمها عدم جدواها كمنطق لقراءة الدين ودراسته، ولا سيما في سياقات التبرير والتفسير، وتركيزها على اتجاه الاختزالية. وثمة اعتراض آخر دفع العلماء إلى البحث عن بديل للظاهريات، يكون مؤهلاً للوقاية من الاختزالية وعلاجها، وسنتحدث في الفصل القادم عن نموذج للمناهج البديلة تلك.

=الثامن عشر عند علماء الأحياء للدلالة على الصورة الباطنة وكذلك على القوة الجوهرية، ويستخدمها فلهلم فونت في القرن التاسع عشر بمعنى النفس. (المترجم).

[1] - لاحظ: الدراسات الدينية، ترجمة خرمشاهي، مصدر سابق، ص214-221.

الفصل الحادي عشر:

البحث الديني التجربي

مدخل

يتجلى الدين دائماً على شكل حالة إيمانية وسلوك فردي، بوصفه حقيقة هامة تاريخياً وثقافياً ونفسياً، كما ان السلوك ذاته بات منذ قرن مضى، موضوعاً خضع لدراسة وظفت المناهج العلمية الحديثة. وهكذا فإن الدراسة التجريبية للدين تمثل جانباً لصيقاً بالبحث الديني، على نحو يؤدي تجاهله إلى استيعاب ناقص أحادي للموضوع الديني. ونلاحظ على صعيد آخر ان للدين دوراً رئيسياً في تنظيم الجانب النفسي في دائرة الأفراد والثقافات ضمن مختلف النطاقات الحضارية، الأمر الذي يعني ان على العلوم الاجتماعية وفي سياق محاولتها التوصل إلى فهم السلوك بأسلوب شامل علمي، ان تولي اهتمامها للبحث الديني التجربي، وقد ظهرت في هذا السياق حقول من قبيل علم نفس الدين وعلم اجتماع الدين.

ما هو البحث الديني التجربي، وما هي سمات عمليات الوصف والتفسير التجربيين للدين بطبيعتها؟ سجل ذلك في الجدول التالي وقارنه بالجدول 11-6.

ماهية البحث الديني التجريبي
....
....

الجدول 11-1: ما هو تصورك حول طبيعة البحث الديني التجربي؟

كيف لنا ان نحدد البحث الديني التجربي لتمييزه عن سواه من الاتجاهات والمناهج؟ ما هي المواصفات والخصائص المعرفية لهذا النمط من الأبحاث؟ دوّن تصورك في الجدول التالي، وقارنه بالجدول 11-4.

الجدول 11-2: تصورك للخصائص المعرفية للبحث الديني التجربي.

تقدم في الفصل السابق ان التعرف على اتجاه بحثي ما، يتقوم بمرتكزين هما، امتلاك تصور واضح ودقيق وكامل حول ماهية الاتجاه هذا، والتعرف على الخطوات البحثية في ذلك الاتجاه والإطلاع على مراحل البحث. ما هي مراحل البحث في الدراسات التجربية؟ دوّن ذلك في الجدول أدناه وقارنه بالجدول 11-7.

المواصفات المعرفية للبحث الديني التجريي	
1	....
2	....
3	....
4	....
5	....

الجدول 11-2ماهي مواصفات البحث الديني التجريي ؟

الاتجاه التجريبي في الأبحاث الدينية[1]

يتسم البحث الديني التجريبي كما هو الحال مع غيره من المعالجات العلمية، بطبيعة محدودة نسبية ومؤقتة. وعلى هذا الأساس فإن البحث الديني التجريبي يتناول في معالجاته، السلوك الديني دون الدين[2]. وفي ضوء الاعتبار ذاته فإن الاتجاه هذا لا يدافع عن الدين كما لا يشكل تحدياً له في حد ذاته. ان الدراسة الدينية التجريبية مثلاً، لا تنتهي إلى إثبات وجود الله أو رفضه، غير ان دراسة الدين علمياً يمكن ان تتناول عوامل الفهم الشخصي المنهجي للدين وخطواته وتبعاته، كما تدعم الشعور والسلوك الدينيين أو تجعل منهما عرضة للنقاش.

---

[1] - كنت قد طلبت من صديقي الخبير وعالم النفس البارز، الدكتور نيما قرباني، العضو في جمعية الأبحاث الدينية العلمية، ان يقدم تحليلاً لطبيعة البحث الديني التجريبي وخصائصه المعرفية وخطوات البحث في ذلك الإطار وقد كان سخياً في تلبية الطلب، وقام بإثراء الموضوعات المطروحة. لم أتصرف في النصوص التي قدمها إلا بإدخال بعض التعديلات الشكلية التي حاولت من خلالها التوفيق بين فصول الكتاب، ووضعت الإضافات بين معقوفتين [-].

[2] - نيما قرباني، "روانشناسي دين: يك روى آورد علمي چند تبارى" (علم نفس الدين: اتجاه علمي متعدد الأصول). قبسات، شماره 2 و3.

لقد تكون البحث الديني التجربي وتطور بشكل رئيسي، في نطاق علم النفس والاجتماع، وليس ثمة في الوقت ذاته تباين واضح جداً ومحدد، بين علم المناهج وحالات المجالين المذكورين فيما يتصل بذلك، إلا ان المنهج والموضوعات المبحوثة في علم نفس الدين، تتمتع بطابع فردي وتجربي أشد، بينما تظل أكثر عمومية في علم اجتماع الدين، وأقل قرباً بالطبع من الموضوعية والمناهج العلمية.

وفي السياق ذاته سيكون لدينا بناء مفهومي تجربي ناقص، على تقدير ان لا تكون المعالجة في علم نفس الدين، قد أخذت بنظر الاعتبار النسيج الاجتماعي للإيمان، وفيما لو جرت المعالجات في علم اجتماع الدين على نحو يتجاهل الجوانب المعرفية والانفعالية. كما يمكن تفكيك المستويات الفردية والاجتماعية لتحليل السلوك كذلك.

البحث التجربي، الخصائص المعرفية

يطلق العلم منذ ظهور الاتجاه الوضعي، على المعطيات التي تقوم بالتجربة الحسية المباشرة، ورغم ان هنالك متغيرات رئيسة طرأت على مكانة المفهوم الذي طرحه الوضعيون للعلم، فلا يزال المنهج العلمي قائماً على التجربة الحسية حتى الآن. ويتسم الفهم العلمي للظواهر بوصفه حصيلة للمنهج العلمي، بالخصائص التالية التي تميز العلم عن المنظومات المعرفية الأخرى:

1- يقوم المنهج العلمي على أساس التتبع والملاحظة والتجربة الموضوعية: والمراد بالموضوعية هنا الملاحظة والتجربة التي تتسم بكونها عامة ويمكن تكرارها، ولا بد في الواقع ان يكون في وسع الجميع استيعابها وتكرارها. وبكلمة أخرى فإن

العلم يقوم على التجربة الحسية العامة التي يمكن ان تتكرر، ويخرج عن نطاق العلم ذلك النوع من التجارب الشخصية والذاتية التي لا تكون عامة قابلة للتكرار نسبياً.

عادةً ما تطرح التجربة العرفانية بوصفها نموذجاً للتجارب غير العامة والتي لا تتقبل التكرار، ولكن نجد في الحقيقة ان الدراسات العلمية دللت فيما يتصل بالتجربة العرفانية على ما يلي. أولاً: ان للتجربة العرفانية أبعاداً متماثلة في نطاق الثقافات المتنوعة كما قال ستيس (عام 1991). وثانياً: ان هذه التجارب ستكون عامة وقابلة للتكرار نسبياً، من خلال القيام بعدد من التمارين واتباع محددات خاصة[1]. وفي ضوء ذلك فمن الأفضل ان نضيف إلى شروط الموضوعية العلمية علاوة على عمومية الأمر وقابليته للتكرار، ان يكون من الممكن التعامل مع الظاهرة المبحوثة ومعالجتها ***treatment***، وتحديد عامل التغيير، ومن البديهي انه لا يتوفر مصداق لذلك فيما يتصل بالتجربة الزمنية.

2- يقوم البحث العلمي دوماً على أساس فرضية: أي ان الملاحظة والتجربة والاختبار العلمي، هي أمور تكون دائماً مسبوقة بفرضية أو نظرية أو نموذج نظري، وفي حقيقة الأمر فإن الملاحظة تتم في إطار محددات نظرية كهذه تتولى توجيه عملية الملاحظة وتضفي عليها طابع الانتقاء. وهذا مما صرح به بوبر في فلسفة العلم، وقد قدمت تفسيرات كهذه للنطاقات الأساسية التي ظهرت فيها البناءات المفاهيمية لما بعد الحداثة والتعددية، في العلم. وذلك لأن هذا النمط من التفسير يصحح القول بعدم إمكانية الفصل بين الذاتية والموضوعية وعدم وجود موضوعية محضة.

3- يعتمد العلم منهجاً انتقائياً: يتناول المنهج العلمي واحداً مما لا يحصى من أبعاد الموضوع، الأمر الذي يعني انه لا يمكن الكشف من خلال المنهج العلمي،

---

[1] - لاحظ:

Ghorbani, N (2000) Cross-Cultural Comparison of Self-report mystical experience. Paper presented at 51 annual meeting of society for the Scientific study of religion, Huston, Texes.

عن حقيقة الظواهر. وفي الوقت نفسه فإن الانتقائية في المنهج العلمي لا تعني غياب رؤية منهجية وافتقاد دراسة للتركيب في ظل المنظومة التي ينتمي لها.

ان الانتقائية مفهوم نسبي فمن الممكن أحياناً ان يجري تناول عنصر من منظومة ما في إطار علاقته بالعناصر الأخرى، أو يتم انتقاء سلوك أو حركة عامة لمنظومة محددة في ظل علاقتها بالمنظومات الأخرى. ولكن نلاحظ كذلك، ان أي عنصر في هذا الكون يعد منظومة في حد ذاته، وهو عنصر أيضاً مقارنة بالمنظومات الأوسع. وهكذا فإننا نعني هنا ان طبيعة البحث العلمي الانتقائية، يمكنها ان تستوعب العناصر الأوسع والأقل، فالفرد في حد ذاته مثلاً، هو منظومة وهو عنصر أيضاً ينتمي إلى نظام الأسرة أو المجتمع. يجري في العلم اختيار الفرد أو الأسرة أو المجتمع، ليكون عنصراً يدور حوله البحث.

4- يجري تفسير المعطيات العلمية دائماً، في ظل النظريات والقوانين العلمية: وبكلمة أدق فإن شتى الأبحاث العلمية تتوحد في ظل الأطر النظرية[1]. وهذا ما يؤدي إلى تنظيم المعرفة القائمة على الملاحظة والتجربة، وهو ظاهرة تتكون في ظل النظريات العلمية. ان النظريات أسلوب لتنظيم أفكارنا وتصوراتنا، وتكتسب المعطيات المتبلورة مضمونها في إطار ذلك.

وعلى هذا الأساس تكون شتى الأبحاث العلمية، تجربية وموضوعية ونظرية ومفهومية في الوقت ذاته، وذلك لأن أياً من هذه الخصائص لن يعني شيئاً دون ان يقترن بالآخر. وحديثنا هذا يأخذ بعين الاعتبار من زاوية معينة، تفسير كواين للفلسفة والذي يجعلها في النقطة النهائية التأملية والنظرية للعلم[2].

كلما تعالت عملية البناء النظري، على سياق الملاحظة والتجربة، اكتسبت طابعاً نظرياً وتأملياً أشد، وأصبحت بالتالي أقرب إلى التفلسف. مع انه لا وجود

---

[1] - *Hood, R. W. (1996), The Psychology of Religion, New York, Guilford press.*

[2] - برايان ماغي، مردان انديشه (رجال الفكر). طهران، طرح نو.

لحدود متميزة بين الملاحظة والتجربة من جهة، والتنظير المتفلسف من جهة أخرى. يتضمن الجدول التالي إيجازاً لما مر.

الخصوصيات المعرفية للبحث التجريبي
1 الاستناد إلى الملاحظة، التجربة الموضوعية، الطابع العام و القابلية على المعالجة .
2 الاستناد على الفرضية .
3 الانتقائية .
4 تفسير المعطيات في ظل النظريات و القوانين العلمية

الجدول رقم 11-4: الخصائص المعرفية للبحث التجريبي.

[ان ما يكتسب أهمية فائقة في الجدول أعلاه، هو النظريات والقوانين العلمية. يؤدي تفسير المعطيات في ظل القوانين العلمية، إلى اعتبار الوصف والتفسير في ذلك الاتجاه، سياقاً تجريبياً. ولكن ما هي النظريات والقوانين العلمية؟ ما هي خصائصها وكيف تتميز عن النظريات غير التجريبية؟].

ثمة ثلاثة مواصفات للنظريات العلمية:

أ: انها تتولى تبيين نظام دائم مستقر، وهذا ما يشمل كلاً من التفسيرات القياسية والاحتمالية التي ميز همبل *Hempel* بينها[1]. ان التفسيرات القياسية هي تعميمات عامة كونية، بينما تقوم التفسيرات الاحتمالية التي تمثل أساساً لمبادئ العلوم السلوكية والاجتماعية، على احتمالات وهي حصيلة للاستقراء، وبكلمة أدق فهي نتيجة لدراسة النماذج. وعلى أي حال فإن القوانين الاحتمالية تمتلك عموماً كذلك، فحين نقول مثلاً ان اللقاح المضاد لوباء معين، يمتلك مفعولاً جيداً في 75 بالمائة من الحالات، فإن ذلك يعني ان احتمال الـ 75 في المائة، قائم على الدوام في الظروف الطبيعية، وكلما جرى استخدامه كان 75 في المائة من الناس قادرين على مقاومة الوباء. ولكن لو قلنا بأننا لا نعلم ما هو مفعول اللقاح فهو

[1] - حيدر علي هومن، شناخت روش علمي در علوم رفتاري (اكتشاف المنهج العلمي في العلوم السلوكية). طهران، نشر بارسا.

يكون أحياناً بمفعول جيد بينما لا أثر له في أحيان أخرى حتى اننا لا نعلم النسبة المئوية لتأثيره، فإن هذا لا يمثل تعبيراً علمياً وهو بحاجة إلى جهد أكبر لتعديله.

ب: تمتلك النظرية العلمية قدرة مشروطة على التنبؤ، أي ان في وسعها ان تخمن أحداثاً مستقبلية في ضوء وجود مقدمات قادرة على ذلك بنحو احتمالي جزئي موضوعي محدد.

جـ: ان القوانين والفرضيات العلمية ترى ان من المستحيل حصول بعض الظواهر في الكون. وكلما تضمن القانون أو النظرية العلمية إصراراً بنحو أشد على امتناع ذلك، اكتسب قيمة علمية أكبر. يقوم هذا المفهوم على إمكانية الدحض التي طرحها بوبر، أي إمكانية تصميم أو تحديد الظروف والحالات التي يمكن فيها دحض النظرية او الفرضية، وبعبارة أخرى فإن حصول أحداث معينة لا بد ان يؤدي إلى إبطال فرضيةٍ ما. ان إمكانية الدحض تعني عدم تكيف الفرضية مع كل الظواهر الممكنة. وإنما يتاح نقد الفرضيات تجريبياً، على أساس مفهوم إمكانية الدحض هذا.

يمكن بناء فرضيات لا يمكن دحضها، وذلك من خلال كون الفرضية بمثابة الاستدراك والكلام الإضافي، واشتمالها على جميع الحالات الممكنة، أو كونها تتحدث عن ظاهرة دون تحديد الزمان والمكان، وكذلك الحديث عن مستقبل غير محدد، أو تضمنها لبيانات كيفية ونوعية غير كمية، أو انها تطرح لوازم ضرورية ذاتية للظاهرة، أو قضايا جزئية مبهمة وغير محددة.

خصائص النظريات والقوانين التجريبية	
التعبير عن نظام دائم مستقر.	1
القدرة على التنبؤ المشروط.	2
تحديد استحالة وقوع بعض الظواهر .	3

الجدول رقم 11-5: خصائص النظريات والقوانين التجريبية.

طبيعة البحث الديني التجريبي

تميز الخصائص المذكورة بين الدراسة العلمية للظواهر والدراسات الفلسفية والكلامية والأخلاقية. فلو أردنا مثلاً ان ندرس العلاقة بين الصلاة والصحة النفسية، ففي وسعنا ان نسأل أحد علماء الدين حول ذلك، كما في وسعنا ان نجعل التجربة الشخصية للمرء مقياساً في تحديد تلك العلاقة، أو ان نتولى تحليل ظواهر الصلاة والصحة النفسية والعلاقة بينهما، على نحو مفهومي عقلاني، وأخيراً فيمكننا ان نوظف المناهج العلمية لنحدد مستوى الصحة النفسية عند من يلتزمون بإقامة الصلاة وأولئك الذين لا يصلّون، ونقارن بين الحالتين.

يمكن في ضوء الخصوصيات المذكورة وفي مستوى أكثر تعقيداً، ان نعتمد العلم بوصفه عملية كشف عن المتغيرات الهامة في الطبيعة، وربطٍ بين هذه المتغيرات، وتفسير لجوانب الأواصر تلك. ومن خلال المنهج العلمي وأساليب الملاحظة والتجربة، نصل إلى القوانين والمبادئ التي تخضع لها الظواهر.

يمثل البحث العلمي جهداً يتولى تحديد الظروف التي تفرز ظاهرة محددة، والظروف التي لا تتكون الظاهرة في إطارها. ان هدف البحث هذا في حقيقة الأمر، التمييز بين الظروف الاستثنائية والحالات العامة الخاضعة للقواعد، ومن المؤكد في الوقت نفسه، ان اكتشاف القاعدة والقانون في إطار العلوم الطبيعية، يجري على نحو أيسر، مقارنة بالعملية ذاتها في العلوم الإنسانية.

ومما يجدر ذكره هنا، ان المنهج العلمي بوصفه أكبر مكسب لعصر التنوير، قد بات عرضة للنقاش. تلاشت الموضوعية التي تتجرد عن الضمانات والقيم، لأن

أي ملاحظة ستحمل على عاتقها عبء النظرية. ونجد من جهة أخرى ان العلماء يعيشون في المجتمع كسائر أفراده، كما ان كل ما يعد حقيقة في الإطار الاجتماعي، يظل ذا صلة بعوامل اجتماعية من قبيل السلطة والقاعدة الاجتماعية. ان حقائق كهذه أخضعت العلموية أو الغلو العلمي للنقاش، وراحت تثير الجدل حول الاتجاه الذي يعتمد العقل والعلم بوصفهما مصدراً وحيداً للمعرفة.

وفي هذا السياق نلاحظ ان التخلف والتهرب من قضية التقدم الإنساني، دفع البعض إلى تجريد العلم عن قيمته، كما أدى بآخرين إلى الوقوف في حالة وسطى بين عالم موضوعي وعالم مجهول يستشرفونه. ان ما ينبغي ملاحظته هنا فيما يتصل بالعلم، هو ان لا ننسى المكاسب العظيمة التي يحققها العلم في معالجته لشتى الظواهر، وفي المقابل فلا ينبغي ان نتجاهل القيود التي تحدد حركة هذا المنهج. وهذا الموقف من العلم يضعه في موقعه المناسب، كما يوفر أرضية للاتجاهات البيتخصصية في دراسة الأشياء.

تعريف البحث الديني التجريبي
دراسة السلوك الديني في ضوء مناهج العلوم التجريبية، أي استيعاب طبيعية الآصرة بين المتغيرات وتفسير مستويات العلاقة في السلوك الديني . على أساس كشف المتغيرات المهمة .

الجدول 11-6: ماهية البحث الديني التجربي.

خطوات البحث الديني التجريبي

يتكون البحث العلمي من مجموعة مراحل يحاول الباحث خلالها ان يدلل على عدم بطلان فرضيته. وفي هذه العملية يحاول الباحث ان يتفادى تأثير ميوله الشخصية على عملية البحث، وهو يأخذ في التشكيك بصواب الخطوات التي يتابعها في عمله، على نحو منظم. ونستعرض فيما يلي خطوات البحث العلمي ومراحله.

1- تنظيم مسألة البحث

يبدأ البحث العلمي دائماً بسؤال أو مسألة، وتتمثل الخطوة الأكثر تعقيداً في البحث، بتحديد المسألة. وبمعنى آخر فإن الفارق بين العالِم والشخص العادي يتمثل في عدد المجهولات عند كل منهما، فالعالم يمتلك في ذهنه عدداً أكبر من المجهولات مقارنة بالأشخاص العادين، وهذه مجهولات جزئية تتوزع على حالاتٍ ما، وهي موضوعية ومحددة. وفي الحقيقة فإن العالم يدرك مجهولات تغيب عن الشخص العادي، ومن الواضح انه لا مناص للعالم من طرح تساؤلات وبلورة مسائل يمكن معالجتها وفقاً للأدوات المتاحة علمياً، وهي مسائل تكون في الوقت ذاته جزئية موضوعية ومحددة.

وفي مرحلة تنظيم المسألة المبحوثة، أو بعد بلورة الفرضية أحياناً، يستعرض الباحث تاريخ المسألة التي يتناولها على نحو نقدي، بهدف تحديد ما إذا كانت المسألة المبحوثة قد خضعت للمعالجة والدرس سابقاً أو حظيت بإجابة مناسبة.

وعلى تقدير ان المسألة لم تحظ بذلك من قبل، فإن الباحث سيخمن مدى جدة عمله وما سيلقاه من ترحيب في الوسط العلمي وفقاً للاحتمال الأقرب. كما ان عدم توفر معالجات للمسألة المبحوثة في الأعمال البحثية، أو فقدان الإجابات التي قدمت حتى الآن حيالها، يؤكد ضرورة البحث الراهن وأهمية نقده. وفي الوقت ذاته فمن الممكن ان يدرك الباحث ان مسألته قد بحثت سابقاً وجرى تقديم معالجة رصينة لها.

2- صياغة الفرضية

بعد التدبر في المسألة وملاحظة المعالجات التي يمكن ان تكون قدمت حيالها، إلى جانب التجارب أو الملاحظات الشخصية أو العامة المنظمة، ينتقل الباحث إلى صياغة إجابة مؤقتة للمسألة المبحوثة وهو ما يعرف بالفرضية. يمكن ان تكون الفرضية نتاجاً للخيال كما يمكن ان تقوم على بعض المبررات، وتتولى الحكم على العلاقة بين متغيرين.

صحيح من زاوية نظرية ان العلم لا يخضع لمنهج في مستوى متابعة الأشياء، وإنما يتمنهج في سياق النقد التجريبي للفرضيات، غير اننا نجد من زاوية عملية، ان الوسط العلمي عادةً ما يبدي تمنعاً حيال الفرضيات أو الأبحاث التي لا تتمتع بآصرة منطقية مع بنية البحث المسبقة. وهذا ما يستند إلى واحد من الشروط التي تكون الفرضية مقبولة على أساسها، كما يشير ماك كيغان[1]، وهو يرى انه لا بد ان تكون الفرضية على غرار سواها من الفرضيات في نطاق البحث، أي ان يكون من الممكن معالجتها وأن تتمتع ببساطة منطقية وتتجه نحو معالجة مسألة خاصة، ويمكن إدراكها بسهولة، كما ينبغي ان تكون كمية أو يمكن معالجتها كمياً، وعامة بالقدر الكافي (ان تكون لها معطيات في نطاق واسع).

---

[1] - *Mc. Guigan, F. J. Experimental Psychology, USA, printice-hall.*

عادةً ما يكون من الواضح ان البحث الذي يجري توجيهه بواسطة الفرضيات، سيتمتع برصانة نظرية أكبر، ولكن ثمة في الوقت نفسه الكثير من الأبحاث التي يجري توجيهها من خلال الأسئلة البحثية وحسب دون فرضية محددة تتولى تقدير طبيعة الصلة بين المتغيرات على نحو خاص.

3- اختبار الفرضية

من الواضح ان قيمة البحث تعتمد على نمط الاختبار المستخدم في التعامل مع الفرضية، وهو الملاحظة والتجربة. يحدد الباحث في هذه المرحلة، منهجه في الدراسة وتصميمه لشكل البحث، في ضوء طبيعة الفرضية ونمط السؤال المبحوث. وتكتسب خبرة الباحث واختصاصه في هذا السياق أهمية فائقة، لأن ترتيب المتغيرات على نحو غير مناسب، واعتماد أدوات لا تتوافق مع طبيعة الدراسة، وتصميم شكل غير ملائم للبحث، يؤدي إلى نتائج بعيدة عن الصواب.

يتم جمع المعطيات في إطار منهجي الملاحظة والاختبار، وتعني الملاحظة تسجيل حدثٍ ما على نحو موضوعي دقيق، كما يعني الاختبار تلك الملاحظة التي تتكون لدى الباحث أو يتدخل الباحث في تغييرها.

يستنتج الباحث عبر معالجته الاختبارية، حكماً ويمارس اكتشاف سبب المتغيرات، كما يحاول البت في احتمال وجود متغيرات أو عوامل أخرى فيما يتصل بالمتغير الذي جرت ملاحظته، وفي هذا الإطار لا بد من السيطرة على العوامل الأخرى التي من المحتمل ان تكون مؤثرة في ضوء معلومات مسبقة، فيما يتصل بالتغيير المأخوذ بنظر الاعتبار.

من الممكن ان تكون الملاحظة مجردة تجري بشكل طبيعي، كما يمكن ان تستعين بالأدوات اللازمة، كما لو استعانت بالمجهر أو جهاز الفيديو والمرايا ذات الجهة الواحدة، أو لجأت إلى إعداد قائمة استبيانات وأجرت شتى اختبارات الدم.

وحين يراقب الباحث تلك التغييرات التي أدخلها، نلاحظ كذلك انه عادةً ما يقوم بتقسيم عينات الاختبار إلى فئات متنوعة عشوائياً، ثم يطبق الخطوات المحددة التي تنتهي إلى التفسير الذي يترقبه، على واحدة من الفئات تلك، بيد انه يخضع للدراسة كل تلك الفئات ويتابع التغييرات التي يترقبها، كي يتمكن من استنتاج السبب في ضوء ملاحظته ذلك التغير في إحدى الفئات، وتحديده لعدم وجوده في فئة أخرى (الفئة التي خضعت للمراقبة).

فلو قام الباحث بدراسة أثر الدعاء في تحسن الحالة المرضيّة، فإنه يقسم المرضى الذين يمرون بظروف متشابهة، إلى فئتين بطريقة عشوائية، ثم يقوم باختيار عشوائي، ويجعل عدداً من الأشخاص يتوجهون بدعواتهم من أجل شفاء واحدة من فئات المرضى، ويترك الفئة الأخرى دون دعاء. ثم يأخذ في ملاحظة عملية الشفاء عند الفئتين من خلال الملاحظة المزودة بالأدوات المناسبة لذلك. ويمكن للباحث ان يستنتج دور الدعاء في تحسن حالة المرضى، فيما لو كانت عملية التشافي عند فئة الاختبار تختلف عن العملية ذاتها عند الفئة الأخرى بالنحو المترقب. ان مفهوم شكل البحث يتصل بهذا التعدد في مجموعات البحث ومنهج الملاحظة والكيفية التي تتم بها المعالجات.

وحيث اننا نتناول السلوك الديني في البحث الديني التجربي، فإن هذا اللون من الأبحاث بحاجة إلى أشخاص بمثابة عينات اختبار أو متطوعين في البحث، ومن الطبيعي ان نمط عينات الاختبار يتحدد في ضوء لون الفرضية أو الدراسة. والاستقراء هو أساس هذه الممارسة، أي انه يجري اختيار مجموعة من الأشخاص على أساس لون البحث وفرضيته، وفق أسلوب خاص. وفي الظروف المثالية، فمن الأفضل ان يجري اختيار العينات الاختبارية عشوائياً، من وسط معين لكي تكون النتائج قابلة للتعميم. والمراد بالانتقاء العشوائي، أسلوب يكون بموجبه لكل من أفراد الدائرة المأخوذة بعين الاعتبار، فرصة اختيار متكافئة.

ثمة زاوية أخرى لا بد ان ننتبه اليها في جمعنا للمعطيات، وهي تعريف الجانب العملي في المتغيرات أو الظواهر المبحوثة. وفي هذه العملية تخرج المتغيرات المبحوثة عن شكلها النظري أو المفهومي، ويجري تعريفها على نحو عملي، فتنتقل من مستوى النظرية - الفرضية، إلى مستوى عمليات الملاحظة والاختبار. ففي دراسة أشكال الإيمان والالتزام الديني، يمكن ان يعرّف الباحث أشكال الإيمان ويحددها على أساس تقييم الدوافع الداخلية والخارجية عملياً، وهو مقياس (ألبورت) و(راس)، (1967). كما يمكن ان يتولى على نحو عملي تعريف الاضطراب مثلاً، على أساس رد فعل العينات الاختبارية، من خلال قائمة استبيان أو تسجيل زيادة دقات القلب أو اتفاع ضغط الدم.

4- التحليل الإحصائي

تتولى الفرضية المبحوثة تحديد طريق لتحليل المعطيات كذلك، ويمكن ان تُدرس بعض الفرضيات على نحو أفضل في قالب اختباري، بينما يكون من الأفضل تناول لون آخر من الفرضيات في إطار الملاحظة. ان توظيف علم الإحصاء هو واحد من الأدوات الضرورية للباحث في تحليله للمعطيات. فبعد جمع المعطيات، يستعين الباحث بالنماذج والمناهج الإحصائية ليعيد ترتيب معطياته وتلخيصها. ومن المهم هنا تحويل الفرضية إلى صياغة كمية على شكل أعداد وأرقام، حيث يستخدم علم الإحصاء في وصف المعطيات وتحليلها وتفسيرها.

من الممكن مثلاً ان نأخذ عينات اختبار تمرّ بظروف قلق شديد، ونلاحظ ان معدل الاضطراب لديهم قد سجل (50) نقطة بعد حضورهم في حلقة للذكر والدعاء، بينما تسجل عينات مشابهة لم تحضر في الحلقة تلك، (53) نقطة من معدل الاضطراب. ورغم وجود فارق في النقاط هنا بيد انه يظل فارقاً بسيطاً جداً.

مضافاً إلى اننا نواجه السؤال التالي: هل يمثل ذلك فارقاً حقيقياً أم انه خاضع للصدفة؟ نجد في حقيقة الأمر ان نتيجة البحث كانت على أساس العينات التي جرى انتقاؤها، ولذلك فمن الممكن ان تكون النتيجة لوناً من الصدفة. ولكن لو كررنا هذا الاختبار فما هي قيمة احتمال تكرر الصدفة في توصلنا إلى نتائج مشابهة؟

إذا كان هذا الفارق حقيقياً أو ((ذا دلالة)) في لغة علم الإحصاء، فإن عينات الاختبار ستسجل كلما تكررت التجربة، معدلاً أدنى مقارنة بالمجموعة الأخرى. أما لو كان الفارق قائماً على الصدفة، فمن المتوقع ان تسجل نصف عينات الاختبار عند تكرارنا للتجربة، نقاطاً تختلف عن نقاط المجموعة الأخرى، بينما يسجل النصف الآخر نقاطاً مماثلة للمجموعة التي لم تحضر حلقة الذكر.

ينبغي توظيف اختبارات الإحصاء الاستنتاجي، كي نحدد ما إذا كان الفارق الملاحظ في البحث الواحد، حقيقياً، أم انه نتيجة للصدفة وحسب. يجري تحديد الاختبار المناسب لمختلف الحالات البحثية، في ضوء نمط المعطيات والشكل العام للاختبار. وعلى أساس هذا يمكن ان نحدد ما إذا كان الفارق الملاحظ في البحث حقيقياً، أم انه نتيجة لمجرد الصدفة.

5- تعميم النتائج وعملية التنبؤ

حين يكون الفارق الملاحظ في البحث، حقيقياً على أساس التحليل الإحصائي، يمكن تعميم النتيجة المستخلصة على باقي أفراد الجماعة التي تنتمي إليها عينات الاختبار. وفي هذا الحالة فإن الفرضية المبحوثة تحظى بدعم الاختبار دون ان يؤدي ذلك إلى إتباعها. ومن جهة أخرى فإن فرضية البحث لن تحظى بدعم الاختبارات، لو كانت النتائج غير حقيقية على أساس الإحصاء.

وكلما كان تعميم المعطيات أوسع دائرة، تزايد احتمال الخطأ فيه. لو درسنا مثلاً ظهور نمط من السلوك الديني عند الطلبة في إحدى الكليات، وعممنا نتيجة ذلك على سائر طلبة الجامعة وكلياتها الأخرى، فإن احتمال الخطأ في هذا التعميم سيكون أقل من احتمال الخطأ في تعميم يشمل سائر طلبة الجامعات في المدينة أو البلاد. ولكن وفي الوقت نفسه، فإن كل بحث يقوم بتعميم نتائجه بنحو أو آخر، ويستنتج قواعد عامة من المعطيات البحثية.

وإضافة إلى التعميم المذكور، فإن الفرضية التي يجري دعمها وفقاً لنتائج الاختبار، يمكن ان توظف في التنبؤ بأحداث معينة والخروج بتقديرات فيما يتصل بنجاح أعمال معينة. فيمكن ان نقدّر مثلاً ان هنالك مجموعات شتى ستتخذ مواقف في الظروف المفترضة، مشابهة لتلك التي لاحظناها في المجموعة التي خضعت للاختبار.

6- بلورة النظرية

يجري في نهاية المطاف، تركيب شتى معطيات الأبحاث، على شكل نظريات وقوالب نظرية. ويمكن في حقيقة الأمر وخلال عملية بناء النظرية، ان يجري تركيب مئات الأبحاث التي تبدو غير ذات صلة في ظاهرها، والخروج بإطار مفهومي رصين يتولى وصف الظواهر وتفسيرها والتنبؤ بها.

وإنما تكتسب معطيات الأبحاث شكلها المنظم ومضمونها المبلور (بوصف ذلك واحداً من أهداف العلم)، في ظل النظرية. وينبغي ان تتحلى هذه النظريات العلمية دائماً، بالمرونة وتنفتح على معطيات الأبحاث الجديدة، إذ ان النظريات تلك لا ترسم لنا حقيقة مطلقة، ولا بد من تقييمها من حيث القابلية على الاختبار، وحجم الدقة المتوافرة، ومدى الجدوى والفائدة. وفي الوقت نفسه فإن الشيء الوحيد الذي يمكن استنتاجه من البحث، هو ما إذا كانت النظرية أو الفرضية

الخاصة (بوصفها وعاءً وبنية) تتلاءم مع النتائج الملاحظة (بوصفها مضموناً للبنية) أم لا. لأن من الممكن ان لا تنسجم النتائج الملاحظة في بحث آخر، مع النظرية المذكورة[1]. وإنما يطرأ التحول على العلم في ظل عملية كهذه.

مراحل البحث التجريبي
1 بلورة مسألة البحث.
2 صياغة الفرضية
3 اختيار الفرضية .
4 التحليل الاحصائي.
5 تعميم النتائج وعملية التنبؤ.
6 بناء النظرية .

الجدول 11-7: خطوات البحث التجربي

يمثل اعتماد الاتجاه التجربي في الأبحاث الدينية، واحداً من الفروع الجديدة في الدراسات الدينية، وهو قد تطور في القرن الأخير وأفرز حقولاً من قبيل علم نفس الدين وعلم اجتماع الدين. يقوم البحث الديني التجربي على أساس الملاحظة والتجربة الموضوعية العامة التي يمكن معالجتها، وتتأسس على فرضية محددة. كما انه يتسم بطابع انتقائي ويتولى تفسير الظواهر الدينية في ظل النظريات والقوانين العلمية.

تعبر النظريات والقوانين التجربية عن نظم دائمية مستقرة (لا صورية شكلية بالمفهوم المنطقي) ولذلك فهي قادرة على بلورة تقديرات وتنبؤات مشروطة، وترى ان وقوع بعض الظواهر يظل مستحيلاً. سيمكننا التنبؤ بالطبيعة على أساس البحث التجربي.

[1] - زهره سرمد، عباس بازركان، و الهه حجازي، روشهاى تحقيق در علوم رفتارى (مناهج البحث في العلوم السلوكية) طهران، آكه.

يمكن القول في ضوء الخصائص المذكورة بأن البحث الديني التجريبي، جهد يقوم على مناهج العلوم التجربية، ويتولى الكشف عن متغيرات مهمة وفهم العلاقات القائمة بينها، بغية تفسير الأواصر القائمة بين مستويات السلوك الديني. ويتكون هذا اللون من الأبحاث من ست مراحل هي: تنظيم مسألة البحث وصياغة الفرضية واختبارها إضافة إلى التحليل الإحصائي وتعميم النتائج وعملية التنبؤ، وأخيراً بلورة النظرية وصياغتها.

الفصل الثاني عشر:

الدراسات البيتخصصية

مدخل

تتسم الأبحاث الدينية بتنوع في اتجاهاتها وتعدد في مناهجها. وثمة نمطان لهذا التعدد في المناهج، فهناك شكل خاص يمكن ملاحظته في علم الكلام الذي يستخدم مناهج متعددة وفقاً لتعريفه. وفي هذه الحالة نجد ان المسائل المختلفة لهذا العلم تستدعي مناهج متنوعة، وهكذا فإن كل علم تتعدد أنماط مسائله، فإن مناهجه تتعدد طبقاً لذلك.

ثمة نمط آخر لتنوع المناهج وهو يكون في إطار المسألة الواحدة. لقد جرى تناول كل من المسائل التي تنتمي إلى حقل الأبحاث الدينية، في مختلف العلوم. فنلاحظ مثلاً ان مسألة الوحي والنبوة قد بحثت من خلال اتجاهات متعددة، كلامية وفلسفية وعرفانية وفي اتجاهات علم التفسير وعلم الحديث، كما تجترح لها مفاهيم وتصورات متعددة بتعدد هذه الاتجاهات. يجري اليوم تناول موضوع التجربة الدينية في نطاقات مختلفة من قبيل علم نفس الدين، وفلسفة الدين، واللاهوت المعاصر، وتاريخ الديانات، ويتولى كل حقل من هذه الحقول تقديم تفسير خاص أو مختلف عن سواه من التفسيرات.

ان تنوع الاتجاهات والمناهج في الدراسات الدينية الجوانية، يمتد على مقطع تاريخي طويل ويتحرك في نطاق واسع، وخاصة في تفسير القرآن. فقد تكونت مدارس تفسيرية متنوعة نتيجة لتنوع الاتجاهات الأدبية والروائية أو التفسير بالرواية والمأثور بنحو عام، والاتجاه الفلسفي والكلامي والعرفاني والفقهي والعلمي (التجربي). لقد أدى تعدد المناهج والمدارس إلى ظهور تفسيرات متنوعة ومتقاطعة للنصوص القرآنية.

هنالك تباين شديد يدفع إلى التأمل، بين رؤية مفسرين من أمثال البحراني والمولى الفيض الكاشاني، الذين يميلون إلى مدرسة التفسير بالمأثور، والرؤى التي يطرحها أمثال أبي عبيد المثنى وسائر المصنفين في مجاز القرآن ومعاني القرآن الذين أسسوا المدرسة الأدبية في التفسير.

ان تنوع المنهج في فهم نموذج واحد من التعاليم، وتعدد الاتجاهات في تحليل ظاهرة دينية واحدة، أدى إلى اختلاف في القراءات وتعدد في الرؤى، الأمر الذي مثل سبباً للغموض والحيرة. ما هو الفهم الصواب للآية الكذائية، وما هو التحليل الأقرب إلى الحقيقة للظاهرة الكذائية. هل يمكن ان نلجأ في كل حالات التقاطع والخلاف إلى قاعدة تقرر"إذا تعارضا تساقطا"؟

نجد ان أولئك الذين يعيشون هاجس المنهج، يتراجعون خطوة إلى الوراء في تعاملهم مع مستويات الخلاف، ويتساءلون حيال المناهج: ما هو المنهج الذي ينبغي اعتماده حين تتقاطع الاتجاهات؟ ما هو المقياس الذي يتيح لنا تفضيل منهج على سواه؟ وثمة تساؤل أكثر أهمية: هل من الضروري ان نختار منهجاً أو اتجاهاً أو مدرسة واحدة، ونتخلى عن سوى ذلك؟ هل يضاعف ذلك من جدوى البحث أم انه يؤدي إلى تقليصها؟

ما هي الطريقة الأمثل في التعامل مع المناهج المتنوعة؟ هل من الممكن ومن المبرر لنا، اعتماد شتى الاتجاهات والأخذ بعدد كبير من المناهج في تحليل مسألة

واحدة، أم لا بد من الاقتصار على منهج واحد وحسب؟ على أي هذين الخيارين تتوقف جدوى البحث؟ ألا يؤدي اعتماد مناهج مختلفة، إلى التلفيق بين الأسس والخلط بين التصورات؟.

يمكن ان نحلل تساؤلنا حول آلية التعامل مع المناهج المتعددة في الأبحاث الدينية، إلى مسألتين هما، المسألة المنطقية، والسؤال التاريخي. يتصل السؤال التاريخي بآلية تعامل الباحثين والمشتغلين في حقل الأبحاث الدينية، مع تاريخ الفكر الديني. كيف تعامل الباحثون في هذا الحقل، مع تعدد المناهج؟ وهذا ما يمثل مسألة وصفية *Descriptive*.

أما المسألة المنطقية فهي على عكس ذلك، معيارية ***Normative***، وهي تتساءل حول الأسلوب المناسب في التعامل مع تنوع المناهج. ما هي السبل والمعوقات في هذا الإطار؟ هل يمكن ان ننصح باللجوء إلى الطريقة الحصرية أم لا بد ان نحذر منها؟ ان الإجابة على هذا تمثل مقياساً لنقد الإجابة التي تقدم حيال السؤال الأول.

قبل هذه التساؤلات، ينبغي تعريف حالات التنوع تلك وعوامل تعدد المنهج في الأبحاث الدينية، إلى جانب تبعات ذلك ومعطياته. النقطة المهمة التي يجدر الاهتمام بها هنا، هي وجود أساليب متعددة في التعامل مع تنوع المناهج. ثمة الحصرية التي تكتفي بمنهج واحد، وهنالك التعددية التي تعتمد مناهج متنوعة. يمكن ان نتصرف بطريقة منهجية في اعتمادنا لمناهج متنوعة، وتوظيف اتجاهات مختلفة وفق تخطيط مسبق وبرنامج بحثي محدد، كما يمكن ان نتصرف بدون برنامج مسبق.

ما هي طريقتك في التعامل مع تعدد المناهج؟ هل تكتفي وحسب باعتماد الاتجاه التجربي في الأبحاث الدينية، وتتجاهل اتجاه الظاهريات والاتجاه التاريخي والتحليلي، أم انك تلجأ إلى طريقة تعددية وتقوم بتوظيف مختلف العلوم ذات

الصلة بالموضوع؟ ما هو مبررك في اعتماد واحد من الخيارين المذكورين؟ وعلى تقدير انك تميل إلى اعتماد مناهج متنوعة، فما هي الخطة التي تتبعها في ذلك؟ سجل تصورك في الجدول أدناه، وقارنه بالموضوعات القادمة.

الاتجاه	المبرر	برنامج البحث
الحصرية		
التعددية		

الجدول رقم 12-1: كيف تتعامل مع تعدد المناهج في الأبحاث الدينية؟

ما هو تصورك حول السر في إمكانية تناول مسألة واحدة أو ظاهرة واحدة تنتمي إلى حقل الأبحاث الدينية، في حقول علمية مختلفة؟ هل ثمة عامل واحد أم عوامل متعددة؟ هل يتصل العامل الرئيسي بعقلية الباحث أم ان لذلك صلة بالبنية الخاصة للمسائل في هذا الحقل؟ هل يمكن القول بأن خيالاتٍ شتى في أذهان الباحثين هي التي أدت إلى ظهور مناهج متنوعة؟ هل أدت خيالات الباحث إلى ميله نحو منهج أو رؤية وتجاهله لسواها، أم ان السر في الحصرية يتمثل في أمور من قبيل التعقيد والغموض في الظواهر الدينية، التي يؤدي عدم الوضوح في هويتها إلى اختلاف في المنهج وتعدد في الرؤى؟

الحصرية المنهجية

يمثل اتجاه الحصر المنهجي *methodological exclusionism* اهتماماً بعلم محدد وتجاهل سواه من العلوم والاتجاهات في تحليل المسائل. فدارس الفلسفة يمتلك خبرة في الإطار الفلسفي والاتجاهات والأدوات الفلسفية في معالجة المسائل، وهو يحلل شتى الظواهر من خلال هذا المنظور بينما يجهل التحليلات المتداولة في غير ذلك من العلوم أو يرفضها، فيصف المعالجات الكلامية أو العرفانية أو التفسيرية، بأنها محاولات ناقصة أو خاطئة. وهكذا هو الحال مع المتكلمين الذين يرون أنهم مصيبون بينما يصفون الآخرين بالخطأ. يكتفي الخبراء في كل علم أو حقل، بما يتوصلون إليه من خلال عدقم المعرفية، ويشعرون بالاستغناء عما يتوصل إليه الآخرون، وبالتالي فإنهم يتجاهلون تصورات الآخرين أو يرفضونها﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[1].

أدت الجزمية والدوغماتية إلى ازدهار الاتجاه الحصري وتبعاته، ونجد ان تعصب الباحث لما يتوافر في حقله وفي إطار أبحاثه، يدفعه إلى اتخاذ مواقف خاطئة ترفض ما تأتي به شتى الحقول الأخرى. لقد أثارت الحصرية صراعات كثيرة ظلت في معظمها غير مجدية، على مر تاريخ الفكر، ولا نحتاج هنا إلى التدليل على الصراع بين المتكلمين والفلاسفة أو الفلاسفة وأهل الحديث، أو الاتجاهات الثلاثة هذه مع العرفاء، لأنها صراعات شهيرة جداً.

---

[1] - المؤمنون، 53. الروم، 32.

ورغم ان مختلف العلوم قد تناولت معظم مسائل الإلهيات وموضوعات البحث الديني، بيد اننا قلما نجد عالماً يتخطى نطاق اختصاصه ويرى في تصورات العلوم الأخرى أموراً تستحق الاهتمام. تتداخل الإلهيات بالمعنى الأخص عند الفلاسفة في عدد كبير من مسائلها، مع موضوعات علوم الكلام والعرفان والتفسير والحديث، غير ان اهتمام كل من هؤلاء قد انصب على ما يوجد في حقله الخاص من أدوات وأسس واتجاهات، ولم يستعن بغيرها في معالجة المسائل، فحُرم بالتالي من الموضوعات المطروحة في المجالات الأخرى بوعي أو دون وعي، نتيجة لشعوره بعدم الجدوى من الاتجاهات المتداولة في العلوم الأخرى.

تمثل أدبيات الحجاج والاعتراضات والردود الناتجة عن الاتجاه الحصري، قسماً من التراث البحثي في تاريخ الفكر، ونجد ان معظم النقوض المكتوبة نشأت عن فهم خاطئ للنظريات المنتقدة الأمر الذي يقوم على النـــزعة الحصرية. فهذا فريق يرى في رؤية الفريق الآخر مخالفة للعقل دون ان يكون في صدد فهمها، كما ان الفريق الآخر يعتقد بخطأ رؤية الفريق الأول دون ان يتجشم عناء استيعابها بنحو صحيح. هذا اتجاه يرى الآخر مناهضاً للعقل، وذلك مشرب يرى الأول مخالفاً للشريعة والدين. يكتب المتكلم (مصارع الفلاسفة) ضد الفيلسوف، ويتهم التصورات الفلسفية بالتناقض، كما يكتب أهل الحديث ضد المتكلمين (إلجام العوام عن علم الكلام)، ويصنف عالم سلفي كتاباً لعصمة العقل واللسان عن علمي المنطق والكلام.

ان الحصرية والتعامل الإلغائي مع العلوم الأخرى، يتسربان تدريجياً إلى داخل الحقل العلمي الواحد ذاته، فالفلاسفة لا يتعاملون بأسلوب الإقصاء والإلغاء مع العلوم الأخرى وحسب، بل يمتد هذا الأسلوب ليحدد آلية العلاقة بين منظومة فلسفية وأخرى. يتحول الصراع بين المتكلم والفيلسوف أو الفيلسوف والعارف، إلى صراع بين المشاء والإشراق وخلاف بين الكرّامية والماتريدية. ان أتباع العرفان

العملي يرون في اتجاه العرفان النظري جهداً لا طائل منه، كما ان اتجاه العرفان النظري ينظر بازدراء إلى العرفان العملي.

ثمة عوامل شخصية ونفسية أدت إلى تكوين اتجاه الحصرية الشائع في التراث الفكري، فالتعصب والتزمت هما نتيجة للسذاجة وافتقاد الوعي.

ينشأ اتخاذ موقف حصري إلغائي حيال تنوع الاتجاهات والرؤى، عن الجهل أو غياب التوازن النفسي، لأن بديهة العقل تقرر انه لا يمكن القول بصواب جميع وجهات النظر، كما لا يمكن الحكم عليها جميعاً بالخطأ.

لقد تسارعت الحصرية في العصر الحديث، بشكل متزايد واكتسبت تعقيداً شديداً، الأمر الذي نشأ عن ظهور التخصصات العلمية وطابع الانتقاء في البحث التجربي. كان العلماء في عصر النهضة خبراء موسوعيين يمتلكون باعاً في معظم المجالات المتداولة في زمنهم. كان ديكارت الذي يمثل بداية الفلسفة الحديثة، ذا باع في معظم علوم عصره حيث ترك أعمالاً هامة ومؤثرة في الفسلجة والفيزياء والرياضيات والفلسفة والأخلاق والسياسة. غير ان ظهور العلوم وتطورها المتسارع، جعل من المتعذر ولادة شخصيات موسوعية كهذه. كما أدى تطور العلوم بإيقاع متسارع، إلى ظهور نزعة التخصصات، فجرى تقسيم كل علم إلى فروع عديدة، وتكوّن علم جديد في إطار كل من الفروع تلك وانشعبت منه فروع أخرى.

إضافة إلى ان انشعاب العلوم وتخصصها أدى إلى ميل الأبحاث نحو التخصص، فلم يعد متاحاً لأي عالم ان يخوض في العلوم كافة ويمارس البحث البحث من خلال أدواتها وإطاراتها، فاضطرت الأبحاث إلى التقيد بنطاق خاص. ان التخصصات التي نلاحظها اليوم في البحث الفلسفي مثلاً، تبعث على الحيرة، حتى ان المسافة التي تفصل بين باحثين في الحقل الفلسفي، باتت اليوم أكبر من تلك التي كانت تفصل قبل قرنين من الزمن، بين علماء النفس وعلماء الاجتماع. وهكذا

أدت هذه الانشعابات والتخصصات إلى مضاعفة الإيقاع المتسارع للاتجاه الحصري ووسعت من نطاقه إلى حد كبير.

ثمة عامل آخر لا بد ان نذكره إضافة إلى سابقه، وهو الانتقائية في العلم التجربي، فالدراسات التجربية تتسم بطابع انتقائي على مستوى المنهج. إذ لا يمكن في هذا اللون من الأبحاث ان نلبي على نحو كامل، الولع بدراسة الكون بأكمله أو استيعاب الحقيقة الكاملة لبعض الظواهر، بل من الممكن وحسب ان يتناول البحث واحداً من أبعاد الظاهرة. ان ملاحظة بُعد من أبعاد الشيء وتجاهل سواه في العلوم التجربية، هو أمر لا بد منه ولا فرق فيه بين العلوم الطبيعية والاجتماعية.

ان الانتقائية من العوامل الهامة في تكوين الحصر المنهجي، لأن انتقاء بُعد من الظاهرة سيعني تخلياً عن سواه من الأبعاد.

وفي ضوء ذلك فقد جرى تكريس الحصرية المنهجية في العصر الحديث، عبر عوامل متعددة منها ظهور التخصصات العلمية، وانتقائية البحث التجربي، والتعصب والتزمت الناتجان عن الجهل. وتؤدي الانتقائية إلى توسيع نطاق الجهل وتعميمه إلى مختلف المجالات، كما يعمل العداء القائم على الجهل على رفض الاتجاهات الأخرى "الناس أعداء لما جهلوا".

نجد اليوم ان أتباع الفلسفة التحليلية ورغم الهم يعيشون الهموم المنهجية، يرفضون اتجاه الوجودية من خلال نـــزعة حصرية غير مبررة، كما ان الوجوديين يرون في الأفكار التحليلية أشياء لا طائل منها، وكل من هذين الاتجاهين يتخذ موقفاً رافضاً إلغائياً حيال الميتافيزيقا. ليست الوضعية بكل تبعاقا وآثارها السيئة، سوى نتيجة للحصرية التجربية.

ويعاني البحث الديني المعاصر كذلك نـــزعة حصرية على نحو قابل للاشتداد، فالباحثون في علم نفس الدين لا يصغون إلى ما تفرزه اتجاهات علم الاجتماع، كما ان الباحثين في تاريخ الديانات لا يحفلون بالتحليل الفلسفي

للظواهر الدينية. ونادراً ما يكون لدى الباحثين في فلسفة الدين، اطلاع على الدراسات التجربية التي تتناول الدين. ان النـــزعة الحصرية عند الباحثين في الحقل الديني في بلادنا، هي السبب الذي جعل موضوعات علم النفس الدين، غير مطروحة حتى الآن في أوساطنا، وهو ما يفسر كذلك ان المنهمكين في التأملات الفلسفية حول الدين، لا زالوا يجهلون الآراء والدراسات المطروحة في البحث الديني التجربي، رغم ان موضوعات فلسفة الدين والكلام الجديد متداولة في بلادنا. ويؤدي الحصر المنهجي في الأبحاث الدينية إلى تبعات أشد وأضرار أفدح، مما يأتي بيانه لاحقاً.

الاختزالية نتيجة للحصرية

تتمثل أسوأ تبعات الحصرية، في خطأ الرد أو الاختزالية ***reductionism***[1]. والمقصود بهذا اختزال ظاهرة وردّها إلى أمر أقل منها وملاحظة جانب من الشيء بدلاً عن حقيقته وكنهه. وقد صاغ علماء المنطق المسلمون هذا الخطأ بشكله الساذج في ((مغالطة الكنه والوجه)).

لا يكشف الطابع الانتقائي في البحث، سوى واحد من أبعاد الظاهرة، بينما تؤدي حصرية الباحث إلى إلغاء الجوانب الأخرى وبالتالي فإنه سيتوهم ان الشيء ليس سوى الجانب الذي انكشف له

ان البحث في ظل الحصرية يظل بمثابة رؤية في الظلام، وهكذا هو حال المعرفة التي تتحرك من خلال منظور مليء بالفرضيات المسبقة، لأن زاوية النظر

---

[1] - تحدثنا تفصيلياً عن الاختزالية في الفصل العاشر.

تلك تتحول إلى ستار للوهم يمنع الباحث من رؤية الحقيقة. وفي هذه الحالة وحسب نضطر إلى الرؤية بواسطة اليد بدلاً عن العين[1].

فالبحث التاريخي مثلاً يلعب دوراً هاماً في اكتشاف الظاهرة، غير ان الاهتمام بالدراسة التاريخية وتجاهل الاتجاهات الأخرى يؤدي إلى اختفاء حقيقة الشيء في جانبها التاريخي، ويتصور الباحث بالتالي ان الشيء ليس سوى جانبه الذي جرى الكشف عنه في البحث التاريخي. ان التاريخانية التي تمثل نموذجاً للاتجاه الحصري، أدت إلى ظهور اتجاهات الانثروبولوجيا الاختزالية والأنطولوجيا الاختزالية والأبحاث الدينية الاختزالية القائمة على محورية التاريخ.

يكشف البحث التجربي عن أحد جوانب ظاهرة من قبيل التجربة الدينية، غير ان الاقتصار على هذا الاتجاه يوهم الباحث بأن التجربة الدينية ليست سوى الجوانب الحياتية والنفسية التي اكتشفها البحث التجربي.

يؤدي الاقتصار على المقاربات المفهومية الفلسفية حول الله وصفاته، إلى حرمان الباحث من التوصل إلى تصورات أكثر عمقاً للموضوع يمكن تكوينها في

---

[1] - يستشهد المؤلف بالعديد من النصوص الشعرية لمولوي، ورغم ما تحمله من دلالات هامة وما تنطوي عليه من فصاحة مؤثرة، وجدنا ان تعريبها لا يمثل خطوة عملية هنا، لأنني شخصياً من أنصار وجهة النظر التي تقرر ان الشعر لا يُقرأ إلا بلغته الأصلية، وحين يترجم يتحول إلى نص غير شعري، أو نسخة مشوهة عن الأصل. ناهيك عن ان الأبيات تنطق بمضامين تحدث عنها المؤلف. لكنه هنا يستشهد بنص شعري لمولوي يتحدث عن أسطورة الفيل الشهيرة، وهي تزخر بالحكمة وتنسب إلى فلاسفة الهند، لذا أوجز القصة باختصار. يحكى ان راجا أو امير منطقة قرر ان يعلم شعبه درساً وكان بعضهم يقول بخلود العالم وبعضهم يرفض ذلك. طلب الراجا من خادمه ان يأتيه بعدد من العميان ففعل وجعل كلاً منهم يلمس طرفاً من فيل وضع أمامهم. قال الذي لمس الرأس انه يشبه قدراً، وقال الذي لمس الأذن أنه يشبه سلة، بينما قال من لمس الناب انه محراث، وقال من لمس الخرطوم انه أنبوب ماء، ورأى من لمس الجسم انه صومعة غلال، وتصور من أمسك بالذيل انه يشبه حبلاً، واخيراً فقد قال الذي لمس الشعر على طرف الذيل أنه يشبه فرشاة. ولا شك ان تفاصيل الأسطورة هذه تختلف من راوية إلى آخر لكن المغزى يظل واحداً. (المترجم).

الاتجاه الجواني في البحث الديني، أو يمكن الاقتراب منها أكثر في ظل الاتجاه الوجودي. وهذا الحصر المنهجي هو الذي جعل بعض الفلاسفة والمتكلمين يبتعدون عن لغة القرآن وتبتعد بذلك معالجاقم للمسائل الدينية، عن الحقائق القرآنية بوضوح.

تتسم الظواهر والتعاليم الدينية بتعدد في جوانبها ومستوياقما، ويؤدي الأسلوب الحصري في قراءة الدين، إلى حرمان الباحث من كنهها وحقائقها. وقد أدت الحصرية في البحث الديني المعاصر، إلى ظهور تصورات مشوهة حول الدين والظواهر الدينية، فالدين"ليس شيئاً سوى الأخلاق" وهو "ليس سوى آيديولوجيا" و"ليس سوى المعرفة الدينية" وهذه نماذج من تشويه الدين بمشارط الحصرية وأدوات الاختزالية الناشئة عنها.

إخفاق الظاهريات في معالجة الاختزالية

تقدم في الفصل العاشر ان أتباع الظاهريات كانوا أول من أدرك التبعات التي تؤدي إليها الاختزالية في إطار الفكر آنذاك، وحاولوا بلورة منهج للوقاية من ذلك ومعالجته. ولعبوا في هذا السياق دور الطبيب المعالج في التنبيه إلى أخطار الاختزالية في دراسة الظواهر الإنسانية ولا سيما الظواهر الدينية. ويعتقد هؤلاء ان اعتماد اتجاهات نظير علم اجتماع الدين وعلم نفس الدين وتاريخ الديانات، يؤدي إلى ظهور الاختزالية في البحث الديني وشيوعها، بينما يمثل اعتماد اتجاه الظاهريات في فهم حقيقة الدين والظواهر الدينية، السبيل الوحيد للوقاية من ذلك ومعالجته.

ولو شئنا استخدام التشبيه الذي يقدمه مولوي في قصة الفيل، فإن الاتجاهات الأخرى تتولى اكتشاف الدين عن طريق اللمس باليد، مما ينتهي إلى الاختزالية حيث لا يسع اليد ان تحيط بشتى أبعاد الظاهرة الدينية. بينما يظل اتجاه الظاهريات بمثابة اكتشاف بالعين الباصرة التي تستوعب هوية الشيء وحقيقته.

يرى أتباع الظاهريات ان الاتجاهات الأخرى في البحث الديني، لا تكشف سوى الجوانب السطحية والأبعاد الشكلية في الظواهر الدينية، وهكذا فهي تحول دون إدراك الباحث لحقيقتها، بينما يمكن من خلال الظاهريات اكتشاف حقيقة الظواهر الدينية والتوغل فيما وراء أعراضها ولوازمها، عبر دراسة مباشرة تتم عن قرب، وبالتالي تجنب مغالطة "الكنه والوجه". ان ظاهريات الدين تكشف حقيقة الظواهر الدينية بينما تظل الاتجاهات الأخرى تتحرك في حدود بعض جوانبها وأبعادها.

لقد نجحت ظاهريات الدين إلى حد كبير، في التذكير بالداء الشائع في الفكر الذي عاصرته، ولكن تحديد الداء واستيعاب مخاطره لا يعني النجاح في تجنبه والوقاية منه. من المؤكد اننا ندين في اكتشاف خطأ الاختزالية، إلى التأملات المنهجية لأتباع الظاهريات، ولكن هل قدم هؤلاء منهجاً وأدوات مجدية لتجنب مخاطر الاتجاه الاختزالي؟.

لم ينجح الظاهراتيون في معالجة الاختزالية، علاوة على ان مقياسهم كان شخصياً لا يتمتع بطابع عام، الأمر الذي يجعل المرء يتردد في جدوى ذلك بوصفه منهجاً في البحث وقاعدة فكرية حسب البيان اللاحق. ان اعتماد الاتجاه التاريخي أو الاجتماعي والنفسي في دراسة الدين، ليس العامل الوحيد في ظهور الاختزالية، بل يتدخل في ذلك أيضاً الأسلوب الحصري في التعامل مع الاتجاهات المذكورة. لو لم يقترن اعتماد الاتجاه التجربي في الدراسات الدينية، بالنـــزعة الحصرية فإن الاتجاه هذا لن ينتهي إلى الاختزال.

كانت الظاهريات ذاتها قائمة على لون من الحصرية، وبكلمة أدق فإن أتباع الظاهريات قرنوا مشربهم هذا بالحصرية، حيث يؤمنون بأن الظواهر الدينية لا يمكن فهمها إلا من خلال الظاهريات، دون الاتجاه التاريخي وغيره.

وحيث ان الاختزالية نتيجة للحصر المنهجي (كبرى الدليل)، وأن الظاهريات تنطوي بنحو أو آخر على الحصر المنهجي (صغرى الدليل)، فإن الظاهريات لم تعالج الاختزالية، وليس هذا وحسب بل انها مثلت على المستوى العملي، توغلاً في الاختزالية (نتيجة الدليل).

الدراسات البيتخصصية برنامج وقائي

نشأت الاختزالية عن الحصر المنهجي وبالتالي فإن الطريق إلى الوقاية منها يتمثل بالخروج عن هذا الطوق والمبادرة نحو التعددية المنهجية *methodological pluralism*. ان الدراسة البيتخصصية[1] *interdisciplinary study*، هي بمثابة برنامج بحثي يرتكز على التعدد المنهجي، وتقوم بتجنيب الباحث الحالة الحصرية

1 - ذكرنا في هوامش الفصل الأول ان المؤلف يستخدم تعبير (ميان رشته اى) كمعادل فارسي للمصطلح الانجليزي *Interdisciplinary* وهو وصف لمنهج في البحث او لنوع من الدراسات. ويستخدم بعض الأكاديميين تعبير (بينية التخصصات) في الدلالة على ذلك. وهذا نظير كلمة *Multi disciplinary* = متعدد التخصص. يقال مثلاً ان الجامعة الكذائية تتميز بتعدد التخصصات. ولعل من المناسب هنا اجتراح مصطلح (بيتخصصي) على غرار *Intersubjective* التي تترجم إلى بيذاتي، وهكذا (بينصّي) وسواها (المترجم).

حيال العلم الواحد، وتدفعه نحو الإصغاء إلى علوم مختلفة تعالج مسألة واحدة. علينا الآن ان نعلم ما هي الدراسات البينخصصية وما هي آليات تنفيذها؟

تعريف الدراسات البينخصصية

نحاول بلورة تعريف واضح محدد للدراسات البينخصصية من خلال التقسيم، كي نميزها عن نظائرها وأضدادها. والنقطة الأولى هي ان هذا اللون من الأبحاث يتمتع بتعدد في المناهج والأدوات في مقابل الأسلوب الذي يعتمد منهجاً واتجاهاً واحداً.

والنقطة الأخرى هي ان تعدد المنهج يكون على نحوين، فهو أحياناً تابع لتنوع المسألة. فثمة علم واحد يعتمد مناهج متعددة تبعاً لتنوع مسائله، فعلم الكلام مثلاً وعلى العكس من الفلسفة الأولى، ينطوي على مسائل مختلفة وهو يفيد بالتالي من مناهج مختلفة في معالجة مسائله. يحاول الكلام الكلاسيكي التدليل على وجود الله من خلال البرهان المنطقي، بينما يعتمد الاتجاه التاريخي في مسائل النبوة الخاصة، ويلجأ في مسائل الإمامة الخاصة إلى الأدلة الدينية الجوانية والأدوات التاريخية، .كما يوظف مناهج أخرى في سوى ذلك من المسائل. أما في علم الكلام الجديد فقد استوعبت ظاهرة المناهج المتعددة نطاقاً أوسع بكثير. ويتسم علم الأصول كذلك بتعدد المناهج وفق المفهوم ذاته.

فسروا تعدد المناهج في علم الكلام، بأساليب مختلفة. والسبب الرئيسي في هذا التعدد هو طبيعة علم الكلام الحجاجية الدفاعية، التي تدفع المتكلمين إلى اقتباس مناهج مختلفة من شتى الاتجاهات الأخرى المعارضة. فغالباً ما يقتبس الأشاعرة مثلاً،

مناهج متعددة في طرح المسألة حتى الهم يأخذون أساليب الاستدلال اقتباساً كاملاً من خصومهم، الأمر الذي جرى بطريقة تجزيئية و لم يتحول إلى نموذج تركيـــي منظم في الفكر الكلامي. ويمكن ان نرجع وجهة النظر هذه إلى التفسير عبر تنوع المسألة، لأن المتكلمين غالباً ما يأخذون المسألة من خصومهم أول الأمر، ثم يتوصلون إلى ما يلائمها من مناهج حينئذ وفقاً لطبيعة المسائل.

ليس المقصود بالتعددية المنهجية التي نستخدمها في تعريف الدراسات البينخصصية، مجرد تعدد في المنهج. بل المقصود هو تعدد المنهج في معالجة المسألة الواحدة، حيث يجري أحياناً معالجة مسألة واحدة من خلال مناهج متنوعة، ونجد ان التجربة الدينية مسألة يجري تناولها بأدوات نفسية واتجاهات تاريخية ومنطقية وفلسفية. وكثيراً ما نلاحظ في الإلهيات بالمعنى الأخص عند الفلاسفة، وموضوعات الإلهيات عند العرفاء، وفي البحث حول إثبات الصانع وصفاته في علم الكلام، ان هناك مسألة واحدة يجري تناولها ومناقشتها بواسطة اتجاهات متعددة ومناهج مختلفة.

ونسمي تنوع المنهج في إطار المسألة الواحدة، بالتعددية المنهجية. ويمكن ملاحظة التعدد بهذا المعنى على نحوين، حيث يحاول الباحث أحياناً ان يتوفر على اتجاهات شتى العلوم التي تناولت مسألته ويتولى توظيفها، غير انه لا يمتلك منهجاً محدداً يتيح له ذلك فيأخذ دون توفر برنامج بحثي دقيق، بجمع المعلومات. انه يعتمد شعار "الجمع مهما أمكن أولى من الترك" ويسعى إلى جمع الآراء المختلفة والمتقاطعة في تحليل المسألة الواحدة، بيد انه يظل دون أي منهج منطقي. ان تعدداً كهذا يؤدي إلى انتقاء الأفكار تلفيقياً والخلط بين الأسس، وليست تبعات ذلك بأقل خطراً من تبعات الحصرية المنهجية.

كثيراً ما نلاحظ ان عدداً من بطاقات المعلومات المبعثرة تجمع من علوم مختلفة وتدور حول مسألة واحدة، ثم يجري تدوينها بأسلوب تأليف الكتب كي

تقدم بعد ذلك بوصفها بحثاً وعملاً مؤلفاً. لكن وجود معلومات واسعة حول مختلف العلوم، لا يمثل سوى شرط ضروري في الدراسات البيتخصصية، وهو ليس الشرط الوحيد، بل لا بد من وجود منهج منطقي لمعالجة المعلومات تلك وتحويلها إلى رصيد منتج. حين يتوفر الشرط الضروري دون الشروط الأخرى المكملة، فإنه يتحول إلى عامل سلبي يؤدي إلى الخلط بين الأسس والانتقائية المشوهة للأفكار. ان الدراسات البيتخصصية هي تعددية ممنهجة.

وتكون التعددية الممنهجة من حيث نوع برنامج البحث، على نوعين، فهناك تعددية تستند إلى برنامج آلي، وأخرى على برنامج ديناميكي. فيتناول الباحث في النحو الأول آراء مختلفة من شتى العلوم، ومن خلال خطة مسبقة يأخذ كلاً من تلك الآراء ويقوم بموضعته وتوطينه في منظومة معرفية معينة. فيجعل من آراء بعض النطاقات بمثابة جذر لمنظومته المعرفية، ويجعل من آراء نطاق آخر بمثابة الجذع والهيكل، ويأخذ مجموعة تابعة لنطاق ثالث فيجعلها في موقع الفروع والأغصان في تلك المنظومة. ويوظف الباحث في هذا الأسلوب، وجهات نظر متنوعة مبتعداً عن الحصر المنهجي، ولا يمارس الإقصاء والتجاهل حيال أي رؤية أو وجهة نظر، غير ان توظيفاته هذه لعلوم مختلفة تستهدف مجرد بناء نظام معرفي محدد.

وفي ضوء هذا النموذج فسر بعض المهتمين بصدر المتألهين، اهتمامه بعلوم مختلفة تتصل بمسائل المبدأ والمعاد. كما يعد كارل ماركس نموذجاً بارزاً لهذا الاتجاه والاهتمام بعلوم مختلفة، حيث أخذ الاقتصاد من سان سيمون، والمادية من الأفكار المادية المتداولة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما أخذ المادية الميكانيكية والديالكتيكية إلى جانب التاريخية من هيغل، غير انه عمد إلى الأفكار المقتبسة من نطاقات مختلفة، وحولها في نهاية المطاف إلى منظومة جديدة بالكامل هي الماركسية.

أما التعددية المستندة إلى مخطط ديناميكي فهي أساساً ليست في صدد جمع الآراء، بل تعمد في الواقع إلى آراء مختلفة وتتصرف فيها وتقوم بتركيبها بأسلوب حيوي ديناميكي، حتى تصل في إطار ذلك إلى وجهة نظر أكثر عمقاً. وتعتمد التعددية بمفهومها هذا خططاً بحثية متنوعة، ومن أكثر الأساليب والخطط تلك جدوى وتأثيراً، إجراء حوار بين الأفكار وإدخالها في دائرة جدلية فاعلة، مما يسمى بالتعددية الديالكتيكية أو الجدلية أو الدراسة البيتخصصية.

وتختلف الدراسات البيتخصصية عن الحصر المنهجي، في نقطة بالغة الأهمية، حيث انها لا ترى في الأفكار الأخرى مقولات جوفاء باطلة لا طائل منها، بل تشعر بحاجة إلى التعامل معها على نحو جاد مبرمج، فتلجأ في إطار ذلك إلى منهج تطلق عليه اسم "الحوار الفاعل". وإنما يجري هنا التأكيد على وصف"الفاعل" لتمييز ذلك عن الجدل المتفشي بين أتباع الاتجاه الحصري، فغالباً ما لا يكون عند الطرفين المتجادلين في الاتجاه هذا، سوى تفنن في القول وحذاقة في الكلام، ولا يكون طرف الجدال عندهم في صدد الإصغاء إلى الآخر أبداً على أساس انه يحتمل ان لدى الآخر على سبيل المثال، جانباً من حقيقة لم تتوفر لديه، ولذلك فهم لا يجيدون الإصغاء. ومما يكرس إعراض المرء وعدم إصغائه للآخر، ما يسمى في صناعة المغالطة بالتبكيت الخارجي، ولا سيما الخلط بين الدافع ونتيجته.

يعلق بعض الباحثين على النقد الذي يوجه إليهم قائلين:"لقد تجاوزت أقدام الناقد مقاس ملاءته". كيف يسع باحثاً كهذا ان يصغي إلى وجهة نظر النقاد؟ فهو حتى حين يحاول الإصغاء إلى النقد، ينهمك وحسب في محاولة الرد والنقض والتملص من النقد، ويظل عاجزاً عن فهم ما يقال له.

يحرص الباحث الذي يؤمن بأهمية الدراسات البيتخصصية، على خوض حوار فاعل مع أفكار الآخرين، وهو حوار يكون مجدياً بفضل التفنن في الإصغاء

ويكون في مأمن من الوقوع في أخطاء كالتبكيت الخارجي. ولا ينحصر الهدف من حوار كهذا، في الاستفادة على نحو انفعالي من وجهات نظر الآخرين.

تختلف الدراسات البينتخصصية عن التعددية الآلية المذكورة، في جانب مهم حيث تؤدي الأخيرة إلى جمع آراء وتكوين مجموعات من الأفكار والتصورات (من خلال مخطط مسبق طبعاً)، بينما لا تتوقف الدراسات البينتخصصية عند جمع وجهات النظر، بل تؤدي إلى تكوين اتجاه أكثر عمقاً نتوصل من خلاله إلى رؤية معينة. تجتمع في الدراسات البينتخصصية وجهات نظر مختلفة فتتحاور وتتفاعل جدلياً بوصفها معطى لممارسات متنوعة، بهدف الكشف عن نقاط القوة والضعف في كل الاتجاهات، كي يتوصل الباحث إلى الاتجاه المعمق.

فالباحث في علم نفس الدين مثلاً، سيظل يلاحظ التجربة الدينية من منظور محدد بالأدوات والأساليب المتداولة في حقله، حتى انه لا يرى سوى جانب منها. بينما يمكن ان يدفعه الولع بالبحث نحو نطاقات أخرى فيتناول التجربة الدينية من منظور علم الاجتماع والتأريخ وفلسفة الدين، ويتولى إدخال كل من هذه المستويات في حوار جدلي، الأمر الذي يوسع منظوره ويعمق رؤيته. وحينئذ يتوصل إلى معالجة جديدة للتجربة الدينية، بدلاً عن تكوين مجموعة منظمة أو مبعثرة من وجهات النظر.

وعلى هذا الأساس تكون الدراسات البينتخصصية تعدداً منهجياً يستند إلى حوار جدلي فاعل بين النطاقات العلمية في معالجة مسألة واحدة. وبكلمة أخرى فإن فهم الظاهرة يكون في ظل الجدل البنّاء بين اتجاهات حقول مختلفة.

تعريف الدراسات البيتخصصة	
تعددية منهجية قائمة على جدل بناء بين الحقول في تناول مسألة واحدة.	1
قراءة ظاهرة ما، في ظل جدل بناء بين اتجاهات علوم شتى.	2

الجدول 12-2: تعريف الدراسات بين التخصصية.

والهدف من تعبير"في مسألة واحدة" تمييز ذلك عن تنوع المناهج الناشئ عن تنوع المسائل، كما ان"التعدد المنهجي" يميز الدراسات البيتخصصية عن الحصر المنهجي من جهة، ويميزها من جهة اخرى عن التعددية المعرفية الدينية ونحو ذلك. إضافة إلى ان "الاستناد على حوار جدلي بنّاء" يميزها عن الجمع غير الممنهج والتعددية الآلية.

لقد توصلنا إلى هذا التعريف بواسطة التقسيم كما ذكرنا سابقاً، ويتولى الشكل 12-1، توضيح أسلوب القسمة في التوصل إلى هذا التعريف.

لا. تتعارض الدراسات بين التخصصية مع انتماء البحث إلى نطاق واحد معين، وكما أكدنا في الفصل الأول فإن كل بحث ينتمي إلى نطاقٍ ما. فالبحث في علم نفس الدين حول تطورات الإيمان ينتمي إلى النطاق النفسي، غير ان علماء النفس في بحث كهذا يهتمون بالمجالات العلمية الأخرى.

"رغم ان معالجة بعض المسائل تتطلب اللجوء إلى علوم مختلفة، بيد الها تنتمي من زاوية ما، إلى بعض العلوم التقليدية"[1].

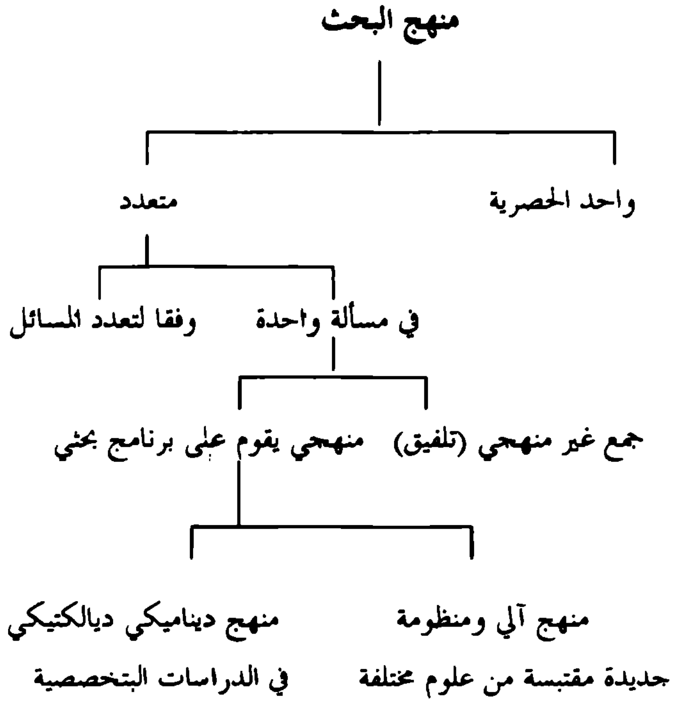

الشكل 12-1: تمييز الدراسات البتخصصية عن سواها.

[1] - بوبر، حدسها و ابطالها، مصدر سابق، ص83.

أهمية الدراسات البينخصصية في البحث الديني

لسنا ملزمين باعتماد الاتجاه البينخصصي في كل معالجاتنا للمسائل، وإنما نحتاج إلى ذلك في تناول المسائل متعددة الأصول *multiple origins*. وهذا اللون من المسائل يمتد بجذوره في علوم مختلفة نتيجة لتمتعه بجوانب متعددة ومستويات شتى. ورغم ان هذا التصوير يبدو منطوياً على مفارقة، غير ان تعريفنا لتعدد الأصول يبدد هذ التوهم. ان المسألة متعددة الأصول هي تلك التي تتصل بظاهرة ذات جذور تمتد في حقول معرفية متعددة، لكونها مستندة إلى عوامل متعددة *multi factorial*، أو لأنها تستتبع آثاراً متعدد. فالانتحار مثلاً ظاهرة تستند إلى عوامل متباينة للغاية، ابتداءً من النفسية منها مروراً بالاجتماعية والثقافية وغيرها، الأمر الذي يعني انها ظاهرة متعددة الأصول يتطلب تفسيرها الدقيق اللجوء إلى بحث يتناول جذورها المتعددة.

ان القول بأن المسائل متعددة الأصول تتطلب دراسة تتناول جذورها المتعددة، يمكن ان يكون بمثابة الكبرى في التدليل على أهمية الدراسات البينخصصية في البحث الديني. ونحن بحاجة إلى مقدمة أخرى كصغرى لإكمال الدليل فنتساءل: هل تمثل مسائل البحث الديني مسائل متعددة الأصول؟ سنحصل على إجابة بنعم حيال هذا السؤال من خلال التدبر في الظواهر الدينية وملاحظة تعقيدها. لقد ولد الدين بظهور الإنسان ورافقه دائماً، ولعب دوراً هاماً في شتى أبعاد حياته كتجاربه وحالاته الشخصية وفيما يتصل بالأسرة والمجتمع وتاريخ

الإنسان وحضارته، كما كان حاضراً بقوة في مختلف التحولات التي طرأت على الإنسان شخصياً ووجودياً واجتماعياً وتاريخياً، حيث كان الدين والإنسان يتفاعلان على نحو التأثير المتبادل. وعلى هذا الأساس تمتد جذور الظواهر الدينية في مجالات شتى وتتصل عبر أواصر متبادلة بعناصر متنوعة نفسية وكيانات اجتماعية مختلفة وعلى مستوى البناء التحتي لحضارة الإنسان، الأمر الذي يدلل على ان للظاهرة الدينية جوانب متعددة ومستويات مختلفة.

ان الجانب الوظيفي في الدين مسألة يتطلب وصفها الكامل وتفسيرها الدقيق، مناهج من قبيل ما يتداول في علم النفس والاجتماع والتاريخ والحضارة وفلسفة الدين والإلهيات...الخ. وكما يمكن معالجة ذلك بأدوات التجربة والتحليل، ففي وسعنا كذلك ان نستعين ضمن هذا الإطار بالمناهج الدينية الجوانية. كيف يمكننا القول بأن المسألة التي تعالج ما يترقبه الإنسان ويرجوه من الدين، تمثل موضوعاً نفسياً محضاً، بينما نتجاهل صلتها بالمجالات الاجتماعية والتاريخية؟

وعلى هذا الأساس، تدلل الأصول المتعددة للمسائل في نطاق الأبحاث الدينية، على أهمية اعتماد الدراسات البينخصصية، كما في الجدول التالي الذي

يتضمن شكل الدليل هذا.

	قياس اقتراني من الشكل الأول
الصغرى	ان مسائل البحث الديني متعددة الاصول .
الكبرى	تتطلب المسائل المتعددة الأصول، اجاها بيتخصصيا .
النتيجة	ان مسائل البحث الديني بحاجة إلى الاتجاه البيتخصصي .

الجدول 12-3: دليل أهمية الدراسات البيتخصصية في البحث الديني.

ويؤدي تجاهل الاتجاه البيتخصصية في معالجة مسائل هذا الحقل المعرفي وقراءة الظواهر الدينية، إلى اكتشاف جانب من الحقيقة وبُعد واحد من الظاهرة وحسب، فيما يعني الجهل بسوى ذلك من الأبعاد، ان يكون المرء عرضة للوقوع في فخ الاختزالية. وهكذا نواجه نماذج بارزة للاختزالية نظير القول ((ليس الدين سوى الأخلاق)) و((وليس الدين سوى الآيديولوجيا)) و((ليست التجربة الدينية سوى تغييرات في الجهاز العصبي تتصل بها على مستوى الدماغ))، الأمر الذي لا يمكن معالجته إلا من خلال معجزة الدراسات البيتخصصية.

يلزم الباحث في الدراسات البيتخصصية بالمبادئ التالية:

1- ربما كان لدى الآخرين حظ من الحقيقة أيضاً.

2- اننا بحاجة إلى الاتجاهات المتداولة لدى الآخر من أجل تكوين فهم دقيق ومعرفة متكاملة.

3- ينبغي ان نصغي إلى ما يقوله الآخر بتفهم، واستيعاب نقدي في الوقت ذاته (فن الإصغاء).

4- ان الجدل بين الآراء يتيح فرصة للجدل بين الاتجاهات.

5- يمكن في إطار الجدل بين الاتجاهات، توظيف مناهج البحث المقارن.

نموذج للدراسات البيتخصصية في التراث الإسلامي

لقد ظهر اتجاه الدراسات البيتخصصية في صياغته المدونة وأدواته، خلال العقدين الماضيين. بيد ان من الممكن في إطار الثقافة الإسلامية، ان نعد صدر المتألهين الشيرازي (ت1051هـ) بداية للون من الدراسات البيتخصصية. ويمكن ان نعالج على هذا الأساس ذاته، مسألة الموضوعية المعرفية لفلسفة صدر المتألهين. سنستعرض فيما يلي نظريات مختلفة طرحت في هذا الإطار، ونعالج المسألة من خلال إلقاء الضوء على المنهج البيتخصصية عند صدر المتألهين.

فلسفة صدر المتألهين: الموضوعية المعرفية

لا يزال الجدل مثاراً حتى اليوم حول الإبداع في الفكر الفلسفي لدى صدر المتألهين[1]، فقد رفض البعض وجود أي لون من الإبداع والموضوعية في فكره الفلسفي وأنكروا ان يكون قد بلور منظومة فلسفية[2]. بينما رأى آخرون انه لم يدشن مذهباً فلسفياً مستقلاً وحسب، بل ان فلسفته تستحق بجدارة اسم"الحكمة

[1] - مرتضى مطهري، مجموعه آثار (الأعمال الكاملة)، طهران، انتشارات صدرا، 1373، ج13، ص249.

[2] - راجع: عليرضا ذكاوتى قراكوزلو، "انتقاد ملا صدرا در عصر حاضر" (صدر المتألهين في النقد المعاصر)، كيهان فرهنگي، سال هشتم، شماره هفتم، ص20-23.

المتعالية". ويعتقد هؤلاء ان"الحكمة الإلهية شهدت تحولاً على يد صدر المتألهين إلى درجة انه يمكن عد ذلك طفرة فلسفية". والرأي الثاني هو النظرية السائدة.

نجد اليوم وبعد مرور حوالي أربعة قرون على عصر صدر المتألهين، ان فكره ظل يتحرك في النطاق الزمني وراح يكشف عن أبعاده وجوانبه. وقد بات من الواضح اليوم نسبياً، طبيعة الاشتراك ولون التباين بين الفكر الفلسفي لصدر المتألهين، والمنظومات الفكرية الأخرى، بفضل البحث التاريخي ودراسة السابق من خلال اللاحق.

نبدأ معالجة المسألة بفرضية تقرر ان الفكر الفلسفي لصدر المتألهين وتجاربه الأنطولوجية، تبلورت في نهاية المطاف على شكل مذهب فلسفي مستقل لاقى ترحيباً عند المتأخرين حاملاً عنوان "الحكمة المتعالية". ونحاول تفسير موضوعية هذا المذهب واستقلاليته من خلال الفرضية المذكورة، ونقصد بالتفسير تحديد أسباب ذلك في ظل مبدأ معرفي عام.

وقد جرى من قبل طرح تفسيرات مختلفة للهوية المعرفية في فلسفة صدر المتألهين[1]، ونمهد لطرح وجهة نظرنا باستعراض لأهم الآراء المطروحة وتقييمها إجمالياً.

1 - التلفيق

هذه وجهة نظر أولئك الذين رفضوا موضوعية فلسفة صدر المتألهين واستقلاليتها، وهم يقصدون بالتلفيق ان الرجل أتيحت له مكتبة كبيرة فدرس الكثير من أعمال المتكلمين باتجاهاتهم المتعددة، وفلاسفة المشاء والإشراق، ومدارس العرفان النظري والعملي، والمفسرين وأهل الحديث، فقام بتلفيق مجموعة مخلوطة من

[1] - مطهري، مصدر سابق.

أفكار سابقيه كما لو أن أحدهم قام بتأليف كشكول شعري في ضوء استحسانه أو ذوقه الشخصي.

وتجد وجهة النظر هذه أهم مبرراتها، في ما قام به صدر المتألهين من استعارة واقتباس لم يصرح بهما رغم اننا نلاحظ وجودهما في أعماله على نطاق واسع، وتدعم فرضيتها عبر التنويه إلى التشتت في نصوصه وسياقاتها وتنظيمها. لقد نقل صدر المتألهين في أعماله نصوصاً مطولة عن سابقيه دون أن ينسبها لهم، حيث نجد مثلاً ان موضوع"إبطال الدور والتسلسل" في كتاب الأسفار[1] مقتبس بالكامل بتصرف يسير، من كتاب شرح المقاصد[2]، كما ان بداية موضوع"القوة والفعل"[3] تتضمن نصوص الفخر الرازي في المباحث المشرقية[4].

ينطوي القول بتلفيقية فلسفة صدر المتألهين، على مشاكل عدة.

أولاً: ان هذا الرأي لا يفسر التعامل النقدي لصدر المتألهين مع أفكار سابقيه.

ثانياً: انه يتجاهل إبداعاته.

ثالثاً: ان بعض مسائل السابقين أثارت جدلاً واسعاً ودونت حولها العشرات من الرسائل المستقلة، كما ان بعض العلماء الذين من المؤكد ان صدر المتألهين قد اقتبس منهم على نطاق واسع، صنفوا رسائل كثيرة حول تلك المسائل، بينما نجد ان صدر المتألهين لا يتطرق إلى المسائل تلك أبداً. ومن نماذج ذلك لغز الجذر الأصم، حيث لم نعثر في أعمال صدر المتألهين على عبارة واحدة حول هذه

---

[1] ملا صدرا شيرازي، الأسفار الأربعة في الحكمة المتعاليه، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1410 هـ، ج2، ص141-165.

[2] - سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ، ج2، ص111-131.

[3] - الأسفار، مصدر سابق، ج3، ص2-5.

[4] - فخر الدين الرازي، المباحث المشرقية، حيدر آباد الدكن، ب. ت. ج1، ص379-380.

المسألة[1]، رغم ان ثمة عشرات الرسائل قد صنفت في مدرسة شيراز حولها من قبل الدواني والدشتكي والخفري[2]، ومع أنها حظيت باهتمام واسع لدى مناطقة القرن السابع[3].

يعبر استخدام مفهوم التلفيق فيما يتصل بفلسفة صدر المتألهين، مجانبة للموضوعية العلمية وهو ناتج عن جهل بفكر الرجل. انما يتخذ موقفاً كهذا، أولئك الذين لا يألفون الموضوعات المطروحة هناك، والعاجزين عن إدراك عمق المسائل، والتدبر الجواني الباطني في المستوى النفسي الأصيل لديهم، حول كمية المسائل تلك وطبيعتها وأهميتها والأهم من ذلك كله، انسجامها الحقيقي[4].

2- فلسفة توفيقية

ونقصد بذلك الوصف الشهير الذي يقرر ان"فلسفة صدر المتألهين قد جمعت بين أربعة اتجاهات هي فلسفة المشاء وفلسفة الإشراق وطريقة العرفاء وطريقة المتشرعة"[5]. وقد ذكرنا سابقاً ان المذهب الماركسي نموذج بارز للفكر التوفيقي، حيث استعار ماركس أفكار القرن السابع عشر المادية، وديالكتيك هيغل، واقتصاد سان سيمون وغيرها من الأفكار المتداولة، فقام بالتوفيق بينها على

---

[1] - أحد فرامرز قراملكي، "معماى جذر اصم در حوزه فلسفي اصفهان" (لغز الجذر الأصم في مدرسة اصفهان الفلسفية). خردنامه صدرا، شماره 11، بهار 1377.

[2] - أحد فرامرز قراملكي، "معماى جذر أصم در حوزه فلسفى شيراز" (لغز الجذر الأصم في مدرسة شيراز الفلسفية). خردنامه صدرا، شماره 4، تير 1375، ص80-86.

[3] - قراملكي، "معماى جذر أصم نرد منطق دانان قرن هفتم" (لغز الجذر الأصم عند مناطقة القرن السابع). المصدر السابق، شماره 7، بهار 1376.

[4] - كريم مجتهدي، "ملا صدرا به روايت هانرى كربن" (صدر المتألهين كما تحدث عنه هنري كوربان). خردنامه صدرا، شماره 8-9، 1376، ص36.

[5] - مطهري، مصدر سابق.

نحو باتت العناصر المستعارة عرضة للتغيير وإعادة الانتاج. فالمادية الميكانيكية تحولت إلى المادية الديالكتيكية وانهار هرم هيغل كما يعبر ماركس.

يعتقد القائلون بتوفيقية أفكار صدر المتألهين، ان غرضه من ذلك يتمثل في بلورة نتائج تنسجم على نحو جذاب لاهوتي، مع التعاليم الدينية وتعين على تفسير المرتكزات الرئيسية في الرؤية الإسلامية العامة[1]، كي يضع حداً للخلاف التاريخي بين العرفاء والحكماء والمتألهين والمتشرعة. وعلى العكس من التلفيق، فإن التوفيق يقوم على مقياس ونظام محددين، حيث قام صدر المتألهين في البداية بنقد التراث المعرفي لسابقيه وفق مقاييس محددة وعمد إلى انتقاء جانب منه، ثم أعاد بناءها على نحو متسق ومنظم، وكما يقول العلامة مطهري فإنه منحها شكل منظومة فلسفية خاصة ومتبلورة[2].

قال آخرون في قبال نظرية التوفيق، ان"مبادئ هذه الفلسفة ومرتكزاتها لم تقتبس من مصدر آخر"[3]. غير ان من الممكن الاعتراض على هذه النظرية من جوانب مختلفة أخرى، ولذلك فإن صاحبها يقوم بتعديل نصه في موطن آخر ويمنحه دقة أكبر فيقول: "ان المرتكزات الأساسية لفلسفة صدر المتألهين لم تقتبس من مصدر آخر"[4].

3- نموذج إشراقي لابن سينا، بنمط السهروردي

لقد أولى صدر المتألهين اهتماماً خاصاً بكتابين من تراث سابقيه هما:

أ: كتاب الشفاء لابن سينا.

ب: حكمة الإشراق للسهروردي.

---

[1] بيوك عليزاده، تمايز ماهيت مكتب فلسفي ملا صدرا از ديكر مكاتب (تمييز طبيعة المذهب الفلسفي لملا صدرا، عن سواه من الاتجاهات)، خردنامه صدرا، شماره 10، زمستان 1376، ص94.

[2] - مطهري، م. ن. ص250.

[3] - مطهري، م. ن. ص250-252.

[4] - مطهري، م. ن.

وقد دوّن تعليقة على كل منهما، وتأثر بهما معاً. وهو من جهة أخرى يحذو حذو فلاسفة المشاء فيرى انه من أبناء الدليل والتابعين للبرهان"نحن أبناء الدليل، حيثما مال نميل" بيد انه يؤكد من جهة أخرى على أهمية الشهود والكشف.

كتب هنري كوربان مقالات متعددة حول صدر المتألهين، وهو يحيل إلى التأثير الكبير الذي تركه الفيلسوفان المذكوران على صدر المتألهين، كي يقول بأن فلسفة الرجل في أساسها هي فلسفة سينوية لكنها تتسم بطابع إشراقي وفق النموذج السهروردي. يقول:"لو شئت كمؤرخ، ان أحدد الملامح العامة لفكر صدر المتألهين، فلا بد من القول بأننا نواجه بالطبع واحداً من أتباع ابن سينا. لقد تعرف صدر المتألهين بشكل شامل على أعمال ابن سينا وقام بشرحها، غير انه سينوي إشراقي على طريقة السهروردي... من المهم ان نكرر ثانية ان هذا المفكر سينوي إشراقي مستغرق على نحو عميق في نظريات الحكيم الإلهي والعارف الأقدس، أي ابن عربي"[1].

ان وجهة نظر كوربان تصدق على الأفكار المنطقية لصدر المتألهين، أكثر من أفكاره الأخرى، فكتاب التنقيح لصدر المتألهين يمثل في واقع الأمر، منطق ابن سينا ذاته بأسلوب شيخ الإشراق[2]. فكوربان هنا يظل غافلاً عن الجوانب الكلامية في أعمال ملا صدرا، كما تظهر لنا ثغرات أخرى عند كوربان من خلال ملاحظة تعويل ملا صدرا بنحو كبير، على نصوص القرآن والسنة[3]، وهو ما لا يشيع عند

---

[1] - *Corbin, H, "La place de Molla Sadra Shirazi La philosophre iranienne", Studia Islamica, G.P.Maisonneuve, Larose, Paris, 1962, p. 95.*

[2] - راجع: مقدمة كاتب السطور لكتاب التنقيح.

[3] - لاحظ: دينانى ابراهيمى، "حكمت متعاليه در آينه حديث" (الحكمة المتعالية في مرآة الحديث). خردنامه صدرا، شماره 10، زمستان 1376.

ابن سينا وشيخ الإشراق، كما يفسر بوضوح الطابع المحدد لتجارب ملا صدرا الإشراقية.

4- فكر كلامي - فلسفي

يواجه الفلاسفة المؤمنون الإشكالية التي تتصل بالطابع اللاهوتي للفلسفة، منذ فيلون اليهودي[1] الذي عاش هاجس القراءة الفلسفية للنص الديني، حتى اليوم. ولهذا يعد أوريغن[2] بداية للفلسفة اللاهوتية في المسيحية، كما عُدت النــزعة اللاهوتية واحدة من الملامح الهامة للفكر الفلسفي في القرون الوسطى[3].

رأى البعض ان الفخر الرازي (وهو بداية الكلام الفلسفي عند الأشاعرة) ونصير الدين الطوسي (وهو بداية الكلام الفلسفي عند الشيعة) قد تركا تأثيراً كبيراً على صدر المتألهين، وهو ما يفسر قيام ملا صدرا بمتابعتهما في معالجة الإشكاليات الكلامية بأدوات الفلسفة، ويفسر كذلك ان المنظومة الفكرية لصدر المتألهين كانت منظومة كلامية.

"يرى البعض ان الفلسفة الإسلامية راحت تتجه تدريجياً نحو علم الكلام، وأن هذين الحقلين قد اندمجا في فلسفة ملا صدرا. وهكذا يعتقد هؤلاء ان منهج المتكلمين هو الطريق الرابع الذي تولى صدر المتألهين ربطه بفلسفة المشاء والإشراق وطريقة العرفاء"[4].

---

1 - *Philo of Alexandrian (20 B.C. – 40 A.B).*

2 – *Origen (185-254).*

3 - اتين جيلسون، نقد تفكر فلسفي غرب (نقد الفكر الفلسفي في الغرب). ترجمه احمد احمدي، طهران، انتشارات حكمت، 1362. ص42-67.

4 - مطهري، مصدر سابق، ص233.

ويقول العلامة مطهري في نقد ذلك:"هذا تصور خاطئ، إذ ان الفلسفة الإسلامية لم تتجه نحو الكلام ولو بمقدار خطوة واحدة، بل ان علم الكلام هو الذي خضع تدريجياً لهيمنة الفلسفة، ثم جرى احتواؤه فلسفياً في نهاية المطاف"[1].

ولكن نقد العلامة مطهري للرأي المذكور، يبدو تأكيداً لذلك الرأي لا نقضاً له، إذا ما تعرض لملاحظة معرفية دقيقة.

فسواء أصبح علم الكلام فلسفياً، أم أصبحت الفلسفة كلاماً، فإن الناتج عن ذلك سيكون فكراً كلامياً فلسفياً، أو ثيوسوفياً *Theosophical*[2] على حد تعبير الدكتور حسين نصر[3]. ولا نقصد طبعاً بالفكر الكلامي – الفلسفي، الفلسفة الثيوسنتريكية *Theocenteric*، التي يصح إطلاقها على فلسفتي أفلاطون وأفلوطين.

---

[1] – مطهري، م. ن.

[2] – يكتبها البعض خطأً (ثيوصوفية) كما في معجم د. عبد المنعم الحفني لمصطلحات الفلسفة، بينما الصحيح (ثيوسوفية) لأنها مركبة من *Theo* وتعني الله، و*sophy* بمعنى الحكمة كما في *philosophy* التي تعني محب الحكمة مثلاً. وأؤكد على هذا الفرق بين الصاد والسين لأن الأول يوهم بوجود علاقة بكلمة التصوف العربية، كما اننا لا نقول (فلصفة) بالصاد بل (فلسفة) بالسين، والمادة اللغوية هي نفسها في الكلمتين أي الحكمة أو *sophy*، وهو غير وارد هنا. وكيفما كان فالـ (ثيوسوفيا) تعني لغوياً الحكمة الإلهية لكن تحديد دلالتها الاصطلاحية يحمل التباساً يبدو انه ناتج عن المواقف المنهجية في الحكم على هذا الاتجاه، حيث يراه أنصار العقل باطنياً يشمل حتى السحر والتنجيم والتهويمات، بتراث هندي يهودي في الغالب. بينما يقدم المتعاطفون مع الثيوسوفية وصفاً أقل حدة. (المترجم).

[3] - *Nasr, S. H., History of Islamic Philosophy, Tehran, 1995, II, 639.*

5- الحكمة المتعالية: التوفر على لغة أفضل

حاول البعض التدليل على ان مدرسة الحكمة المتعالية تمتلك لغة ومنطقاً أفضل[1]، عبر التمييز بين اللغة الموضوعية *object language* واللغة الأفضل أو ما وراء اللغة (ميتالُغة) *meta language*، ويقول العلامة حائري يزدي:"لو شئنا توظيف هذا التقسيم اللغوي في قراءة الحكمة المتعالية لصدر المتألهين الشيرازي وتفسيرها، فينبغي القول بأنه استخدم نمطين لغويين في المستويات العليا لدرسه الفلسفي، أسمى أحدهما باللغة الأفضل أي الحكمة المتعالية التي وظفها في شرحه لفلسفته... والآخر هو اللغة الموضوعية وهي النمط اللغوي الأصلي لفلسفة المشاء والإشراق وسواها من المدارس التي تناولها في أعماله الفلسفية... وليس في وسعنا بهذا التفسير، ان ندافع وحسب عن فلسفة صدر المتألهين حيال ما تواجهه من اتهامات بالتلفيقية والتشتت، بل يمكن من خلال هذا كذلك، ان نتولى تبرير إبداعاته في منظومة (قاعدة موضوعية) تتسم باتساق منقطع النظير، وإعادة بنائها في ذلك الإطار"[2].

وفي ضوء ذلك فإن ملا صدرا قد أنشأ منظومة فلسفية محددة تتسم بأنها متعالية زمنياً ومنطقياً، ويمكن التنويه إلى ليبنتز 1646-1716 بوصفه نموذجاً تاريخياً لحالة كهذه، حيث تضمنت أعماله نمطين فلسفيين، أحدهما الفلسفة المتداولة أو التي يرتضيها الناس على حد تعبير برترند راسل، مما يمكن ملاحظته في كتاب

---

[1] – عليزاده، مصدر سابق، ص96.

[2] – مهدي حائري يزدي، "درآمدى بر اسفار" (مدخل إلى الأسفار). مجلة ايران شناسى، سال جهارم، شماره 4، زمستان 1371.

المونادات[1]، وكتاب المبادئ الطبيعية والإلهية. والنمط الآخر هو الفلسفة المتعالية أو الفلسفة السرية على حد تعبير راسل، والتي جرى اكتشافها في بدايات القرن الأخير.

والسر في تعالي ليبنتز في فلسفته السرية، هو توفره على منطق أفضل[2]، الأمر الذي يؤدي إلى استدعاء لغة أفضل.

6- الحكمة المتعالية: تنوع الأدوات في سياق الاكتشاف

يرى البعض من خلال التمييز بين سياق الاكتشاف *context of discovery* وسياق الحكم والتقييم *context of justification*، ان الخصوصية الرئيسة في مدرسة الحكمة المتعالية، تتمثل في تنوع المناهج والأدوات ضمن سياق الاكتشاف. ولا يرى هؤلاء فرقاً بين اتجاه الحكمة المتعالية وغيره من الاتجاهات الفلسفية السابقة عليه، في التمسك بمنهج البرهان في سياق التقييم، غير انه يتباين معها جذرياً على مستوى توظيف أدوات متنوعة في إطار التوصل إلى الحقيقة.

"ان التغيير [الذي أدخلته مدرسة ملا صدرا] يتمثل باتساع في دائرة التأمل الفلسفي مقارنة بالاتجاه المشائي والإشراقي، كما اتسمت الموضوعات المبحوثة بتنوع أكبر. والسر في ذلك ان الحكمة الإشراقية المتعالية لا تستخدم العقل والحس بمفردهما في مستوى الاكتشاف، بل يتوفر الفيلسوف على التدقيق في المعطيات

---

[1] - الموناد، من الإغريقية *Monas*، وهو وحدة بناء الأشياء عند الفيثاغوريين، وهو الذرة الداخلة في تركيب الأشياء عند الذريين. والجوهر الفرد والصورة المصغرة للعالم الذي يجمع بين المادة والروح ومنه تتكون الأشياء عند شيوردانو برونو، وعنه أخذ ليبنتز فكرة المونادات، وقال انها جواهر مفردة مكتفية بنفسها، تطور نفسها من الداخل وتتميز بالإدراك والنـــزوع والتلقائية. (المترجم).

[2] - برترند راسل، تاريخ فلسفه غرب، ترجمة نجف دريابندي، نشر برواز، طهران، 1365، ج2، ص804-821.

الروحية والكشف العرفاني والإفاضات والإلهامات والإشراقات القلبية والغيبية، التي يجري تصيدها بواسطة التهذيب والرياضات"[1].

ورغم ان أمثال فايرابند[2] يرفضون اليوم التمييز بين سياقي الاكتشاف والتقييم، وأنهم قاموا بتوسيع دائرة التعددية من السياق الأول إلى الثاني، غير انه يمكن دعم التفسير المتقدم بالتعديل الذي سنقترحه لاحقاً، مع ملاحظة ان النظرية هذه تؤول في التحليل الدقيق، إلى رأي هنري كوربان المتقدم ذكره، إذا ما تجردت عن التعديل الآتي.

7- الحكمة المتعالية: أبعاد معرفية جديدة

يتمتع كل نظام فكري بجوانب متعددة كالمنهج والمسائل واللغة ومستويات التفسير...الخ، وقد راح البعض يفسرون استقلالية فلسفة ملا صدرا وموضوعيتها، في ضوء عدد من الجوانب المعرفية المهمة. يرى هؤلاء ان من الممكن التدليل على تفوق فلسفة ملا صدرا، على أساس مقاييس من قبيل توسيع مناهج الاكتشاف والتقييم، والنجاح في معالجة عدد أكبر من المسائل، والدقة في التحليل والوصف[3].

وحيث ان المقاييس المذكورة، هي جوانب معرفية متعددة في حقيقة الأمر، ففي وسعنا تسمية هذا الرأي بالهندسة أو الهيكلية المعرفية الجديدة، ويكون ملا صدرا بموجب ذلك، مبدعاً لهندسة وهيكلية جديدة للفلسفة. وسنتولى تعديل هذه النظرية وتفسيرها إلى جانب النظرية السابقة.

---

[1] - عبد الكريم سروش، "حكمت در فرهنگ اسلامى" (الفلسفة في الثقافة الإسلامية). دانشگاه انقلاب، دوره جديد، شماره 98-99، ص180-190.

[2] - *Paul Feyerabend.*

[3] - عليزاده، مصدر سابق، ص98-101.

8- الحكمة المتعالية: اتجاه بيتخصصي

أحاول في تفسيري للموضوعية المعرفية في فلسفة ملا صدرا، ان اتجه نحو العنصر الأكثر أهمية في ذلك، وذلك عبر ملاحظة ما أبدعه صدر المتألهين في اعتماد الاتجاه البيتخصصي خلال الأبحاث الإلهية. وهذه النظرية تبدو نوعاً ما أقرب إلى النظرية الخامسة، لكنها على العكس من تلك، لا تتجاهل التصورات ما بعد الحداثية، بل تقوم على التأمل في نظريات كهذه. كما ان في وسعنا القول بأن معظم الآراء المذكورة، تؤول إلى نظريتنا هذه باستثناء الرأي الأول. ومن خلال مفهوم الدراسات البيتخصصية، نتوصل إلى تفسير آخر للظاهرة الملفتة للنظر في أعمال صدر المتألهين، أعني اهتمام أعماله تلك بشدة، بمصنفات العلماء السابقين وآرائهم. لم يقم صدر المتألهين بالتلفيق و لم يمارس التوفيق، غير انه وعلى العكس من سابقيه، استبعد الحصرية المنهجية.

لقد كان أداء ملا صدرا يتعالى على الانتماءات الحزبية بالتعبير المعاصر، ولا نريد بذلك انه استعرض آراء شتى الفرق والمذاهب كي تتضح مواقفهم أجمع، بل المقصود انه تخطى الرؤى الحصرية للمذاهب والنطاقات المعرفية المتداولة، وتوغل في ما وراء ذلك، وراح يبحث عن الحقيقة من منظور بيتخصصي.

ثمة تداخل واشتراك بين علوم نظير الكلام والفلسفة والعرفان والحديث، على مستوى موضوعاتها ومسائلها (صغرى)، ومن المهم ان نتعامل مع المسائل والموضوعات التي تتصل بكثير من العلوم (كبرى). ذلك ان هذه العلوم كافة تتحدث عن الله والإنسان والعلاقة بين الله والكون والخلق والنظام الكوني. وهذه موضوعات ذات مستويات متعددة وجوانب متنوعة تتسم بالتعقيد والتداخل. هذا فيما يتعلق بالصغرى.

سيؤدي اعتماد الاتجاه الكلامي والتخلي عن العرفاني، إلى الكشف عن جانب واحد من الظاهرة وحسب، بينما يعمل اعتماد الاتجاه البيتخصصي على تحديد نقاط القوة والضعف في كل اتجاه، ويتجلى نطاق الكشف والشهود ومؤهلات البرهان والحجة. إنما يمكن لذلك الذي يؤمن بوجود مستويات متعددة للحقيقة وحسب، ان يتخلى عن الحصر المنهجي ويعتمد الاتجاه البيتخصصي، على نحو يجعله يرى في كل اتجاه أداة كاشفة عن واحد من مستويات الحقيقة. ان المستوى الظاهري للكون والذي تستوعبه التجربة الفلسفية المتداولة، يمثل كياناً مستقلاً، غير ان الكون ذاته سيكشف عن مستوياته العميقة حين يخضع لتجربة عرفانية عبر اتجاه الشهود والكشف، مما يتمثل في الوجود الرابط الذي بلور مفهومه ملا صدرا في الحكمة المتعالية.

يعتقد ملا صدرا بأن الحقيقة تمتلك مستويات متعددة، كما ان المعرفة البشرية فيما يتصل بمستويات الحقيقة، تتوزع على مراتب ومستويات أيضاً. ان اتجاه البرهان لا يقلص من فرص اتجاه الكشف والشهود، كما ان المنهج الكلامي لا يمثل عائقاً في وجه المنهج التفسيري. والمحصلة النهائية لذلك هي وحدة التجارب المتنوعة على نحو التنوع الطولي أو العمودي. وعلى هذا الأساس فإن اعتماد اتجاهات متعددة هو لون من التعددية المنهجية القائمة على وجود مستويات متعددة للحقيقة، الأمر الذي يفسر التباين بين نمطين من الفلسفة (النمط المتعالي والنمط المتداول). وتتولى الفلسفة المتداولة تجربة أكثر مستويات الحقيقة شكلية وسطحية، بينما تمثل الفلسفة المتعالية حصيلة تجربة أكثر عمقاً للحقيقة.

من المؤكد ان خبرة ملا صدرا العميقة بمختلف العلوم، تركت أثرها على اتجاهه نحو الدراسات البيتخصصية، يقول البعض:"وحيث ان ملا صدرا كان عالماً

موسوعياً بخبرة شاملة، فهو مطلع على شتى العلوم العقلية والنقلية والأدبية والطب والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء بشكلها المتداول آنذاك"[1].

وهذا كلام صحيح فيما يتصل بالعلوم الإسلامية على الأقل.

أما النقص الرئيسي فهو غياب الرؤية التاريخية، الأمر الذي لا يمثل ثغرة عند صدر المتألهين وحده بل يصدق على معظم المفكرين المسلمين. لو أتيحت الأدوات التاريخية لملا صدرا في دراساته البينتخصصية، لكانت مدرسته بالتأكيد على قدر أكبر من الدقة والتعالي. وبشكل عام فإننا لا نجد عند صدر المتألهين رؤية وتفسيراً تاريخيين أو اهتماماً بتطور التاريخي للمسائل وتفسير ذلك في ظل قوانين عامة. وليس المقصود بالاتجاه التاريخي هنا، اكتشاف المستقبل بواسطة الماضي، بل قراءة الماضي في ظل المستقبل. ويمثل استخدام الاتجاه التاريخي في الفلسفة، فهماً عميقاً للمسائل الفلسفية في نطاق تطورها داخل الزمن، مع استيعاب مقارن وإحاطة بما تستتبعه النظريات من لوازم وما تقوم عليه من أسس في تحولاتها التاريخية.

---

1 - سيد محمد خامنئي، "نگاهي به زندگي، شخصيت ومكتب صدر المتألهين" (حول سيرة صدر المتألهين وشخصيته ومدرسته). خردنامه صدرا، شماره 8 و9، تابستان وپاييز 1376، ص29.

تلخيص لما مضى

ان الدراسات البيتخصصية اتجاه حديث يستهدف التخلص من الحصر المنهجي والفكر الاختزالي الناتج عنه. ويكتسب هذا الاتجاه أهمية فائقة في الأبحاث الدينية، لأن المسائل والظواهر الدينية متعددة الأصول متنوعة الأبعاد، مما يعني ان البحث سيؤدي إلى تشويه الظواهر الدينية حين يتخلى عن الاتجاه البيتخصصي.

وتتطلب الدراسات البيتخصصية برنامجاً بحثياً محدداً، يميزها عن التلفيق بين الأفكار، وفيما يمكن للخطط الآلية ان تفرز نظماً جديداً لأفكار شتى، نجد ان في وسع الخطط الديالكتيكية ان تتوصل إلى أفكار إبداعية جديدة من خلال استدعاء اتجاهات وعلوم شتى في إطار جدلي.

وفي إطار الثقافة الإسلامية نلاحظ ان صدر المتألهين يمثل رائداً للفكر البينخصصي في نطاق الأبحاث الدينية، حيث توصل إلى اتجاه معمق في الحكمة المتعالية، بفضل استرجاعه للفلسفة والكلام والعرفان وعلوم التفسير، في إطار جدلي.

المصادر

1: المصادر الفارسيّة والعربيّة

- آندريه، دارتغ: پديدارشناسي چيست؟ (ما هي الظاهريات؟)، ترجمة محمود نوالى، تهران، سمت، 1373.
- ابراهيمي، پريچهر: پديدارشناسي (الظاهريّات). تهران، نشر دبير، 1368.
- ابن سينا: الإشارات والتنبيهات. تصحيح محمود الشهابي. تهران، انتشارات دانشگاه تهران. 1339.
- ابن سينا: الإشارات والتنبيهات. تصحيح وتعليق سليمان دنيا. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1366هـ.
- ابن سينا: الاشارات والتنبيهات. ج1، تهران، انتشارات آرمان. 1403هـ.
- ابن سينا: الشفاء، قسم الإلهيات، مراجعة وتقديم إبراهيم مدكور. القاهرة 1380هـ.
- ابن سينا: النجاة من الغرق في بحر الضلالات. تحرير وتقديم محمّد نقي دانش پژوه. تهران، انتشارات دانشگاه تهران، 1364.
- أرسطو: الأرغانون. ترجمة: م. ش. أديب سلطاني. تهران، مؤسسة انتشارات نگاه. 1378.
- أرسطو: درباره نفس (حول النفس). ترجمة وتعليق: علي مراد داوودي. تهران، انتشارات حكمت. 1366.
- أرسطو: متافيزيك (الميتافيزيقي= ما بعد الطبيعة). ترجمة شرف الدين خراساني، تهران، نشر گفتار، 1366.
- إصفهاني، ميرزا مهدي: أبواب الهدى. مركز اسناد آستان قدس رضوي، شماره 12412.
- إلياد، ميرسيا: پديدارشناسي (الظاهريّات)، ترجمة بهزاد سالكي، تهران، 1380.
- الإيجي، القاضي عضد الدين: المواقف. بيروت، عالم الكتب، ب. ت.
- إيزوتسو توشيهيكو: خدا و إنسان در قرآن (الله والإنسان في القرآن) ترجمة احمد آرام تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1368.
- برت، ادفين آرثر: مبادى ما بعد الطبيعي علوم نوين (ميتافيزيقي العلم الحديث). ترجمة عبد الكريم سروش. تهران، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، 1366.

- بلانتشارد، كن: مديريت بر قلبها (الهيمنة على القلوب). ترجمة عبد الرضا رضائي نژاد. تهران، 1379.
- بل، ديفيد: انديشه هاى هوسرل (أفكار هوسّرل)، ترجمه فريدون فاطمي، تهران، نشر مركز، 1376.
- بهمنيار ابن المرزبان: التحصيل، تصحيح وتعليق مرتضى مطهري. طهران، دانشكده إلهيات ومعارف اسلامي، 1349.
- بوبر، كارل ريموند: حدسها وإبطالها (تخمينات ودحوض). ترجمة احمد آرام. تهران، شركت سهامي انتشار، 1363.
- التفتازاني: شرح المقاصد. بيروت، عالم الكتب، 1409هـ.
- جون ديوي: منطق تئورى تحقيق (المنطق النظريّ للبحث). ترجمة: علي شريعتمدارى. تهران، دانشگاه تهران، 1369.
- الجرجاني، مير سيد شريف: شرح المواقف. مصر، مطبعة السعادة، 1325 هـ. ج8.
- جزني، نسرين: مديريت منابع انساني (إدارة المصادر البشريّة). تهران، نشر ني. 1378.
- جليلي، سيد هدايت: روش شناسي تفاسير موضوعي قرآن (مناهج التفاسير الموضوعيّة). تهران، انتشارات كوير، 1372.
- جوادي آملي، عبد الله: تسنيم. قمّ، مركز نشر اسراء، 1378، ج1.
- جيلسون، اتيين: نقد تفكر فلسفي غرب (نقد الفكر الفلسفيّ في الغرب). ترجمه احمد احمدي، تهران، انتشارات حكمت، 1362.
- حائري يزدي، مهدي: كاوشهاي عقل نظري (محاولات العقل النظريّ). تهران، أمير كبير، 1361.
- حائري يزدي، مهدي: متافيزيك (الميتافيزيقي). إعداد عبد الله نصري. تهران، نهضت زنان مسلمان.
- الحلّي، العلاّمة الحسن بن المطهّر. الجوهر النضيد. قمّ، انتشارات بيدار. 1363.
- خاكي، غلامرضا: روش تحقيق در مديريت (منهج البحث في الإدارة). تهران، مركز انتشارات علمي دانشگاه آزاد اسلامي، 1379.
- خرمشاهي، بهاء الدين: سير بي سلوك (سير دون سلوك). تهران، انتشارات معين، 1370.
- خندان، سيد علي اصغر: منطق كاربردي (المنطق الوظيفيّ). تهران، سمت، 1379.
- خوانساري، جمال الدين: شرح غرر ودرر آمدي (شرح الغرر والدرر للآمدي). مقدمة وتصحيح وتعليق: مير جلال الدين حسيني أرموي (محدث). تهران، انتشارات دانشگاه تهران. 1366. ج1.
- ديكارت، رينيه. گفتار در روش به كار بردن عقل (قول في منهج استخدام العقل). ترجمة محمد علي فروغي. تهران، انتشارات بيام، 1355.
- دهخدا، علي اكبر: أمثال وحكم. تهران، امير كبير، 1363.

- الرازي، فخر الدين: الإنارات في شرح الإشارات. نسخة خطّيّة في مكتبة مجلس الشورى الإسلاميّ. تحت رقم: 1847.
- الرازي، فخر الدين: المباحث المشرقية، حيدر آباد الدكن، ب. ت. ج1.
- الرازي، فخر الدين. الملخّص، نسخة خطّيّة محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلاميّ تحت رقم 856.
- راسل، برترند: تاريخ فلسفه غرب، ترجمة نجف دريابندي، نشر برواز، تهران، 1365.
- رجبي، محمود (إشراف): روش شناسي تفسير قرآن (مناهج التفسير). تهران، سمت، 1379.
- روجيه ورينو وآخرون: پديدارشناسي و فلسفه هاى هست بودن (الظاهريّات والفلسفات الوجوديّة). جمع وترجمة يحيى مهدوي. تهران، خوارزمي، 1372.
- ريخته گران، محمد رضا: منطق ومبحث علم هرمنيوتيك. تهران، نشر كنگره، بهار 1378.
- زرين كوب، عبد الحسين: يادداشتها و انديشه ها (ملاحظات وأفكار). تهران، انتشارات اساطير، 1371.
- الزنوزي، المولى عبد الله: الأنوار الجلية. تعليق وتصحيح وتقديم: سيد جلال الدين اشتياني. تهران، 1354.
- ساسان، كهر: «مقدمه اى بر بهبود سازمان»، بهبود سازمان (تطوير المؤسّسة). تهران، مركز آموزش مديريت دولتي.
- السبزواري، ملا هادي: شرح غرر الفرائد أو شرح منظومة الحكمة. إعداد مهدي محقق وأيزوتسو توشيهيكو. تهران، 1360.
- سرمد، زهره، وهمكاران: روشهاى تحقيق در علوم رفتارى (مناهج البحث في العلوم السلوكيّة) تهران، آگه، 1378.
- سروش، عبد الكريم: بسط تجربة نبوي (تحوّل التجربة النبويّة). تهران، مؤسسه فرهنگي صراط، 1378.
- سروش، عبد الكريم: دگماتيسم نقابدار يا ايدئولوژى شيطاني (دوغمائيّة مقنّعة أم إيديولوجيا شيطانيّة). تهران، انتشارات ياران، 1361.
- سروش، عبد الكريم: علم چيست؟ فلسفه چيست؟ (ما هو العلم؟ ما هي الفلسفة؟). تهران، صراط، 1371.
- سيف نراقى، ونادرى: روشهاى تحقيق در علوم انساني (مناهج البحث في العلوم الإنسانيّة). تهران، ناشر مؤلف، 1359.
- السيوري، الفاضل المقداد: اللوامع الإلهيّة في المباحث الكلاميّة، تصحيح محمد علي قاضي طباطبائي. تبريز، 1396هـ.
- شاكر، محمد كاظم: معناشناسي وروش شناسي تأويل در سه حوزه روايي، باطني، و اصولي (التأويل: الدلالة والمنهج، في علم الحديث والاتّجاه الباطنّي وأصول الفقه). قمّ، دفتر تبليغات اسلامي حوزه علمية قم، 1376.

- شلتوت، محمود: من هدى القرآن. القاهرة، دار الكتب للطباعة والنشر.
- شميت، ريتشارد: تأويل پديدارشناسي (تأويل الظاهريّات). ترجمة ضياء موحد، فرهنگ، 1375.
- شميت، ريتشارد: سر آغاز پديدارشناسي (بداية الظاهريّات). ترجمة شهرام بازوكي، فرهنگ، 1375.
- شوتز: «چند مفهوم اصلي پديدارشناسی» (بضعة مفاهيم رئيسة في الظاهريّات). ترجمة يوسف ابا ذری، 1371.
- الشيرازي، ملاّ صدرا: الأسفار الأربعة في الحكمة المتعالية، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت 1410 هـ.
- الشيرازي، ملاّ صدرا: التنقيح في المنطق. تصحيح غلامرضا ياسي بور. تهران، بنياد حكمت اسلامي صدرا، 1378.
- شميل، آنماري: تبيين آيات خداوند: نگاهي پديدارشناسانه به اسلام (تفسير آيات الله: رؤية ظاهراتيّة للإسلام). ترجمة عبد الرحيم كواهي. دفتر نشر فرهنگ اسلامي، 1376.
- الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنيّة. بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ب. ت.
- طاهري، شهنام: كارسنجي وروش سنجي (تقييم العمل والمنهج). تهران، نشر آوين، 1378.
- الطباطبائي، محمّد حسين: اصول فلسفه وروش رئاليسم (مبادئ الفلسفة والمنهج الواقعيّ). إعداد هادي خسروشاهي، قمّ، مركز بررسيهای اسلامی، 1397هـ.
- الطباطبائي، محمّد حسين: الميزان في تفسير القرآن. قمّ، منشورات جامعة المدرسين، ج1.
- الطوسي، الخواجه نصير الدين: تلخيص المحصّل، إعداد: عبد الله نوراني. تهران، 1309.
- الطوفي، سليمان بن صرصرى: الإكسير في علم التفسير. مصر، مكتبة الآداب، 1397هـ.
- الطيار، مساعد بن سليمان: فصول في أصول التفسير. الرياض، دار النشر الدوليّ، 413هـ.
- زنجاني، عباس علي عميد: مباني وروشهاي تفسير قرآن (مناهج التفسير ومبادئه). تهران، سازمان چاپ وانتشارات وزارت فرهنك وارشاد اسلامي، 1366.
- فرامرز قراملكي، أحد: برهان التمانع. دانشنامة جهان اسلام. ج3.
- فرامرز قراملكي، أحد: پرده پندار (حجاب الوهم). تهران، 1378.
- فرامرز قراملكي، أحد: تحليل قضايا، پايان نامه تحصيلات دكتري (تحليل القضايا، رسالة دكتوراه). إشراف د. ضياء موحد. دانشكده إلهيات دانشگاه تهران، 1373.
- فرامرز قراملكي، أحد: منطق. تهران، دانشگاه پيام نور، 1374، ج2.
- فرامرز قراملكي، أحد: موضع علم ودين در خلقت إنسان (مواقف العلم والدين حيال خلق الإنسان). تهران، آرايه 1337.
- فرامرز قراملكي، أحد: هندسه معرفتي كلام جديد (الهندسة المعرفيّة لعلم الكلام الجديد) طهران، مؤسسه فرهنگي دانش وأنديشه معاصر، 1378.
- فروزانفر، بديع الزمان: شرح مثنوي شريف. تهران، انتشارات زوار، 1367. ج1.

- كوربان، هنري: فلسفه ايراني وفلسفه تطبيقي (الفلسفة الإيرانيّة والفلسفة المقارنة). ترجمة جواد طباطبائي. تهران، انتشارات توس، 1369.
- كلينجر، أنفرد: مبانى پژوهش در علوم رفتارى (أسس البحث في العلوم السلوكيّة). ترجمة: حسن باشا شريفي وجعفر نجفي زند. تهران، آواى نور، 1374، ج1.
- كيفي ريمون وكومنهود لوك فان: روش تحقيق در علوم اجتماعي (منهج البحث في العلوم الاجتماعيّة). ترجمة عبد الحسين نيك كهر. تهران، فرهنك معاصر. 1370.
- المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار. بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ. ج6.
- موريس مرلوبونتي: در ستايش فلسفه (ثناء على الفلسفة)، ترجمة ستاره هومن، تهران، نشر مركز، 1375.
- مشهدي نوش آبادي، محمد: كلام جديد در ايران از دوره مشروطه تا انقلاب إسلامي (علم الكلام الجديد في ايران منذ المشروطة حتّى الثورة الاسلاميّة). قيد النشر.
- مصباح اليزدي، محمد تقي: تعليقة على نهاية الحكمة. قمّ ، مؤسسة في طريق الحق. 1405هـ.
- مصدق: مقدمه اى به روش تحقيق (مدخل الىٰ منهج البحث). كرمان، مؤسسه هاى مديريت كرمان، ب. ت.
- مطهري، مرتضى: مجموعه آثار (الأعمال الكاملة). ج6. تهران، انتشارات صدرا، 1371.
- مطهري، مرتضى: مجموعه آثار (الأعمال الكاملة)، تهران، انتشارات صدرا، 1373.
- نادري بور، محمود: برنامه ريزي وكنترل بروژه (خطّة المشروع وتوجيهه). تهران، انتشارات سازمان برنامه وبودجه. 1372.
- نويا، بول: تفسير قرآني وزبان عرفاني (التفسير القرآنيّ ولغة العرفان). ترجمة اسماعيل سعادت. طهران، مركز نشر دانشگاهي. 1373.
- هاري، ولفسن: دو اصطلاح تصور وتصديق در فلسفه اسلامي (اصطلاحا التصوّر والتصديق في الفلسفة الاسلاميّة). ترجمة احمد آرام. طهران، 1353.
- هيك، جون: فلسفه دين. ترجمة بهرام راد (سالكي). تهران، انتشارات بين المللي الهدى، 1372.
- هلتون، ملكم: جامعه شناسي دين (علم اجتماع الدين). ثلاثة مترجمين. تهران، تبيان. 1375.
- يونغ، كارل: غوستاف. روان شناسي ودين (الدين وعلم النفس). ترجمة فؤاد روحاني. تهران، شركت سهامي كتابهاي جيبي، 1370.

2: الدوريّات

- ابراهيمى، دينانى : «حكمت متعاليه در آينه حديث» (الحكمة المتعالية في مراة الحديث). خردنامه صدرا، شماره 10، زمستان 1376.
- اسفندياري: «از هر خدا منويس (نويسندگي در روزگار ما)» (الكتابة في زماننا). مجلة آينه بژوهش، شماره 33، 1374.

- حائري يزدي، مهدي: «درآمدی بر اسفار» (مدخل إلى الأسفار). مجلة ايران شناسی، سال جهارم، شماره 4، زمستان 1371.
- خامنئي، سيد محمّد: «نگاهي به زندگي، شخصيت ومكتب صدر المتألهين» (حول سيرة صدر المتألهين وشخصيّته ومدرسته). خردنامه صدرا، شماره 8 و9، تابستان وباييز 1376.
- الدواني، جلال الدين: نهاية الكلام. تصحيح وتقديم: أحد فرامرز قراملكي. مجلة: نامه مفيد، شماره 5، 1357.
- ذكاوتی قراكوزلو، عليرضا: «انتقاد ملاّ صدرا در عصر حاضر» (صدر المتألّهين في النقد المعاصر)، كيهان فرهنكي، سال هشتم، شماره هفتم.
- سروش، عبد الكريم: «حكمت در فرهنگ اسلامی» (الفلسفة في الثقافة الإسلاميّة). دانشگاه انقلاب، دوره جديد، شماره 98-99.
- عليزاده، بيوك: تمايز ماهيت مكتب فلسفي ملا صدرا از ديكر مكاتب (تمييز طبيعة المذهب الفلسفيّ لملاّ صدرا، من سواه من الاتّجاهات)، خردنامه صدرا، شماره 10، زمستان 1376.
- فرامرز قراملكي، أحد: تبكيت بيرون آفت گفتگوي اثر بخش. (الإفحام من خارج الدائرة يقوّض الحوار المثمر). مقالات وبررسيها، ع68، 1379.
- فرامرز قراملكي، أحد: كتابشناسي توصيفي تحول معرفت ديني (ببليوغرافيا وصفيّة لتكامل الفكر الدينيّ). كتاب نقد. زمستان 76-بهار77. شماره 6-5.
- فرامرز قراملكي، أحد: «معمای جذر اصم در حوزه فلسفي اصفهان» (لغز الجذر الأصمّ في مدرسة إصفهان الفلسفيّة). خردنامه صدرا، شماره 11، بهار 1377.
- فرامرز قراملكي، أحد: «معمای جذر أصم در حوزه فلسفی شيراز» (لغز الجذر الأصمّ في مدرسة شيراز الفلسفيّة). خردنامه صدرا، شماره 4، تير 1375.
- فرامرز قراملكي، أحد: «معمای جذر أصم نزد منطق دانان قرن هفتم» (لغز الجذر الأصمّ عند مناطقة القرن السابع). المصدر السابق، شماره 7، بهار 1376.
- فرامرز قراملكي، أحد: مفاهيم غير محصل ومنطق ماهيات: تأملي در مقاله قضيه معدوله ومحصله. مجلة مقالات وبررسيها. ع62، 1376.
- فرامرز قراملكي، أحد: موضوع كلّ علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتيّة. مجلّة مقالات وبررسيها، ع53-54. 1371-1372.
- قرباني، نيما. روان شناسی دين: يك روی آورد علمی چند تباری (علم نفس الدين: اتّجاه علميّ متعدّد الأصول). قبسات، شماره 8-9. سال 1377.
- قرباني، نيما: «روانشناسي دين: يك روی آورد علمي جند تباری» (علم نفس الدين: اتجاه علميّ متعدّد الأصول). قبسات، شماره 2 و3.
- لغنهاوزن، محمد: اقتراح. مجلة نقد ونظر، شماره2، بهار 1374.
- مجتهدي، كريم: «ملا صدرا به روايت هانری كربن» (صدر المتألّهين كما تحدّث عنه هنري كوربان). خردنامه صدرا، شماره 8-9، 1376.

- موحد، ضياء: برهانهای زبان بنياد (البراهين القائمة على أساس لغويّ). مجلة زبان شناسي، سال أول، شماره دوم.
- واطسون، بل، ونيما قرباني: روان شناسی دين در جامعه مسلمين (علم نفس الدين في الأوساط الاسلاميّة). ترجمة بونه بناكار. قبسات، شماره 8-9. سال 1377.

3: المصادر الأجنبية

- Allen Douglas, "Phenomenology of Religion", The Encyclopedia of Religion, Paul Edwards editor in chief, New York, 1987, Vol.11.
- Ayer, A. J. Language, Truth, and Logic, New york: Pover Booles, 1952.
- Bacon, Francis. The New Organon, ed. By Fulton H. Andersen, New York, 1980.
- Copi, Irving, Introduction to Logic, Macmillan Publishing Co., New York, 1927.
- Corbin, H, "La place de Molla Sadra Shirazi dans La philosophre iranienne", Studia Islamica, G.P.Maisonneuve, Larose, Paris, 1962.
-Davis Winston, Sociology of Religion, The Encyclopedia of religion, P. Edwards (ed.), 1987, Vol. 13.
- Feyerabend, Paul, Against Method, London, 1988.
- Ghorbani, N (2000) Cross-Cultural Comparison of Self-report mystical experience. Paper presented at 51 annual meeting of society for the Scientific Study of Religion, Huston, Texes.
-Hood, R. W. (1996), The Psychology of Religion, New York, Guilford Press.
- Kalish Ronald, "Semantics", The Encyclopedia of Philosophy, Paul Edwards ed. in chief, London, 1967.
- Kenny Anthonny. What is Faith? Essays in The Philosophy of Religion, Oxford University Press, 1992.
- Kretzman, Norman, "History of Semantics", Ibid.
- Mitchell, Basil (ed.), The Philosophy of Religion, Oxford University Press, 1986.
- Ricoeur, Paul, Hermeneutics and The Human Science, Cambridge University Press, 1982.
- Robinson, Richard, Definition, oxford, 1927.
- Sellars w. & Hospers J. (ed.), Readings in Ethical Theory, Englewood Cliffs, New Jersey, 1960.
- T. Schmi, Richard, "Phenomenology", The Encyclopedia of Philosophy, Paul Edwards (ed.) Vol 6.

- Watson, P. T., Morris, & Hood, R. W. , Religion and Rationality: Comparative analysis of Rational- Emotive and Intrinsically Rationalities, Journal of Psychology and Chrisitionaity.
-Wulf. D, Psychology of Religion: Classic and Contemporary, New York, 1991.

الفهرس

مقدّمة المعهد 9
مقدمة المترجم 13
مقدمة الطبعة العربية 21
مقدمة المؤلف 25

الفصل الأول
البحث: الماهية والمرتكزات

مدخل 33
أهمية تحديد المفهوم 37
نماذج لتعريفات (البحث) 38
ستة مرتكزات للبحث 39
1- المعلومات 41
أ: معلومات، لا معطيات 41
ب: المعلومات ذات الصلة بالموضوع 41
جـ: معلومات كافية ومتكاملة 43
د: صدق المعلومات 45
هـ: الدقة في المعلومات 46
و: الوضوح والتحديد في المعلومات 47
ز: معلومات حديثة 51
ح: معلومات موثقة 52
ط: عدم توفر المعلومات، معلومة في حد ذاته 55
2- المعالجة 56
3- التنظيم 58
4- الاختصاص بنطاق محدد 59
5- الهوية العامة 61
6- الإبداع 62

الفصل الثاني

مجالات البحث الديني

مدخل 67
ماهية الأبحاث الدينية 73
الدراسات الدينية: مجالات متنوعة 74
ترتيب مجالات البحث الديني 75
القراءة التقليدية للدين 77
القراءة التقليدية 80
القراءة الجديدة 84
المجالات الهامة في البحث الديني 87
العلاقة بين مجالات البحث الديني 92
إيجاز لما مر 94
تمرين 97

الفصل الثالث

الجدوى في مشروع البحث

مدخل 101
إدارة برنامج البحث 107
الإدارة التنفيذية 109
الإدارة العلمية 111
1- تحديد الهدف 112
الهدف: عوامل دخيلة في التحديد 116
2 - مقاربة المسائل 117
3- تقديم فرضية البحث 118
4- تحديد الاتجاهات المساعدة 119
5- تعيين مقياس وأسلوب لتقييم المعلومات 119
6- تحديد منهج التحليل 120
7- تقييم البحث 121
تقييم جدوى البحث 123
أ: التقييم المسبق 126
ب: التقييم أثناء البحث 129
جـ: التقييم اللاحق 130
ايجاز لما مر 132
تمرين 133

الفصل الرابع

البحث المتجه حول مسألة

مدخل 136
التفاوت في البنية بين نمطي البحث 142
جدوى البحث الدائر حول المسألة 145
خصائص المسألة 150
عملية طرح المسألة 153
1- مواجهة المشكلة 154
2- تحويل المشكلة إلى مسألة 154
3- التحليل 155
4- حالات التركيب 157
5- تحديد النمط 160
6- تحليل البنية المنطقية 163
الموهبة في اكتشاف المسائل 164
تمرين 167

الفصل الخامس

التعريف والوصف

مدخل 170
منهج التعريف: مدخل تاريخي 174
المعنى والتعريف ومقياس التحديد 176
التعريف 179
قواعد استراتيجية في التعريف 187
الوصف 191

الفصل السادس

التبرير والتفسير

مدخل 196
التبرير 200
مبررات قبول الزعم 205
قواعد استراتيجية في عملية التبرير 207
مغالطة "أخذ ما ليس بعلة، علة" 212
التفسير 221
قواعد استراتيجية في عملية التفسير 224

الفصل السابع

المناهج والاتجاهات

مدخل 232
تنوع المناهج والاتجاهات 236
ترتيب المناهج 238
الاتجاهات الدينية الجوانية 239
إيضاح لغوي: 239
البحث الجواني: المناهج والأدوات 241
التفسير، التأويل 242
التفسير، التحميل 244
التفسير ترتيبي وموضوعي 244
التفسير بالمأثور بالمعنى الأعم، وبغير المأثور 245
السيمنطيقا 245
الهرمنيوطيقا 249
المنهج التفاعلي 252
نطاق الدراسات الجوانية 252
قواعد استراتيجية في البحث الجواني 254
اتجاهات البحث البراني 256
الاتجاه التحليلي - المنطقي 257
تحليل المفاهيم 259
تحليل القضايا 261
1- تحليل البنية المنطقية 262
2- تحليل البنية اللغوية 264

الفصل الثامن

الدراسات التاريخية

مدخل 268
طبيعة البحث التاريخي 272
تصوران للحدث التاريخي 275
تصوران للمعرفة التاريخية 276
أهمية البحث التاريخي 279
جوانب الحاجة إلى البحث التاريخي في الدراسات الدينية 281
عملية البحث التاريخي 283
1- سياق الوصف 283

2- سياق التفسير 286
أخطاء البحث التاريخي 288
تمرين 293

الفصل التاسع

الدراسات المقارنة

مدخل 298
ماهية البحث المقارن 302
دور البحث المقارن 305
تحديد نطاق المقارنة 306
عملية البحث المقارن 309
حالات الاشتراك والتباين الحقيقيين 314
من المقارنة الشكلية إلى جوانب الخلاف والوفاق: مناهج النقلة 314
1- السؤال الرئيسي والثغرات المعرفية 314
2- التاريخ والإطار المعرفي 317
3- المبادئ 318
4- الأدلة، الاتجاهات والمناهج 319
5- اللوازم، المعطيات والنتائج 321
6- البدائل، النظائر والنقائض 321
7- البارادايم والمنظومة الفكرية 322
8- تفسير حالات الاشتراك والتباين 324
إيجاز لما مر 326

الفصل العاشر

ظاهريات الدين

مدخل 329
ما هي الظاهريات؟ 335
الظاهريات: نطاق الجدوى 339
أزمة فكرية 340
الاختزالية 341
مناهج الظاهريات في البحث الديني 345

الفصل الحادي عشر

البحث الديني التجربي

مدخل 350
الاتجاه التجربي في الأبحاث الدينية 352
البحث التجربي: الخصائص المعرفية 353

طبيعة البحث الديني التجريبي 359
خطوات البحث الديني التجريبي 360
1- تنظيم مسألة البحث 360
2- صياغة الفرضية 361
3- اختبار الفرضية 363
4- التحليل الإحصائي 364
5- تعميم النتائج وعملية التنبؤ 365
6- بلورة النظرية 366

الفصل الثاني عشر

الدراسات البيتخصصية

مدخل 373
الحصرية المنهجية 377
الاختزالية نتيجة للحصرية 381
إخفاق الظاهريات في معالجة الاختزالية 383
الدراسات البيتخصصية برنامج وقائي 385
تعريف الدراسات البيتخصصية 386
أهمية الدراسات البيتخصصية في البحث الديني 393
نموذج للدراسات البيتخصصية في التراث الإسلامي 396
فلسفة صدر المتألهين: الموضوعية المعرفية 396
1 - التلفيق 397
2- فلسفة توفيقية 399
4- فكر كلامي - فلسفي 402
5- الحكمة المتعالية: التوفر على لغة أفضل 404
6 - الحكمة المتعالية: تنوع الأدوات في سياق الاكتشاف 405
7- الحكمة المتعالية: أبعاد معرفية جديدة 406
8- الحكمة المتعالية: اتجاه بيتخصصي 407
تلخيص لما مضى 410
المصادر 411
الفهرس 419